دار الثقافة

الملحمة الإلهية

الدكتور نبيل راغب



دار الثقافة

الملحمة الإلهية

د. نبيل راغب



طبعة أولى

صدر عن دار الثقافة ــ ص.ب ١٢٩٨ ــ القاهرة

١٠ / ٤٧٤ ــ ط١ (أ)/ ٥ ــ ٥ / ٩٠

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٢٩ / ١٩٩٠

دولى : 977 - 213 - 005 - X.

طبع بمطبعة بدار الجيل للطباعة .

مقدمه

لقد ظلت الأساطير الأغريقية معينا لا ينضب وإلهاما دافقا للكثيرين من الكتاب والفنانين .. وما هذه الأعمال التى تركها لنا الكثيرون سواء من مسرحيات أو محاورات أو أعمال موسيقية .. تخلب لب الانسان وتضيف اليه الكثير من الحكمة .. ما هى إلا بعض ما استوحوه من تلك الأساطير .

إن الفن ـــ فى أصوله ـــ وإن اختلفت صوره وتعددت أشكاله هو البحث عن القيم وإلقاء الضوء عليها ، لتأصيلها فى فكر الانسان ووجدانه . كما أن الفن يتغلغل فيما وراء الصور الى المعانى الروحية ويجعل الانسان يسمو بروحه ويرتفع فوق الماديات . فالفن تجسيد لمعانى الحياة ..

ان كان للأساطير الاغريقية دور فى الحياة الثقافية للانسان المعاصر مرورا بالعصور السابقة . فهل كان للأحداث الحقيقية والمعانى الروحية التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس التأثير المناسب فى عقول المثقفين ممن أمنوا به ؟

لقد تأثر دانتى فى (الكوميديا الالهية) ، وجون ملتون فى (الفردوس المفقود) كما تأثر كثيرون من كبار الموسيقيين به الى جانب غيرهم من عظماء الرسامين أمثال ما يكل انجلو وليوناردو دافنشى ...

فالكتاب المقدس يظل نبعا فياضا يرشف منه الانسان ليروى ظمأه الروحى والفكرى فى بيداء الحياة مما يعينه على تحمل قسوتها بل ولتكون له الحياة الأفضل .

ويسر دار الثقافة أن تقدم للقارىء العربى هذه الملحمة التى قام برسم لوحاتها بريشته الدكتور نبيل راغب ليصحبنا بدورنا شهود عيان فى تلك الملحمة التى ترجع الى بداية الخليقة وحتى نصل الى العهد الجديد فى رحلة ممتعة بحق .

اننا نقدم للقارىء العربى هذه التحفة الفنية التى أخذت صورها وأحداثها من الكتاب المقدس .

دار الثقافة

هذه الملحمة

فليسمح لى القارىء العزيز أن أصارحه بأن كتابة هذه الملحمة كانت تراودنى منذ سنوات بعيدة ، بل كانت تلح علىّ كلما قمت بتدريس ملحمة « الكوميديا الإلهية » للشاعر الإيطالى دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) وملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر الانجليزى جون ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) لطلبتى فى الجامعة وأكاديمية الفنون . فقد قسم دانتى ملحمته الى ثلاثة أقسام ، قام فى القسم الأول بزيارة الجحيم وفى الثانى : المطهر وفى الثالث : الفردوس . وكان دليل دانتى فى الجحيم هو الشاعر فيرجيل ، أمّا دليله فى الفردوس فهو بياترس حبيبة دانتى التى اتخذ منها رمزا للتأمل فى الالهيات أو للمعرفة اللدنية . وفى رؤيا الفردوس رأى دانتى قبة السماء وهى بيضاء ، ورأى فيها « سراج العالم » أى الشمس تسطع على العالمين ، ورأى بياترس دليلته ، تلتفت الى الجانب الأيسر وتحدق فى الشمس وكأنها نسر لا يخاف الضياء ، وحدق هو فى بياترس مثلما حدقت هى فى الشمس . ولطول التحديق فى ضياء بياترس سقطت عن دانتى طبيعته البشرية وتحول الى جوهر بغير ناسوت . وكما نزل دانتى تسع طبقات من هاوية الجحيم حتى بلغ قاع جهنم فى مركز الأرض حيث رأى ابليس مغروسا كالتنين الهائل ، كذلك صعد إلى السماء التاسعة حسب قوله — حتى بلغ « الامبريوم » أو سماء العنبر التى تقع فيها السماء البللورية حيث « المحرك الأول » كما يقول دانتى .

أما جون ملتون فى ملحمته « الفردوس المفقود » التى نشرها عام ١٦٦٧ فقد اتخذ من آدم وحواء بطلين ، جسد فيهما صراع الخير والشر منذ بدء الخليقة ، وجعل هذا الصراع شاملاً لتصوره الخاص عن العقيدة الدينية ، متأثراً فى ذلك بدانتى فى « الكوميديا الإلهية » اذ أن ادم وحواء ليسا مجرد شخصيتين ذكرتا فى « سفر التكوين » ، وانما هما نموذجان للبشر الذين يعيشون فى كل زمان ومكان . لكن تظل ملحمة ملتون أبعد ما تكون عن الحياة اليومية للانسان ، فليس بها شخصية بشرية واحدة ، ومكان الأحداث غريب كل الغرابة ، بل إن ملتون يستخدم خياله فى أن يجعله مخالفاً لكل ما يعرفه الإنسان على الأرض ، وإن كان قد حاول إسباغ الطابع البشرى على تصوراته للجحيم والعماء ، وجعل إبليس فى حالة خداع مع نفسه منذ البداية ، وحالة غباء

تدفعه إلى رفض الحقيقة ، فحدة الذكاء لديه تصبح غباء ، واعتداده بنفسه وبمنزلته بين الشياطين يتحول إلى كبرياء أجوف .

لكن تظل الحال سواء بالنسبة لدانتي أو ملتون محصورة فى دائرة الخيال البحت ، مما كان يدفعنى دائماً الى التساؤل : لماذا اللجوء الى الخيال البحت فى التجسيد الفنى لهذه المضامين الدينية والعقائدية ، ونحن لدينا أروع وأبهى ملحمة الهية وقعت على أرض الواقع منذ ألفى عام ؟ ! وتنطبق عليها كل المواصفات الفنية للملحمة ؟ ! وفى مقدمة هذه المواصفات أنها عمل أدبى زاخر بالشخصيات البطولية المبهرة التى لا تتأثر بقدر ما تؤثر فى الآخرين وتغير حياتهم ، والأحداث المصيرية الهائلة التى تشكل نقطة تحول فى تاريخ الأمم ، والأعمال الخارقة التى ترتفع كثيراً فوق مستوى حياة البشر العادية .

وهى المواصفات التى تنطبق على الملحمة الإلهية التى عاشتها البشرية بالفعل على أرض الواقع منذ ميلاد يسوع الناصرى فى بيت لحم وحتى صعوده الى السموات من بيت عنيا ، وان كانت بداياتها تمتد لتصل الى بداية الخليقة عندما ارتكب آدم الخطيئة الأولى وطرد من الجنة عقاباً له عليها . وهى ملحمة لا تحتاج الى خيال بقدر ما تحتاج الى تجسيد فنى باللوحات التعليمية ، والألوان الموحية ، والمواقف المصيرية ، والصراعات الخفية والظاهرة ، والأساليب الشعرية ، وكل ما من شأنه أن يجعل حياة يسوع على الأرض ، تجربة سيكولوجية ممتعة لكل قارىء على حدة ، وبذلك يصبح أكثر قرباً وأشد إلتصاقاً بشخصية يسوع الجذابة الآسرة . خاصة وأن الفن يملك القدرة على التسلل المريح والمثير داخل القارىء لأنه يثير أحاسيسه المرهفة العميقة ثم يقوم بتنظيمها ، وذلك على النقيض من الوعظ المباشر الذى يجد فيه المستمع نفسه وقد تحول الى تلميذ يتلقى درساً فى الأخلاق على يدى الواعظ . ومن هنا كان أثر الفن أعمق وأنضج وأبقى وأشمل من تأثير الوعظ فى نفوس المتلقين .

واذا كان الواقع أروع وأبهى من الخيال ، فان هذا لا يعنى أن هذه الملحمة كانت عملاً أدبياً يسهل تأليفه . صحيح أن المضمون بكل تفاصيله الدقيقة قد ورد فى الأناجيل التى كتبها متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، لكنهم كتبوها بصفتهم شهود عيان ومؤرخين للمواقف الإلهية والأحداث الملحمية التى

جرت ، أى أن التسجيل التاريخى ، وليس التجسيد الفنى ، كان هدفهم . وبالتالى كان علينا فى هذه الملحمة ، حل هذه المعادلة الصعبة : إقامة هذا البناء الملحمى الذى لابد أن يليق بجلال الموضوع وقداسته وذلك فى الحدود التى رسمها هؤلاء التلاميذ والرسل العظام . أى أننا لم نلجأ الى الخيال إلا فى النقاط التى تسهل تسلسل السياق السردى ، وبدون الخروج عن الإطار العام المحدد فى الأناجيل .

هذا على مستوى السرد والوصف والتشكيل وتتابع المشاهد وتسلسل المواقف ، أما على مستوى الحوار فقد التزمنا التزاماً حرفياً بالحوار الوارد فى الأناجيل ، وأيضاً فى بعض جزئيات السياق السردى والخليقة الوصفية حتى نحتفظ بقدر الإمكان بعبق العراقة والأصالة التاريخية والقداسة الدينية ، وحتى يستوعبها القارىء كعنصر من عناصر المتعة الفنية ، وذلك عندما يجد التسجيل التاريخى القديم وقد تحول الى مسرح حافل بالأحداث الساخنة والمواقف الملتهبة والشخصيات المتصارعة والأقدار المتضاربة والآمال المرتقبة والآلام المحتملة والمآسى الدامية وغير ذلك من العناصر التى شكلت أخطر وأروع نقطة تحول ، لم ولن تشهد البشرية جمعاء مثيلاً لها من قبل أو من بعد ..

كذلك كان من أسباب تأليف هذه الملحمة أن الأدب لم يستفد من هذا الواقع المقدس المبهر الذى عاشته الإنسانية بالفعل ، كما استفادت الفنون التشكيلية فى أعمال ليوناردو دافنشى ومايكل أنجلو ورفاييل ورمبرانت والجريكو وتيسيان ودوناتيللو وغيرهم كما استفادت الموسيقى فى أعمال باخ وهايدن وهاندل وغيرهم خاصة فى القداسات التى كتبوها للكورال والأوركسترا . بل إن معظم هؤلاء الفنانين بدأوا حياتهم في الكنيسة ، ومن هنا كان التصاقهم بالواقع الدينى كما ورد فى الأناجيل الأربعة ، أما الأدب فقد هرع الى شطحات الخيال التى حملته بعيداً عن هذا الواقع المعجز كما وجدنا فى انجازات دانتى وملتون وغيرهما ممن كتبوا القصائد والملاحم الدينية ، وبالتالى كانت أصداء هذا الواقع المقدس خافتة وشاحبة فى أعمالهم الشعرية .

وقد حاولت هذه الملحمة أن تسد هذا الفراغ فى مجال الأدب ، ولذلك اتبعت الأسلوب الكلاسيكى الذى يعتمد على المعمار الفنى الضخم لعله يليق بجلال هذا المضمون المقدس الذى وقف مؤلف هذه الملحمة أمام جلاله وهيبته

حائراً ، مذهولاً ، خاشعاً ، مبهوراً ، عاشقاً ، منتشياً ، مهللاً ، مسبحاً بالضياء الإلهى الغامر ، والذى يرجو أن تكون هذه المحلمة قبساً منه

نبيل راغب

(١)

فى البدء خلق الله السموات والأرض . وجبل الله آدم تراباً من الأرض ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية ، ثم غرس الله جنة فى عدن شرقاً ليتنعم فيها آدم وسط الأشجار ذات المنظر الشهى المتدفق بكل ثمار الحياة السارية مع النهر القادم من عدن ليسقى الجنة الوارفة الظلال والصادحة بتغريد الطيور وتسبيح الملائكة .

وسط الأشجار الفارعة بخضرتها الزاهية ، وأوراقها المتمايلة مع نسمات الجنة بحفيفها الهامس بأرق ألحان الحب الإلهى ، وثمارها المتراقصة بألوانها الحمراء والصفراء والخضراء التى تحيط بشهدها المتفجر والسائل على بعضها ، وسط هذه البقعة الخلابة المبهرة للعين بألوانها وظلالها ، وللأذن بأصدائها الكونية الساحرة ، وللأنف بأريج زهورها وعطر ورودها ، وللفم بمذاق ثمارها وشهد فاكهتها ، قبعت شجرة غير كل الأشجار . شجرة كأنها حورية بزغت من تراب الأرض تجذب إليها العين والأذن والأنف والفم والذراع . تحيطها هالة لبنية من غموض مثير إندس بين ثمار التفاح القانية المتدلية من صدرها الأخضر الناهد ، فتنة للآكلين وخمراً للشاربين . كانت شجرة معرفة الخير والشر .

تدفق الحب الإلهى فغمر آدم الذى أوصاه الله بحفظ جنة عدن التى خلقها له ، وله أن يتمتع بالأكل من جميع شجر الجنة ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا يأكل منها ، لأنه يوم يأكل منها موتاً يموت .

هبطت الكلمات الربانية إلى أعماق آدم فسرت فيها بالنشوة السرمدية ، وخر ساجداً مسبحاً بمجد الله ، سابحاً بين طيات المياه البللورية الغائرة بعطور نهر عدن . ومع ذلك كانت أعماق آدم تجيش بخاطر غامض ، مثير ، مقلق . لم يدرك كنهه ، ولم يلمس سره ، ومع ذلك طارده على ضفاف نهر عدن ، وحول جذوع الأشجار ، وبين خطوط الزهر ودوائر الورد ، ومع خيوط الضياء الفضى ، وفى طيات النسمات العطرة ، ومع أحلام الاسترخاء عند

الظهيرة على فراش العشب الندى اللامع بخضرة نورانية حيث كان يتمدد بجسده الفارع الممشوق الجميل ، فى حين كانت نظراته الثاقبة تشق بوميضها خط الأفق البعيد بحثاً عن ذلك الشيء الغامض ، المثير ، المقلق ، وكأن جسده كله على وشك أن يطير للقائه ، لكن بلا جدوى .

قال الله ليس جيداً أن يكون آدم وحده ، فأصنع له معيناً نظيره . أوقع الله سباتاً على آدم فنام . فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً ، وبنى منها امرأة وأحضرها الى آدم . فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أخذت . لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً . وكانا كلاهما عريانين ، آدم وامرأته وهما لا يخجلان .

اكتملت نشوة آدم فخر ساجداً مسبحاً بنعم الرب الإله الذى منحه — دون أن يطلب — توأم روحه ورفيق جنته ، تلك المخلوقة الساحرة كالطيف السارى حوله فى غدواته وروحاته . لم يكن يدرك أن كأس الحياة شهية هكذا ، مترعة بمباهج لم يكن يهفو إليها بوجدانه ، فوارة بحرارة القلب المقدس ، مهتزة بأكسير الخلود .

وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله . وجد فيها إبليس خير رسول له إلى حواء كى ينتقم لمجده الضائع عندما هوى من مجده لكبريائه الشيطانى تلاحقه لعنة الأبد . لقد ملأه الحقد الأسود عندما رأى الإنسان يتقلب فى نعيم الرب ، وهو المخلوق البشرى الذى لا يرقى إلى مرتبة الملائكة . كان إبليس يعلم أنه لو بذر بذرة الكبرياء فى أعماق الإنسان لدفعته إلى أن يعرف ما يجب ألا يعرفه ، وأن يقفز متجاوزاً حدوده البشرية ، حتى لو كانت قفزته فوق ألسنة اللهب المتراقصة فى فوهة الجحيم .

استرخت حواء إلى جانب آدم الذى راح فى اغفاءة منتشية بأطياف الجنة التى بدت بشائرها على الإبتسامة الطفولية التى افترشت صفحة وجهه الصافية النقية وعينيه المغمضتين فى براءة وطمأنينة تحتويان الوجود كله . نظرت إليه حواء فى حنان دافق مع خرير المياه البللورية بين ثنيات نهر عدن ، وقد انطرح شعرها البنى اللامع بجدائله المتماوجة على وميض العشب الأخضر . طارت

فوقها البلابل بتغريدها المفعم بأريج النسيم المعطر بنفحات الزهور المتماوجة يمنة ويسرة مع خيوط الضياء الفضية والذهبية .

تثاءبت حواء وقد امتلأت عيناها بشجر الجنة الذى تراقصت ثماره الحمراء والصفراء والوردية البضة إستجابة لمداعبات النسيم الذى لا يريد أن يتوقف عن شقاوته العذبة . سبحانك ربى . خلقت الجمال كله حتى لا تقع عينا مخلوقك على قبيح . الجمال الذى كانت حواء ومعها آدم جزءا من مشاهده التى تتواتر فى إبداع وإعجاز لا يملك معهما المخلوق البشرى سوى أن يفتح أحضانه الدافئة بدماء الحياة ، وذراعيه المرطبة بنبض الحب كى يحتويه فى وحدة متفجرة بنشوة تغرقه فى موجاتها النابعة من الأزل ، فى طريقها الى الأبد .

لكن عينى حواء انجذبتا إلى تلك الشجرة الفريدة بثمارها التى لا تقاوم ، فكانت بهجة لعينيها . كانت شجرة معرفة الخير والشر . ما هذا السحر الغامض ، المثير ، المخيف المتدفق من بين فروعها وأوراقها وثمارها ؟ ! كيف تكون شجرة الموت ، ونبضات الحياة فى عصارتها تكاد تصل الى أذني حواء ؟ !

زحفت الحية بجلدها اللامع الأرقط ببقعه السوداء ذات الحواشى الذهبية على بساط العشب الندى الذى لم تعبأ بأنينه تحت خذعها المتماوج المشدود . كانت عيناها المتلصصتان لا تحيدان عن تلك المخلوقة الجميلة الرائعة المسترخية والمتثائبة على ضفة نهر عدن . أنصتت حواء إلى حفيف العشب الذى أخذ فى الاقتراب ثم الالتصاق فإذ بها تجد الحية وقد استرخت إلى جوارها تاركة لسانها يتدلى من بين أنيابها البيضاء المتألقة بلعابها السائل على فكيها .

لم تنزعج حواء فلم تكن تعرف الخوف ، ولم يكن قلبها ينبض إلا للنشوة والبهجة . أدارت الحية لسانها فى حلقها ثم أخرجته لتتساقط منه قطرات السم الشفاف الزعاف فى فحيح متسائل فى خبث :

ــ أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ !

استدارت حواء جالسة فى مواجهة الحية ، وشهوة المعرفة ينسال مع نظراتها :

ـــ من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولاتَمَسّاه لئلا تموتا !

تلوت الحية حتى تراصت طبقاتها فيما يشبه الدائرة ثم رفعت رأسها فى كبرياء واعتداد بالنفس :

ـــ لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر !

تسللت نظرات حواء إلى الشجرة الفارعة القابعة فى قلب الجنة فرأتها جيدة للأكل ، وبهجة للعيون بل وشهية للنظر . تقطرت السعادة مع لعاب الحية عندما تأكدت أن السم قد سرى مفعوله فى أذن حواء ، فمدت جذعها الملتوى وعادت للزحف على بطنها اللزج الملتصق بندى العشب الطرى الغض حتى اندست بين شجر الجنة ليختفى ذيلها الضارب إلى اليمين واليسار ، وأصداء فحيحها الزعاف تتردد فى أذان حواء فتصيبها بحذر مخيف ودوار مرعب دفعاها إلى إيقاظ آدم من غفوته المنتشية . نظر آدم حوله وآثار النعاس المطمئن تنداح من على وجهه فاذ بحواء تسير كالنائمة صوب الشجرة والأصوات تختلط فى مسامعها : « من ثمر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي فى وسط الجنة فلا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا .. لن تموتا .. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر .. »

وقفت حواء تحت فروع الشجرة وثمارها : « تموتا .. لن تموتا .. تموتا .. لن تموتا .. لن تموتا » . رفعت ذراعها إلى أقرب تفاحة طافحة بلون الدم القانى وسط خضرة الأوراق اليانعة ثم تركت ذراعها تسقط وهى تنظر حولها في خوف يسرى من أطراف عروقها كى يتربع على عرش قلبها . نظرت خلفها فوجدت آدم يرقبها دون أن تنبش شفتاه بكلمة . تعلقت عيناها بالتفاحة القانية التى تحاكى لون شفتيها اللتين تحاولان منع لعابها الغزير من أن يسيل ويتدفق . ومضت نظراتها فى عزم متجدد رفع ذراعها لتقطف الثمرة الدانية التى قاومت أناملها الرقيقة فى المرة الأولى ثم استسلمت لها عندما أعادت الكرة لتقبض عليها بكل كفها مستمتعة بملمسها اللامع الناعم . سال لعابها مع نظراتها فقضمت قضمة سرت بطعم الشهد فى كل أرجاء كيانها فلم تملك سوى أن تعود لاهثة

إلى آدم بغنيمتها ليشاركها إياه فى قضمات وراء قضمات ، وإذا بهما يريان ما لم تقع عليه أعينهما من قبل . بدا جسداهما العاريان وحمرة الخجل تسرى فى وجناتهما مع تقطع خيوط الضياء الفضية والذهبية . لم يعرفا هذا العرى من قبل . أسرعا فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر والليل يرخى سدوله فى طبقات متكاثفة من الظلام الكئيب .

وسط طيات الظلام سمعا ضحكات كهزيم الرعد ، ولمحا جناحين سوداوين يصفقان بريشهما الطويل الجاف ، وشرر فى لون التفاحة القانية يتناثر من عينين غائرتين كآبار الجن ، وذيل طويل يكاد يقطع خط الأفق . ارتعشت حواء وكمنت فى صدر آدم الذى انتفض جسده كورقة يابسة فى وجه عاصفة عاتية . كانت ليلة لم يشهد الوجود أكثر منها سواداً .

عند هبوب ريح النهار جلجل صوت الرب الإله فى أرجاء الجنة : ـــ آدم .. أين أنت ؟ !

كان آدم لا يزال مختبئا مع امرأته من وجه الرب فى وسط شجر الجنة ، فخرج صوته مرتعشاً متقطعاً :

ـــ سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت ! تساءل الصوت الإلهى :

ـــ من أعلمك أنك عريان ؟ ! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ !

ـــ تقطعت أنفاس آدم اللاهثة مع قطرات العرق على جبينه :

ـــ المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت !

سأل الرب المرأة التى تمنت أن تنشق الأرض لتبتلعها :

ـــ ما هذا الذى فعلت ؟ !

لم تملك سوى أن تعترف :

ـــ الحية غَرّتنى فأكلتُ !

كانت الحية منتشية بانتصارها وقد التفت حول جذع شجرة الحياة . لكن النشوة لم تطل إذ سمعت صوت الرب :

ـــ لأنك فعلت هذا .. ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيَّام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عَقِبَهُ .

ثم عاد الصوت الإلهى يرن فى أذنى حواء :

تكثيراً أُكَثِّر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولاداً . وإلى رجُلِكِ يكون اشتياقك وهو يَسُود عَلَيكِ !

انتفض آدم وصوت الإله يجلجل فى مسامعه :

ـــ ولأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها .. ملعونةُ الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكُل عُشب الحقل . بَعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أُخذت منها ، لأنك تراب وإلى تراب تعود .

خرج طريد الفردوس مع امرأته ليعمل فى الأرض التى أخذ منها . وأقام الرب فى جنة عدن الكروبيم . سار آدم وحواء على درب الشوك المؤدى إلى الموت . امتزجت دماء الأقدام بالتراب الجاف . انقطعت الطريق إلى شجرة الحياة التى حرسها لهيب سيف متقلب . لكن ابتسامة غامضة سرت فى وجه آدم عندما مسحت عيناه جسد حواء فوجده بهجة للعيون ، وشهياً للنظر مثل شجرة الحياة التى أدت بهما إلى طريق الموت .

شعرت حواء بخدر غريب يسرى فى جسدها مع نظرات رجلها . كان جسده يتصبب عرقاً فتمنت أن تلتصق به بل وتفنى فيه . أمسك بيدها فتركتها

له فى استسلام لذيذ برغم هبات الرياح اللافحة التى لطمت عيونهما بتراب ناعم غطى الكون بغلالة داكنة فى طيات قاتمة .

(٢)

هكذا تمت ملحمة الخلق . لكن الخطيئة التى تسللت إلى أعماق النفس البشرية وأحراشها المظلمة سرت بالفساد لتلطخ سطور الملحمة بالأوحال التى تغطى طريق الموت . عمر البشر الأرض لكنهم لم يعرفوا السلام . ارتووا بأنهار الدماء التى أبت الأرض أن تتشبع بها . نسوا من أين أتوا وإلى أين يذهبون ، فقد غرقوا فى أمواج أيامهم المتلاطمة ، يتخبطون ضاربين بأذرعهم لاهثين ذات اليمين واليسار خلف غنائم ربما ألقوا بها جانباً حالما حصلوا عليها . فلم يحصدوا سوى الشوك والحسك ورياح العدم .

أعلن الرب غضبه من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم ، الذين يحجزون الحق بالاثم ، إذ معرفة الله ظاهرة فيهم ، لأن الله أظهرها لهم ، لأن أموره المنظورة ترى منذ خلق العالم ، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته ، حتى إنهم بلا عذر ، لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه ويشكروه كإله . أصبحت قلوبهم قطعاً من الظلام الحالك ، ووجدوا فى الجهل أقصى آيات الحكمة ، واتخذوا من الطيور والدواب والزحافات آلهة لهم ، فأسلمهم الله لشهوات قلوبهم النجسة وأهواء الهوان الذى سعوا اليه ، فاعلين الفحشاء ذكوراً بذكور وإناثاً باناث ، غارقين حتى آذانهم فى أمواه مظلمة عكرة من الإثم والزنا والشر والطمع والخبث والحسد والقتل والخصام والنميمة والتعاظم والمرارة واللعنة لأنهم لم يعرفوا خوف الله .

ومع ذلك فإن رحمة الرب أشمل وأعلى من الانتقام من جرائم مخلوقاته . لم يشأ لإبليس أن يرفرف بجناحيه الأسودين وضحكاته المتشفية كهزيم الرعد ، ونار عينيه القانية متأملاً ، مستمتعاً بما يرتكبه البشر من آثام . فاذا كان الانسان قد مُنح إرادة الاختيار وأساء استعمالها ، فإن رحمة الرب لم تشأ أن تحرمه هذه الإرادة التى لا تقوم بدونها مسئولية على كاهله ، بل شاءت أن تمنحه الخلاص حتى يتحمل مسئوليته كاملة بناء على إرادته واختياره .

وبدأت تلك السلسلة الذهبية الرائعة من أنبياء الرب الذين جاءوا يبشرون بالخلاص القادم وكأن عيونهم وبصائرهم قد تفتحت لترى الملحمة الإلهية وهى تكمل بعد ذلك بآلاف السنين . كان وحى بلعام بن بعور ، وحى الرجل

المفتوح العينين . وحى الذى يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلى ، الذى يرى رؤيا القدير ، ساقطاً وهو مكشوف العينين .

هكذا قال بلعام وروح الله عليه . نظر إلى البرية ثم رفع عينيه ورأى اسرائيل حالاً حسب أسباطه . نطق فى ضراعة الرؤيا المبهرة :

ــ ما أحسن خيامك يا يعقوب ، مساكنك ياإسرائيل . كأودية ممتدة كجنات على نهر .. كشجرات عُودٍ غرسها الرب ، كأَرَزَات على مياه .. يجرى ماء من دلائه ويكون زرعه على مياه غزيرة ويتسامى مِلِكُه على أجاج وترتفع مملكته . الله أخْرَجه من مصر ، له مثل سرعة الرئم . يأكل أمماً مُضايقيه ويقضم عظامهم ويحطم سهامه . مُباركُك مُبَارَكٌ ولاعِنُك ملعُونٌ .

لم يحتمل بالاق كلمات بلعام واشتعل غضبه مصفقاً بيديه فى صرخة لم يهتز لها بلعام :

ــ لِتشْتِم أعدائى دَعْوتُك .. وهُوذا أنت قد بَارَكْتَهُمْ الآن ثلاث دفعات . فالآن اهرُبْ إلى مَكَانِكَ .

لم يصمت بلعام بل أوقف بالاق عند حده :

ــ أكرمْك إكراماً .. وهوذا الرب قد منعك عن الكرامة .. اذا أعطيتنى ملء بيتى فضة وذهباً لا أقدر أن أتجاوز قول الرب لأعمل خيراً أو شراً من نفسى .. الذى يتكلمه الرب إيّاه أتكلمُ !

لم يكن بلعام غامضاً أمام بالاق إلا عندما قال وكأن الرؤيا عاودته :

ــ أراه ولكن ليس الآن . أُبصره ولكن ليس قريباً . يبرز كوكبٌ من يعقوب .. ويقوم قضيبٌ من إسرائيل فيحطم طرفى موآب ويُهلك كل بنى الوغى . ويكون أدوم ميراثاً ويكونُ سِعير أعداؤه ميراثاً . ويصنع إسرائيل بيأس . ويتسلط الذى من يعقوب ويَهْلكُ الشارد من مدينةٍ .

وعندما ترك بالاق بلعام طاردته أسئلة ملحة لم يلق لها جوابا : من هو الذى يراه بلعام ولكن ليس الآن ؟ ! من هو الذى يبصره ولكن ليس قريبا ؟ ! كيف يرى الإنسان شيئاً لم يوجد بعد فى لحظة الرؤية ؟ ! كيف يبصره وهو بعيد عن بصره ؟ ! وما هو الكوكب الذى سيبرز من يعقوب ؟ !

فكر بالاق فى العودة إلى بلعام لعله يجد عنده الإجابة الشافية لكن هاجساً أوحى إليه بأنه لن ينطق بأكثر مما قاله . سار بالاق فى طريقه التى أوشكت أن تضيع من تحت قدميه .

ترك بلعام بالاق وهو يتعجب آسفاً حزيناً لتلك القلوب المظلمة التى لم تر نور الله بعد . نور بزغ منذ أيام إبراهيم يوم قال الرب لإبراهيم : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة . وأبارك مباركك ولاعنك ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض .

جلس بلعام على ربوة خضراء عالية تطل على بحيرة صافية هادئة كنسمات الربيع . مد ساقيه ليريحهما من عناء المسير وهو يتأمل جمال البحيرة وحكمة الرب . هذا النور الذى أضاء به الرب قلب ابراهيم ، ينتقل من جيل إلى جيل حتى يحول إلى شمس ساطعة ستغمر الكون كله عند حلول المخلص . وها هو الرب يظهر لاسحق ويقول له :

اسكن فى الأرض التى أقول لك . تغرب فى هذه الأرض . فأكون معك وأُباركك لأنى لك ولنسلك أُعطى جميع هذه البلاد وأَفى بالقسم الذِى أقسمت لإبراهيم أبيك . وأُكثّر نَسْلَكَ كنجوم السماء وأُعطى نَسْلَكَ جميع هذه البلاد وتتبارك فى نسلك جميع أُمَمَ الأرضِ .

نهض بلعام مستأنفاً سيره الوئيد بحذاء البحيرة الوادعة وقد نظر إلى الأفق البعيد سارحاً فى روعة المنظر وقلبه المضىء يُسبح بنسل اسحق الذى سيتبارك بحلول مخلص جميع أمم الأرض . وهذا الخلاص لن يتم إلا بالفداء . فقد أمر الرب موسى بأن يقول لبنى قومه :

نَفْسَ الجسد هى فى الدم . فقد أعطاهم الرب إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم . لأن الدم يكفر عن النفس ، لأن نفس كل جسد دمه هو نفسه .

هذا المخلص الفادى هو ملك ونبى وإله . هكذا كلم الرب موسى :

ـــ متى أتيت الى الأرض التى يعطيك الرب الهك وامتلكتها وسكنت فيها فإن قلت أجعل علىّ ملكاً كجميع الأمم الذين حولى ، فإنك تجعل عليك ملكاً الذى يختاره الرب الهك . من وسط اخوتك تجعل عليك ملكاً لا يحل

لك أن تجعل عليك رجلاً أجنبياً ليس هو أخاك .

كذلك أوحى الرب لموسى بأن المخلص القادم نبى ، لكنه نبى من طراز مختلف . ذلك أنه إله ولابد أن تكون النبوة إحدى صفاته :

يقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلى . له تسمعون . حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلاً لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت . قال لى الرب قد أحسنوا فى ما تكلموا . أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه .

وخر موسى ساجداً مبتهلا للرب :

ـــ انصتى أيها السموات فأتكلم ولتسمع الأرض أقوال فمى . يهطل كالمطر تعليمى ويقطر كالندى كلامى . كالطل على الكلأ وكالوابل على العشب . إنى باسم الرب أنادى . اعطوا عظمة لإلهنا . هو الصخر الكامل صنيعه . إن جميع سبله عدل . إله أمانة لا جور فيه . صديق وعادل هو .

أما حنة أم صموئيل النبى فقد منحها الله إياه بعد طول انتظار كى يتمجد اسمه ويوحى بابنه القادم لخلاص البشرية كلها . فحين فطمته أصعدته معها ليتراءى أمام الرب ويقيم هناك إلى الأبد . أتوا بالنذر وذبحوا الثور وجاءوا بالصبى إلى عالى الكاهن ، حيث قالت له أمه فى ابتهال ووجد :

ـــ أنا المرأة التى وقفت لديك هنا تصلى إلى الرب . لأجل هذا الصبى صليت فأعطانى الرب سؤلى الذى سألته من لدنه . وأنا أيضاً قد أعرته للرب . جميع أيام حياته هو رعاية للرب . وسجد هناك للرب .

باركها الكاهن هى وابنها فخرت حنة ساجدة ولسانها يلهج بصلاة الحمد والشكر :

ـــ فرح قلبى بالرب . ارتفع قرنى بالرب . اتسع فمى على أعدائى . لأنى قد ابتهجت بخلاصك . ليس قدوس مثل الرب . لأنه ليس غيرك وليس صخرة مثل الهنا . لا تكثروا الكلام العالى المستعلى ولتبرح وقاحة من أفواهكم . لأن الرب إله عليم . وبه توزن الأعمال . قُسى الجبابرة انحطمت والضعفاء تمنطقوا

بالبأس . الشباعى آجروا أنفسهم بالخبز والجياع كفوا . حتى إن العاقر ولدت سبعة وكثيرة البنين ذبلت . الرب يميت ويحيى . يهبط إلى الهاوية ويُصعد . الرب يُفقر ويُغنى . يضع ويرفع . يقيم المسكين من التراب . يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء ويملكهم كرسى المجد . لأن للرب أعمدة الأرض وقد وضع عليها المسكونة . أرجل اتقيائه يحرس والأشرار فى الظلام يصمتون . لأنه ليس بالقوة يغلب انسان . مخاصمو الرب ينكسرون من السماء يرعد عليهم . الرب يدين أقاصى الأرض ويعطى عزاً لِملِكِه ويرفع قرن مسيحه .

وهكذا كُتب لهذه السيدة البارة حنة أن تذكر المخلص فى هذه الملحمة الإلهية . بل كانت رمزاً مجسداً للبشرية كلها فى انتظاره . فكما أن انتظارها طال لمجىء ابنها صموئيل الذى نذرته للرب كذلك طال انتظار البشرية لمجىء ابن الإنسان الذى سيكسر شوكة الجبابرة ، وسيمنح القوة للضعفاء ، وسيشبع الجياع إلى البر وخبز الحياة ، سيميت وسيحيى ، الذى سينزل إلى أقسام الأرض السفلى حيث الجحيم ثم يصعد إلى السموات ، إلى الرب الذى يدين أقاصى الأرض ويعطى عزاً لملكه ويرفع قرن مسيحه .

أما أيوب الصابر الأعظم فيستمع إلى صوت الرب الذى يوحى للبشر بوجوده فى كل مظاهر الوجود ، فى حلم ، فى رؤيا الليل ، عند سقوط سبات على الناس فى النعاس على المضجع ، حتى يحذرهم من السقوط فى حفرة الهاوية السائرين إليها كالعمى . لكن يبدو أن الأحلام لم تنبههم والآلام لم تؤدبهم ، وكان محبة الله للبشر أكبر وأعم وأشمل ففدى أنفسهم من العبور إلى الحفرة لترى حياتهم النور ، وكان الثمن دم المخلص . ولذلك يقول الرب لأيوب الذى اشتكى بأنه برىء بلا ذنب ، زكى ولا اثم له ، وأن الرب طلب عليه عداوة كما لو كان عدواً له فوضع رجليه فى المقطرة ، يقول له الرب الذى يتكلم مع الإنسان فى الأحلام أو الآلام :

ــ أنا أجيبك . لأن الله أعظم من الإنسان . لماذا تخاصمه . لأن كل أموره لا يجاوب عنها . لكن الله يتكلم مرة وباثنين لا يلاحظ الإنسان . فى حلم فى رؤيا الليل عند سقوط سبات على الناس فى النعاس على المضجع حينئذ يكتشف آذان الناس ويختم على تأديبه . ليحول الإنسان عن عمله ويكتم الكبرياء عن الرجل . ليمنع نفسه عن الحفرة وحياته من الزوال بحربة الموت .

أيضاً يؤدَّب بالوجع على مضجعه ومخاصمة عظامه دائمة . فتكره حياته خبزاً ونفسه الطعام الشهى . فيبلى لحمه عن العيان وتنبرى عظامه فلا تُرى وتقرب نفسه إلى القبر وحياته إلى المميتين . إن وجد عنده مرسل وسيط واحد من ألف ليعلن للإنسان استقامته يتراءى عليه ويقول أُطلقه عن الهبوط إلى الحفرة قد وجدت فدية . يصير لحمه أغضن من لحم الصبى ويعود إلى أيام شبابه . يصلى إلى الله فيرضى عنه ويعاين وجهه بهتاف فيرد على الإنسان برهُ . يغنى بين الناس فيقول قد أخطأت وعوجت المستقيم و لم أجاز عليه . فدى نفسى من العبور إلى الحفرة فترى حياتى النور .

و لم تكن الآلام والمحن التى مر بها أيوب سوى مقدمة للآلام والمحن التى أجتازها المخلص يوم افتدى البشرية من العبور إلى الهاوية حتى ترى حياتها النور . هكذا رأى أيوب وهو فى قاع آلامه ومحنه هذا النور فانصهرت نفسه فى بوتقة الخلاص وصفت وشفت كالذهب لا يعرف النقاء إلا بالنار . وأصبح من منشدى الملحمة الإلهية ومرددى أصدائها المبكرة قبل حلولها على الأرض بقرون طويلة عندما كسرت حربة الموت .

(٣)

شهدت القيثارة الذهبية البديعة أجمل الألحان التى شكلت الافتتاحية المبكرة للملحمة الإلهية . أبدع إمام المغنين داود النبى العزف والغناء على ذوات الأوتار وذوات النفخ ، على القرار وعلى الجواب كلما خلا إلى نفسه فى قصره المنيف المشيد على ربوة من ربوات أورشليم ، والمطل على أكتاف الجبال المحيطة بالمدينة الجميلة ، والتى تنحدر وسطها الطرق المؤدية إلى بيت عنيا وبيت لحم وغيرهما من القرى الصغيرة المتناثرة حول مدينة الله وبهجة كل الأرض .

وكانت جلسة داود المفضلة ، خاصة فى ليالى الصيف القمرية ، فى البهو المطل على جبل الزيتون الذى يشرف على أورشليم من جهتها الشرقية حيث بستان جميل يدعى بستان جثسيمانى فى وادى قدرون . أما أسوار القصر الشامخة عند الشمال فكانت تطل على القنطرة التى كانت تعلو وادى يتروبيون الذى تتفرع منه عدة شوارع هابطة وصاعدة ، ينتهى بعضها عند تل مرتفع خارج أسوار أورشليم ويسمى الجلجثة أى الجمجمة ، ويمتد بجواره طريق عام ينطلق من أورشليم إلى جبعة التى تبتعد عنها شمالا نحو أربعة أميال . وكان هذا التل مخصصاً لرجم المحكوم عليهم بالموت ، وكثيراً ما بدت جماجم الموتى وهياكلهم العظمية متناثرة هنا وهناك فوق قمة التل وحول سفوحه . وأحياناً كانت الصقور والنسور تحوم بأجنحتها القوية العريضة حوله لعلها تنهش بعض الجثث التى تم رجمها أخيرًا .

ولم يكن داود يحب المنظر المطل على أسوار أورشليم الشمالية فأمر بأن تكون أسوار قصره فى هذه الناحية شامخة عالية حتى لا تقع عيناه على تل الجلجثة . ومع ذلك كان يتعجب لنفسه عندما تنشد بعض المزامير فتجذب عينيه إلى هذا التل دون أن يدرى ، وتقفز نظراته الأسوار الشامخة ذات الأحجار الضخمة والافريز المزخرف بأوراق اللوتس . كان ينشد :

ـــ انتظرتك يارب . انتظرت نفسى وبكلامه رجوت . نفسى تنتظر الرب أكثر من المراقبين الصبح . أكثر من المراقبين الصبح . ليرج اسرائيل الرب لأن عند الرب الرحمة وعنده فدى كثير . وهو يفدى اسرائيل من كل آثامه .

ثم يحاول أن يمتع عينيه بمنظر النافورة المرمرية القابعة فى وسط البهو ،

والمتدفقة بمياه بللورية تختلط بأضواء المصابيح الزيتية القابعة خلفها ، والتى يتراوح ألوان زجاجها المطعم بالذهب بين الأبيض والأخضر والأحمر والأزرق ، والممتزجة بأصص الزهور والورود المحيطة بها تلتمس بعض رذاذ من مياهها المعطرة ، لكن سرعان ما تعود نظراته لتعبر السور الشامخ صوب التل الغريب وهو ينشد :

ـــ حنان ورحيم هو الرب . أعطى خائفيه طعاماً . يذكر الى الأبد عهده . أخبر شعبه بقوة أعماله ليعطيهم ميراث الأمم . أعمال يديه أمانة وحق . كل وصاياه أمينة ثابتة مدى الدهر والأبد مصنوعة بالحق والإستقامة . أرسل فداء لشعبه .

ثم تنحدر دمعة على وجنته اليمنى وينهض من على عرشه المرمرى ، ممسكاً بالقيثارة تاركاً طيلسانه الأحمر ينفرج عن ثوبه الحريرى الأبيض ، سائراً صوب الشرفة التى يداعبها نسيم الصيف وعطر الزهور المجدولة بثغرات السور الرخامى . هذا الملك العظيم الجبار تجيش نفسه بمشاعر غامضة يتهافت أمامها وجدانه ليصبح طفلاً بكل نقاء الأطفال وصفائهم ، فتخترق عيناه حجب الغيب وهو ينشد فى شرفته الملكية :

ـــ لما ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل . قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه قائلين لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما . الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزىء بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى . إنى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . اسألنى فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصى الأرض ملكاً لك . تحطمهم بقضيب من حديد مثل اناء خزاف تكسرهم . فالآن أيها الملوك تعقلوا . تأدبوا ياقضاة الأرض . اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعدة . قبلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق لأنه عن قليل يتقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه .

ثم استدار داود ليتكىء على السور الرخامى المكلل بالزهور ذات العطر المتماوج مع نسمات الصيف لتقع عيناه على الطريق القادم من بيت فاجى إلى أورشليم . طريق صغير مترب ، لكن خيل لداود فى ضوء القمر أن سعف النخيل وأغصانه تتمايل على الطريق وكأنها تحرسه وترحب بالقادم عليه لدرجة

أنها تبدو وكأنها تحولت إلى كائنات بشرية تسبح بالآتى :

ـــ صوت ترنم وخلاص فى خيام الصديقين . يمين الرب صانعة بيأس يمين الرب مرتفعة . يمين الرب صانعة بيأس . لا أموت بل أحيا وأحدث بأعمال الرب . تأديباً أدبنى الرب وإلى الموت لم يسلمنى . افتحوا لى أبواب البر . أدخل فيها وأحمد الرب . هذا الباب للرب . الصديقون يدخلون فيه . أحمدك لأنك استجبت لى وصرت لى خلاصاً . الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . هذا هو اليوم الذى صنعه الرب . نبتهج ونفرح فيه . آه يارب خلص . آه يارب أنقذ . مبارك الآتى باسم الرب .

كانت هذه أجمل الساعات التى يخلو فيها داود إلى ربه ونفسه ليترنم بما يجيش وجدانه من مشاعر ونبوءات تخترق آفاق الغيب لتنطلق إلى فجر الخلاص للبشرية جمعاء . حتى نشوة الانتصار على جيوش الأعداء فى حومة الوغى لم تكن ترقى إلى قمة هذه الساعات فى صفائها ونقائها . كان الجميع يأتون إلى بلاط الملك داود ليقدموا فروض الطاعة لذلك الملك الجبار الذى دانت له الرقاب ، لكن بمجرد أنه يخلو إلى نفسه ، يقدم هو نفسه فروض الحب والولاء لربه ومخلصه بشدو على القيثارة الذهبية يمتزج بتغريد العندليب فى هدأة الليل :

ـــ ياإله الجنود . أرجعن . اطلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة والغرس الذى غرسته يمينك والإبن الذى اخترته لنفسك هى محروقة بنار مقطوعة . من انتهار وجهك يبيدون . لتكن يدك على رجل يمينك وعلى ابن آدم الذى اخترته لنفسك . فلا نرتد عنك . أحينا فندعو باسمك . يارب إله الجنود أرجعنا . أنر بوجهك فنخلص .

كانت أوامر داود لكل رجال بلاطه ألا يقطعوا عليه خلوته حتى لا تتشتت رؤياه وتزوغ بصيرته ، سواء كان فى البهو المرمرى أو الشرفة الرخامية أو الحديقة الغناء التى تستدير بين القصر وأسواره وتحتضن الزهور والورود من كل لون وعبق ، والأشجار والثمار من كل طعم ومذاق ، والفراشات بأجنحتها الشفافة الزاهية ، والطيور برفيف ريشها وعذوبة تغريدها ، والمياه البللورية الجارية فى القنوات الذهبية نهاراً والفضية ليلاً . كان داود يتجول فى الحديقة الأثيرة إلى نفسه عند غروب الشمس ويترنم :

ـــ اللهم أعط أحكامك للملك وبرك لإبن الملك . يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق . تحمل الجبال سلاماً للشعب والآكام بالبر . يقضى لمساكين الشعب . يخلص بنى البائسين ويسحق الظالم . يخشونك مادامت الشمس وقدام القمر إلى دور فدور . ينزل مثل المطر على الجُزَاز ومثل الغيوث الذّرافة على الأرض . يشرق فى أيامه الصديق وكثرة السلام الى أن يضمحل القمر . ويملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . أمامه تجثو أهل البرية .. ويسجد له كل الملوك . كل الأمم تتعبد له . لأنه ينجى الفقير المستغيث والمسكين اذ لا معين له . يشفق على المسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء . من الظلم والخطف يفدى أنفسهم ... يكون اسمه الى الدهر . قدام الشمس يمتد اسمه . ويتباركون به . كل أمم الأرض يطوبونه . مبارك الرب الله اله اسرائيل الصانع العجائب وحده . ومبارك اسم مجده الى الدهر ولتمتلىء الأرض كلها من مجده . آمين ثم آمين .

كانت هذه هى الرؤيا التى تضىء حياة داود فى ليله ونهاره ، فى نومه وصحوه . رؤيا المخلص الآتى فى ملء الزمان.جلس داود على أحد المقاعد الرخامية فى الحديقة ومد خف قدميه إلى حافة القناة التى ترتوى الطيور من صفحتها العذبة ، وداعبت أنامله أوتار قيثارته الذهبية ، وفاضت نفسه حنيناً إلى فجر الخلاص :

ـــ قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك . يرسل الرب قضيب عزك من صهيون . تسلّط فى وسط أعدائك . شعبك فتدب فى يوم قوتك فى زينة مقدسة من رحم الفجر لك كل حداثتك .

ثم تجتاح نفسه أحزان غامضة لا يدرى كنهها ، لكنها حية ، متدفقة زاخرة بالغدر والخيانة والعار والغش والكذب والخداع والحقد والبغض والإثم والدنس . حاول داود الهروب من وطأة هذه الأحزان فصعد إلى شرفته الرخامية مع حلول المغيب الرمادى ، ودمعة كبيرة تتألق تحت عينه اليمنى لكنه أخفاها بيمناه حتى لا يلحظها أحد الحراس أو الخدام . ومن أعلى الشرفة تجولت نظراته حزينة على تل الجلجثة الذى يكاد يختفى تماماً خلف أسوار أورشليم ومع ذلك لا يبرح مخيلة داود الذى . متنفساً فى الترتيل والترنيم على قيثارته التى ارتكز بها على سور الشرفة الرخامى :

ـــ أعدائى يتقاولون علىّ بشر . متى يموت ويبيد اسمه . وإن دخل ليرانى يتكلم بالكذب : قلبه يجمع لنفسه اثماً . يخرج فى الخارج يتكلم . كل مبغضى يتناجون معاً علىّ . علىّ تفكروا بأذيتى . يقولون أمر ردىء قد انسكب عليه . حيث اضطجع لا يعود يقوم . أيضا رجل سلامتى الذى وثقت به آكل خبزى رفع علىّ عقبه . أما أنت يارب فارحمنى وأقمنى فأجازيهم . بهذا علمت أنك سررت بى أنه لم يهتف علىّ عدوى . أما أنا فبكمالى دعمتنى وأقمتنى قدامك إلى الأبد . مبارك الرب اله اسرائيل من الأزل والى الأبد . آمين فآمين .

كانت أصداء القيثارة الذهبية ترن فى أبهاء القصر وأروقته برغم رقتها وعذوبتها ، فيخشع لها كل من تنساب إلى مسامعه فى سكون المساء الذى لا يقطعه سوى حفيف النسيم مداعباً أوراق الشجر ، وخرير المياه المتدفقة فى قنوات الحديقة الغناء أو رذاذها المتراقص أعلى النافورة الرخامية . لم يكن أحد يدرى عمن يتكلم ويرتل الملك النبى ، ولم يجرؤ أحد أن يسأله ، ومع ذلك تاقت النفوس لمعرفة ذلك الشخص العجيب الغامض الذى تمثل سيرته الواحة الظليلة للملك النبى الذى لا يجد فى أمجاد الحكم والحرب والسطوة سوى صحراء قاحلة تفترس رمالها الملتهبة حياته القلقة . لكن هل يمكن ذكر سيرة انسان لم يأت بعد ؟ ! وهل هو انسان كما عُرف الانسان ؟ ! أم هو اله جاء أو سيجىء لخلاص البشرية ؟ ! أم أنه انسان واله فى آن واحد ؟ ! وكيف يتأتى هذا ؟ ! ومع كل هذا الغموض كان ترتيل الملك النبى شجياً وعذباً عذوبة الماء أمام العطشان الصادى :

ـــ شهود زور يقومون وعما لم أعلم يسألوننى . يجازوننى عن الخير شراً ، ثكلاً لنفسى . أما أنا ففى مرضهم كان لباسى مسحاً . أذللت بالصوم نفسى . وصلاتى إلى حضنى ترجع . كأنه قريب كأنه أخى كنت أتمشى . كمن ينوح على أمه انحنيت حزيناً . ولكنهم فى ظلمى فرحوا واجتمعوا . اجتمعوا علىّ شاتمين ولم أعلم . مزقوا ولم يكفوا .

عادت عينا داود تحومان حول قمة تل الجلجثة التى بدت فى ضوء القمر وكأنها تطاول أسوار أورشليم . رأى داود خيوطاً من نور ونار تتشكل صليباً عالياً شامخاً فوق قمة التل ، تحيطه خوذات نحاسية صفراء وسيوف بيضاء

كوميض الثلج ، وعند سفحه تراءت لداود عباءات بنية وسوداء تكاد تختفى مع ظلام خط الأفق . كانت نفس داود حزينة حتى الموت ففاضت عبراته على قمم نبراته وامتزجت بترتيله الشجى :

الهى الهى لماذا تركتنى ... كل الذين يروننى يستهزئون بى يفغرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين اتكل على الرب فلينجه . لينقذه لأنه سر به ... فغروا علىّ أفواههم كأسد مفترس مزمجر . كالماء انسكبت . انفصلت كل عظامى . صار قلبى كالشمع . قد ذاب فى وسط أمعائى . يبست مثل شقفة قوتى ولصق لسانى بحكنى وإلى تراب الموت تضعنى . لأنه قد أحاطت بى كلاب . جماعة من الأشرار اكتنفتنى . ثقبوا يدى ورجلى . أحصى كل عظامى . وهم ينظرون ويتفرسون فىّ . يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون .

واذ بداود لا يدرك فى تلك اللحظة إذا كان ما يصل إلى أذنيه هو ترتيله أو أنه أصداء الرياح الملتفة حول قمة تل الجلجثة . فكثيراً ما ينطق الكون بآيات الله التى لا يستمع إليها الإنسان إلا فى لحظات التأمل والصفاء الروحى والشفافية التى تقفز فوق أسوار الزمن كما تتجاوز نظرات داود أسوار أورشليم . ترنم داود مع أصداء الرياح التى هبت من على قمة التل :

ـــ انتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد . ويجعلون فى طعامى علقماً وفى عطشى يسقوننى خلاً .

ـــ سرى طعم العلقم فى حلق داود ، وجرى مذاق الخل مع لعابه ، وامتزج ترتيله مع نواح الرياح :

ـــ فى يدك أستودع روحى .

لكن سرعان ما انداح شحوب نظرات داود ، وعاد إلى وجهه لونه الوردى ، ومضت عيناه بضوء كنور الفجر بعد الليلة الظلماء ، وتهلل صوته ، وارتعشت شفتاه بين شعيرات لحيته البنية الناعمة :

ـــ أنا اضطجعت ونمت . استيقظت لأن الرب يعضدنى ... لأنه عن يمينى فلا أتزعزع . لذلك فرح قلبى وابتهجت روحى . جسدى أيضاً يسكن مطمئناً . لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً . تعرفنى سبيل الحياة . أمامك شبع سرور . فى يمينك نعم الى الأبد .. نترنم بخلاصك

وباسم الهنا نرفع رايتنا . ليكمل الرب كل سؤلك . الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه ... هم جثوا وسقطوا . أما نحن فقمنا ... صعدت الى العلاء ..

ثم تحول نور الفجر إلى ضياء ساطع غمر الكون كله ، وافتراش كل أرجاء القصر ولسان داود يلهج :

ـــ انتظاراً انتظرت الرب فمال الىّ وسمع صراخى وأصعدنى من جب الهلاك من طين الحمأة وأقام على صخرة رجلى . ثبت خطواتى وجعل فى فمى ترنيمة جديدة تسبيحة لإلهنا . كثيرون يرون ويخافون ويتوكلون على الرب .

لكن مزامير داود ترددت على ألسنة بنى اسرائيل ، أما قلوبهم فظلت كالأرض الحجرية لا تنبت ثمراً ولا تمنح ظلاً ، فجاء سليمان بن داود ملك اسرائيل بأمثاله لإدراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة . لتعطى الجهال ذكاء والشاب معرفة وتدبراً . يسمعها الحكيم فيزداد علماً والفهيم يكتسب تدبيراً . لفهم المثل واللغز ، أقوال الحكماء وغوامضهم . مخافة الرب رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب .

هكذا كان سليمان يعلم من حوله كلما خلص من تدبير شئون المملكة وفرغ من مشاكل الحكم وشكايات الرعية . لم يكن كأبيه داود شاعراً ، فناناً ، متأملاً ، يجب أن يخلو إلى نفسه يناجيها ، بل كان حكيماً ، مفكراً ، معلماً ، يهوى تعليم من حوله ، وإن كان يشترك مع أبيه فى موهبة النبوة التى تخترق حجب الغيب عبر قرون طويلة ، واستشفاف المستقبل البعيد الذى سيشهد أعظم وأروع تحول فى تاريخ الخليقة كلها .

كان يلذ لسليمان أن يجمع حوله أحبار اسرائيل وحكماء صهيون فى جلسته المعتادة كل مساء فى البهو المرمرى الذى طالما انفرد فيه أبوه بنفسه . كان يلقى بطيلسانه المرصع بالعقيق والزمرد والياقوت على مسند عرشه الذهبى ، وينظر بعينيه السوداوين الواسعتين بوميضهما الأخاذ إلى أعلى متأملاً القبة الهائلة التى تغطى البهو بهيكلها المطعم بقطع الزجاج الحمراء والصفراء والخضراء والزرقاء والأرجوانية والبرتقالية على هيئة نجمة داود ، ثم يمد ساقيه مسترخياً فى ردائه السماوى الحريرى اللامع ، والصمت المهيب على رءوس الجميع فى انتظار

كلماته :

ــ الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم . منذ الأزل مسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض . اذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت . اذ لم يكن قد صنع الأرض بعد ولا البرارى ولا أول أعفار المسكونة . لما ثبت السموات كنت هناك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر . لما أثبت السحب من فوق ، لما تشددت ينابيع الغمر . لما وضع للبحر حده فلا تتعدى المياه تخمه ، لما رسم أسس الأرض . كنت عنده صانعاً وكنت كل يوم لذته فرحة دائماً قدامه . فرحة فى مسكونة أرضه ولذتى مع بنى آدم . فالآن أيها البنون اسمعوا لى . فطوبى للذين يحفظون طرق . اسمعوا التعليم وكونوا حكماء ولا ترفضوه . طوبى للإنسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم عند مصاريعى حافظاً قوائم أبوابى . لأنه من يجدنى يجد الحياة وينال رضى من الرب . ومن يخطىء عنى يضر نفسه . كل مبغضى يحبون الموت .

صمت سليمان ليتأمل الوجوه المشدوهة المشدودة إلى كلماته . عشش السكون على رءوس الجميع و لم يسمع سوى صوت احتراق المسك فى المبخرة الذهبية القابعة على مائدة مرمرية نحتت قوائمها على شكل أسد ينظر إلى سليمان فى خشوع . تدفقت سحابات الدخان الأبيض بأريج المسك فأحاطت الجالسين على الحشايا الحريرية الوثيرة بجو أثيرى من الغموض والإثارة والشوق لتفسير كلمات الحكيم التى بدت كالألغاز والأسرار الكونية . انتشى سليمان بتضوع المسك المتسلل إلى أنفه وخيل لأذنيه أنه ينصت لأصداء أنامل أبيه على أوتار قيثارته الذهبية فى الأيام الخوالى وهى تتردد فى ردهات القصر وأرجائه المهيبة . انتصب سليمان على عرشه متسائلاً :

ــ كأنى لم أقل شيئاً ؟ ! ماذا دهى آذانكم وقلوبكم وعقولكم ؟ !

اهتز حبر طاعن فى السن كان يتكىء على حشية قريبة من الأسد المرمرى الحامل للمبخرة . تردد بعض الوقت فى الرد . حك لحيته البيضاء الشهباء الطويلة بأظافره ثم قال :

ــ نعم لا نعلم عمن يتكلم صاحب الجلالة !! من ذا الذى مُسح منذ البدء .. منذ أوائل الأرض ؟ ! اذا كان صاحب الجلالة يقصد أن الرب هو

الذى صنع الأرض وثبت السموات .. فهذا هو أساس عقيدتنا وشريعتنا .. لكن صاحب الجلالة قال بضمير المتكلم : لما ثبت السموات كنت هناك أنا .. لما رسم أسس الأرض كنت عنده صانعاً وكنت كل يوم لذته فرحة دائماً قدامه . فرحة فى مسكونة أرضه ولذاتى مع بنى آدم .. فليسمح لى صاحب الجلالة أن أسأل عن هذا الذى كان هناك عندما ثبت الرب السموات ، وكان عند الرب صانعاً يوم رسم أسس الأرض ؟ ! فهذا الكلام لغز مستغلق علىّ !

تربع الملك الحكيم على عرشه وسرت حمية الحماس فى نبراته :

ــ كيف يظل لغزاً مستغلقاً عليك برغم تبحرك فى علوم العقيدة والشريعة ؟ ! ياأيها الحبر الفريسى ؟ !

غمرت حبات عرق الحرج الوجه المغضن بحثاً عن جواب لم يسعفه ، فهب إلى نجدته صادوق كبير الكهنة برغم كراهيته للحبر الفريسى قائلاً :

ــ ببساطة شديدة أعتقد أن صاحب الجلالة يتكلم عن الرب بضمير المتكلم .. وهذا يؤيد عقيدة جماعتنا التى بدأت تعرف بالصدوقيين .. فنحن لا نؤمن بما يسمى بالعالم الآخر .. فحياتنا تبدأ بهذا العالم وتنتهى به .. وليس لنا دستور سوى الشريعة المكتوبة فحسب .. على عكس الفريسيين الذين يدافعون عن الشريعة الشفوية

ــ قاطعه الحبر الفريسى بعد أن استعاد حزم المبادرة :

ــ أنكم تفسرون الأسفار المقدسة تفسيراً حرفياً .. بل وتحرمون تفسيرها على الآخرين .. وكأنها حكر لكم !!

نظر صادوق إلى سليمان فلمح شغفه بالحوار الدائر . تدفق حماسه وهو يضغط على مخارج ألفاظه :

إننا ندافع عن الطقوس الخاصة بالهيكل المقدس الذى بناه صاحب الجلالة .. ونرى فيها الكفاية .. فلا حاجة لنا إلى عقيدة دينية مجردة ..

لم يتردد الشيخ الفريسى فى الرد الحاسم :

ــ لقد أصبحتم مجرد جماعة تحاول الإحتفاظ بالمزايا المالية المرتبطة بنمط عبادتكم !

— وما الغرابة فى ذلك بعد أن تحولت أورشليم فى عهد مولانا صاحب الجلالة إلى مدينة تجارية فى مملكة مزدهرة بلغت أوج مجدها .

نظر سليمان إلى خاتمه الذهبى ذى الفص العقيقى المتألق الذى ورثه عن أبيه وقال وسط صمت الجميع :

— لم أفعل شيئاً سوى السير على نهج أبى منذ حارب شاؤول وهزمه وتوج ملكاً .. فهو الذى فتح أورشليم وأودع فيها تابوت العهد مؤكداً وحدة المدينة ووحدة بنى اسرائيل .. لكنكم كالعادة تركتم الموضوع الذى كنا نتحدث فيه للجدل الحرفى العقيم الذى طالما انشغلتم به ..

ان صمت ثقيل مشبع بالحرج والخجل قطعه سليمان بصوته الجهورى العريض :

— سألقى عليكم بسؤال .. فإذا عجزتم عن الإجابة عليه .. أو عن جزء فيه على الأقل .. فلا فائدة ترجى من كل علمكم المتبحر فى أمور العقيدة والشريعة !

تألقت حبات العرق على الوجوه المتغضنة ، والجباه الشاحبة والخدود المترهلة وكأن امتحاناً عسيراً أوشك أن يعقد لها . سقط عليهم سؤال الحكيم كالسيف :

— من صعد إلى السموات ونزل . من جمع الريح فى حفنتيه . من صر المياه فى ثوب . من ثبت جميع أطراف الأرض . ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت ؟

تلاقت النظرات الزائغة فى دوامة من الحيرة فلم يملك سليمان سوى أن يقول فى مرارة ناضحة على نبراته :

— عليكم بالإجابة .. والعاجز منكم أبلد من كل انسان وليس له فهم انسان .. ولم يتعلم الحكمة ولم يعرف معرفة القدوس ..

امتزج الصمت مرة أخرى بالنظرات الزائغة وسط قطرات العرق برغم النسمات الباردة المنعشة التى تهب على البهو من الحديقة المعطرة . تجرأ رابى يناهز منتصف العمر على قطع حبل الصمتِ المشدود بسؤال خرج مرتعشاً :

كى يخرج به من دوامات الحيرة والعجز :

ـــ نحن نعلم ياصاحب الجلالة اسم من ثبت جميع أطراف الأرض .. لكننا لا نعلم اسم ابنه هل هو الذى صعد إلى السموات .. وهل سينزل مرة أخرى ؟ !

مد سليمان ساقه ليضع قدمه فى الخف المرصع بالعقيق والزمرد وقد شدت إليه العيون بخيوط من وميض . ابتسم فى سخرية ارتسمت على شفتيه :

ـــ ترد على سؤالى بسؤال !! لكننى سأجيبك .. إنه سينزل على الأرض بعد أقل من ألف عام بقليل .. هل أنارت إجابتى الطريق أمامكم ؟ !

قدحت العقول زناد الفكر لعل شرره يومض بين طيات الشريعة المستغلقة وكهوف التفسيرات الدينية التى برع فيها الحكماء والفريسيون فى القرون الماضية ، بحثاً عن إجابة أو شبه إجابة لكن دوامة الحيرة والعجز عادت مرة أخرى لتغرق الجميع بين لججها ، وسليمان يتأمل الجميع فى سخرية ورثاء .

(٤)

لم تنقطع رحمة الرب على البشر برغم كل آثامهم وشرورهم فأرسل إليهم إشعياء النبى الذى قيل عنه : الملك بين الأنبياء . سار فى طرقات أورشليم وتردد على قصورها ومحافلها يبشر بنبوءات المستقبل التى نادى بوقوعها بعد رحيله بحوالى سبعة قرون . سعى الملوك والوزراء إلى طلب نصيحته الغالية التى أنارت لهم طريق الحرب والسلام . كان إشعياء طاقة متجددة من الصفاء النبوى المرهف ، والنبوءة التى تمزج الفلسفة بالشعر ، والجاذبية المغناطيسية التى لا يستطيع كل من يقترب منها مقاومتها ، والحديث الكلى الذى يفيض بعذوبة نهر متدفق لا يعرف من أين ينبع وإلى أين يصب ؟

ظل أربعين عاماً يحمل رسالة الله فى السراء والضراء . لم يعرف التراجع أو اليأس أو الإحباط طريقاً إلى قلبه الذى اتسع ليحتوى الدنيا بأسرها . كان محاطاً بسياج حجرى من عيون لا تبصر ، وآذان لا تسمع ، وأنوف لا تشم رائحة العنف الضارب أطنابه ، وألسنة لا تنطق إلا بكلمات الغرور الأجوف والاغراء الرخيص ، وأقدام لا تسير إلا فى طريق الغواية والهلاك مثل نساء أورشليم اللاتى لا يعرفن من الحياة سوى الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع ، والعصائب والسلاسل والمناطق والخواتم وخزائم الأنف والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس والمرائى والقمصان والعمائم والأزر . فى حين كانت بنات صهيون يتشامخن ويمشين فى الطرقات ممدودات الأعناق ، وغامزات بعيونهن ، وخاطرات فى مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن . أما الرجال فكانوا مبكرين صباحاً يتبعون المسكر ، متأخرين فى العتمة تلهبهم الخمر ، وصار العود والرباب والدف والناى والخمر ولائمهم . وأوشك الأغنياء على الموت شبعاً وتخمة ، والفقراء على الهلاك جوعاً وعرياً ، يلتمسون العدل عبثاً ضد قضاة ظالمين يرتشون لإطلاق سراحه المجرم وإدانة البرىء .

هذه هى الصورة التى رسمها إشعياء فى لوحاته التنبؤية الشعرية الزاخرة بآلام المخاض وآمال المستقبل . لوحات بدت فيها عبادة الله مجرد طقوس جوفاء تحيطها مظاهر الأبهة الأسطورية ، لوحات صورت العودة إلى عبادة الأوثان والخرافات التى هبت من الخارج بكل ألاعيب السحر والشعوذة والعرافة واستحضار أرواح الموتى . لوحات قدمت المتشككين الساخرين من عناية الله

ورعايته للكون ، وتحديهم أن يثبت للناس قوته بالعمل ليسرع ، ليعجل عمله كى يروا . لوحات عرت الأنبياء الكذبة الذين أضلوا الشعب وخدروا ضميره بالوعود المعسولة التى لا تحمل سوى السموم فى طياتها ، واستمرأ الشعب هذه الأباطيل والأكاذيب ، وحاولوا سد آذانهم هرباً من صوت اللوم والتوبيخ والإدانة والإنذار الصادر من نبى الله إشعياء : إن لرب الجنود يوماً على كل متعاظم وعال ، وعلى كل مرتفع فيوضع .

كان إشعياء رجل الموقف ونبى العصر . كانت أورشليم فى مهب العواصف العاتية من مملكتى آشور ومصر من أجل السطوة والسيادة على آسيا الغربية . فالمدينة المقدسة تقع على طريق الجيوش المتحاربة بألويتها الجرارة ، خاصة أن النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد كان قد شهد سقوط المملكة الشمالية بعد أن نخر سوس الفساد عظائمها ، وبدا أن الدور قد أتى على أورشليم عاصمة مملكة الجنوب لتلقى مصير السامرة .

فى هذا الجو القلق والعصر المحموم والظلام المتكاثف المطبق على عقول الملوك وقلوب الرعية ، بدأ إشعياء رسالته بالإدانة والتنوير ثم الإنطلاق إلى آفاق المستقبل التى لم يستشرفها أحد معه ، لأن الجميع لم ينظروا إلى أبعد من مواطىء أقدامهم فى دورانهم فى دوامات الحياة المادية ، لهثاً وراء المتع الدينوية والمباهج الزائلة على طريق الغواية والرذيلة والخطيئة والضياع والموت . فبلغوا مرتبة أدنى من الحيوان . فالثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه ، أما اسرائيل فلا يعرف هكذا كانت صيحة إشعياء :

ــ ويل للأمة الخاطئة .. الشعب الثقيل الإثم ، نسل فاعلى الشر أولاد مفسدين . تركوا الرب .. استهانوا بقدوس اسرائيل .. ارتدوا إلى وراء ... تزدادون زيغانا . كل الرأس مريض وكل القلب سقيم .. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وإحباط ... بلادكم خربة . مدنكم محرقة بالنار .. أرضكم تأكلها غرباء قدامكم وهى خربة كانقلاب الغرباء .. لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة ..

ضل الناس طريق الرب الإله ، ولم يسمعوا صوته لأن آذانهم قد سدها الخداع والضياع ، وتنجست أيديهم بالدم ، وأصابعهم بالإثم ، وشفاههم بالكذب ، وألسنتهم بسم الحية . ضاع العدل والحق تحت أقدام الباطل الخائضة

فى الأوحال . حبلوا ثم فقسوا بيض أفعى ونسجوا خيوط العنكبوت . من يأكل من بيضهم موتاً يموت ، ومن يكسر بيضة لهم لن تخرج له سوى الأفعى . خيوطهم لم تصنع ثوباً ولم تستر عريهم . تاهوا فى سبلهم المعوجة ، وطرقهم المسدودة ، ودوائرهم المفرغة حيث الظلام يحيط بكل الأشباح ويطبق على الأنفاس كما أطبق من قبل على آدم وحواء بعد طردهما من الفردوس .

سار الناس يتلمسون الجدران كالعمى ، يتخبطون بعد أن تلاشت شمس الظهيرة تحت وطأة العتمة السارية تحت الضباب المتكاثف ، كما تلاشى العدل لأن الصدق سقط فى الشارع تحت وطأة الأقدام المتلاطمة بالأوحال .

ومع كل هذا الضياع والسبل المعوجة المؤدية إلى الموت ، والطرق التى ضاعت معالمها تحت طبقات الضباب والظلام ، أعلن إشعياء نبوءته بمجىء المخلص الذى سيقهر الموت والظلام والخطيئة والشر :

ــ رأى الرب وساء فى عينيه أنه ليس عدل . فرأى أنه ليس إنسان . وتحير من أنه ليس شفيع . فخلّصت ذراعه لنفسه . وبره هو عضده ، فلبس البر كدرع ، وخوذة الخلاص على رأسه .. ويأتى الفادى إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية فى يعقوب يقول الرب . أما أنا فهذا عهدى معهم قال الرب . روحى الذى عليك وكلامى الذى وضعته فى فمك لا يزول من فمك .. من الآن وإلى الأبد .

وفى المساء آوى الناس إلى بيوتهم ، وانعقدت حلقات السمر والثرثرة حول النيران المشتعلة فى الحطب لإثارة الدفء . كانوا فى حيرة من أمر النبى إشعياء ونبوءاته التى عجز البعض عن تفسيرها ، ورفضها البعض الآخر . قال أحدهم وألسنة النيران تتراقص على وجهه الشاحب فتحيله إلى بشرة وردية :

ــ إنه يتكلم عن شخص عجيب يشبه ذلك الذى تكلم عنه بلعام وداود وسليمان من قبل !

رنت السخرية فى صوت شاب حانق وفمه ملىء بقضمة من فطيرة كاشير :

ــ ولم يأت حتى الآن .. ويبدو أنه لن يأتى أبداً !

علق عجوز محنك أحنت ظهره السنون :

ـــ من يدرى ؟ ! فكلمات إشعياء لا تزال ترن فى أذنى كأننى أسمعه الآن !

تساءل الشاب وقد خلا فمه من الفطير :

ـــ ماذا قال ؟ ! على وجه التحديد ؟ !

بسط العجوز كفيه فوق النار ثم فركهما قائلاً :

ـــ قال : كما أهان الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالى ، يكرم الزمان لأخير طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم . الشعب السالك فى الظلمة أبصر نوراً عظيماً . الجالسون فى أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور .. لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً ، وتكون الرئاسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلها قديراً أباً أبدياً رئيس السلام . لنمو رئاسته وللسلام لانهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن . غيرة رب الجنود تصنع هذا .

أضاف كهل بعض أعواد الحطب إلى النار حتى لا تخمد ، وعندما انتهى العجوز من كلامه قال الكهل مستمتعاً بارتفاع ألسنة النيران مرة أخرى وسط طقطقة الأعواد الجافة :

ـــ كل هذا الكلام يمكن تفسيره على أكثر من محمل .. لكن ما رأيكم فى قول إشعياء : قولوا لخائفى القلوب تشددوا . لا تخافوا .. هو يأتى ويخلصكم . حينئذ تتفتح عيون العمى ، وآذان الصم تتفتح . حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ، ويترنم لسان الأخرس . وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة ، لا يعبر فيها نجس .. بل يسلك المفديون فيها .. ويهرب الحزن والتنهد ..

أصر الشاب أسنانه وأحكم جلبابه البنى حول ساقيه :

ـــ لم نسمع من قبل عن إنسان يمكنه صنع مثل هذه المعجزات ! ثم نضحت كلماته بسخرية مريرة :

ـــ بهذا لن يكون إنساناً بل إلهاً بمعنى الكلمة !

قطب الشيخ جبينه وكأنه يحاول أن يتذكر شيئاً :

ـــ لقد أصابنى إشعياء بالحيرة .. فلا أعرف اذا كان يتحدث عن نفسه

أم عن شخص آخر ؟!

علق الشاب دون أن يخفى نبرة استفزازه :

ــ كيف وهو لم ولن يفعل مثل هذه المعجزات ؟!

أضاف الشيخ وقد اتكأ على إحدى الحواشى :

ــ قال إشعياء : روح السيد الرب علىّ ، لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلب . لأنادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق .. لأعزى كل النائحين .. لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد ، ودهن فرح عوضاً عن النوح ، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة .. فرحاً أفرح بالرب . تبتهج نفسى بالهى ، لأنه قد ألبسنى ثياب الخلاص . كسانى لباس البر .. لأنه كما أن الأرض تخرج نباتها ، وكما أن الجنة تنبت مزروعاتها ، هكذا السيد الرب ينبت براً وتسبيحاً أمام كل الأمم ..

لم يسر الدفء بالنعاس فى رأس الكهل بل ازداد يقظة :

ــ أنه يتكلم هنا كما لو كان يتحدث عن نفسه .. لكن ما رأيك فى حديث له وكأنه يخاطب شخصاً أمامه ؟!

تساءل الشيخ فى شوق ؟!

ــ لم أسمع بمثل هذا الحديث ؟!

قال الكهل وكأنه يحفظه عن ظهر قلب :

ــ جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض .. ينظر ملوك فيقومون . رؤساء فيسجدون .. فى وقت القبول استجبتك وفى يوم الخلاص أعنتك . فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب . قائلاً للأسرى اخرجوا ، للذين فى الظلام اظهروا .. على الطرق يرعون . وفى كل الهضاب مرعاهم . لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس ، لأن الذى يرحمهم يهديهم ، وإلى ينابيع المياه يوردهم . وأجعل كل جبالى . ومناهجى ترتفع ..

لم يخف الشيخ دهشته المتسائلة :

ــ كيف يمكن الحديث عن شخص واحد فى وقت واحد بضمير المتكلم

والمخاطب والغائب ؟!

دفن الشاب رأسه بين يديه متأملاً البساط تحت قدميه :

ــ ربما كان هؤلاء جميعاً فى شخص واحد ؟ !

أجابه الكهل فى جدية صارمة متسائلة :

ــ اذا كان هكذا بالفعل فلابد أن يكون موجوداً فى كل الوجود ! لان السكون على الجميع وتراقصت ألسنة النيران على وجوههم الحائرة وعيونهم الزائغة كما تراقصت الأسئلة فى عقولهم المحاصرة بإجابات مستحيلة .

أما الملك يوثام الذى كان يقيم فى أقوى وأعلى حصون أورشليم الذى يطل على الأبراج التى أقامها فى الغابات فيما وراء نهر الأردن ، فقد كان سعيداً بنجاحه فى إخماد الثورة التى قام بها بنو عمون ، ونجح فى ترسيخ مملكة يهوذا فى الجنوب فى مواجهة مملكة اسرائيل فى الشمال ومعها سوريا اللتين صعد ملكاهما لمحاربته وحصاره لكنهما فشلا . وكان سعيداً أيضاً بحكمة إشعياء ونصحه ، لكنه كثيراً ما خاض معه جدلاً حول ما لم يستطع أن يستوعبه من نبوءاته الغامضة .

كان إشعياء يتكىء على حشية صغيرة فى مواجهة يوثام القابع على مقعده المرمرى المنخفض وقد مد يده ليلتقط تفاحة من طبق فضى أمامه ويقدمها لإشعياء الذى تقبلها فى رفق فى انتظار ما سوف يقوله الملك الذى تناول تفاحة أخرى وقضمها متسائلاً :

ــ كيف يقول الرب : هكذا أعمل لأجل عبيدى حتى لا أهلك الكل ، بل أخرج من يعقوب نسلاً ومن يهوذا وارثاً لجبالى .. لأنى هاأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة . فلا تُذْكر الأولى ولا تخطر على بال . بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد .

صمت يوثام للحظات يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ثم ألقى ببقية التفاحة فى الطبق قائلاً :

ــ هل يعنى هذا أن الآتى آت من أجل عالم جديد تماماً ... عالم أبدى لا يعرف سوى الفرح والبهجة ؟!

ـ بالصواب فسرت ياصاحب الجلالة ..

قالها إشعياء ثم نظر إلى آخر خيوط الشمس الذهبية الغاربة وهى تتسلل من النافذة الحديدية المطعمة برقع زجاجية أخذت شكل الكواكب والأفلاك والنجوم . أضاء وجه إشعياء بوميض قمرى وهو يكاد يهمس بلسان يلهج :

ـ هوذا الرب أخبر إلى أقصى الأرض : قولوا لإبنة صهيون ، هوذا مخلصك آت .

ـ حك يوثام لحيته البيضاء بأظافره اللامعة متسائلاً :

ـ وهل سيكتب أن نحيا حتى مجىء هذا المخلَص ؟!

ـ سوف يراه الأحياء والأموات على حد السواء !

ـ أصبحت أخاف سؤالك .. فكل إجاباتك تزيد الأمر غموضاً .. ومع ذلك لا أستطيع أن أقتل حب المعرفة داخلى .. فلتقل لى يانبى الله .. كيف سيأتى هذا المخلص ؟!

ـ الشعبُ السالكُ فى الظلمة أبصَرَ نوراً عظيماً . الجالسون فى أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور .

ـ أقصد كيف سيأتى إلى هذا العالم ؟! أم أنه سيذهب إلى عالم آخر ؟!

ـ يعطيكم السيد نفسه آية . ها العُذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل !

ـ لم يتبق سوى هذا ؟! كيف يمكن لعذراء أن تحبل وتلد ؟! إن هذا ضد كل نواميس الكون !!

ـ الله صانع نواميس الكون قال : احفظوا الحق واجروا العدل ، لأنه قريب مجىء خلاصى واستعلان برى . طوبى للإنسان الذى يعمل هذا ولإبن الإنسان الذى يتمسك به .

قريب ؟! متى ؟!

ـ اذا حفظت الحق وأجريت العدل .. هذا هو وعده ..

ـ لكن متى ؟! متى ؟!

قالها يوثام دون أن يهتم بإخفاء عصبيته المتصاعدة ؛ لكن إشعياء لم يتخل عن صوته الهادىء الرصين الوقور :

ـــ أعرف أن جلالتك تموت شوقاً لرؤياه .. ستراه فى الحق والعدل ..أما رؤية العين فلن تكون من نصيبك !

وماذا عن رؤيا القلب ؟!

كل شيء بإذن الرب ..

نهض يوثام ليقف خلف النافذة الحديدية ، وتصافح عيناه الأبراج التى شيدها أبوه الملك عزيا للدفاع عن أورشليم ثم التفت إلى يمينه حيث كان إشعياء قد نهض بدوره ليقف إلى جواره . تساءل يوثام وكأنه يسأل نفسه بصوت هدته الشيخوخة :

ـــ هل سيسير ابنى آحاز عندما يخلفنى على نهج جده وأبيه ؟!

صمت إشعياء للحظات وقد أقلق وميض عينيه الملك يوثام :

ـــ قد انتصب الرب للمخاصمة وهو قائم لدينونة الشعب .. هو سينزع سياج الكرم فيصير للرعى ، ويهدم جدرانه فيصير للدوس .. ويسبى الشعب لعدم المعرفة .. وتغفر الهاوية فاها لتبتلع بهاء أورشليم وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها .

شعر يوثام بنصل سكين ملتهب يشق قلبه لكنه تماسك حتى لا يبدو مهتزاً أمام نبى الله الذى يقرأ المستقبل وكأنه كتاب مفتوح :

ـــ وهل سيحدث هذا فى أيامى ؟!

ـــ سيكون هذا من نصيب ابنك آحاز

قاوم يوثام أمواج اليأس التى أغرقت كهوف نفسه المظلمة :

ـــ لكن أين دور المخلص الذى حدثتنا عنه ؟!

ـــ أطلبوا الرب ما دام يوجد . ادعُوهُ وهوَ قريب . ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يُكْثُر الغفران . لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب . لأنه كما علت السموات

عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم .

لم يستوعب يوثام كلمات إشعياء وإن لم يشك لحظة فى صدقها . ومضت بوادر الدموع فى عينيه الخابيتين فتألقتا . أوشك قلبه أن ينفطر حزناً . كان يأمل فى أواخر أيامه أن تسير المملكة على نهج أبيه الذى رسخه طوال فترة حكمه لكن نبوءة إشعياء أطفأت آخر شمعة فى حياته .

وتحققت نبوءات إشعياء بمجرد أن خلف آحاز أباه يوثام . فسيطر الوثنيون على مقادير المملكة ، ونسى الناس عبادة الله الواحد ، وتعاهد فقح ملك اسرائيل مع رصين ملك سوريا لغزو مملكة يهوذا ، ومع ذلك وقف إشعياء إلى جوار آحاز يعضده ويسانده ويبث الطمأنينة فى قلبه ويمده بالمشورة والنصيحة . لكن آحاز لم يكن رجل الموقف فهزم هزيمة ساحقة من الحليفين اللذين حاصرا أورشليم وأسرا ألوفا من شعبه . لم ينصت آحاز إلى إشعياء و لم يتكل على الله بل اتكل على ذراع بشر . لجأ إلى ملك آشور الذى انتهز الفرصة وغزا اسرائيل وسوريا ، وسبى سكان مملكة إسرائيل ، وأصبحت مملكة يهوذا مجرد دويلة تدور فى فلك آشور ، وآحاز مجرد تابع من توابع ملك آشور .

وسط كل هذا الظلام المتكاثف الطبقات ، وسخرية الوثنيين من نبوءات إشعياء ، لم يفقد إشعياء الأمل ، ولم يتخلَّ عن صيحته الشهيرة : « عمانوئيل .. الله معنا » ظل يبشر فى الأسواق والأزقة ، فى الميادين والحقول ، فى القصور والمعابد برغم كل نذر الحرب والدمار والموت :

ــ يُنصف لشُعوب كثيرين فيطبعُون سيُوفَهم سِكَكاً ورماحهم مناجِل . لا ترفع أُمَّةٌ على أمَّةٍ سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ..

على ناصية إحدى الطرقات تربص به وثنى مع أصدقائه الذين أثقلت الخمر ألسنتهم وسأله ضاحكا فى سخرية :

ــ ألم تمل بعد الكلام عن ذلك الذى سيأتى متطوعاً متبرعاً لحمل كل خطايا البشر دون أن يكلفه أو يجبره أحد على هذه المهمة العجيبة . إنها هواية غريبة لم أسمع عنها من قبل !!

ومَضَتْ عينا إشعياء وميضا بث الرعب فى قلب الوثنى ، ورفع يده اليمنى بعصاه قائلاً :

ــ أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها .. وهو مجروح لأجل معاصينا .. مسحوق لأجل آثامنا .. كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه .. والرب وضع عليه إثم جميعنا . ظُلِم اما هو فتذلل و لم يفتح فاه .. كشاةٍ تُساق إلى الذبح وكنعجةٍ صامتةٍ أمام جازيها فلم يفتح فاه .. وجعل مع الأشرار قبره .. جعل نفسه ذبيحة اثم .. سكب للموت نفسه .. وهو حمل خطية كثيرين وشفع فى المذنبين ..

ضحك شاب ثمل وقف الى جوار الوثنى :

اذاً فليحمل خطايانا التى سنرتكبها أيضا !

ثم علق آخر :

لم تعد لنا إرادة بعد أن وقعنا تحت رحمة الأشوريين !

فى لمح البصر تلاشت جماعة السكارى . عند بداية الطريق بدت كتيبة من الجنود الأشوريين الذين يدكون الأرض فى زهو وخيلاء حتى اقتربوا من إشعياء الذى ظل راسخاً كالطود فى مكانه لكنهم لم يعبأوا به . سار فى طريقه إلى المعبد لعله يجد من يستمع اليه . دخل المعبد الذى بدا مظلماً لولا ذبالات شموع لا تزال تترنح وتقاوم ، وبدا مهجوراً لولا بعض الشيوخ والعجائز هنا وهناك وبقايا عبق بخور كمنت فى الأركان المعتمة . اعتلى المنبر ليجلجل صوته حول أعمدة المعبد وفى أرجائه :

ــ هوذا بالعدل يملك مَلِكٌ ورؤساء بالحق يترأسون . ويكون إنسانٌ كَمَخبإٍ من الريح وستارةٍ من السيل كسواقى ماءٍ فى مكان يابسٍ كظلِ صخرةٍ عظيمة فى أرض مُعْيِيةٍ .

نهض شيخ محنى الظهر وقد اتكأ على عصاه قائلاً بنبرات مرتعشة مترددة :

ــ يانبى الله .. لقد بلغت من العمر أرذله .. لكننى لم أتصور أن أعيش أياماً مثل هذه الأيام المظلمة .. كيف يأتى الخلاص الذى طالما حدثتنا عنه وعشنا على أمله ؟ ! ولم يتبق فى العمر بقية ؟ !

ــ لا تقنط .. فالخلاص لا يفرق بين الأحياء والموتى .. ترنمى أيتها السموات وابتهجى أيتها الأرض لِتشِدِ الجبال بالترنم لأن الرب قد عزَّى شعبه

وعلى بائسيه يترحم . وقالت صهيون قد تركنى الرب وسيدى نسينى . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء يَنْسَيْن وأنا لا أنساك . هوذا على كفى نقشتك . أسوارك أمامى دائماً .

قبع الشيخ فى مقعده وقد انبسطت أساريره لكن نظراته كانت زائغة . انطفأت بعض ذبالات الشموع التى لم يتبق منها سوى اثنتين فأوشك المعبد أن يلتحف برداء العتمة لكن صوت إشعياء خرج قوياً ، متدفقاً ، مضيئاً :

ـــ جعلتك نوراً للأمم .. لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض ..قائلاً للأسرى اخرجوا .. للذين فى الظلام اظهروا .. لا يجوعون ولا يعطشون .. لأن الذى يرحمهم يهديهم .. إلى ينابيع المياه يوردهم . إيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه والذى ليس له فضة .. تعالوا اشتروا وكلوا .. هلموا اشتروا بلا فضة وبلا ثمن خمراً ولبناً . لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبكم لغير شبع . استمعوا لى استماعاً وكلوا الطيب ولتلذذ بالدسم أنفسكم . أميلوا آذانكم وهَلُموا الىّ . اسمعوا فتحيا أنفسكم وأقطع لكم عهداً أبدياً مراحم داود الصادقة . هوذا قد جعلته شارعاً للشعوب رئيساً وموصياً للشعوب . ها أمةُ لا تعرفها تدعوها وأمة لم تعرفك تركض اليك من أجل الرب الهك .

هكذا ظلت نبوءة إشعياء بمجىء المخلص نبع الضياء الوحيد فى ذلك الزمن الملتحف بأردية العتمة والظلام حتى رحل الملك آحاز وخلفه حزقيا الذى آمن بأن الرب يتحدث على لسان نبيه ، فاستمع إلى كلماته المنيرة الهادية وأبطل عبادة الأوثان ، وأعاد عبادة الله الواحد ، وأعاد فتح الهيكل والمعابد على مصاريعها ليقبل عليها الناس من كل حدب وصوب ، واحتفى بعيد الفصح . ثم انتهج خطة جده الأكبر عزيا ، فأحاط أورشليم بحصون وأبراج منيعة ، وشجع الزراعة ، واحتضن كثيرين من الأدباء والكتاب الذين أقبلوا على جمع الآثار الأدبية القديمة وصيانتها من أيدى العابثين .

إن طبقات الظلام مهما تكاثفت وتراكمت وأطبقت على أنفاس المتشككين والمترددين والضائعين ، فإنها لا تستطيع الصمود أمام طاقة نور فى حجم الشمعة الذابلة . فما بالك بنهر الضياء المتدفق من فم إشعياء وقلبه ! كان عليه أن يبلغ الرسالة الإلهية برغم أنها كانت تبدو فى معظم الأحيان كالألغاز والطلاسم . كان الناس يبهرون ويندهشون لكنهم لا يستوعبون . فلقد ظل

أربعين عاماً يحمل رسالة الله فى أزمنة الرخاء ، وفى أزمنة الضراء ، لشعب قد عميت بصيرته عن إدراك دعوته السماوية ، وتجرد قلبه من رجاء الخلاص . فلما انخدع القوم واغتروا بأنفسهم ، أنذرهم بالدينونة المحتومة . ولما خاضوا متاهات اليأس والضياع ، طمأنهم وشجعهم ووعدهم بحماية الله ورعايته وخلاصه . لم يدركوا أنه كان يقرأ لهم المستقبل ككتاب مفتوح . لكن الكتاب كان أعلى من عقولهم وإدراكم خاصة عندما كان يقول لهم :

ــ إلى الوراء لم أرتد .. بذلت ظهرى للضاربين وخدَّىَّ للناتفين .. وجهى لم أسْتُرُ عن العار والبصق .

وذات يوم فى المعبد تحجرت نظرات المصلين فى مواجهة كلمات إشعياء المحيرة :

ــ أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن .. إن جعل نفسه ذبيحة إثم .. ومَسَرّةُ الرب بيده تنجح .. وعبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين .. وآثامهم هو يحملها . لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة .. من أجل أنه سكب للموت نفسه .

وكان معظمهم يخشى مجرد سؤاله . حتى فى المحافل الدينية كانت اجاباته ملغزة أكثر من أسئلتهم . سأله أحدهم :

ــ كيف سيأتى المخلص ؟ ! لابد أن مجده سيبز مجد سليمان ؟ !

أجابه إشعياء بتأكيد حازم :

ــ لا يصيح ولا يسمع فى الشوارع صوته !

هل كان من الممكن أن يدركوا كيف يبذل المخلص ظهره للضاربين ؟ وخده للناتفين ؟ ! من هو هذا المخلص الذى سيجىء لإنقاذ البشرية ولا يستطيع أن ينقذ وجهه من العار والبصق ؟ ! كيف يُسر الله ذو الجلال بأن يسحقه بالحزن ويجعل نفسه ذبيحة إثم ؟ ! كيف يسكب نفسه للموت وهو الذى سيجىء ليقهر موت الخطيئة الذى كتب على البشرية منذ طرد آدم وحواء من الفردوس ؟ ! كيف سيفرض سلطانه وهيلمانه على كل البشرية وهو لا يصيح ولا يسمع فى الشوارع صوته ؟ ! لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه .. مُحتقر ومخذول من الناس .. رجل أوجاع ومختبر

الحزن .. محتقر فلم نعتد به .. لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها .. ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً .. وهو مجروح لأجل معاصينا .. مسحوق لأجل آثامنا !!

كيف سيقع كل هذا للمخلص القادم وهو الذى قال إشعياء نفسه عنه أنه سيكون « الهاً قديراً » وهو الذى سيقول عن نفسه « أنا هو . أنا الأول وأنا الآخر . ويدى أسست الأرض ويمينى نشرت السماوات .. السيد الرب أرسلنى وروحه » ؟ ! هذا الإله العظيم الجبار ، الأبدى : كيف يتذلل ولا يفتح فاه . كشاه تساق إلى الذبح .. وكنعجة صامتة أمام جازيها فلا يفتح فاه ؟ ! كيف يدوس المعصرة وحده ومن الشعوب لا يكون معه أحد ؟ ! ينظر حوله فلا يجد معين ولا يخرجه عاضد من حيرته ؟ ! كيف يحصى مع أثمة ، ويجعل مع الأشرار قبره ، ومع غنى عند موته ؟ ! ثم بعد كل هذا يؤسس فى صهيون حجراً .. حجر زاوية كريماً .. أساساً مؤسساً .. ويجعل الحق خيطاً والعدل مطماراً ؟ ! بل ويشفع فى المذنبين ؟ ! عندئذ كل وطأ يرتفع .. وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيماً .. والعراقيب سهلاً .. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر !!

كانت نبوءات إشعياء كالأسرار المقدسة التى لا يستطيع أن يفض مغاليقها سوى من بلغ إيمانه درجة اليقين الذى يقفز به فوق حواجز الزمان والمكان . لكن الرب كان ينظر دائماً إلى ضعف البشر وحيرتهم فى مواجهة أسرار الكون ، فتوالت تلك الكوكبة الرائعة من أنبيائه الذين بعثوا ليعدوا طريق الرب ، ويقوموا فى القفر سبيلاً لإلهنا .

(٥)

وتدور عجلة الزمن تطحن فى طريقها كل الذين لم يدركوا معنى وجودهم . ويجيء إرميا ليرى فى مملكة يهوذا أمة خاطئة وفى أورشليم مدينة فاسدة فيعلن صيحته :

ـ خطية يهوذا مكتوبة بقلم من حديد .. برأس من الماس .. منقوشة على لوح قلوبهم .. باطل لأننا نسعى وراء أفكارنا .. وكل واحد يعمل حسب عناد قلبه الردىء ..

كان يبشر برسالته فى الميادين والمعابد ، فى الأعياد والمواسم الدينية ، في أبهاء الهيكل وفى القصر الملكى ، وعند أبواب أورشليم فى الأيام التى تحتشد فيها الجماهير للعبادة والاحتفال بالأعياد . كانت حياته بمثابة إعداد لطريق الرب وتقويم سبيل فى القفر لإلهنا . بل إن ما حدث معه فى فناء الهيكل كان إيذانا بما سوف يقع للفادى المخلص بعد ذلك بخمسة قرون حين وقف إرميا فى فناء الهيكل فى عيد الفصح حيث احتشد كل سكان مملكة يهوذا فى أورشليم للعبادة . وإذ بصوته يدوى فى آذان الشعب :

ـ ها إنكم متكلون على كلام الكذب الذى لا ينفع . أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها . ثم تأتون وتقفون أمامى فى هذا البيت الذى دعى باسمى عليه وتقولون قد أنقذنا . حتى تعملوا كل هذه الرجاسات . هل صار هذا البيت الذى دعى بإسمى عليه مغارة لصوص فى أعينكم .

ولكن وقعت كلماته على قلوب الكهنة الحجرية فلم تطرح ثماراً ، بل اتهموه ومعهم الشعب بالتجديف وطالبوا بقتله وسفك دمه لأنه هدد الهيكل والمدينة بالخراب والدمار :

ـ هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكُسر وَعَاءُ الفخارى بحيث لا يمكن جبره بعد وفى توفة يُدفنون حتى لا يكون موضع للدفن ... هأنذا جالب على هذه المدينة وعلى كل قراها كل الشر الذى تكلمت به عليها لأنهم صلّبوا رقابهم فلم يسمعوا لكلامى .

وكانت تهمة التجديف هي التهمة التي وجهت إلى الفادى المخلص بعد ذلك وحوكم على أساسها ، أما إرميا فقد أفلت من أيديهم لأن بعض الشيوخ الأجلاء دافعوا عنه ضد كل المتربصين به . كذلك كان إرميا مرفوضاً من السلطة . ففى أثناء حكم الملك يهوياقيم قام إرميا باملاء سفر دينى خطير على الكاتب باروخ الذى قرأه على الشعب فى عيد الفصح ، وأذاعه داخل الهيكل وخارجه ، ثم توجه بالسفر إلى قصر الشتاء الفاخر حيث مقر الملك الذى كان متربعاً على عرشه أمام المدفأة المرمرية وحوله الحاشية التى كانت تنصت إليه بمنتهى الإهتمام . وفى ترفع ملكى سمح لباروخ أن يقرأ من السفر الذى أتى به ، لكنه ما أن قرأ بضع سطور من السفر ، انتفض الملك هائجاً كالعاصفة وانتزع السفر من يده ومزقه وألقاه فى نار المدفأة التى توهجت على وجهه الطافح بالاحتقار والضيق ، غير منصت لإلحاح بعض الأمراء الذين توسلوا إليه أن لا يحرق السفر ، أما باقى رجال الحاشية فقد تابعوا المشهد متعجبين أو معجبين أو غير مبالين .

وفى أزمة حصار أورشليم اتهموه بأنه يشايع للكلدانيين ، وطُرح فى غياهب السجن فى زنزانة قذرة ناضحة بالعفن . لكن إرميا كان يتأمل الأحجار الضخمة التى بنت منها الجدران ، والكوة الحديدية أعلى باب الزنزانة المصنوع من خشب البلوط والمسلح بمسامير حديدية صدئة ، وشعاع القمر الحانى المتسلل من الثقب الحجرى الضيق أعلى الجدار ، والأرض المتربة والمشبعة بالرطوبة والديدان والحشرات ، بلا فراش أو غطاء ؛ كان يتأمل كل هذا وقلبه يفيض بالإيمان والأمل ، ليس لحاضر يهوذا وإسرائيل فحسب بل لمستقبل البشر جميعاً يوم يحل الفادى المخلص الذى سيحرر الإنسانية من آلام الروح وخطايا الموت . فقد صارت كلمة الرب الى إرميا ثانية وهو محبوس بعد فى دار السجن قائلة :

ــ ادعنى .. فأجيبك .. وأخبرك بعظائم وعوائص لم تعرفها .. ها أيام تأتى يقول الرب ، وأقيم الكلمة الصالحة التى تكلمت بها إلى بيت إسرائيل وإلى بيت يهوذا . فى تلك الأيام وفى ذلك الزمان أنبت لداود غصن البِّر فيجرى عدلاً وبراً فى الأرض ، فى تلك الأيام .. تسكن أورشليم آمنة ، وهذا ما تتسمى به : الّربُّ برُّنا .

وفاضت الزنزانة بضوء فضى لم يعرف له إرميا مصدراً ، لكنه غمر قلبه بالسكينة والطمأنينة والسلام . فقد كتب الرب لخليقته الخلاص . لكن متى يجيء المخلص ؟! لم يكن أحد يعرف حقيقة هذا الميعاد الإلهى فى تلك الأيام البعيدة !

ثم سمع أصواتاً ملائكية عذبة وكأن جدران السجن تردد تسبيحها مبشرة بالمخلص الذى يجرى حقاً وعدلاً فى الأرض ، وإن كان سيصبير للضحك كل النهار . كل واحد سيستهزىء به .. لأن كلمة الرب للعار و للسخرية كل النهار .. وإخوته أنفسهم وبيت أبيه سيتركونه هم أيضاً . لأن الخلاص لن يتم الا بالفداء ، ولن يحل الفداء بدون سفك دم .

ثم يجيء حزقيال النبى مهللاً لمجيء المخلص برغم مروره بمأساة السبى إلى بابل . كان نبوخذ نصر عاهل البابليين الجبار قد استولى على أورشليم وأخضعها تحت أقدامه فى القرن السادس قبل الميلاد . وقرر أن يتركها خواء وخرابا فأخذ الملك يهوياقيم الشاب والملكة الوالدة إلى مدينة بابل ومعهماعشرة آلاف مسبى من المفكرين والصناع والمعلمين والأقيان ، ولم يترك بين أرجائها الخربة ، الخاوية ، الحزينة سوى المساكين والفقراء وأبناء السبيل . وكان بين المسبيين الذين ساروا فى هذا الموكب الحزين عبر البيداء المحرقة إلى مدينة بابل ، كاهن شاب اسمه حزقيال ، كان الله قد أعده ليعد طريق الرب فى أرض الضياع والغربة والسبى .

وهناك على ضفاف نهر خابور التفرع من الفرات استقر حزقيال وتزوج ، وجعل من بيته منارة لعقيدة والفكر للشباب والشيوخ ، واحتل مكانة رفيعة بين قومه فى بلد غريب . كان مثال الراعى الصالح الذى أعد الطريق للراعى المخلص ، إذ رأى أن محنة الرعية كانت نتيجة لفساد حين صاح فيهم بصوت كالرعد :

ــويل لرعاة اسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم . ألا يرعى الرعاة الغنم . تأكلون الشحم .. وتلبسون الصوف .. وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم .

ويخاطبهم وقد تجمعوا حوله على ضفاف نهر خابور ، والعرق يتصبب على وجوههم الشاردة ، والشمس الغاربة لا تزال تلهب ظهورهم المنحنية برغم جذوع النخل الطويلة :

ـــ المريض لم تقووه .. والمجروح لم تعصبوه .. والمكسور لم تجبروه ... والمطرود لم تستردوه .. والضال لم تطلبوه .. بل بشدة وعنف تسلطتم عليهم .. يكفيكم يارؤساء .. أزيلوا الجور والاغتصاب .. وأجروا الحق والعدل .. ارفعوا الظلم ..

ومع نفحات النبوة يبشر بمجيء المخلص فيمنح الأمل للبشرية الضائعة المعذبة حين يقول الرب على لسانه :

ـــ وأجعل روحى فيكم فتحيون .. وأرش عليكم ماء طاهراً فتطهرون .. وأعطيكم قلباً جديداً .. وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم .. وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلب لحم ، وأجعل روحى فى داخلكم .. وأجعلكم تسلكون فى فرائضى وتحفظون أحكامى وتعملون بها .

ثم يعلو اللحن الإلهى العذب. فى بشارة حزقيال التى تتغنى بمجيء المخلص من نسل داود ، عندما سهر حزقيال ذات ليلة فى بيته على ضوء الشموع وهو يكتب الأصحاح السابع والثلاثين فى سفره المقدس ، والكلمات التى يكتبها تتردد أصداؤها فى وجدانه فيمتلىء رهبة وخشوعاً :

ـــ ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشيء من معاصيهم بل أُخلصهم من كل مساكنهم التى فيها أخطأوا وأُطهرهم فيكونون لى شعباً وأنا أكون لهم إلهاً . وداود عبدى يكون ملكاً عليهم ويكون لجميعهم راع واحد .. وأقطع معهم عَهْدَ سلام فيكون معهم عهداً مُؤبداً وأُقرُّهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم الى الأبد . ويكون مسكنى فوقهم وأكون لهم إلهاً ويكونون لى شعباً . فتعلم الأمم انى أنا الرب .

هكذا كانت رسالة حزقيال تدق الأسماع وتطرق القلوب للراعى الفادى المخلص . فقد فقدت البشرية راعيها الذى سيرشدها إلى المراعى الخضر بعيداً عن صحارى الخطيئة والضياع حيث الظمأ والجوع والجفاف ، لكن الرب هو رب الخلاص وليس رب الهلاك :

ـــ هكذا قال السيد الرب لهم : هاأنذا أحكم بين الشاة السمينة والشاة المهزولة . لأنكم بهزتم بالجنب والكتف ونطحتم المريضة بقرونكم حتى شتتموها إلى خارج ، فأخلص غنمى .. فلا تكون من بعد غنيمة .. وأحكم بين شاة وشاة .. وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها عبدى داود . هو يرعاها

وهو يكون لها راعياً .. وأقطع معهم عهد سلام وأنزع الوحوش الرديئة من الأرض فيسكنون فى البرية مطمئنين .. وينامون فى الوعور .. ويكونون آمنين فى أرضهم .

ويمضى موكب الأنبياء العظام ، ويسهل علينا دانيال النبى برؤاه ونبواءاته التى ترسم صورة مبهرة فى دقتها للمخلص القادم . كان أول من حدد موعد ميلاد المخلص بخمسة قرون إلا عشر سنوات على وجه الدقة . فقد شفّت روحه وصنعت فقفزت فوق القرون والأجيال وهو يصلى فى ضراعة خاشعة وكان مسبياً فى بابل ، منفياً بعيداً عن وطنه ومدينته الحبيبة أورشليم ، ومع ذلك لم تقتله الغربة لأن وطنه الحقيقى كان الصلاة والرؤيا :

ـــ ياسيد حسب كل رحمتك اصرف سُخْطك وغضبك عن مدينتك أورشليم .. جبل قدسك إذ لخطايانا ولآثام آبائنا صارت أورشليم وشعبك عارا عند جميع الذين حولنا . فاسمع الآن ياإلهنا صلاة عبدك وتضرعاته وأضىء بوجهك على مقدسك الخرب من أجل السيد .أمِل أُذنك ياإلهى واسمع .. افتح عينيك وأنظر خربنا والمدينة التى دعى اسمك عليها لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعاتنا أمام وجهك بل لأجل مراحمك العظيمة . ياسيد اسمع .. ياسيد اغفر .. ياسيد أصغ واصنع . لا تؤخر من أجل نفسك ياإلهى لأن اسمك دعى على مدينتك وعلى شعبك .

وفى أعقاب هذه الصلاة الحارة اللاهثة وراء الغفران برغم كل المعاصى التى ارتكبها شعب اسرائيل فى حق الرب ، فإن إيمان دانيال النابع من قلبه المسحوق يشف ويصفو ويرتفع إلى آفاق اليقين بمجىء المخلص الذى سينتشل البشرية الساقطة من براثن الخطيئة ومهاوى الموت :

ـــ وبينما أنا أتكلم وأصلى وأعترف بخطيتى وخطية شعبى اسرائيل وأطرح تضرعى أمام الرب إلهى عن جبل قدس إلهى وأنا متكلمٌ بعد بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذى رأيته فى الرؤيا فى الابتداء مطاراً واغِفاً لمسنى عند وقت تقدمة المساء . وفهَّمنى وتكلم معى وقال يادانيال إنى خرجت الآن لأُعلمك الفهم . فى ابتداء تضرعاتك خرج الأمر وأنا جئت لأخبرك لأنك أنت محبوب . فتأمل الكلام وافهم الرؤيا . سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا

والنبوة ولمسح قدوس القدوسين . فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً .يعود ويبنى سوق وخليج فى ضيق الأزمنة . وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح وليس له وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة وإلى النهاية حرب وخرب قضى بها . ويثبت عهداً مع كثيرين فى أسبوع واحد وفى وسط الأسبوع يبطّل الذبيحة والتقدمة وعلى جناح الأرجاس مخرِّب حتى يتم ويصبُّ المقضى على المخرب .

وبحساب التقويم العبرى القديم الوارد فى سفر اللاويين فإن المقصود بالاسبوع ليس سبعة أيام ، وإنما سبع سنين . ونبوءة دانيال عن السبعين أسبوعاً تعنى أربعمائة وتسعين عاماً ، أى المدة من عودة اليهود من السبى فى آشور وبابل ، إلى مجيء المسيح ، ثم دمار أورشليم . أما السبعة أسابيع والإثنان والستون أسبوعاً أى أربعمائة وثلاثة وثمانون عاماً فهى المدة من صدور أمر ملك الفرس زيركيس بإعادة بناء أسوار أورشليم ، إلى مجيء المسيح . ومن الثابت تاريخياً أن أمر ملك الفرس صدر عام ٤٥٨ ق . م ، ولذلك فان اليهود كانوا يتوقعون ظهور المسيح فى بداية القرن الأول الميلادى .

كانوا متعلقين بأمل الخلاص وبصيص نوره وسط دياجير الظلمة المتكاثفة عليهم فى أرض الوطن وأرض السبى على حد سواء . وكانت رؤى دانيال بمثابة الكوة التى تنفتح عليهم من حين لآخر كى يسطع هذا النور فيبدد عتمة طرقاتهم الحالكة . فلم يكن دانيال مشغولاً بمرارة السبى ومأساة الأسر بقدر انشغاله بأمل الخلاص القادم لكل البشر مع قدوم الرب نفسه . فقد كانت كوكبة الأنبياء العظام بمثابة الحاشية التى سبقت مجيء الملك لتعرف البشر بحتمية ساعة الخلاص . وكان دانيال أحد نجوم هذه الحاشية حين قال كلمات كأنها افتتاحية ملحمة الخلود :

ـــ كنت أرى فى رؤى الليل وإذا مع سُحُب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه فأعطى سُلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول .. وملكوته ما لا ينقرض .

أما هوشع النبى فقد كانت حياته وتعليمه تجسيداً حياً لما سوف يقع للمسيح

من بنى اسرائيل الذين رفضوا فداءه وخلاصه . فهوشع كان قد تزوج من امرأة تدعى جومر ورزق منها أولاداً ، لكنها خانته وهجرته ضاربة بالأسرة كلها عرض الحائط ، وخاضت بساقين عاريتين أوحال الفساد والعفن حتى بيعت فى النهاية رقيقة فى سوق الاماء . لكن هوشع النبى والزوج الأمين ، لم يتخل عنها حتى وهى فى هاوية العار والذل ، فإذ به يفتديها بماله ويردها إلى بيته ثانية ، لكنه وضعها تحت رقابة صارمة وقطع صلتها بالعالم الخارجى الزاخر بالإغراء والتحريض على الرذيلة . وفى الوقت نفسه كان يرعاها بكل الحنان والحب والعطف . كان لها أباً وأخاً وزوجاً وعالماً بأكمله ، صابراً فى انتظار أن تطهر دموع التوبة الصادقة الحارة نفسها الملوثة بأوحال الخطيئة ، وأن يصحو قلبها مرة أخرى ليلبى نداء حبه الذى لم تجف منابعه المتدفقة و لم تنطفىء نيرانه المتأججة .

و لم يكن ما فعله هوشع مع جومر سوى ما فعله المخلص مع خاصته التى جاء من أجلها و لم تقبله . ومع ذلك فإن محبة الله للبشر لا تجف ولا تخمد ، وإن سمح لهم بالمحنة كبوتقة تنصهر فيها ذنوبهم وشرورهم ثم يتطهرون بنار التجربة ويخرج معدنهم أكثر نقاء وأشد بريقاً . فذات يوم قال هوشع لمريديه :

أذهب وأرجع إلى مكانى حتى يطلبوا وجهى .. فى ضيقهم يبكرون الىّ ... هلم نرجع إلى الرب لأنه هو افترس فيشفينا . ضرب فيجبرنا .. يحيينا بعد يومين . وفى اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه . لنعرف فلنتتبع . لنعرف الرب . خروجه يقين كالفجر . يأتى إلينا كالمطر . كمطرٍ متأخرٍ يسقى الأرض .

وهل هناك نبوءة أنصع من هذه عن قيامة المخلص من بين الأموات فى اليوم الثالث بعد موته على الصليب ؟ ! هذا النبى العجيب هوشع بشر أيضاً برحيل الطفل يسوع مع عائلته المقدسة إلى أرض مصر هرباً من بطش الطاغية الدموى هيرودس الذى أمر بقتل كل أطفال بيت لحم لعل الطفل الإلهى يكون بينهم فيتخلص من خطره الذى يهدد عرشه كما كان يظن فى يقظته ومنامه . لكن مع انقشاع الغمة وموت الطاغية أمر الله الأسرة المقدسة للعودة من مصر إلى فلسطين . ويتنبأ هوشع بلسان الله فيلهج قائلاً فى حرارة وحب منهمر :

— من مصر دعوت ابنى

كانت ملحمة الخلاص تلح على عقل هوشع وقلبه ليل نهار . أكدت له

رؤاه أن الليل لابد أن يتبعه نهار ، وأن الموت يعقبه حياة لا تعرف الموت ، ولابد أن يأتى المخلص حتى تتم هذه الملحمة الإلهية التى بدأت بخلق آدم الذى خالف وصية الله فطرد من الجنة وحكم عليه بالموت :

وأنا الرب إلهك من أرض مصر . وإلهاً سواى لست تعرفُ ولا مخلص غيرى .. من يد الهاوية أفديهم من الموت أخلصهم . أين أوباؤك ياموت أين شوكتك ياهاوية ؟ !

ألم تكن هذه أجمل وأروع نغمة سمعتها البشرية يوم قيام الفادى من بين الأموات ؟ ! لكن هوشع كان واعياً لصعوبة إدراك معنى نبوءاته ورؤاه وسط شعب عُرف بأنه غليظ الرقبة ، لا يرى أبعد من مواطىء أقدامه التى اعتادت الخوض فى طريق الأوحال والآثام ، فى حين أن الفادى القادم على طريق الآلام سيطهره من كل إثم . ولذلك يختم هوشع سفره ذات فجر مبلل بقطرات الندى البللورية ومكلل بجحافل الضباب الفضى قائلاً :

ــ من هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفهيم حتى يعرفها . فإن طُرُق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها . وأما المنافقون فيعثرون فيها .

أما ميخا النبى فقد بعث فى فترة ساد فيها سلطان الظلام على كل الأشياء ، وهبط فيها البشر إلى قاع الإثم ، وتمزقت عرى الروابط المقدسة ، وسقطت الثقة بين الأقدام الشاردة فى أرض الضياع :

لا تأتمنوا صاحباً . لا تثقوا بصديق . احفظ أبواب فمك عن المضجعة فى حضنك .. لأن الإبن مستَهين بالأب . والبنت قائمة على أمها ، والكنة على حماتها .. وأعداء الإنسان أهل بيته .

لكن النبوءة الكاشفة تلعب نفس دورها فى تبديد طبقات الظلام الجاثمة على أنفاس البشر الذين لا حياة لهم بدون وعد الخلاص وحلول المخلص الذى سيحمل عنهم كل الآلام :

ــ يضربون قاضى إسرائيل بقضيب على خده . أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا . فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل .

ثم يختم ميخا سفره بنهر متدفق من رحمة الرب التى وسعت كل خطايا

العالم حتى أرسل ابنه الوحيد فداء عنا :

ـــ من هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب لبقية ميراثه . لا يحفظ إلى الأبد غضبه فإنه يسر بالرأفة . يعود يرحمنا . يدوس آثامنا وتطرح فى أعماق البحر جميع خطاياهم . تصنع الأمانة ليعقوب والرأفة لإبراهيم اللتين حلفت لآبائنا منذ أيام القدم .

أما ناحوم النبى فيقرع أجراس الفرح والبهجة مبشراً بمجىء الفادى من أجل عالم آخر مفعم بالنشوة الخالدة والأعياد الدائمة :

ـــ هوذا على الجبال قدما مبشر مناد بالسلام . عيدّى يا يهوذا أعيادك . أوفى نذورك ، فإنه لا يعود يعبر فيك أيضاً المهلك . قد انقرض كله .

كذلك يعزف زكريا النبى نفس اللحن المنتشى بمجىء الملك الفادى المخلص ، فيلهج لسانه بالنبوءة الجزلى :

ـــ ابتهجى جداً ياابنة صهيون . اهتفى يابنت أورشليم . هوذا ملكك يأتى إليك . هو عادل ومنصور . وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان . ويتكلم بالسلام للأمم . وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . وأنت أيضاً فإنى بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء . ارجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء .

تم تتتابع لوحات الصلب لتجسد الوجه الآخر لنشوة الخلاص . فلابد من سفك الدم حتى يتم الخلاص :

ـــ وأفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات فينظرون إلى الذى طعنوه وينوحون عليه كنائح على وحيد له ويكونون فى مرارة عليه كمن هو فى مرارة على بكره .

فقد جاء الراعى ليجمع رعيته تحت جناحيه لكن حكام ذلك الزمان خشوا على ملكهم من سلطانه العجيب فقرروا تطبيق مبدأ :

ـــ اضرب الراعى فتتشتت الغنم .

وظنوا أن الصلب ثم الموت سيضع نهاية لهواجسهم المرة التى لا تفارق مخادعهم وتنام على وسائدهم ، لكن الموت كان بداية الخلاص الحقيقى :

هوذا الرجل الغصن اسمه ومن مكانه يَنْبتُ ويبنى هيكل الرب . فهو يبنى هيكل الرب وهو يَحْمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه .

وهذا اللحن هو امتداد للحن الذى عزفه حجى النبى وجوانحه تذوب نشوة لمجىء المخلص :

ـــ لا تخافوا . لأنه هكذا قال رب الجنود . هى مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة . وأزلزل كل الأمم ويأتى مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً .. مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول .. وفى هذا المكان أعطى السلام .

ثم يهل ملاخى النبى ، آخر حلقة فى السلسلة الذهبية لكوكبة الأنبياء العظام ، ليضع العلامات الأخيرة على طريق الرب الذى آن الأوان أخيراً لبدء مسيرته . إنه طريق الفردوس والخلود ، طريق الأشواك والآلام الذى سيسير عليه المخلص من أجل أن تهجر الأقدام الملوثة بالأوحال طريق الخطايا والآثام ، المؤدى إلى هاوية الجحيم . هكذا اختتم ملاخى آخر ألحان الافتتاحية المقدسة للملحمة الإلهية :

ـــ هاأنذا أرسل ملاكى فيهيىء الطريق أمامى ويأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه وملاك العهد الذى تسرون به . هوذا يأتى قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره ؟ !

وبسفر ملاخى النبى انقطع الوحى الذى بدأ بسفر التكوين حين تنبأ يعقوب أبو أسباط اليهود قائلاً :

ـــ لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومشترعٌ من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب .

والقضيب هنا يرمز إلى الملك ، والمشترع هو المشرع ، وشيلون هو المسيح . فاذا لم يعد لليهود ملك ، ولا مشرع فلابد أن يأتى المسيح . ومع مطلع القرن الأول الميلادى لم يعد لليهود ملك بعد أن وقعوا تحت نير الرومان ، سادة العالم فى ذلك الزمان . كذلك لم يعد لهم من يشرع لهم بعد أن قتل هيرودس كل أعضاء مجلس السنهدريم الذين كانوا يقومون بالفصل فى أمور العقيدة والشريعة . ولذلك بات اليهود يتوقعون مجىء المسيح بين يوم وآخر

حتى يخلصهم من نير الرومان واستعبادهم لهم . فقد ظنوا أن المسيح سيأتى ملكاً جباراً وقائداً كاسحاً لأعدائهم فيعيد أمجاد مملكة داود ويصنع منهم سادة على قمة العالم كله .

كان طريق الرب مفتوحاً على مصراعيه لمجىء ملك الملوك بعد أن تقدمه موكب الأنبياء العظام . مجىء غير كل نواميس الكون لأنه صانعها وخالقها . كان ميلاده مولداً جديداً للبشرية جميعاً ، وبموته وقيامته قامت البشرية إلى حياة الخلود بعد أن انتشلها من هاوية الموت الذى طاردها منذ ارتكب آدم الخطيئة الأولى . وبذلك بدأت الملحمة الإلهية ذروتها لإعادة صنع الوجود ، وسط أهازيج ملائكة الخلود ، تنفيذاً لمشيئة رب الجنود .

(٦)

فى البدء كان الكَلِمةُ والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . والنور يضيء فى الظلمة والظلمة لم تدركه .

مرت حوالى أربعة قرون على انقطاع الوحى منذ أيام النبى ملاخى ، فاشتد حنين الناس لمجيء المخلص الذى آن أوانه طبقاً لنبوءات دانيال وغيره من كوكبة الأنبياء العظام فى العهد القديم . وكانت أهم علامتين من علامات المجيء أن يفقد اليهود ملكهم ومجلس تشريعهم . وقد تأكدت العلامتان عندما أصبح هيرودس ملك اليهودية مجرد تابع ذليل للامبراطورية الرومانية لا يمارس الحكم والسطوة إلا على رعاياه الواقعين تحت رحمته . كما قام بذبح كل أعضاء السنهدريم حتى لا يتصدى له أحد منهم فى أمور العقيدة والشريعة ، ويخلو له الجو تماماً فى ممارسة الطغيان على اليهود والتذلل للرومان .

فى تلك الأيام النابضة بالقلق والحبلى بالتوقعات ، عاش كاهن يدعى زكريا وزوجته اليصابات حياة البر والتقوى . كانت سنوات العمر قد تقدمت بهما ولم يرزقهما الله بطفل . لكنه ظل راضياً بحياته فقد كان الله يملأ حياته نورا ونعمة . وكانت أسعد لحظاته وهو يقوم بطقوس الكهنوت فى هيكل الرب . كان يتحرك بانحناءة ظهره ولحيته الشهباء الطويلة ممسكاً بالمبخرة التى تتصاعد منها السحب البيضاء والرمادية فى أمواج إلى قبة الهيكل ، فترتفع عيناه الكليلتان ليسبح بحمد الرب الذى أنعم عليه بخدمته فى محرابه حتى تلك السن المتأخرة .

وفى هذا المكان استقبل أروع لحظات عمره وأجملها . كان واقفاً أمام مذبح البخور ونفسه تكاد تتلاشى وجدا وخشوعاً مثل طيات البخور التى تحولت إلى غلالات شفافة توحى ولا تخفى ، تملأ الروح نشوة وتألقا . فى ذلك الصباح العجيب كان نهبا لأحاسيس غامضة مثيرة تدغدغ كيانه الهش الرقيق حتى كاد يشعر أنه على وشك أن يحلق بجسده بين طبقات البخور ذات العبق النفاذ الأخاذ المثير المتسلل الى جمهور المصلين خارج الهيكل .

فجأة بين طيات البخور تبدت له صورة سرت بالاضطراب والرعب فى وجدانه المهتز بارتعاشة طارئة . لم يكن الأمر مجرد أحاسيس غامضة مثيرة إذ

أنه رأى رؤية العين ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور . لم يكذب عينيه الذابلتين وقشعريرة عارمة تجتاح جلده المتغضن . كان الملاك بطلعته النورانية ووجهه المشع بنور لم يعرفه هذا العالم ينظر الى خوفه وانسحاقه ، ويقول له بصوت التسبيح السماوى العذب الساحر :

ـــ لا تخف يازكريا لأن طلبتك قد سُمعت وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا . ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته . لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب . ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس . ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم . ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكى يهيىء للرب شعباً مستعداً .

كان زكريا قد صلى للرب أن يمنحه ولداً ، ليس اعتراضاً على مشيئته ، وإنما رأفة بزوجته المسنة التى لم تستطع صد موجات أحاسيسها بالعار . لم تكن تحتمل نظرات العطف والرثاء فى عيون الأخريات اللاتى حاولن قدر طاقتهن ألا يمسسن الموضوع الشائك من قريب أو بعيد . لكن وميض الرثاء فى عيونهن كان نصل سكين حاد فى قلبها الذى فقد بهجة الحياة . كانت العاقر فى تلك الأيام تتمنى أن تفتح الأرض فوهتها المظلمة كى تبتلعها بعارها . لذلك قال زكريا للملاك بنبرات مرتعشة ، هامسة ، مبحوحة :

ـــ كيف أعلم هذا لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها ؟!

عاد الصوت السماوى ليصدح ممتزجاً بالوميض النورانى :

ـــ أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا . وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته .

خارج الهيكل سَرَى التعجب بين صفوف المصلين لتأخر الكاهن داخله . تطلعت بعض النظرات عبر المدخل لعلها تلتقط ما يدور فى المكان المقدس ولم تهدأ حيرتها وترددها يميناً ويساراً إلا بخروج زكريا . لكن دهشتهم تصاعدت عندما وجدوه عاجزاً عن النطق وهو ممسك بلسانه الذى أخرج بعض أصوات غير مفهومة وغير واضحة تحولت إلى صمت مطبق ، استعان

عليه بإيماءات ضارعة وإشارات من أصابعه المرتعشة . فأدركوا فى الحال أنه قد رأى فى الهيكل رؤيا . فقد كانت النفوس مفعمة بترقب حلول المخلص ، وبدت شموع بيت الرب أكثر تألقاً وأشد وميضاً .

وتم ما قاله ملاك الرب جبرائيل ودبت الحياة فى بطن أليصابات ، والنشوة فى حناياها . إعتزلت الناس خمسة أشهر . لم تكن فى حاجة إلى صحبتهم بعد أن احتوت الدنيا كلها بين ضلوعها . كان زكريا ينظر إليها فى صمت حائر ، متعجب ، بليغ ، متسائل اذ أن عقدة لسانه لم تكن قد انحلت بعد . لكنها كانت تجيب تساؤلاته الصامتة وقلبها متفجر بتقديس القدوس :

ـــ هكذا قد فعل بى الرب فى الأيام التى فيها نظر الىّ لينزع عارى بين الناس .

شهدت مدينة يهوذا هذه المعجزة التى أثارت تساؤلات الجيران والسكان خاصة فى فترة عزلة أليصابات التى امتدت خمسة أشهر خرجت بعدها إلى الناس وقد غمرها الزهو ببطنها الممتلىء بالجنين المقدس ، فسبح الجميع بحمد الرب .

لكن كان مقدرا فى الوقت نفسه أن تشهد مدينة من الجليل اسمها ناصرة معجزة لم تحدث من قبل ولن تقع من بعد ، معجزة غيرت نواميس الكون ، وتردد صداها منذ سفر التكوين حتى سفر النبى ملاخى . وكان ملاك الرب جبرائيل منوطاً أيضاً بتبليغ هذه المعجزة عندما أرسل من الله إلى عذراء تدعى مريم ، مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف . كان المثل يضرب بها فى التقوى والبر والرقة والعذوبة والبساطة ونقاء القلب والسريرة ، فقد جمعت بين جمال المظهر وكمال الجوهر . كانت حياتها عامرة بالإيمان ومفعمة باليقين فلم تر فى الدنيا سوى قنطرة قصيرة للعبور إلى العالم الآخر ولذلك قبلت نجاراً بسيطاً متواضعاً مثل يوسف ، خطيبا لها . وكثيرا ما كان يخلو لها الإنفراد بنفسها والصلاة والتعبد والتأمل فى صنائع الرب والتسبيح بحمده . وذات فجر بعد ليلة غاب قمرها كانت تجلس على فراشها تتأمل كوكبة الأنبياء الذين حملوا رسالة الوحى الإلهى ، وهو الوحى الذى انقطع منذ أيام النبى ملاخى . كانت مستكينة لضوء الفجر الفضى المتسلل من انفراجة النافذة التى تألقت بقطرات الندى البللورية . استرسل ثوبها الأبيض الناصع على حافة الفراش كما استرسلت

جدائل شعرها البنى حول وجهها الصبوح الجميل وعلى كتفيها الرقيقتين فبدت فى غرفتها المتواضعة بأثاثها الخشبى العارى لوحة بريشة الفنان الأعظم .

انعكس ضوء الفجر الحانى على عينيها الواسعتين اللامعتين ووجنتيها الورديتين فبدا وجهها مضيئاً شفافاً . لكن الغرفة امتلأت وفجأة امتلأت الغرفة من الضياء النورانى أغرقتها بين طياتها ، فاتسعت عينا مريم خوفاً ودهشة وذهولاً ، وهى ترى ملاكاً واقفاً أمامها ، قائلاً بصوت كألحان السماء :

— سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك . مباركة أنت فى النساء .

لم تدرك مريم فى اضطرابها الذاهل ما عسى أن تكون هذه التحية التى لم تسمع بها فتاة من قبل من فم ملاك هرع على الفور إلى طمأنتها بعد أن انتفضت واقفة فى خشوع :

— لا تخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله . وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع . هذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه . ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية .

إزداد خشوع مريم وانحناؤها المتسائل وسط نفحات ربانية اجتاحت جسمها الرقيق :

— كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟!

خرج صوت الملاك كقيثارة إلهية داعبت أوتار قلب الفتاة الصغيرة الرقيقة المشدودة فى ذهول :

— الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله ... وهوذا أليصابات نسيبتك هى أيضاً حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً .. لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله ..

فاض النور فى عينى مريم وهى تقول فى استسلام جارف :

— هوذا أنا أمة الرب .. ليكن لى كقولك ..

فجأة صعد الملاك لكن الضياء لم يخفت فى الغرفة التى فاضت به . فتحت

مريم النافذة على مصراعيها لتتدفق البشائر الأولى لأشعة الشمس الذهبية وتمتزج بالنور الفضى فى الداخل . كانت الشحنة الربانية التى فاضت داخلها أقوى من أن تحتملها فى سكون . لم تعرف ماذا تفعل بنفسها ؟! تطير أم تصيح أم تصلى ؟ فجأة سطع خاطر فى ذهنها السابح بين أمواج الحيرة والنشوة المضطربة فتعلقت به فى الحال . انتزعت قدميها العاريتين من الأرض التى التصقت بهما فى وقفتها الذاهلة أمام الملاك وهرعت لارتداء عباءتها الحمراء وخفها البنى وطرحتها الوردية ، وخرجت مسرعة ، لا تلتفت يمنة أو يسرة ، صوب الجبال التى صافحت قممها أيادى الشمس الذهبية فى ذلك الصباح المندى بالرطوبة ، والمعبق بعطر الأزاهير البرية .

كانت نسمات الرياح النقية الوادعة تداعب طرحتها الوردية وجدائلها البنية لكنها أحكمتها حول رأسها . وكلما هاجمتها الخواطر والأفكار أسرعت الخطى صعوداً وهبوطاً بين منحنيات الجبال التى غطتها أشجار التين . لم تشعر مريم بتعب برغم طول المسافة . كانت تتحرك كالنسيم السارى فوق القمم وبين السفوح والشمس تعلو لتتوسط كبد السماء ثم تميل صوب أفق الغروب حين بلغت مريم مدينة جوتا فى جبال يهوذا حيث يقع بيت زكريا الذى دخلته لتجد أليصابات جالسة على مقعد خشبى قرب المدخل وقد أضاءت ثلاث شمعات على منضدة مستديرة فى ركن قريب منها . ألقت مريم بالسلام :

السلام لك ياأليصابات ..

صافح السلام أذنى أليصابات فارتكض الجنين فى بطنها وامتلأت من الروح القدس ، وانتفضت واقفة وهى تصرخ بصوت عظيم :

ـــ مباركة أنت فى النساء .. ومباركة هى ثمرة بطنك .. فمن أين لى هذا أن تأتى أم ربى إلىّ .. فهوذا حين صار صوت سلامك فى أذنى ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى .. فطوبى للتى آمنت أن يتم ما قيل لها من قبل الرب .

لهج لسان مريم بخشوع كلل قمم نبراتها الجزلى :

ـــ تعظم نفسى الرب
وتبتهج روحى بالله مخلصى
لأنه نظر إلى اتضاع أمته

فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبنى
لأن القدير صنع بى عظائم واسمه قدوس
ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه
صنع قوة بذراعه
شتت المستكبرين بفكر قلوبهم
أنزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين
أشبع الجياع خيرات
وصرف الأغنياء فارغين
عضد إسرائيل فتاه ليذكر رحمة
كما كلم آباءنا . لإبراهيم ونسله إلى الأبد .

ومكثت مريم عند أليصابات حوالى ثلاثة أشهر قضتها معها فى الصلاة والتسبيح والتأمل فى مجد الرب ونعمته التى فاضت عليهما فشعرت مريم بالأزل والأبد يتجمعان فى بطنها المبارك . ثم رجعت إلى بيتها فى الناصرة وأخبرت يوسف بالنعمة الإلهية التى حلت عليها ، فتقبل الخبر فى صمت رهيب لم تألفه من قبل فى شخصه الوديع ، لكن براءتها العذبة جعلتها تلتمس له العذر ، فخطيبها بشر قبل كل شىء .

أما أليصابات فقد تم زمن حملها المبارك وولدت ابناً وسط فرحة الجيران والأقرباء الذين شعروا برحمة الرب تحيط هذا البيت الوديع المتواضع الكائن على سفح الجبل بسياج من خلود سرمدى . وفى اليوم الثامن جاء الأقرباء والجيران ليختنوا الصبى وقرروا أن يسمى باسم أبيه زكريا ، لكن الأم التى لم تعان من آلام المخاض والولادة برغم سنها المتقدمة ، أصرت على أن يسمى ابنها يوحنا . وكان لسان زكريا لا يزال عاجزاً عن النطق فتابع الحوار بعينين مترددتين وسط المتحدثين الذين أومأوا اليه بماذا يريد أن يسمى ابنه ، خاصة وأن أحداً فى عشيرته لم يطلق عليه الإسم الذى تصر عليه أمه . فطلب لوحاً وكتب عليه : يوحنا . وتحير الجميع وخافوا عندما حُلت عقدة لسانه وفتح فمه صارخاً بصوت عظيم :

مبارك الرب .. مبارك الرب .. مبارك الرب ..

وسرعان ما أصبح الخبر حديث كل البيوت والجلسات العائلية فى جبال

اليهودية . كانت فرحتهم بالمولود لا تقل عن فرحة أبويه ، لكن الفرحة شابها تساؤل لم يجد إجابة شافية عمن يكون هذا الصبى المبارك ؟! ومع ذلك أيقن الجميع أن يد الرب معه . فلم تعد حياة زكريا كما كانت قبل مولد الصبى ، إذ امتلأ من الروح القدس ولهج لسانه بأول نبوءة منذ انقطاع الوحى أيام النبى ملاخى :

ــ مبارك الرب إله إسرائيل
لأنه افتقد وصنع فداءً لشعبه
وأقام لنا قرن خلاص فى بيت داود فتاه
كما تكلم بفم أنبيائه القديسين
الذين هم منذ الدهر
خلاص من أعدائنا ومن أيدى جميع مبغضينا
ليصنع رحمة مع آبائنا
ويذكر عهده المقدس
القسم الذى حلف لإبراهيم أبينا
أن يعطينا إننا بلا خوف مُنْقَذين من أيدى أعدائنا نعبده
بقداسة وبر قدامه جميع أيام حياتنا
وأنت أيها الصبى العلى تُدعى
لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طُرُقَه
لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم
بأحشاء رحمة إلهنا
التى بها افتقدنا المشرق من العلاء
ليضىء على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت
لكى يهدى أقدامنا فى طريق السلام .

(٧)

كتم يوسف ألمه فى نفسه وهجره النوم كلما سعى إليه مستجدياً إياه فى الفراش كى يحتويه بغلالة نسيانه . كذلك ضاعف من أرقه ألم أصبعه الذى جرح جرحاً عميقاً صباح ذلك اليوم وهو يقوم بنشر لوح خشبى لإتمام صناعة مقعد كان قد شرع فيه . إنه خطأ لم يرتكبه فى صباه فكيف يقع فيه الآن وهو النجار الناضج الخبير ؟! وكيف لفتاة قروية مثل مريم أن يقع لها ما حكته له وهى التى لم تعرف فى حياتها سوى غزل الصوف وإعداد الخبز وإحضار الماء من البئر مع الفتيات الأخريات فى القرية ؟!

تصبب العرق غزيراً على وسادة يوسف برغم برودة الجو التى امتزجت بالرطوبة . كان صوت المطر بالخارج فى ظلام تلك الليلة الموحشة الثقيلة قد توغل فى كهوف وجدانه المعتمة فدثره بغطاء من الكآبة التى كادت أن تكتم أنفاسه كما كتم آلامه . ماذا سيقول أهالى الناصرة عندما يشيع الخبر ؟! هل سيصدقه أحد ؟! ولهم العذر كل العذر إذا لم يصدقوه ، فانه شيء ضد كل نواميس الكون !! كيف يحتمل نظرات الإشفاق والرثاء الصامتة فى عيون الآخرين ؟! صحيح أنهم ناس طيبون ، ودعاء ، أنقياء ، لكنهم فى النهاية بشر !! إن ما وقع لا يحتمله ولا يصدقه بشر ، وهو أيضاً بشر ، لكنه لن يُشهر بها ، فلم ير منها سوى كل وداعة ونقاء وطيبة ، ولم يتبق أمامه سوى أن يتركها لحال سبيلها ، ولتكن مشيئة الله لا مشيئته هو .

استراح يوسف لهذا الاستسلام الكامل لمشيئة الرب . فقد كان رجلاً باراً . وسرى بعض الاسترخاء فى أعصابه المشدودة وشعر بليونة الفراش تحته . تقلب من الجانب الأيسر إلى الأيمن ودس ذراعه تحت الوسادة ، وبدأ التثاؤب يداعب شفتيه المطبقتين على لعاب كاد أن يجف فنهض ليتجرع شربة ماء من إناء فخارى فى زاوية بجوار الفراش . أعاد الإناء إلى الطست النحاسى وتمدد على الفراش وبوادر النعاس تداعب جفونه التى أصابها بعض الإحمرار . حك لحيته البنية بظهر كفه ثم تثاءب وأغمض عينيه ليتدثر بأول غلالة شفافة من غلالات النعاس الذى طال انتظاره منذ علم بالخبر .

أضاء أرجاء النعاس نور فضى ساطع فلم يعرف يوسف إذا كان نائماً أو

مستيقظاً ، حلماً أو رؤيا ، لكن ما يعرفه حقاً أن ملاك الرب ظهر له بكل هيئته النورانية ، ووميض وجهه الذى يعشى الأبصار ، وأجنحته الشهباء المتألقة ، بل وسمع صوته وهو يقول له :

ــ يايوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك .. لأن الذى حُبل به فيها هو من الروح القدس .. فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع .. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم .. وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل : هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا .

استيقظ يوسف مع شعاع الفجر الذى تسلل من خصاص النافذة ولسانه يلهج بتسبيح الله وطلب مغفرته لأنياب الشك التى تركها لتنهش يقينه الهش ، ويسىء الظن بأطهر فتاة عرفتها البشرية . ولم يهرب من إحساسه الجارف بالذنب إلا بارتدائه ملابسه واسراعه الخطى إلى بيت مريم حيث انهال عليها بالاعتذارات المتتابعة عن شكه وقلة إيمانه ، وطلب منها بل وألح عليها فى الرجاء بأن تسامحه لأنه كان على وشك أن يرتكب جريمه شنعاء بتركها لحال سبيلها ، لكنها كانت كعادتها دائماً : وديعة ، نقية ، متسامحة كالنسمة العليلة المحملة بعبق الزهور وقطرات الندى مع بوادر الربيع .

لم يعرف يوسف امرأته فقد أصبحت فى نظره هيكلاً مقدساً يتبرك به ولا يقربه ، وعاش فى خدمتها ليل نهار إلى أن أصدر الإمبراطور الرومانى أوغسطس قيصر أمره بأن يكتتب كل المسكونة الخاضعة لسلطانه ، على أن يكتتب كل واحد فى مدينته لحصر كل رعايا الإمبراطورية . فصعد يوسف من مدينة الناصرة بالجليل إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم باليهودية لأنه من سلالة بيت داود وعشيرته ، ومعه خطيبته الحبلى مريم التى كانت على وشك أن تلد .

كان موكب الذاهبين إلى بيت لحم على الأقدام أو على الدواب قد أضناهم المسير والصعود على ممرات الجبال والتلال . كانت الشمس تميل إلى المغيب وقد استرخت أياديها الذهبية على تلال بيت لحم وجبال موآب التى تلفحت بلون قرمزى هبط بظلاله على طريق الوادى الذى يتلوى بركب المسافرين إلى الاكتتاب ، وبينهم بدت مريم وهى تمتطى دابة وآثار الحمل والإعياء ترتسم على محياها الرقيقة الجميلة ، وقد أمسك يوسف بمقود الدابة صوب مدينة بيت لحم حيث فى الفجوة إلى اليمين خارج أبواب المدينة كان قد مات ثلاثة من

الشباب الشجاع فى سبيل إحضار الماء لداود من بئر بيت لحم ، وعلى مقربة من نهاية طريق الوادى قبر راحيل حيث ماتت ودفنها هناك يعقوب فى أفراته التى هى بيت لحم .

لكن هذه الذكريات المقدسة التى أثارت أشجان مريم لم تتغلب على ما يعتمل داخلها من خواطر حول الجنين المقدس الذى سيبدأ بالبشرية عهداً أروع من ذلك الذى بدأه آدم . ولذلك كانت كلما فكرت فيه تهون آلام الحمل وتتبخر مشقات السفر مثل بخار ماء تحت شمس حارقة .

أما يوسف فكان مهموماً بالبحث عن مكان لراحة مريم ، بعد هذا العناء الطويل . وإذا بكل مخاوفه تتحقق . كانت المدينة قد اكتظت بجماهير الوافدين من كل صوب وحدب تنفيذا لأمر الإمبراطور الرومانى ، ولم تكن هناك ثغرة لكى ينفذ منها وافد جديد ، حتى الخان المتواضعة قد غصت بالفقراء الكادحين .

حفيت قدما يوسف بحثاً عن مكان للمبيت بعد أن ترك مريم جالسة على قارعة الطريق إلى جوار دابتها المنهكة ، ثم عاد إليها بأنفاس مبهورة متقطعة :

ـــ لم أجد سوى مربط للماشية محفور فى كهف صخرى فى ظهر ذلك الفندق القديم !

أشار بذراع مرتعشة إلى فندق يقع على ناصية الطريق ، وهو يتوقع المزيد من الضيق على وجهها الجميل المنهك ، لكن ابتسامة نورانية شفافة أضاءت محياها وهى تهمس بنبراتها العذبة الوديعة :

ـــ فلتكن مشيئة الرب .

وهناك فى الكهف القابع فى ظهر الفندق تمددت مريم على فراش من القش والتبن وسط بعض شموع ذابلة أضاءها يوسف لتبدد العتمة المحيطة بالأبقار والخراف التى لمعت عيونها المسلطة على تلك الفتاة الممددة التى جاءت لتشاركها بيتها وفراشها المتواضع ، فى حين غط البعض الآخر فى نعاس هانىء أصاب يوسف المضطرب بالغيرة . فلم يكن فى مقدوره أن ينعم بما تنعم به هذه الماشية من هدوء بال وطمأنينة .

فجأة اجتاحت آلام المخاض الجسد الرقيق ، وغمر الاضطراب وجدان يوسف المرتعش . لكن لم تمر سوى لحظات كالبرق وإذ بمريم تلد ابنها البكر ، وحيدة بلا يد تمتد للمساندة والمؤازرة ، فقمطته بنفسها وأضجعته إلى جوارها فوق فراش التبن والقش . وإذ بالشموع الذابلة حولها تتوهج ويسطع نور بديع يشع فى كل أركان المذود .

فى اللحظة نفسها كان بعض الرعاة يحرسون حراسات الليل فى الحقول التى تحيط ببيت لحم ، وعيونهم لا تغادر دوابهم وخرافهم التى تلاصقت فى نومها طلباً للدفء فى تلك الليلة التى اشتد بردها واختفى قمرها ، فامتزجت العتمة المتكاثفة بالبرودة الهابطة . ولولا إعتياد عيون الرعاة على الظلمة لما رأوا سوى سواد فى سواد . لكن نوراً مبهراً أضاء السماء فوقهم وحولهم وملاك الرب وقف أمامهم ، فخروا على الأرض ساقطين منتفضين من الخوف الذى أمسك بخناقهم . وإذ بصوت الملاك يصدح فى أرجاء السماء الفضية :

ــ لا تخافوا . فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . إنه وُلد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب . وهذه لكم العلامة : تجدون طفلاً مُقمطاً مُضجعاً فى مذود .

تردد الصوت الصادح فى آذان الرعاة ، فرفعوا عيونهم وهم فى سقطتهم على الأرض ليروا الملاك يملأ صفحة السماء الفضية ، وإذ بجمهور من الجند السماوى يظهر معه بغتة مسبحين الله بصوت كنواقيس الفردوس :

ــ المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة . وإذ بالسماء الفضية تتألق كخيوط من ماس وكأنها تفتح أبوابها ليعود إليها الملاك ومعه الجند السماوى . ويخفت الضياء الفضى إلى أن تعود السماء إلى لونها الأزرق القاتم مرصعة بالنجوم البعيدة الذابلة .

استعاد كبير الرعاة جأشه وتماسك وهو يقول لهم :

ــ لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الجليل الذى أعلمنا به الرب .

أعادت كلمات الراعى الشيخ الصواب إلى الرعاة الذين أسرعوا معه إلى بيت لحم حيث وجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعاً فى المزود . فآمنوا بأن

السماء كانت تشارك الأرض مهرجان فرحتها ونشوتها وهم يخبرون مريم ويوسف بالكلام الذى سمعوه عن الطفل الإلهى من أفواه الملاك والجند السماوى ، وإذ ببعض المارة يلتفون حولهم عند مدخل المذود متعجبين مما يسمعون من هؤلاء الرعاة البسطاء . أما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام لتصنع منه كنزا لقلبها وحياتها لأن القدير قد صنع بها عظائم لم ولن تخطر على بال بشر .

رجع الرعاة وهم يمجدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه إذ أن صورة ملاك الرب بنوره المبهر الذى اضاء السموات فوقهم وحولهم ، ومعه جمهور من الجند السماوى لم تفارق عيونهم ، وصوت الملاك وتسبيح الجند لم يبرح آذانهم . فقد رأى هؤلاء البسطاء ما لم تره عين ، وسمعوا ما لم تسمع به أذن فى بيت لحم .

أما فى أورشليم فقد صعد إليها مجوس جاءوا من المشرق وهم يسألون فى الطرقات والميادين :

ـــ أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنجسد له ؟!

وسرعان ما تناقلت الألسنة الأخبار المثيرة ، وتطلعت بعض العيون إلى السماء الداكنة لعلها ترى فى المشرق نجم المولود ملك اليهود . وبعد نحو ساعة أو أكثر قليلاً بلغت الأنباء الرهيبة مسامع هيرودس الملك الذى اضطرب وجميع أورشليم معه ، وفى الحال أمر بعقد اجتماع لكل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب فى القاعة المرمرية الكبرى التى تألقت بمصابيحها الزيتية البيضاء والحمراء والصفراء والخضراء حيث جلس فى الصدارة على عرشه العاجى ، وقد ارتدى طيلسانه الأحمر المرصع بالقصب والزمرد ، وعلى رأسه تاجه الذهبى الصغير والمطعم بالعقيق والياقوت . وأمامه على شكل مستطيل قبع رؤساء الكهنة وكتبة الشعب فى عباءاتهم السوداء والكحلية والبنية على مقاعدهم الأبنوسية . لم يخف هيرودس إضطرابه فصاح فيهم متسائلاً :

ـــ أين يولد المسيح ؟ !

أجاب كبيرهم ومعه ردد البعض الآخر :

ـــ فى بيت لحم اليهودية . لأنه هكذا مكتوب بالنبى . وأنت يابيت لحم

أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ..لأن منك يخرج مدبرُ يرعى شعبى إسرائيل ..

كان هيرودس ملهوفاً على أحر من جمر فلم يناقش أو يستفسر أو يعلق بل فض المجلس فى الحال وسط ذهول الكهنة والكتبة فى تلك الليلة العجيبة ، وتساؤلهم عن حقيقة الشائعات التى تسرى فى المدينة ويتنفسها الجميع مثل الرياح الباردة التى لم تهدأ منذ سريانها مع مجىء الرعاة . فلم يحدث أن جمعهم هيرودس من قبل فى اجتماع طارىء مثل هذا بعد انتصاف الليل ثم يفض الاجتماع بعد دقائق من انعقاده .

كان هيرودس يذرع القاعة المرمرية جيئة وذهاباً كالأسد الحبيس فى القفص الحديدى وهو يخاطب نفسه بصوت عال :

ــ صحيح أنه طفل لا حول له ولا قوة .. لكن ماذا أفعل بهذه النبوءة المؤكدة ؟! وحتى اذا لم تكن مؤكدة فهل أترك العرش للهواجس والاحتمالات لتعصف به وقتما تشاء ؟! إن من أهم مبادىء السياسة أن الاحتياط واجب .. وما الضير فى أن أقتل الطفل أو حتى مئات الأطفال معه كى أحافظ على أستقرار المملكة ؟! إنها مسئوليتى أولاً وأخيراً وعلىّ أن أحافظ عليها بكل الوسائل الممكنة وحتى غير الممكنة !!

ثم حاول أن يهدىء من ثائرة نفسه المضطربة المهتاجة ، فهو لا يواجه قائداً عسكرياً على رأس جيش أو مؤامرة ليلية من مؤامرات دهاقنة السياسية العتاة ، وإنما مجرد طفل وليد . فجأة دق الناقوس النحاسى في جنون فهرع إليه كبير الحاشية وهو يكاد يتعثر فى ردائه الطويل . صرخ فيه هيرودس :

ــ أريد المجوس هنا حالاً .. ودون أن يعلم أحد .. لابد أن أتأكد من حقيقة الشائعات التى أغرقت المدينة فى ساعات قليلة !

ــ أمر مولاى .

قالها كبير الحاشية منحنياً ثم انصرف على الفور . وظل هيرودس يذرع القاعة جيئة وذهاباً وقد عاد يخاطب نفسه بصوت عال وبحركات عصبية من ذراعيه وأصابعه :

ــ من العار أن أخاف من طفل وليد وأنا الملك الذى يمسك بكل الرقاب

بيْن أصابعه !! لو علم الآخرون بما ينتابنى الآن من مخاوف وهواجس لاكتشفوا فى داخلى نقاط ضعف لم تكن تخطر لهم على بال .. الملك الجبار ، الرهيب ، المخيف ، يخاف من مجرد طفل وليد !! يجب أن أطرد هذه المخاوف وألقى بها تحت حذائى وإلا لكان هذا الطفل حقيقة مؤكدة لا قبل لى بها !!

عاد إلى الجلوس على عرشه العاجى وقد قبض بذراعيه على المسندين وكأنه خائف أن يفلت من تحته . لم تتوقف عيناه عن التردد القلق يمنة ويسرة قائلاً لنفسه :

ــ سأجزل العطاء للمجوس فهم يعرفون قيمة الذهب .. وسأرسل العيون خلفهم خلسة حتى أكتشف موضع الوليد .. فالاحتياط واجب .. لن أترك الأمور للصدفة والقدر .. فأنا فى نظر رعيتى القدر نفسه !

لم تنقطع سلسلة هواجسه ومخاوفه إلا بدخول كبير الحاشية يعلن وصول المجوس فأمر بدخولهم فى الحال .

وقف المجوس أمامه بعباءاتهم السوداء ، ولحاهم الكثة ، وعماماتهم الملتفة حول شعرهم المسترسل وفى الحال انسحب كبير الحاشية . سألهم هيرودس :

ــ متى ظهر النجم الذى تحدثتم عنه وأين ؟!

أجاب شيخهم بصوت جهورى وقور :

ــ رأينا نجمه فى المشرق منذ ساعات قليلة .. فأتينا لنسجد له !

ــ ولماذا تريدون السجود له ؟!

ــ لأنه ملك اليهود ..

أفلتت نبرات مرتعشة من تساؤل لم يمنعه هيرودس :

ــ بهذه البساطة ؟!

ــ لكنه سرعان ما استدرك قائلاً فى وقار مفتعل :

إذهبوا إلى بيت لحم وافحصوا بالتدقيق عن الصبى .. ومتى وجدتموه فاخبرونى لكى آتى أنا أيضاً وأسجد له !!

ثم أشار بذراعه إلى مائدة مرمرية على يمينه ، وضعت عليها بعض الأكياس :

ـــ وسيحصل كل منكم على كيس بمجرد عودتكم الىّ !

انحنى المجوس وعادوا أدراجهم ليخرجوا إلى ظلام الليل وبرودته . لاحظوا أن بعض الرجال شبه الملثمين يتعقبونهم منذ خروجهم من قصر هيرودس ، لكنهم نجحوا فى الإفلات من مطاردتهم الصامتة بمساعدة الأزقة الملتوية والصاعدة والهابطة والمعتمة ؛ فى تلك اللحظة بزغ النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبى ، فكانت فرحتهم برؤية النجم أعظم من أن توصف ، وأسرعوا بالمثول أمامه وهو فى حضن أمه مريم فخروا وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا : ذهباً ولباناً ومراً . ثم عادوا ليبيتوا ليلتهم فى مدخل خان قريب ويستريحوا من عناء السفر . وفى إغفاءة على ارائك الخان الخشبية حلم كبيرهم بمن يحذرهم من الرجوع إلى هيرودس ، ومع أول شعاع من أشعة الفجر انصرفوا فى طريق أخرى إلى كورتهم .

فى اللحظة نفسها ظهر ملاك الرب ليوسف فى حلم قائلاً له بلهجة حازمة آمرة :

ـــ قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك .. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ..

إجتاح القلق يوسف إذ لابد من أنتظار أيام تطهيرها حسب شريعة موسى وختان الصبى وتقديمه للرب فى الهيكل بعد ثمانية أيام من ميلاده . لكنه قهر القلق بيقينه بأن الرب سيحرس ابنه .

عادت عيون هيرودس السرية لتعترف بخيبة أملها فى تتبع المجوس حتى مهد الطفل المطلوب . هاج هيرودس وماج وهددهم بالويل والثبور وعظائم الأمور اذا لم يقبلوا بيت لحم وتخومها رأساً على عقب بحثاً عن بغيته . وخرجت العيون مطأطأة الرأس لتنضم إلى كتيبة الباحثين عن الطفل ليل نهار ، وهيرودس يجلس على أشواك القلق والاضطراب . فالساعات والأحداث المتتالية أكدت له كل مخاوفه وهواجسه المظلمة السوداء بعد أن سخر به المجوس .

ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبى سُمى يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حُبل به فى البطن . ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب . كما هو مكتوب فى ناموس الرب أن كل ذكر

قدوساً للرب . ولكى يقدموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب : زوج يمام أو فرخى حمام .

إعتلت مريم دابتها وفى أحضانها الوليد المقدس ، وفى الجعبة المعلقة على جانبى الدابة وضعت طيور الذبيحة . وسار يوسف الذى لم يقهر قلقه تماماً ، ممسكاً بمقود الدابة صاعدين إلى أورشليم من طرق خلفية وأزقة جانبية حتى بلغوا الهيكل حيث قابلهم رجل بار تقى يدعى سمعان ، كان الروح القدس قد حل عليه وأوحى إليه أنه لا يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب . أخذ سمعان الطفل على ذراعيه وبارك الله بنبرات متهدجة ونظرات مبتهجة :

ـــ الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام
لأن عينى قد أبصرتا خلاصك
الذى أعددته قدام وجه جميع الشعوب
نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل .

وكان بريق الدهشة يتألق فى عينى مريم ويوسف لوقع كلمات سمعان عليهما . بارك سمعان الأم قائلاً لها :

ـــ إنَّ هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين فى إسرائيل ولعلامة تقاوم .. وأنتِ أيضاً يجوز فى نفسكِ سيفٌ .. لتُعْلَن أفكارٌ من قلوب كثيرة ..

أدركت مريم بالروح أن حياة ابنها على الأرض لن تكون نزهة بل طريق للآلام لابد أن تحتملها أمومتها وتتلقاها كطعنة سيف . لكن مريم خرجت من خواطرها على صوت حنة بنت فنوئيل ، وكانت نبية أرملة عاشت مع زوجها سبع سنين بعد بكوريتها وتبلغ من العمر نحو أربع وثمانين سنة ، ولا تفارق الهيكل عابدة بأصوامٍ وطلباتٍ ليلاً ونهاراً . فبمجرد أن لمحت الطفل الإلهى على ذراعى سمعان وقفت تسبح الرب وتتكلم عنه مع جميع المنتظرين فداءً فى أورشليم وسط دهشة الجميع .

ولما أكملوا كل الطقوس حسب ناموس الرب رجعوا إلى الجليل حيث مدينتهم الناصرة . ومن هناك ليلاً بدأت رحلة الهروب إلى مصر تحت جنح الظلام .

أما هيرودس فقد طاش صوابه عندما فشلت عيونه فى العثور على الصبى .

وبعد أن أمر بقتل العيون التى خاب سعيها اللاهث ، أصدر أمره المسعور بقتل جميع الصبيان فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون على سبيل الاحتياط فربما كان مولوداً منذ سنتين ولولا الشائعات وأقوال المجوس لما علم عنه شيئاً . وسالت أنهار الدماء البريئة النقية وسط عويل الأمهات الثكالى وتحولت بيت لحم وتخومها إلى مأتم كبير . وتم ما قيل بإرميا النبى القائل :

ــ صوتٌ سُمِعَ فى الرامة نوحٌ وبكاءٌ وعويلُ كثيرٌ . راحيلُ تبكى على أولادِها ولا تريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين !

(٨)

فى تلك الأيام كانت فلسطين ترتبط بمصر بثلاث طرق للقوافل والتجارة والجيوش الغازية ، تشق قلب الصحراء والجبال والتلال المحرقة نهاراً والقارصة ليلاً . لكن العائلة المقدسة تجنبت هذه الطرق لعل عيون هيرودس لا تزال تتبعها وإن كان أطفال بيت لحم الأبرياء قد دفعوا الثمن غالياً . ولذلك لم تنضم العائلة المقدسة إلى إحدى القوافل فى بدء رحلة الهروب ، بل اخترقت حدود فلسطين بمفردها متوغلة فى صحراء سيناء فى طريق وعرة ذات فجوات رملية ، ونتوءات صخرية ، ومرتفعات حجرية اكتسحت الرياح الهوج كل طبقات الرمال من عليها فعرتها وأظهرت وجهها المتجهم .

كانت الطريق إلى مدينة الفرما غربى مدينة العريش طريقاً لآلام العائلة المقدسة فى احضان الصحراء المحرقة ، المتوحشة ، الموحشة . لكنهم مروا على هذه الآلام مر الكرام اذ أن ملاك الرب كان حارساً لتلك الرحلة الإلهية فلم يشعروا بقلة الزاد ، أو ندرة الماء ، ولم يرهبهم قطاع الطرق الذين يسطون على القوافل الكبيرة بكل رجالها وعتادها ، وما بالك بأسرة وديعة من رجل وفتاة وطفل وليد . كانت الطيور تحلق فوق العائلة المقدسة فى بعض الأحيان لتلقى عليها ببعض ثمار الفاكهة التى تمسكها بمخالبها ، فى حين كانت السماء تمطر أو تتفجر الأرض بينبوع ماء صاف فى بعض مواضع الراحة التى كان يحل بها الطفل الإلهى . أما قطاع الطرق فلم يعثروا على المسار الوعر الضيق الذى خاضته العائلة الصغيرة ، فى حين كانت الأسود والذئاب والثعالب وأبناء آوى تنأى عنها كما لو كانت محاطة بسياج خفى يحميها من بطشها . وأحياناً كانت العواصف الرملية تهب وتزوم عند خط الأفق ثم تهجم فى شراسة لاقتلاع كل من يعترض طريقها ، وتسرع مريم لحماية طفلها بعباءتها الداكنة فى جلستها فوق الدابة المنهكة التى يمسك يوسف بقيادها حتى لا تنطلق جامحة من هول طيات الرمال التى تغطى الكون ، لكن بمجرد أن كان الطفل يمد يده الصغيرة أو رأسه الجميل خارج عباءة أمه ، فإن العاصفة سرعان ما تهدأ وتتلاشى ، ولسان مريم ويوسف يلهج بمجد الله .

أقامت العائلة المقدسة أياماً معدودة فى مدينة الفرما للراحة والاستعداد

لاستئناف الرحلة قبل أن تلحق بهم عيون هيرودس . وكان يوسف حريصاً على أن ينفق أقل القليل من العملات الرومانية التى خرج بها من الناصرة حتى لا يفتك بهم العوز متحالفاً مع الصعاب والأهوال الأخرى المتربصة بهم . بل وقرر يوسف أن يعمل نجاراً فى البلاد التى يمكن أن يستقروا فيها مدة مناسبة حتى يوفر بقدر الإمكان مصاريف الرحلة التى لا يعرف أين ومتى تنتهى ؟!

وبمجرد أن استردت الدابة قوتها كاملة استأنفوا سفرهم حتى عبروا شبه جزيرة سيناء على الطريق الساحلى للبحر المتوسط والمؤدى إلى مدينة بورسعيد الآن لكنهم لم يبلغوها بل هبطوا جنوباً إلى منطقة تل بسطة على مقربة من مدينة الزقازيق اليوم . وكانت تل بسطة من أهم المراكز الدينية التى يأتى إليها المصريون للتعبد فى محراب آمون ـ رع . ولذلك كانت تغص بكل الأصنام والتماثيل الحجرية لمختلف آلهة المصريين وفى مقدمتها آمون ـ رع . وعندما وجدها يوسف مدينة مزدهرة يمكن أن يزاول فيها حرفة النجارة ، خاصة صناعة المحاريث الزراعية إذ أن حقول الحنطة والشعير والكتان كانت تمتد حول المنطقة حتى انطباق السماء على الأرض ، قرر أن يستقر بالعائلة المقدسة فى كوخ فكر فى تصميمه وإقامته على ضفة النهر . لكن شيئاً مذهلاً وقع جعل إقامة الأسرة شيئاً عسيراً وربما تسبب فى وصول عيون هيرودس إليها .

كان المصريون يتمتعون بثقافة عميقة وقوة ملاحظة فيما يتصل فى الربط بين الأسباب والنتائج . كانت الطريق التى تشق قلب تل بسطة عامرة بالمعابد والتماثيل على الجانبين اللذين توافد عليهما الناس للعبادة والتبرك وتقديم القرابين . وذات غروب كانت التراتيل والآلات الوترية تتصاعد بموسيقاها مع طيات البخور من بين جنبات المعابد التى أضيئت بالقناديل الزيتية التى أرسلت أشعتها من نوافذها الضيقة لتمتزج بأضواء المشاعل التى هرع خدم المعابد لإشعالها عند مداخلها المعتمة . فقد كان كبير الكهنة على وشك الوصول وسط موكب الكهنة إلى معبد حورس وأوزيرس وإيزيس لتقديم القرابين والصلاة للتماثيل البرونزية الصغيرة التى يزخر بها المعبد .

إصطف الناس على جانبى الطريق لتحية الكهنة ونوال بركتهم ، وكلهم عيون مشدودة بخيوط خفية إلى الأفق الذى ستبدو منه المحفة المذهبة التى يتربع عليها كبير الكهنة . وإذ على الطريق تبدو دابة متربة تحمل سيدة صغيرة فى

السن وبين أحضانها وليدها وإلى جوارها أمسك رجل متواضع الهيئة بلجام الدابة وقد بدا الإنهاك على حركة قدميه فى خف كاد أن يتمزق . لم تلتفت السيدة إلى الناس الذين كانوا يتفرسون فيها بل ركزت نظراتها الحانية على طفلها الذى يكاد يختبىء تماماً فى عباءتها الداكنة ، لكن الرجل المنهك القوى لم يسترح لنظرات الواقفين التى تحولت إلى سهام نارية تكاد تحرق أسرته التى تبحث عن مجرد مكان للمبيت والنوم . وسرعان ما تحول قلقه الى رعب عندما سرى صخب مصحوب بصيحات وصرخات بين صفوف الواقفين المترقبين . فقد حدث ما لا يمكن أن يخطر ببال بشر . كانت التماثيل الضخمة الرابضة على جانبى مدخل كل معبد تتهاوى وتسقط وكأنها كيان من رمال فى مهب ريح عاتية . ولم تمنع الصرخات الصاخبة الذاهلة شهود الحدث الرهيب من الربط بين الأسباب والنتائج . فقد كانت التماثيل تتفتت وتهوى مع مرور هذه الأسرة الصغيرة الفقيرة أمامها ، وسرعان ما تعالت الصيحات من كل اتجاه :

ـ إنهم سحرة !! يهاجمون آلهتنا ؟! فلتفتك بهم !! إذا لم نحم آلهتنا فنحن لا نستحق حمايتهم وبركتهم !!

وأوشكت الصفوف المتراصة على أن تطبق على الأسرة الوديعة ، لكنها سرعان ما توقفت وآذانها مع البوق الذى دوى فى الأفق إيذاناً بوصول موكب الكهنة . كان شباب الكهنة يسيرون أمام محفة كبير الكهنة يرتلون أناشيد التمجيد والتعظيم لحورس ، واوزيرس ، وايزيس ، وآمون ، ورع ، وبتاح ، وست ، وآتوم ، وأوتو وبأيديهم المباخر كالأراجيح ، والزهور العطرية ينثرونها على الواقفين فى ترتيل على قيثارة :

إن تربة الأرض فوق ذراعيك
وأركانها تستقر فوقك
حتى عمد السماء الأربعة
وإذا تحركت ، فإن الأرض ترتعد ...
إن كل ما يوجد فوق الأرض
يظل فوق ظهرك
وكل شيء يستقر فوق عمودك الفقرى
إنك أب الناس وأمهم

إنهم يعيشون بأنفاسك
إنهم يطعمون لحم جسدك
الإله الأزلى . هذا هو إسمك

لاحظ كبير الكهنة فى جلسته فوق المحفة المذهبة اضطراباً يسرى بين صفوف المصطفين على الجانبين ، والذين أدار بعضهم ظهوره له ليثبتوا نظراتهم على مداخل المعابد التى اختفت عندها التماثيل الحجرية العملاقة . وسرعان ما ارتعش على مقعده الأبنوسى واشرأب بعنقه ليرى أكوام الرمال مكان التماثيل . انتابه دوار عنيف لكنه تماسك حتى هبط حاملو المحفة بها أمام مدخل معبد حورس فتركها مسرعاً الخطى إلى الداخل حيث قدس الأقداس وقبل أن يلتفت بحثاً عمن يرسله لتقصى الأمر المستحيل ، دخل كاهن شاب لينحنى أمامه وقد تقطعت أنفاسه المبهورة ، وهو يخبره بالأقاويل التى تسرى بين الناس كالنار فى الهشيم . ودون تفكير أو تردد أصدر كبير الكهنة أوامره الصارمة :

ـــ فليقبض عليهم ويتم إحضارهم أمامى فوراً !

وهرع الجميع لتنفيذ الأمر فوراً . لكن الظلام كان قد بدأ يلف تل بسطة بعباءته الداكنة التى تحاكى عباءة السيدة الغامضة وطفلها الوليد ، فأضاءوا المشاعل وجروا بها لاهثين فى كل اتجاه لكن الرياح الرطبة الباردة كانت تهب من الجهات الأربع لتطفىء المشاعل ويسود الظلام فى ليلة جثمت حلكتها على أنفاس الجميع ، وأنستهم عيد حورس الذى كانوا ينتظرونه كل عام على أحر من جمر وبكل أحلام البهجة والنشوة .

كانت العائلة المقدسة قد تركت طريق المعابد حتى بلغت أطراف تل بسطة تحت جنح الظلام . فقد اختفى القمر وشرع يوسف فى نصب خيمة صغيرة ربطها فى جذع شجرة ضخمة لمبيت الطفل وأمه . وبمجرد أن انتهى من مهمته دخلت الأم بطفلها وسرعان ما استغرقا فى نوم عميق . أما يوسف فقد جلس على باب الخيمة يقاوم النعاس الذى سرى فى جسده مسرى الإنهاك الذى أخذ منه كل مأخذ . لكنه ظل جالساً على قطعة من الحجر جعل منها مقعداً واتكأ على عصاه ربما لإغفاءة عابرة أما النعاس فكان رفاهية لا يقدر عليها .

رأى يوسف فيما يرى النائم شبحاً يحوم حول الخيمة ، فانتفض واقفاً ليدرك أنه حقيقة واقعة وليس حلماً عابراً . صلى إلى الله فى لحظات خاطفة أن يحفظ

أسرته والشبح يتقدم بنظرات تكاد تومض فى الظلام ، ويهمس كالفحيح :

ــ اهربوا من هنا .. العيون مبثوثة فى كل مكان بحثاً عنكحم ! كان الشبح يتكلم لغة لا يعرفها يوسف ومع ذلك أدرك ما يقصده . دون تفكير سأله :

ــ من أنت ؟! وكيف عثرت علينا ؟!

ــ أنا أشهر فلكى فى تل بسطة .. كنت أجلس فوق سطح بيتى أراقب النجوم فى غياب القمر فرأيت ما يطول شرحه الآن .. سيكون لأسرتك شأن لم ولن يكون لأسرة أخرى على وجه الأرض ..

همس يوسف معظما الرب فى حين أنشد الفلكى :

ــ اليك التمجيد ،
عالياً كالسماء ،
والتبجيل
عريضاً عرض الأرض
والتهليل
فى كل لحظات الزمن !
إن تبجيل شخصك
يمتد حتى الأخضر العظيم

ــ سأله يوسف فى همسات متسائلة فى تضرع :

ــ وهل تعرف مكاناً قريباً يمكن الاختباء به ؟! فقد حل علينا التعب ولا نستطيع الآن السفر مسافات طويلة ؟!

ــ سأبذل كل ما فى وسعى .. إن أرض الآلهة لا يمكن أن تحارب إله الآلهة .. هناك قرية مجاورة لا يأتى ذكرها على لسان . فهى قرية الفقراء والبؤساء والبسطاء من الناس على مسيرة ساعات قليلة من هنا . ولا يذهب إليها أحد من كبار القوم الذين نخاف جانبهم . فالطريق إليها متربة ، وعرة ، ضيقة ، خانقة ، لكنكم ستسلكونه فى سلام لتكونوا هناك آمنين !

ــ هل سنسلك طريق المحمة ؟!

ضحك الفلكى فى سعادة ودعابة :

ـــ ها أنت تعرف الطريق .. ألم أقل لك أنكم ستسلكونه فى سلام ؟!

ـــ كل شيء بارادة الله ..

تراجع الشبح إلى الخلف خطوات :

ـــ أترككم الآن فى رعايته .. فلابد أن كبير الكهنة يبحث عنى الآن .. سأعيد الطمأنينة إلى قلبه .. فثقته فى كلامى عمياء !

أطلق الفلكى ضحكات سعيدة مقتضبة وتراجع إلى الخلف ليبتلعه الظلام . وفى الحال همس خاطر فى وجدان يوسف :

ـــ غداً .. فجراً .. سنرحل .

ومع أول خيوط الفجر طرد يوسف آثار الإغفاءة فى جلسته على الحجر ، وضغط على نفسه كى يوقظ الأم وابنها فقد عز عليه أن يقطع عليهما نومهما العميق ، لكن للضرورة أحكام حتى لا يستيقظا وقد حاصرتهما عيون كبير الكهنة فى وضح النهار . أسرع يوسف فجمع أكبر كمية ممكنة من الحشائش ووضعها فى كومة أمام الدابة المربوطة فى الشجرة والتى انهالت عليها فى نهم واضح .نهضت مريم لترضع ابنها قبل أن يفك يوسف رباط الخيمة فى حين كان يوسف يعد ظهر الدابة للرحيل .

ومع انبلاج الفجر كانت العائلة المقدسة تيمم وجهها شطر المحمة التى تحول اسمها بعد ذلك إلى مسطرد ، وكانت الطريق مثلما وصفها الفلكى المصرى : متربة ، وعرة ، ضيقة ، خانقة لكنها مطمئنة إذ أنها لم تطأها سوى أقدام الفقراء والبؤساء والبسطاء من الناس . أما أصحاب السلطان والكراسى فهم أبعد الناس عن مثل هذه الطرقات .

وهناك فى القرية الوادعة البسيطة وجدت العائلة المقدسة ملجأ تحت شجرة وارفة الظلال . وأسرعت مريم لتبحث عن بئر ماء لحمام الطفل وغسل ملابسه ، تاركة طفلها فى رعاية يوسف الذى رآها تعود كسيفة البال إذ أنها لم تعثر على البئر فى حين كان النهر بعيداً عنها ، فأسرع إليها يوسف والبشر يطفح على وجهه قائلاً مهللاً :

ـــ لا تبتأسى .. فالله لا ينسانا أبداً .

ركض قلبها فرحاً ونظرت إلى طفلها النائم فى قماطه تحت ظلال الشجرة فوجدت ينبوع ماء فى صفاء البللور يتدفق عند قدميه وينحدر أسفل الشجرة الضخمة فسألت يوسف لاهثة :

ــ كيف حدث هذا ؟!

ــ بمجرد أن أخرجته من الخيمة ليستقبل نسمة الهواء وضوء الشمس فإذ بهذا النبع يتدفق عند قدميه !

هللت مريم بصوت ملائكى هامس وهى تضم عباءتها حول جسمها :

ــ مبارك الآتى باسم الرب .. مبارك الآتى باسم الرب ..

وقضت العائلة المقدسة أياماً للإستجمام والراحة من عناء الأيام العصيبة ، لكن القلق لم يزاول يوسف لقرب المحمة من تل بسطة وبالتالى من عيون كبير الكهنة . ولذلك بمجرد أن استعادت أسرته قواها شرعت القافلة الصغيرة فى الرحيل صوب مدينة بلبيس حيث وجدت شجرة أخرى لا تقل فى روعة ظلالها وبهاء منظرها عن شجرة المحمة . وهناك استراحت لبضعة أيام فقط ، فقد كان كل هم يوسف أن يسرعوا بقدر الإمكان إلى جنوب مصر وهناك يمكنهم الاستقرار بعيداً عن عيون هيرودس وكبير الكهنة إلى أن يشاء الله . ولذلك أجل يوسف اشتغاله بالنجارة ، ومريم اشتغالها بغزل الصوف حتى الاستقرار فى أبعد منطقة عن العيون المتربصة بهم . وصلى يوسف إلى الله أن يبارك فى العملات الرومانية وهى العملات التى كان يتحسسها فى جيب عباءته من حين لآخر ليطمئن على ابتعاد شبح العوز والحاجة المرة عن أسرته الصغيرة .

من بلبيس سارت القافلة الإلهية الصغيرة صوب « منية جناح » التى أصبح اسمها فيما بعد « منية سمنود » على شاطىء النيل المقابل لمدينة سمنود ، ثم عبرت النيل فى مركب شراعى ظل يتهادى بهم فوق موجات النهر الوادعة ، ونسمات النيل العليلة تداعب شراعه فى رقة حالمة امتزجت بأشعة الشمس الحانية . واستراح يوسف لأن منظر أسرته القابعة فى مؤخرة المركب وخلفها دابتها التى أغمضت عينيها لم يلفت نظر أحد من الركاب ، وإن كان قلقاً حول المبلغ الذى سيدفعه للمراكبى عندما يصلون إلى الضفة الأخرى حيث مدينة سمنود . وعندما ألقيت المرسى فى طمى الضفة أسرع الركاب بالخروج ، الواحد بعد الآخر ، وهم يتأرجحون على اللوح الخشبى الممتد بين المركب والضفة التى

وقف المراكبى عندها ليتلقى أجر العبور . وعندما تقدمت مريم بطفلها على اللوح أمسك الجميع به حتى لا يتأرجح تحت قدميها حتى بلغت الشاطىء وخلفها يوسف ممسكاً بقياد دابته التى غاصت بأرجلها فى الطين حتى صعدت أعلى الضفة . وقف يوسف أمام المراكبى وقد دس يده فى جيبه ليدفع له أجر العبور ، لكن سرعان ما منعه الرجل الأسمر ذو القامة الفارعة والجلباب الأسود القصير من إخراج يده من جيبه هاتفاً فى حماس :

ــ أنتم غرباء فى مصر .. والغرباء هنا ضيوف علينا كلنا .. لن تدفع فلساً واحداً .. إلا إذا أردت أن تجرح كبريائى ؟!

اغرورقت عينا يوسف بالدموع وربت على كتف الرجل فى حنان بالغ :

ــ بارك الله فيك .. بارك الله فيك ..

ثم سار بدابته حتى لحق بمريم فأجلسها على الدابة والطفل فى أحضانها وهو يتمتم :

ــ مبارك شعبى مصر .. مبارك شعبى مصر ..

وسارت القافلة الإلهية الصغيرة صوب مدينة البرلس حيث استراحوا بعض الوقت ، وابتاعوا بعض الطعام . ومنها إلى بلدة شجرة التين ثم إلى بلدة المطلع ، وبعد ذلك إلى بلدة سخا حيث ترك الطفل الإلهى أثراً لكعب قدمه فى حجر كان يشفى كل من يلمسه . وتساءل الجميع : كيف لكعب طفل لم يتجاوز العام الواحد من عمره أن يترك أثراً فى حجر بهذه الصلابة ؟! وبعد رحيل المسيح الطفل ذاعت شهرة الحجر الذى لم يجرؤ أحد على نقله سوى كاهن شاب تضايق من أن يكون عدد المترددين على الحجر أضعاف أضعاف عدد المصلين فى المعبد . ففى الليل أتى بعربة صغيرة نقل عليها الحجر إلى معبده ، وأذاع الخبر بين الناس الذين تكالبوا على المعبد لكن الحجر كان قد فقد قدرته الشافية من الأمراض بمجرد وضعه فى صحن المعبد .

من سخا سارت العائلة المقدسة غرباً نحو وادى النطرون واتجهت فى محاذاته نحو الجنوب مارة ببرية شيهات حيث الطبيعة القاسية برياحها الرملية ، ورمالها المتحركة تحت الأقدام ، ووحوشها الضارية من ذئاب وضباع وأسود وثعالب ، وشمسها المحرقة التى تحيل التلال والوهاد إلى جمر من النار المتوهجة

التى تشوى الأقدام وتعشى الأبصار . وفى الليل لا يظهر نور القمر سوى قمم المرتفعات الصخرية ، والنتوءات الحجرية ، والكثبان الرملية . ثم يلف الظلام كل الأشياء سارياً فيها ببرودة تخترق العظام .

خرجت العائلة المقدسة من مسيرة الصحراء الموحشة لتبلغ مدينة عين شمس التى كانت مقراً لعدد كبير من اليهود . وكان الإغريق يطلقون عليها اسم هليوبوليس التى عرفت بأنها مهد كل إله . وهناك بهرت مريم ويوسف بعمائرها الدينية الباذخة وفى مقدمتها المعبد الذى بناه الملك سنوسرت الأول وفى وسطه مسلته الشهيرة ، ومعبد رع الذى كان طول أحد جوانب فنائه يزيد على ألف متر ، ومعبدا أتوم وحورس ، وقد عرف يوسف من اليهود الذين قابلهم فى الهيكل اليهودى المعروف بهيكل أونياس أن المصريين يؤمنون بأن الإله أتوم هذا أزلى وخالق . وقد تكامل كيانه فى باطن المحيط الأول ، ثم ظهر تل الرمال الذى استطاع الوقوف فوقه لخلق أول زوج ، وهو نفس التل الذى ظهرت فوقه الشمس . فما كان من يوسف سوى أن علق بتلقائية بالغة على حديث اليهود الواقفين معه فى فناء الهيكل بعد انتهاء الطقوس الدينية :

ـــ عندما بلغنا مدينة عين شمس بهرتنا عمائرها الباذخة التى ذكرتنا بأمجاد أورشليم .. وعندما علمت شيئاً عن عقيدة المصريين هنا أدركت أن هذا الشعب يجاهد فى سبيل بلوغ فكرة الإله الواحد !

سأله شاب يهودى وهو يحك لحيته السوداء القصيرة ويضغط بأصابعه على أنفه المعقوف :

ـــ وما الذى ألقى بكم هنا ؟! نحن نتمنى الحج إلى أورشليم لا تركها بدون سبب هكذا ؟!

لم يسترح يوسف لكلمات الشاب اليهودى ، ونظراته المتوجسة المتلصصة ، وندم على ذهابه إلى هيكل أونياس واندماجه فى الطائفة اليهودية . فربما كان هذا الشاب أو غيره من العارفين بالأحداث التى جرت فى أورشليم منذ عام ، وربما أسرع إلى هيرودس لينال حظوة عنده . أفاق يوسف من خواطره على صوت الشاب متسائلاً فى خبث :

لماذا لم تجب على سؤالى ؟! هل ارتكبت ما جعلكم تهربون من أورشليم ؟!

نظر إليه يوسف فى حدة وقال فى اقتضاب :

ــ لقد سألت واتهمت ولم يتبق سوى أن تصدر الحكم !!

أصابت إجابة يوسف الشاب بدوامة من الحرج والاضطراب فلم يجد كلمات يرد بها ، وخرجت من بين شفتيه همهمة مبهمة أنسحب على أثرها من بين الواقفين إلى خارج أسوار الهيكل . وبعد لحظات أسرع يوسف بمريم والطفل إلى الشجرة الوارفة التى عاشوا فى ظلالها وهو يخبرها بمخاوفه من ذلك الشاب المريب .

تضايقت مريم لأنها كانت قد أحبت المكان ، خاصة بعد أن تفجر فيه نبع ماء أستقى منه الطفل الإلهى فباركه . ومنه غسلت مريم ملابس أبنها ، وألقت غسالتها فى المكان حولها فنما فيه نبات البلسم الذى استخدمه الأهالى كدواء لشفاء كثير من الأمراض . لكن سلامة الطفل يسوع كانت تأتى دائماً فى المقام الأول ، ولذلك شدوا الرحال إلى منطقة بابيلون ناحية الجنوب بمصر القديمة . وهناك وجدوا حياً ضخماً لليهود ، لكنهم تجنبوه حتى لا يتسبب لهم فى مشكلة مثل تلك التى دفعتهم إلى الهروب من عين شمس وهم فى عجلة من أمرهم . إذ أن المذبحة التى أقامها هيرودس لأطفال بيت لحم كان صيتها قد ذاع بين حجاج الفصح الذين يأتون من كل صوب وحدب إلى أورشليم لحضور شعائره فى الهيكل ، وعند عودتهم إلى بلادهم يرددون ما سمعوه وعرفوه . وأصبح كل طفل يهودى يتنقل مع أسرته من بلد إلى آخر دون سبب معقول ، يثير الشبهة فى أمره ، خاصة وأن الرعب كان قد أخذ من هيرودس كل مأخذ لعدم قدرته على طرد الهاجس الذى كان يلح عليه ليل نهار والذى يشكك فى أن الطفل قد تم ذبحه مع أطفال بيت لحم .

وإمعاناً فى التخفى لم تعش العائلة المقدسة تحت ظلال شجرة باسقة مثلما فعلت من قبل فى بلبيس وعين شمس ، لكنها آثرت الحياة فى مغارة فى تلال بابيلون لفترة وجيزة . ومع ذلك لم يتركها بعض سكان الحى اليهودى فى حالها ، بل بدأت التساؤلات تتردد حول هذه الأسرة اليهودية الغامضة التى هبطت بالمنطقة فجأة لتعيش فى مغارة وكأنها هاربة من شىء ما !! ومما زاد الطين بلة ظاهرة غريبة لم تحدث من قبل فى بابيلون ، وعجز الكل عن

تفسيرها ، إذ أن تماثيل وأصنام المدينة قد تهشمت دون سبب ظاهر وتحولت إلى شظايا متناثرة كما لو كانت بفعل بركان . وسمع حاكم مدينة بابيلون بالكارثة فأرسل عيونه فى كل مكان لتقصى الحقائق حتى ترفع الآلهة غضبها عنه ، واتصل بحكام المدن الأخرى ، ومنها تل بسطة الذى أخبره حاكمها بما وقع لتماثيل الآلهة عنده بعد زيارة تلك الأسرة الصغيرة الغامضة للمدينة ، وهى الأسرة التى لم يعثروا لها على أثر بعد ذلك .

بلغت الأقاويل والأخبار مسامع يوسف التى أرهقتها التجربة ، فهرع بأسرته جنوباً إذ أن حاكم بابيلون كان قد أزمع قتل الطفل بمجرد العثور عليه . ركبت العائلة المقدسة مركباً فى النيل حتى منطقة المعادى ثم بدأت فى التوغل جنوباً حتى بلغت منف (ميت رهينة الآن) . وكانت الدابة قد نفقت فى بابيلون مما أصاب يوسف بغم عظيم لأن أسعار الدواب فى مصر كانت مرتفعة ، لكنه سرعان ما مجد الله لأن النيل ابتداء من بابيلون أصبح وسيلة انتقالهم السلسة ، وأن الدابة لو كانت لا تزال على قيد الحياة لكلفتهم كثيراً لقاء نقلها بالمراكب الشراعية على صفحة النيل .

ظلت العائلة المقدسة تتوغل جنوباً حتى بلغت شرق البهنسا قرب بنى مزار ، وهو المكان الذى سمى باسم بيت يسوع أو اباى ايسوس بالقبطية . ومن هناك عبرت النيل إلى ضفته الشرقية حيث بلغت منطقة تسمى جبل الطير قرب بلدة سمالوط . وكانت مريم ويوسف يتعجبان للمصريين الذين كادوا أن يغطوا ضفتى النيل بمختلف المعابد لمختلف الآلهة . فهم شعب وثنى لكنه يكاد يموت شوقاً للإله الذى سينقذه فى العالم الآخر ، أما اليهود فقد أرسل إليهم الله عشرات الرسل والأنبياء ، ويعلمون ما لم تعرفه الشعوب الأخرى عن الله الذى خلق السموات والأرض منذ البدء ، ومع ذلك فإن سلوكهم منذ عهد إبراهيم وحتى ملاخى لم يدل على أنهم قد عرفوه بالفعل . أذ أنهم عرفوه فقط فى الحروف والكلمات والتقاليد الصارمة . أما المصريون فى هذه المنطقة فقد حفروا المعابد فى الصخور تجاه إنحدار النهر لعبادة الإلهة حاتحور التى هى إيزيس عندما تنجز تحولها العظيم إلى أمها سخمت لتلتهم بلهبها ست وحلفاءه الأشرار فى كل مرة كان هؤلاء يجتازون النهر .

ولم يطل المقام بالعائلة المقدسة فى جبل الطير إذ أن المعجزة التى كان قد

أجراها الطفل يسوع فى المركب سلطت الأنظار المتفحصة والمتلصصة على العائلة المقدسة . وقد تسببت هذه النظرات فى رعب طارد يوسف فى صحوه ومنامه . فقد كان المركب يمر بالنيل تحت نتوء صخرى بارز على الضفة الشرقية . كثيراً ما كان الركاب يداعبون بعضهم بعضاً وهم يمرون تحتها ، فيصرخ أحدهم فى الآخر :

— إحذر .. الصخرة تنهال على رأسك !

وعندما يفزع الآخر يضحك الباقون لدرجة أن اهتزازات المركب فوق الأمواج تبدو وكأنها تشاركهم ضحكاتهم . فقد كانت الصخرة تبدو وكأنها على وشك السقوط فعلاً !

أما المرة التى كان المركب فيها يمر تحت الصخرة ، وقد استوى الركاب على ألواحه الخشبية وبينهم العائلة المقدسة ، فلم يكن الأمر دعابة على الإطلاق . فقد سمع صوت دوى رهيب والرمال تتصاعد من العنق الذى يربط النتوء بجسم الصخرة ، وإذا بهذا النتوء ينهار على المركب وسط صرخات الركاب الذاهلة . وكان الطفل الإلهى يجلس فى حجر أمه فإذ به يخرج كفه ويبسطها لتمنع الصخرة من السقوط ، وتجعلها تلتصق أسفل النتوء وكأنها جزء منه ، بل وتنطبع كف الطفل الإلهى على الصخرة وكأنها قطعة من الطمى الطرى .

وكان ذهول الركاب بما فعله الطفل أشد هولا من ذهولهم لحظة سقوط الصخرة ، لدرجة أن بعضهم لم يصدق ما رأته عيناه . وسرت الأقاويل فى البلدة كالبرق فى الليلة الظلماء ، وبدأ الناس يتهامسون ويتجادلون بحيث لم يعد لهم حديث سوى ما جرى من كف الطفل الإلهى ، مما أثار خوف مريم ويوسف على الطفل بل ورعبهما .

وسرعان ما انتقلت العائلة المقدسة من جبل الطير بقارب إلى بلدة الأشمونين ذات الشهرة العريضة والقريبة من ملوى ، والتى يعنى اسمها جماعة الثمانية ، آلهة الأوائل الذين تعاونوا مع تحوت فى خلق العالم . وكان الإغريق الذين رأوا فيهم إلههم هرمز قد أطلقوا عليها اسم هرموبوليس . وكانت مدينة عظيمة الثراء والأهمية لأنها كانت تقع فى أوسع وأعرض المناطق الخصبة فى الوادى ، وتتناثر فيها المعابد ذات الدهاليز الفسيحة التى تدفن فيها طيور أبى منجل المقدس .

وكانت الأناشيد والتراتيل المصحوبة بالقيثارة والدفء تنبعث مع سحابات البخور فى تمجيد الإله تحوت :

ـــ ياتحوت ، ضعنى فى هرموبوليس .
مدينتك التى يحلو فيها العيش .
اعطنى ما يلزمنى من الخبز والجعة .
واحفظ فمى من الألفاظ .
هل يمكن أن يكون تحوت خلفى فى الصباح ؟!
احضرى أيتها الكلمة الإلهية
عندما أدخل أمام الإله سيدى
حتى أكون صادق القول
أنت يا من تجلب الماء إلى المكان النائى
أقدم وانقذنى أنا الصامت
ياتحوت ، أيها النبع العذب للإنسان العطشان فى الصحارى
إنه مغلق لذاك الذى يجد ألفاظه
لكنه مفتوح للصامت
عند حضور الصامت ، يجد النبع .

وكانت مواضع الآلهة المقدسة فى الأشمونين كثيرة ومتعددة . وكلها كانت من ذكر وأنثى ، ولكل منهما تخصص . نون ونونت : المحيط الأول ، وحح وححت : الفراغ الذى لا نهاية له ، وككو وككت : الظلمات ، وآمون وآمونت الذى لا يمكن تعريفه . وكانت مريم ويوسف يندهشان لتلك التماثيل التى تحمل رءوس ضفادع وثعابين فوق أجساد بشرية لتصور الحياة فى مراحل الخلق الأولى . فقد نسبوا مولد الشمس إلى زهرة لوتس بدائية كانت جماعة الثمانية قد أخصبتها ثم أعدت لها التل الأزلى لتستوى عليه . وبالإضافة إلى التل الأزلى هناك مواضع مقدسة أخرى مثل غدير السكين ، وجزيرة اللهب ، والبيضة المقدسة المدفونة بالقرب من الغدير العظيم .

كانت المنطقة تنبض بإيمان البحث عن الله ، ولذلك أحبتها مريم ويوسف وقررا الاستقرار فيها . فأقام يوسف كوخاً صغيراً من سعف النخيل وفروع الأشجار على ضفة النيل . ورحب به صاحب أحد محال النجارة للعمل معه .

وكان يوسف مبهوراً بمهارة المصريين فى مختلف الصناعات ، خاصة فى النجارة التى تعلم فيها كيفية تعشيق الألواح الخشبية ، وتنغيم الملمس ، والدهان بألوان تخلب الألباب . وقرر أن ينقل كل هذه الخبرات الجديدة إلى محله فى الناصرة عندما يعود إليها بإذن الله . وكان يوسف فى غاية السعادة بعمله هذا خاصة وأن صاحب المحل كان يمنحه أجراً مجزياً أبعد عن أسرته شبح الفاقة . وكان الرجل معجباً بأمانة يوسف وإخلاصه وتواضعه ، وإتقانه العمل وتفانيه فيه ، خاصة فى الخبرات الجديدة التى تعلمها فى المحل .

وكثيراً ما كانت تدور بينهما أحاديث طويلة حول الدين والآلهة والعالم الآخر . وذات مرة صارح الرجل يوسف وهو جالس عند المدخل يرتشف قسطاً من الجعة فى حين انهمك يوسف فى نشر بعض سيقان الأشجار الملقاة أمام الباب ، بأنه أول يهودى يقابله ويحبه بل ويطلب منه أن يشاركه العمل ، إذ أنه يميل إلى عقائد اليهود التى تؤمن بالإله الواحد لكنه فى الوقت نفسه ينأى عنهم لأنهم يقولون ما لا يفعلون . أما المصريون فإنهم يفعلون كل شىء فى العلن : فى العبادة والعمل والترفيه . فهم أيضاً يأخذون بنصيب وافر من الدنيا . يعرفون أن العمل الدءوب فى الحقول والمناجم وحوانيت النجارة والحدادة والفخار والزجاج والنحت من شأنه أن يجلب لهم رضاء الآلهة ممثلاً فى الحياة المرفهة الزاخرة بالمتع والمباهج مثل احتفالات الرقص والغناء والألعاب الرياضية ، وكذلك فى العلم الذى لا تبخل به الآلهة على الجادين الكادحين المخلصين من البشر . وبالفعل كانت الأشمونين خلية من العبادة والعمل والعلم والمتعة .

أما مريم فكانت تقضى طوال النهار فى الكوخ تتأمل النهر الوقور السارى فى جلال ، وهى تقوم بغزل الصوف الذى لقى إقبالاً من جيرانها ، إذ أنها لم تطلب أجراً ، بل كانت تقنع بما يقدمونه إليها شاكرة لله عطاياه الجزيلة . وكانت ماهرة أيضاً فى صناعة الخبز والفطير الذى أحبه ابنها عندما فطمته . وكان يقضى وقته فى مطاردة الفراشات بين الزهور البرية النامية على الشاطىء ، وتفتيت الخبز ليصنع منه طعاماً للعصافير التى كانت تهبط عليه لإلتقاطه ، أما الحمام واليمام فكان يتقدم برأس مهتز إلى الأمام والخلف إلى الطفل وهو يرمقه بنظرات جانبية ثم يهجم على الفتات ليلتقطه تباعاً .

كان يسوع الطفل يملأ حياة أمه بهجة ونشوة بابتسامته الساحرة ووجهه المضىء . وفى المساء بعد أن يعود يوسف إلى الكوخ من عمله ، كانت مريم تحتضن يسوع وتقرأ له فى المزامير التى يرددها وراءها بنبوغ لا يتأتى لطفل تجاوز عامه الأول بقليل . فيتغنى بصوته الطفولى الملائكى :

ـ حنَّانٌ ورحيمٌ هو الرب . أعْطى خائفيه طعاماً . يذكُرُ إلى الأبد عهده . أخبر شعبه بقوة أعماله ليُعطيَهم ميراثَ الأُمَم . أعمالُ يديه أمانةٌ وحقٌ . كلُّ وصاياهُ أمينةٌ ثابتةٌ مدى الدهرِ والأَبد مصنوعةٌ بالحق والإستقامة . أرسل فداءً لشعبه .

وتنهمك مريم فى وضع بعض الحطب فى النار الصغيرة المشتعلة داخل الكوخ فى الموقد الفخارى طلباً لمزيد من الدفء ، فيطالبها يسوع بالمزيد من المزامير فى حين يغالب يوسف النعاس وهو يتابع المشهد الإلهى المبهر . تقول مريم ويسوع يردد :

ـ الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيبٌ فى أعيننا . هذا هو اليوم الذَى صنعه الرب . نبتهج ونفرح فيه . آه يارب خلِّص . آه يارب أنقذ . مباركٌ الآتى باسم الرَّبّ .

ويتثاءب الطفل فتحتويه أمه لينام فى دفء أحضانها . وفى هدوء الليل ونسماته الباردة كانت تراتيل الكهنة فى المعبد القريب تتسلل إلى الكوخ مع صوت القيثارة لتمجيد أوزيرس :

ـ التحية لك
سيد الألفاظ الإلهية ،
يامن ترأس الشعائر المحجوبة
وتستقر فى السماء وعلى الأرض .
الإله العظيم منذ الأزل
ذو الأصالة ،
مخترع اللفظ والكتابة ،
يامن تعمل على تزايد الدور ،
وتؤسس المساكن
يا من تحيط الآلهة علماً بدورها ،

وكل فن بقواعده
والأقطار بحدودها
وكذلك الحقول .

وتغمض مريم جفونها فى سعادة بعد أن تكون النار قد خبت فى الموقد الفخارى . لكن السعادة لم تدم إذ حلم يوسف بملاك الرب فى تلك الليلة يأمره بالتوجه إلى بلدة فيليس ثم القوصية ثم بلدة مير ومنها إلى جبل قسقام للاستقرار هناك إلى أن يصدر إليه الأمر الإلهى بالعودة .

ومع انبلاجَ الفجر كانت العائلة المقدسة تستقل مركباً شراعياً لنقل الأوانى الفخارية حتى بلغت مدينة فيليس التى سميت بديروط الشريف فيما بعد والتى تبعد عن الأشمونين عشرين كيلو متراً جنوباً . وأقاموا فيها أياماً قليلة ثم غادروها إلى بلدة القوصية التى لم يستريحوا للبقاء فيها أكثر من ثلاثة أيام ، فأسرعوا إلى بلدة مير ومنها إلى جبل قسقام الذى يقع حوالى خمسين كيلومترا شمال مدينة أسيوط . وكانت الصخور الجبلية والتلال الرملية تمتد غرب الجبل لتفترش الصحراء الغربية الشاسعة ، أما فى شمال وشرق الجبل فتمتد مساحات فسيحة من الأراضى الخضراء التى تصل إليها مياه النيل ، وخاصة فى أيام الفيضان التى تلامس فيها المياه أقدام الجبل .

وفى الجهة الغربية بنى يوسف كوخاً صغيراً فى حضن الجبل ، يطل على الصخور الجبلية والتلال الرملية التى تفترش الصحراء حتى خط الأفق حيث تنطبق السماء على الأرض . كان الكوخ مصنوعاً من أغصان النخيل التى تغطى سقفه ، ومن فروع الأشجار التى أقامت جدرانه . وسرعان ما ذاع صيت البقعة التى حدثت فيها آيات وعجائب لكل من مر بالكوخ أو وقعت عيناه على الطفل الإلهى . فكم من مرضى فقدوا الأمل فى الشفاء الذى حل عليهم فى لحظة خاطفة ؟! وكم من ضيقات أوشكت أن تقضى قضاء مبرما على ضحاياها الذين لاحظوها وهى تتلاشى كما تنداح الظلمة أمام النور ؟! وكم من آمال كانت فى حكم المستحيلات لكنها سرعان ما تحققت ؟!

وكانت هناك بئر جارية بالقرب من الكوخ كان يسوع قد شرب من مائها وباركها ، ومنذ تلك اللحظة نال الشفاء كل ما كان عليلاً أو سقيماً وشرب من مائها أو استحم به . وأصبحت المنطقة مزاراً للأهالى الذين كانوا يهرعون

لرؤية الطفل الإلهى وعائلته المقدسة لنوال البركة وتحقيق الآمال والأمانى . خاصة وأن العائلة المقدسة قضت فى هذه البقعة المباركة ستة أشهر وبضعة أيام ، وهى أطول مدة مكثتها فى منطقة واحدة طوال الرحلة الإلهية .

وطوال النهار كان يوسف مشغولاً بصنع بعض المقاعد والأسرة بالقرب من الكوخ ، طبقاً لطلبات الزائرين . فلم يقبل يوسف إلا أن تأكل أسرته من عرق جبينه ، كذلك كانت مريم مشغولة بإحضار الماء فى الجرار من البئر ، وصنع الخبز والفطير ، فى حين كان طفلها يتابعها بعينيه المشعتين وهو يترنم بالمزامير التى حفظها عن ظهر قلب :

ــ يملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . أمامه تجثو أهلُ البرية .. ويسجد له كلُّ الملوكِ . كُلُّ الأمم تتعبد له . لأنه ينجّى الفقير المستغيث والمسكين إذ لا معين له . يشفق على المسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء . من الظلم والخطف يفدى أنفسهم .. يكون اسمه إلى الدهر . قدام الشمس يمتد اسمه . ويتباركون به . كل أمم الأرض يطوبونه . مبارك الرب الله إله اسرائيل الصانع العجائب وحده . ومبارك اسم مجده إلى الدهر ولتمتلىء الأرض كلها من مجده . آمين ثم آمين .

وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به فى قلبها . وذات ليلة أخذت يوسف سنة من النوم بعد يوم حافل بالعمل الشاق ، وكان مسترخياً على صخرة أمام مدخل الكوخ ، فإذا السماء ترسل نوراً فضياً يعشى الأبصار عند خط الأفق ، وسرعان ما امتد النور ليفترش الصحراء ويحيط الصخور الجبلية والكثبان الرملية بغلالة نورانية . ثم تكشف الضياء المبهر عن ملاك الرب الذى أمره :

ــ قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض اسرائيل . لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى .

ثم اختفى ملاك الرب ، ويوسف يفرك عينيه مبهوراً بما رأى ، سعيداً بما سمع . فما أروع العودة إلى أرض الوطن بعد غربة طويلة قاربت السنوات الأربع ! اصحيح أنهم وجدوا الأمان والحب وسط أبناء الشعب المصرى البسطاء الذين كانوا أول من آمنوا بيسوع ، وبذلك تحققت نبوءة إشعياء النبى : « مبارك شعبى مصر » ، لكن الرسالة الإلهية أكبر بكثير من مجرد

العواطف الشخصية . وبذلك تحققت نبوءة هوشع النبى : « من مصر دعوت ابنى » .

وبدأت رحلة العودة التى لم تستغرق أكثر من بضعة أشهر ، والتى تجنبوا فيها البلاد التى تسببت لهم فى بعض المشاكل . كان هيرودس قد مات وخلفه ابنه ارخيلاوس ملكاً على اليهودية ، وعندما وصلت العائلة المقدسة إلى أرض اسرائيل ، خاف يوسف أن يذهب إلى اليهودية واحتار أين يذهب ؟! لكن سرعان ما أوحى إليه فى حلم أن ينصرف إلى نواحى الجليل . فذهب ليسكن فى مدينة يقال لها ناصرة . لكى يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصرياً . ومن الناصرة أشرق النور على كل المسكونة .

(٩)

بين البحر الأبيض المتوسط بزرقته الممتدة إلى مسافات بعيدة حيث يختفى زبد أمواجه يساراً ، ونهر الأردن المتدفق بمياهه الوديعة فى خط مواز يميناً ، يمتد الوادى الفسيح مخترقاً جبال فلسطين من البحر إلى الأردن . إنه وادى يزرعيل الذى تقع بلاد الجليل شماله حيث طريق الناصرة فى المنتصف والتى تؤدى إلى مدرج مستدير طبيعى فى الجبال التى تطل على خضرة الحقول والمزارع .

فى تلك المدينة الجبلية الصغيرة المتكئة بلونها الأبيض الأشهب على أكتاف الصخور السوداء المحيطة بها ترعرع الصبى يسوع . وسار فى الطرقات الضيقة المعوجة ، ومر بالمنازل الصغيرة القائمة خارج البلدة بين الحقول والحدائق والكروم المنبسطة على هامات الجبال وفى أحضان الوديان الخضر المتألقة فى فصل الربيع بأزهار السوس وشقائق النعمان البيضاء وزنابق الوادى وغيرها من الأزاهير البرية الجبلية التى تتدرج ألوانها بين الأحمر والأصفر والسماوى والبرتقالى والأخضر والتى تكسو شمالى فلسطين جمالاً يشد العيون بخيوط من نور وعطر ويخلب الألباب بحفيف النسيم حولها .

كان يسوع يسير فى صباه الغض على ممرات الجبال ، ويصعد على قمة الجبل العالى الذى يطل على البلدة ، وفى الأيام التى كان الضباب المتكاثف ينقشع ويتلاشى كان يرى بقاع طابور وحرمون وجبال جلبوع التى مات فوق رباها داود ويوناثان ، كما كانت تنبسط أمامه هضاب الجليل ووراءها على مسافة شاسعة مياه البحر الأبيض المتوسط الزرقاء . أما فى الطرقات فكان الصبية يلهون ويصيحون ، فى حين تتجمع الفتيات للسقاية من بئر القرية ، ويسير الفلاحون بملابسهم المتواضعة الجذابة فى الطرقات يتبادلون التحية والسلام ، وترفرف القنبرة والدج والعصفور الأحمر وأبو فصادة فوق جداول المياه الجارية . أما أسراب العصافير الرصاصية والرمادية التى كان يباع الاثنان منها بفلس ، فكانت تلفت نظر يسوع أيضاً ، فقد كان يرى أن الآب السماوى يعتنى بها عنايته بكل مخلوقاته .

تلك هى الناصرة موطن يسوع ومهد صباه . فى إحدى طرقاتها كان كوخ

النجار حيث عاش يسوع بين أحضان الطبيعة الوادعة فى النهار وفى المساء يأوى إلى أحضان أمه كى تلقنه تعاليمه الدينية ، وقانون الإيمان اليهودى ، وإنشاء بعض المزامير السهلة ، وقصة أعمال الله مع إسرائيل كعبرة تاريخية سجلتها الأسفار المقدسة من سفر التكوين إلى سفر ملاخى .

لم يكن الدين فى حياة الصبى الإلهى مجرد تعاليم بل كان غذاء يومياً وحياة متصلة : صباح السبت ، والمجمع الأسبوعى ، والحفلات السنوية ، وعيد الحصاد ، وعيد الأسابيع ، ويوم الكفارة ، وعيد الفصح يوم يحج الناس من كل صوب وحدب إلى أورشليم . فقد كان الصبى ينمو ويتقوى بالروح ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه ، وكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس . وأذهل الحاخام الريفى بنبوغه المبكر وتعليقاته اللماحة عند حضوره لدروس مدرسة المجمع فى البلدة .

تلقى تعليمه المبكر على أيدى أمه والحاخام الريفى وكتاب الطبيعة حيث سفوح التلال ، والروابى المكسوة بالبساط السندسى الأخضر ، والجداول المتدفقة بخرير كضحكات الأطفال ، والشمس التى تحيل ضياء الفجر إلى بريق ذهبى يبتلع الكون ، ثم يبتلعها الكون فى أعماق اليم المحاط بهالات قرمزية ، والزهور والطيور والحملان الصغيرة التى تلعب وتمرح فى الحقول ، فيسرع الصبى يسوع ليعيد الحمل التائه إلى القطيع ، ويطعم الطيور بحبات الحنطة ، ويعيد العصفور الصغير الساقط من عشه .

وعندما بلغ يسوع الثانية عشرة من عمره ، سُمح له بأن يدخل دنيا الكبار ويحضر محافلهم وأعيادهم . فى تلك السنة اصطحبته عائلته المقدسة فى رهط من حجاج الناصرة فى الطريق الذى يعبر السهل الأخضر الفواح بعطر الأزاهير البرية . كان عدد القافلة يتضاعف عند كل مفترق مؤد إلى بقاع التاريخ الحافلة بذكريات الأنبياء والآباء . فهذه شونم حيث عاش إيليا وتنقل بين أرجائها ، وتلك جبعة التي شهدت صموئيل فى تردده بين المحفل والمعبد ، أما أورشليم عندما بدت بأسوارها وروابيها فقد هلل الحجاج فى تضرعات متهدجة :

ـــ أورشليم الجبال حولها . والرب حول شعبه من الآن وإلى الدهر ... فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب . تقف أرجلنا فى أبوابك ياأورشليم .. اسألوا سلامة أورشليم .. ليسترح محبوك .. ليكن سلام فى

أبراجك . راحة فى قصورك . من أجل بيت الرب إلهنا ألتمس لك خيراً .

نظر يسوع بعينيه اللتين تفيضان وداعة وحناناً ووجهه الصبوح المبهر بتألقه النورانى إلى المدينة الشامخة المقدسة ، وفاض قلبه الصغير بالحب والخشوع وهو يتدخل مع الحجاج المدينة من باب دمشق حيث أحاطها الربيع بالعطر والضياء والنسيم العليل . وتدفق فيض الحب والخشوع داخل جوانحه عندما دخل الهيكل العظيم بأعمدته الرخامية الفخمة وقبابه المشعة بروح الرب . هنا بيت الآب . هنا بيته هو الذى ينتمى إليه . البيت الذى تهفو إليه القلوب التى ازدحمت بها طرقات أورشليم ونصبت مضاربها فوق سفوح الروابى .

كان يسوع الصبى منتشياً بوجوده فى بيت الرب ، خاصة فى ليلة الفصح حين التأم شمل كل مجموعة من الأسرة فى علية حول الخروف المذبوح والفطير غير المختمر والأعشاب المرة ، وجلس أعضاء سنهدريم الهيكل فوق الشرفات ليعلموا الشعب ويقولوا ما لم يقله حاخام الناصرة الريفى من خلال معلوماته المتواضعة ، التى لم تشف عشقه للمعرفة والحكمة . تجول يسوع بين أروقة الهيكل وأبهائه يستمع إلى هذا العالم ، ويسأل ذلك الحبر ، ويرد على ذاك الحاخام حتى بهتوا من فهمه وأجوبته برغم أن أعلام الفكر والفلسفة والعقيدة والشريعة كانوا بينهم من أمثال هيلال وغمالائيل الذى لقب بمعلم الناموس . كانت دهشتهم بل وذهولهم لا حدود له عندما وجدوا صبياً فى سنه يسمعهم ويسألهم بل ويحاجيهم لمدة ثلاثة أيام نسى فيها أمه مريم ويوسف اللذين عادا إلى الناصرة ظناً منهما أنه يتنقل مرحاً بين أعضاء القافلة ، لكن عند وصولهما إلى الناصرة اكتشف غيابه الذى أصابهما بصدمة القلق والخوف عليه من مكروه ربما يكون قد أصابه .

وسرعان ما امتطيا دابتين قطعتا طريق السهل فى رحلة لاهثة ، قلقة ، مضطربة حتى دخلا من باب دمشق صوب الهيكل وهما يسألان كل من يقابلاه عن ابنهما الذى فقد منهما وسط زحام الفصح وصخبه . كان قلب الأم ينتفض خوفاً ورعباً كلما اصطكت أذناها بأجوبة كالطرق المسدودة الخانقة ، فقد سألا عنه فى الناصرة بيتاً بيتاً ، وها هى الأجوبة المسدودة تعود لتسحق قلبها بنار الأمومة الحارقة . كان عرق القلق يتصبب من جبين مريم ، ونظرات يوسف الحائرة لا تستقر بين نواحى المدينة وطرقاتها ، وقد تركا

الدابتين ليسيرا بساقين مرتعشتين ولسانين جافين بحثاً عن إجابة تبلهما بقطرة ماء عزيزة بعد رحلة يوم طويل . ومع ذلك لم يتخل عنهما اليقين بأنهما سيجدانه سالماً معافى .

وصدق يقينهما عندما وجداه فى الهيكل جالساً فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم وهم فى ذهول من فهمه وأجوبته . ذهل يوسف ومريم التى لم تملك سوى أن تعاتبه :

— يابنى* لماذا فعلت بنا هكذا ؟! هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين ؟!

أجاب سؤالهما بسؤال لم تبد فيه أية علامات للدهشة :

— لماذا كنتما تطلبانني ؟ ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فى ما لأبى ؟!

سقطت الكلمات على آذانهما كالطلاسم . لكن يسوع الصبى كان ابناً مطيعاً فعاد معهما ، لكن مريم لاحظت أن نظرات الطفولة فى عينيه قد تلاشت لتحل محلها نظرات النضج والحكمة والمعرفة . لقد رأى أورشليم ، وحضر الفصح ، ودخل هيكل الآب ، وعشرات الألوف تجثو أمامه ، وناقش العلماء ، وأبهر الأحبار . لم يفطن إلى قلق أمه عليه لأنها هى نفسها أخبرته بمعجزة ميلاده التى لم ولن تتكرر ، فلماذا تطلبه وهى تعلم أنه ينبغى أن يكون فى بيت أبيه ؟! فإذا كانت تهتم بأمومتها له فإنه يهتم فى الوقت نفسه بأبوته للبشرية جمعاء . لكن كيف يتأتى لها أن تدرك المعانى الأبدية والأزلية التى تنبع من كلماته ؟! لذلك كانت تكتفى فى بعض الأحيان بحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها .

ومع ذلك لم يلفت أنظار العامة إليه . عاش حياته كأى صبى مغمور فى الناصرة يساعد يوسف فى حرفة النجارة التى عاشوا منها . كان النهار كله يمضيه فى صنع الموائد والمقاعد والأسرة وأحياناً بعض العربات الخشبية التى تجرها الدواب لنقل الحبوب والخضروات والفاكهة . وفى المساء يأوى إلى أسرته يقرأ لها الأسفار والفاكهة . وفى المساء يأوى إلى أسرته يقرأ لها الأسفار المقدسة وسط ذهول أمه وهى تسمع منه تفسيرات جديدة لم تخطر لها على بال ، لكن ذهولها سرعان ما يزول بمجرد أن تتذكر معجزة ميلاده .

كانت ثمانى عشرة سنة عاشها يسوع أمام الناس صبياً ثم شاباً عادياً .

صحيح أنه كان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس ، لكن فيما عدا هذا لم ير الناس ما يراه الله . كان باراً بأمه كما كان مطيعاً لها . فبعد رحيل يوسف النجار لم يجعل أمه تشعر بالحاجة لأحد . كان العرق يتصبب من جبينه وهو يقوم بنشر ألواح الخشب السميك ، ودق المسامير الطويلة فى قوائم الموائد والمقاعد والمحاريث والأنيار التى توضع على أعناق الدواب وهى تجر العربات .

وتردد على محله البسطاء والفقراء الذين سحروا برقته وعذوبته ونظرات عينيه المشعة بوميض لم يروا مثله من قبل . لم يكن يحصل منهم سوى على الأجر الذى يقيم أوده هو وأمه . ومن لم يستطع منهم أن يدفع الأجر كاملاً ، كان يربت على كتفه فى حب دافق ويرسله سعيداً راضياً . فقد كان الحب عنده أغلى أجر يمكن الحصول عليه .

أما أغنياء الناصرة أو المتشبهون بهم فكانوا يرمقونه متسائلين فى سخرية :

ــ أليس هذا هو النجار ابن مريم ؟!

فقد كانوا يقلدون أسيادهم من الرومان الذين اعتنقوا آراء فيلسوفهم شيشرون حين قال :

ــ إن الصنعة اليدوية عمل وضيع منحط . ولا يمكن أن يمت حانوت الصانع بصلة إلى أى شىء نبيل فى الحياة .

لكن يسوع لم يكن يفرق بين النجار الذى يصنع مائدة لرجل فقير والنجار الذى يصنع مذبحاً للرب . فكل عمل لخدمة الآخرين مبارك عند الله . وليس هناك عمل وضيع سوى ذلك الذى يوسوس به الشيطان فى نفوس البشر . ولذلك لم يكن محله المتواضع مصدراً لسعادة البسطاء ورضاء الفقراء فحسب بل كان منبعاً لنشوة الأطفال أيضاً . فكانوا يترددون عليه طوال النهار بلا خوف وسط بقايا الأخشاب المنشورة من مكعبات ومستطيلات ، بل كثيراً ما كان يستغل بعض وقت فراغه فى صنع ألعاب خشبية لهم ونماذج صغيرة من السفن والمحاريث والموائد والمقاعد ، فكان إذا حصل أحدهم على واحدة منها ينطلق مزقزقاً كالعصفور إلى بيته تشيعه نظرات الحب والبركة المتدفقة من عينى يسوع وهو يوصيه بالابتعاد عن مسار العربات فى منتصف الطريق .

وكان يسوع يرى فى مداعبته للأطفال فترات راحة ممتعة من عمله اليومى الشاق . ففى أثناء صنعه لبعض ألعابهم كان يروى لهم القصص والأمثال ، ويعد من يفهم مغزى القصة أو معنى المثل بلعبة جميلة . ولذلك كان الأطفال آذاناً صاغية وهم يجلسون حوله وكلهم عشق لوداعته ، وعذوبته ، وسحره ، وقصصه الجميلة عن الأنبياء والرسل ؛ وكلهم أيضاً أمل فى الحصول على اللعبة الجميلة .

ومع الغروب كان يسوع يسرع إلى غلق محله ، والذهاب إلى أمه للاطمئنان عليها ووضع ما كسبه طوال اليوم بين يديها . وأحياناً كان يقضى أمسيات الشتاء فى قراءة الأسفار المقدسة وتفسيرها لأمه أو للأصدقاء والجيران الذين سحروا بكلمات النعمة النابعة من فمه حول النيران المشتعلة فى بعض بقايا الخشب طلبا للدفء فى الليالى القارصة . وأحياناً أخرى كان يقضى ليالى الصيف على جبال الناصرة مختلياً بنفسه ، متأملاً أسرار الكون التى كان مجيئه إلى هذا العالم أروعها .

وعندما أوشك يسوع على بلوغ الثلاثين من عمره ، زادت ساعات انفراده بنفسه على جبال الناصرة ، وتحولت التأملات العميقة الواسعة كالكون إلى صلوات رددت أصداءها الملائكة أمام عرش الرب . فقد دوت أجراس الخلود فى أرجاء السماء وصدحت ألحان الملائكة مبشرة الوجود برسالة الخلاص الأبدى التى آن أوانها بعد انتظار ممض طال منذ بدء الوجود .

(١٠)

فى السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور الرومانى طيباريوس قيصر ، كان بيلاطس البنطى والياً على اليهودية من قبل الإمبراطورية الرومانية ، فى حين تولى هيرودس رياسة ربع على الجليل ، وفيلبس أخوه على ايطورية وكورة تراخونيتس ، وليسانيوس على الأبلية بعد وفاة هيرودس الكبير . أما رياسة الكهنة فكانت معقودة لحنان وقيافا . وكانت التقارير الواردة من بيلاطس البنطى من اليهودية إلى بلاط القيصر فى روما تؤكد استتباب الأمور فى هذه البقعة الحساسة من بقاع الإمبراطورية المترامية الأطراف . فكل هم هيرودس وفيلبس وليسانيوس أن ينالوا رضاء قيصر روما وهم فى سبيل ذلك كانوا على أتم استعداد لتلبية طلبات بيلاطس البنطى ليل نهار . أما حنان وقيافا فقد بذلا ما فى وسعهما لوضع مجلس السنهدريم فى خدمة التفسيرات الدينية التى تبرر الخضوع لطاعة الرومان .

وأصبحت التقارير الواردة من اليهودية فى نظر الإمبراطور طيباريوس مجرد تحصيل حاصل يتصفحها فى عجلة من أمره كى يتفرغ لشئون الإمبراطورية الملحة والعسكرية على وجه التحديد . كانت ثقته فى حنكة مندوبه بيلاطس البنطى ودهائه لا حدود لها . فقد كان مدركاً لكل مجريات الأمور فى اليهودية ، الظاهر منها والخفى . فظاهر الأمور الذى يؤكد طاعة هيرودس وفيلبس وليسانيوس وانقياد حنان وقيافا للسلطة الأجنبية ، يخفى فى طياته المظلمة حقداً دفيناً وتمرداً مكبوتاً ، لكن ما دام العبرة بالواقع والقوة والسلطة والسطوة فلم يعبأ بيلاطس بما يجيش ويعتمل داخل النفوس التى لا تملك سوى النفاق والرياء والمداهنة .

لكن كيف للأمور أن تستتب ودورة الزمن الأبدية تأتى كل يوم ، بل كل لحظة بجديد . فعبر وادى الأردن اندلعت ثورة جديدة لم تخطر ببال أى سياسى من قبل . ثورة ليست مسلحة أو عسكرية مثل تلك التى قادها سبارتاكوس على رأس جيش من العبيد من قبل ، بل ثورة روحية لا تستطيع الجيوش الجرارة إخمادها لأنها تسرى فى الروح التى لا ترى فى الأرض أى مغنم يجب الحرص عليه ، ولذلك فليست هناك القوة المادية التى يمكنها قهرها .

عبر وادى الأردن دوى صوت صارخ فى البرية . فقد حلّت كلمة الله على يوحنا بن زكريا واجتاز جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا كما هو مكتوب فى سفر إشعياء النبى القائل :

ــ صوت صارخ فى البرية . أعدوا طريق الرب . اصنعوا سبله مستقيمة . كل واد يمتلىء ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقاً سهلة ، ويبصر كل بشر خلاص الله .

نشأ يوحنا صبياً ، صامتاً ، وحيداً لشيخ عجوز ، بلا اخوة ولا اخوات ولا زملاء ولا خلان ، لكن النضوج العقلى والروحى كان خليل عمره . أدرك من أبويه أن حياته كرست لإعداد طريق الرب من قبل ميلاده ، فاستمرأ حياة الوحدة والعزلة وهام فى البرية بين ينابيع التأمل والصلاة . وعندما بلغ سن الشباب والرجولة توغل فى حياة النسك والزهد ، وأنكرت نفسه رفاهية الحياة الناعمة ، فقد أخضعها بالتأمل الروحى وسيطر عليها بالصوم الجسدى . لم يعرف من الملبس سوى وبر الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ، ومن المأكل سوى جراد وعسل برى .

كانت كلماته كنصل السيف تحت لهيب الشمس المحرقة التى تحاكى وميض عينيه ، فلم يستطع أحد من الذين توافدوا إلى نهر الأردن كى يعمدهم أن ينظر فى عينيه وهو يقول :

ــ ياأولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة . ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا . لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم . والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار .

لم تكن كلماته قطرات ماء باردة على شقوق أرض اختنقت بالجفاف ، وإنما كانت سهاماً ملتهبة تكوى كل مناطق العفن فى حياة الذين توافدوا حوله ليعتمدوا سائلين فى خوف :

ــ وماذا نفعل ؟!

أجاب بصوت كسوط قاطع :

ــ من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا .

كما توافد العشارون يخوضون بأقدامهم مياه نهر الأردن الباردة ، منحنين له وسائلين عما هم فاعلون . فأجابهم وهو يعمدهم بالماء الذى انهمرت قطراته على رءوسهم :

ـــ لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم .

أما جنود اليهودية الذين هرعوا إليه فأجابهم أيضاً :

ـــ لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائقكم ...

وكانت هالة المهابة التى تحيط بيوحنا وتشع فى عينى كل من يحاول أن ينظر إليه ، قد سرت بمس سحرى فى قلوب الناس الذين اعتقدوا أنه المسيح ، لكنه أدرك ما يدور ويعتمل داخلهم فصاح فيهم :

ـــ أنا أعمدكم بماء ولكن يأتى من هو أقوى منى الذى لست أهلاً أن أحل سيور حذائه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه . وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ .

كان يوحنا قد أدرك أن بينه وبين الملك القادم علاقة غامضة كأنها مقدرة منذ الأزل . ولاشك أن أباه الشيخ قد روى له رسالة الملاك التى تلقاها عن مولده حين بشره بقوله : « يتقدم أمامه بروح إيليا وقوته » . وكان جميع اليهود مدركين للنبوءة القديمة القائلة : « أرسل إيليا أمامه » ، بل إن بعضهم ذهب إلى أن إيليا سيعود بنفسه وعند ظهوره تكون أقدام المسيا على الأبواب ، لكن هؤلاء لم يدركوا أن المسألة هى فى استمرار روح النبوة المقدسة وليست مجرد عودة جسدية لإيليا .

كان الجميع يهابون ذلك النبى بهالته المشعة بالرهبة وهو يسرى بين معاقل الجبال ووهاد البرية الجرداء على ضفاف البحر الميت بلا أليف ولا صديق ، ثم يعود إلى نهر الأردن ليفتح الأبواب السرمدية للآخرين . حتى زمالة يسوع لم يفز بها مثلما فاز غيره وهو الذى جاء ليعتمد منه . فذات يوم كان يوحنا صاعداً شمالاً بمحاذاة ضفة نهر الأردن ، والجموع تتزايد حوله حتى بلغ بيت عبرة على مسافة عشرين ميلا من الناصرة ، وفى اللحظة نفسها وصل من الناصرة شاب قروى ، مديد القامة ، وبهى الطلعة ، وقف بين الجموع دون أن يلحظه أحد .

تأمله يسوع فرأى فيه شاباً متحمساً يتطاير الشرر من عينيه ، بوجه ناحل أجهده الزهد والتقشف . وعندما فرغ من معمودياته ، وانفض الناس من حوله عائدين فى سعادة غامرة إلى بيوتهم ، وقف يوحنا ، ناظراً بعينيه المشعتين نحو السماء التى بدت فضية ببريقها الأخاذ . فى نفس اللحظة السرمدية أقبل إليه يسوع خائضاً بقدميه فى الماء ، فإذ بعينى يوحنا وقد شُدتا إلى طلعته البهية النورانية . لابد أنه رآه من قبل فى الهيكل أو فوق الجبال . نعم لقد رآه يوم جنازة أبيه زكريا عندما شارك فيها بالعزاء والسلوى . إنه يسوع الناصرى . شىء غامض داخله يقول إنه المسيح المنتظر ! لكن هل يوُجد المسيح بهذه البساطة على الأرض أم أنه سيهبط من السماء بغتة كملك فى مجد عظيم طبقاً لإيمان الأجيال السابقة ؟! لكنه يتذكر قول أليصابات أمه له عندما زارتها مريم أم يسوع كيف ارتكض الجنين فى بطنها وامتلأت من الروح القدس بمجرد إلقاء مريم السلام عليها ، وكيف صرخت أليصابات بصوت عظيم : مباركة أنت فى النساء ومباركة هى ثمرة بطنك . فمن أين لى هذا أن تأتّى أم ربى إلىّ ؟!

تتابعت هذه الخواطر فى ذهن يوحنا كوميض البرق فى ليلة رعد ، وهو لا يستطيع أن يجذب عينيه بعيداً عن وجه يسوع النورانى الذى شدتا إليه بخيوط ذهبية وضوئية . ترقرقت الأمواج الحانية على سطح النهر الوادع فأحدثت خريراً كألحان السماء حول قدمى يسوع المغمورتين وسطها . تلاشت أمواج العنف والغضب والتأنيب والتعنيف داخل وجدان يوحنا المنصهر بصيحات الويل والثبور ، وكأن قطرات مياه الأردن قد تساقطت عليه فأطفأت لهيبها الذى طالما أشعلته مواكب الفريسيين المتعجرفين والعشارين الانتهازيين التى أتت إليه للمعمودية . تحول الصوت الصارخ ، القاطع ، الصارم إلى نبرات مرتعشة ، هامسة ، متسائلة فى خجل :

ـــ ما هذا ؟! أنت ؟! أنا محتاج أن أعتمد منك . وأنت تأتى الىّ ؟!

لكن يسوع بنظرات عينيه الوديعتين ووميضهما الحانى المتألق أمره برقة دافقة أن يكمل مهمته . ازداد ارتباك يوحنا لأن يسوع لم يكن فى حاجة لمعمودية التوبة . أدرك يسوع ما يدور داخله فأكد له أنه جاء كقدوة لكل البشر :

اسْمَح الآن لأنّه هكذا يليق بنا أن نُكمّل كُلَّ بّرٍ .

وبمجرد أن اعتمد يسوع وصعد فى الحال من الماء ، فإذ بالسموات وقد انفتحت له ورأى روح الله نازلاً مثل حمامة من نور ونار وآتياً عليه ، وصوت يصدح من أعلى السموات :

ـــ هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت .

وكان فرح عظيم شاركت فيه السماء والأرض ، السماء بتسبيح الملائكة ورنين النواقيس الذهبية التى تعشى الأبصار ببريقها ، وتنتشى الآذان بأصدائها ؛ والأرض برقرقة الأمواج الحانية على سطح النهر الوادع وخريرها الذى امتزج بألحان السماء التى انفتحت لتحتوى الأرض فى أحضانها .

(١١)

صعد ابنُ الإنسانِ إلى جبل التجربة لامتحان بشريته . لقد تنازل عن كل الأسلحة الإلهية التى يمكن أن تهزم الشيطان فى لحظة ، حتى يقف بين البشر ويتقدم صفوفهم محارباً الشر بأسلحتهم . فقد أودع الله فيهم من الطاقات ما لم يكتشفوه ولقد صعد ابن الإنسان للتجربة كى يقول للبشر :

ـــ هذه هى أسلحتكم التى ولدتم بها .. فإذا أفلحتم فى استخدامها فلن تقوم للشر قائمة ..

صعد يسوع من ضفاف نهر الأردن إلى الجبل ولا يزال صوت السماء يتردد فى أذنيه ، والروح القدس الهابط مع المعمودية يدفعه لمنازلة كل جيوش الشر وجحافله . كان إبليس فى البرية فى انتظاره حيث الكهوف المظلمة والصخور المتجهمة والوحوش المتربصة التى ستشهد تجربة الأربعين يوماً ، تجربة الصراع الروحى ، والصوم الجسدى ، والجوع البشرى الذى انتهزه إبليس أخيراً ليقول له بنبراته المدببة كأطراف الخناجر المحماة احمراراً وهو ينظر بعينيه المتوهجتين شرراً إلى قطع الحجارة الصماء المتناثرة بين الكهوف والصخور :

ـــ إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً .

كان إبليس يظن أن لعاب ابن الإنسان سيسيل لمجرد ذكر الخبز بعد جوع أربعين يوماً ، لكن يسوع صوته خرج مجلجلاً لتردد السموات أصداءه الجليلة :

ـــ مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله .

كان إبليس يجهل أو يتجاهل أنه إذا كان الصوم يضعف الجسد فإنه فى الوقت نفسه يقوى الروح . لكن هل يمكن أن تضعف الروح فى مواجهة الغرور البشرى ؟! طار إبليس بابن الإنسان إلى أورشليم المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ثم نظر العمق المخيف تحتهما وقال له وهو يفتر عن أنيابه المعقوفة فيما يشبه الابتسامة :

ـــ إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل . لأنه مكتوب أنه يوصى

ملائكته بك . فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك !

ظن إبليس أن سهام الغرور المسمومة قد أصابت ابن الإنسان فى مقتل لكن الرد القاطع قضى على أمل له فى الانتصار :

ـــ مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك .

قرر إبليس أن يجرب حظه للمرة الثالثة ، فلم يتعود أن يهزمه البشر بهذا الحسم . صعد بابن الإنسان إلى جبل شاهق بدا وكأنه قمة العالم التى تطل على جميع ممالك الأرض : الأبراج الشاهقة ، والقصور التى تتألق عند خط الأفق ، والبوارج الراسيات فى الخلجان ، والبساتين التى تمتد كجنات خضراء فيحاء من الشرق إلى الغرب ، والحدائق التى تغرد بين أشجارها الباسقات البلابل والعصافير ، وتحيط بالقباب التى تخطف بوميضها الأبصار ، والطرقات التى تربط بين كبريات المدن حيث المواكب الملكية بعرباتها وخيولها المطهمة بالذهب والفضة ، والجيوش الجرارة عائدة تحفها أكاليل الغار بعد غزوات مستحيلة بين صفوف متلاحمة من البشر الذين ينثرون الزهور والورود وينشدون أهازيج النصر الأغر ، والساحات الشاسعة ذات الأعمدة المرمرية التى وقف فيها الزعماء والأمراء يخطبون ود الجماهير الشاخصة بعيونها إليهم ، وأسطول السفن والبوارج الحربية ، يمخر عباب البحر فى عودته محيطاً بالسفن الأسيرة ، وفلول الأسرى تسير بأقدام وأذرع ترسف فى أغلال حديدية تحفر فيها بخطوط دموية ، والمسلات والتماثيل والأهرامات الشامخة التى تتحدى الزمن وتكاد تقهره ، والقوافل التى تشق وهاد الصحارى حاملة على ظهور جمالها كل نفيس ، والأسواق التى يتكالب عليها التجار من كل أرجاء الأرض ، والميادين الفسيحة المرصعة بالحدائق تحيطها القصور المرمرية والرخامية ، ومناجم الذهب والفضة والعقيق والياقوت ، وساحات المصارعة الوحشية بالسيوف والخناجر والشباك ، ونوافذ السجون المستديرة الضيقة المعتمة التى تطل منها وجوه هزيلة وعيون شاردة هربا من غياهب تمسك بخناقها ، وشرفات تتألق فيها المصابيح الزيتية وتتضوع منها عطور الشرق بكل أريجها المسكر ، وموائد مدت لمآدب ملكية جمعت كل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب . وتجمع حولها علية القوم يضحكون ويصخبون كأن الأرض خلت من كل البشر إلا هم .

كان مشهداً ملحمياً لا يراه التاريخ سوى مرة واحدة فقط . نظر إليه إبليس ولعابه اللزج يكاد يسيل قائلاً لابن الإنسان الذى لم يعبأ بكل هذه الأمجاد الخلابة :

ــ أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لى .

التفت إليه يسوع بكلمات أحالت المشهد إلى أطياف ثم أشباح ثم أبخرة سرعان ما تلاشت :

ــ إذهب يا شيطان . لأنه كتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد .

كانت الكلمات سهاماً نارية فى قلب إبليس الذى لم يحتمل أن يبدو مقهوراً فخرج من قلب المعركة تحيطه أكاليل الخزى والعار ، فى حين صدحت السموات بأهازيج مثل تلك التى ترددت أصداؤها يوم ميلاده ويوم عماده ، وهبطت ربوات الملائكة لتخدم ابن الإنسان الذى لم ينتصر لنفسه وإنما انتصر للإنسان .

(١٢)

مضت أربعون يوماً ولسان يوحنا المعمدان لم يصمت منذ أن عمد المسيح . لم يعد هناك حديث فى البيوت والأسواق والطرقات سوى أقوال يوحنا وتحركاته ، وعندما أعلن على الملأ أنه عمد المسيح ، انتقل الخبر بين البشر كوميض البرق فى الليلة الظلماء ، وردد الجميع كلمات يوحنا وشهادته :

ــ إنى قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه . وأنا لم أكن أعرفه . لكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء ذاك قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذى يعمد بالروح القدس . وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله .

وسرت الأنباء مسرى الرياح العاصفة حتى بلغت مسامع هيرودس الذى أرسل عيونه ليتقصى حقيقة الأمر قبل أن يصبح يوحنا مصدراً للمتاعب التى قد تصل إلى مسامع بيلاطس البنطى وربما بلغت أعتاب طيباريوس قيصر فى روما . لكن هيرودس لم يكن كأبيه هيرودس الكبير الذى أمر بمذبحة أطفال بيت لحم خوفاً من يسوع الطفل ، فقد كان هيرودس الصغير أضيق أفقاً ولذلك لم يهتم فى البداية بأخبار ظهور المسيح بقدر اهتمامه بموقف يوحنا الصارم تجاه اتخاذ هيروديا زوجة أخيه فيلبس امرأة له . ولولا أن هيرودس كان يخشى هالة المهابة المحيطة بنبى الله لقضى عليه فى لمح البصر ، لكنه آثر أن يحيطه بالعيون اتقاء لشره . أما اذا تفاقمت الأمور فلن يملك سوى أن يلقى به فى السجن حتى يكتم صوته الصارخ الذى يتهمه أمام الملأ بارتكاب الفحشاء والزنا مع زوجة أخيه .

أصبحت بيت عبرة حيث كان يوحنا يعمد عبر الأردن ملتقى الناس والآمال والأحاديث والأسئلة والأجوبة . أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه :

ــ من أنت ؟!

اعترف ببساطة ولم ينكر مقراً فى حسم :

إنى لست أنا المسيح

لم يقنعوا بالاجابة بل ألحوا فى السؤال :

ــ إذاً ماذا ؟! إيليا أنت ؟!

ــ لست أنا !

ــ النبى أنت ؟!

ــ لا

ــ من أنت لتعطى جواباً للذين أرسلونا . ماذا تقول عن نفسك ؟!

دوى صوته فى آذانهم كالرعد :

ــ أنا صوت صارخ فى البرية . قوموا طريق الرب كما قال إشعياء النبى .

وكان الفريسيون والصدوقيون أكثر الطبقات قلقاً . فهم أدرى الناس بزمن تحقيق النبوءة التى ينتظرها اليهود منذ عشرات القرون ، وهم أحرص الناس على مناصبهم ومراكزهم التى قد تنقلب عليهم رأساً على عقب ، ولذلك كانوا أسرع الناس فى إرسالهم إلى يوحنا من سأله :

ــ ما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى ؟!

أجابهم يوحنا بكلمات ضاعفت من حيرتهم :

ــ أنا أعمد بماء . ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه . هو الذى يأتى بعدى الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه ...

فى طريق عودتهم حاولوا فك اللغز : الذى أتى بعده صار قدامه ؟! قائم وسطهم لكنهم لا يعرفونه ؟! لكنهم قنعوا فى النهاية بحفظ الكلمات لعل سادتهم الفريسيين والصدوقيين يستطيعون تفسير المعانى الملغزة الكامنة فى الكلمات .

وفى الغد كان يوحنا واقفاً على ضفة النهر مع اثنين من تلاميذه ، فلمح على البعد يسوع هابطاً على منحدر الجبل الذى صعد إليه منذ ستة أسابيع . كان جسده منهكاً نحيفاً ، لكن وهج روحه تألق فى عينيه النورانيتين وجبينه الوضاء . وفى الحال تلاشت حيرة يوحنا التى ظلت تلح عليه طوال الأربعين يوماً ، وتهللت أساريره قائلاً لتلميذيه :

ــ هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم . هذا هو الذى قلت عنه يأتى

بعدى ، رجل صار قدامى لأنه كان قبلى . وأنا لم أكن أعرفه . لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء .

بهر التلميذان فلم يملكا سوى أن يتبعا يسوع الذى التفت سائلاً إياهما بنفس الحنان والوداعة :

ــ ماذا تطلبان ؟!

تساءلا دون تفكير :

ــ يا معلم أين تمكث ؟!

تألقت ابتسامة رقيقة على وجهه الوضاء :

ــ تعاليا وأنظرا ..

وفى الحال تبعاه إلى حيث كان يمكث . كان اندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الإثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه . أسرع اندراوس إلى أخيه سمعان ليخبره بأنه قد وجد المسيح بل وأحضره إليه فنظر إليه يسوع وقال :

ــ أنت سمعان بن يونا . أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس .

حملق بطرس المتهور المندفع النقى فى وجه يسوع المضىء وهو يمنحه لقب « صفا » أى « الصخرة » . فهو ذو الطبيعة المتقلبة كالعواصف الفجائية لم ير فى نفسه ثباتاً أو رسوخاً كالصخرة ، فلم يدرك أن كلمة الرب ستجعل منه صخرة أبدية فيما بعد .

ــ اتبعنى .

وتوالت كوكبة التلاميذ الذين كتب لهم أن يتبعوا الفادى المخلص كى يتبعهم العالم كله فيما بعد . فقد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلبس فقال له كلمة واحدة :

فتبعه فى الحال دون أن يتردد أو يفكر لحظة واحدة . فقد كانت نفسه مبهورة كأنه أصبح إنساناً آخر أو كأنه ولد من جديد . ولم يستطع أن يكتم الفرحة داخله بل أسرع ليخبر نثنائيل ــ أول من قابله بعد التلمذة ــ وكان مسترخياً متأملاً تحت شجرة تين :

ــ وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء ... يسوع ابن

ــ (يوسف الذى من الناصرة ...)

حك نثنائيل لحيته الرمادية ونظر فى عينى فيلبس العسليتين :

ـــ أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟!

نضح الإنبهار على نبرات فيلبس اللاهثة :

ـــ تعال وأنظر .

عاد فيلبس بخطوات طائرة بنثنائيل الذى أذهله يسوع بمجرد أن رآه :

ـــ هوذا إسرائيلى حقاً لا غش فيه !

ضم نثنائيل عباءته حوله وكأنه شعر بالعرى :

ـــ من أين تعرفنى ؟!

أجابه يسوع بابتسامته الحانية المضيئة :

ـــ قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك !

لم يستطع نثنائيل أن يحملق فى وجه يسوع فنظر إلى موطىء قدميه هامساً والعرق يكاد يتصبب من جبينه :

ـــ يا معلم أنت ابن الله . أنت ملك إسرائيل !!

ربت يسوع على كتفه فسرت فى عروق نثنائيل رعشة :

ـــ هل آمنت لأنى قلت لك إنى رأيتك تحت التينة .

سوف ترى أعظم من هذا .. الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان .

فوق الطريق المؤدية إلى قانا والحقول اليانعة تحيط بها فى ازدهار أخضر ، سار المخلص مع فيلبس وبطرس ويوحنا ونثنائيل الذى كاد الإحساس بالذنب واللوم أن يقتله لارتيابه فى مجيء المسيح بهذه الطريقة البسيطة ، المفاجئة ، لكن هذه الأحاسيس سرعان ما تلاشت وتبخرت مع اشراقة السماء المفاجئة برغم حجاب السحب الكثيفة التى أحاطت بالشمس . بهت نثنائيل وهو يرى معهم السماء مفتوحة فى مشهد لم تره عين بشرية من قبل . النور ينهمر كشلال بللورى يعشى الأبصار فى تدفقه صوب وجه يسوع الذى سطع بنظراته

النورانية وسط مواكب الملائكة فى دورات الصعود والهبوط على يسوع ، ورنين النواقيس الذهبية ، ونفحات الأهازيج الصادحة ، فى مهرجان نشوة اللقاء بين السماء والأرض .

سرت البهجة فى نفوس كل من فى البيت ، وتألقت العيون بوميض ابتسامات متبادلة فى حين قام كل شيء على قدم وساق استعداداً للعرس الذى جمع بين بهجته والفرحة بلقاء يسوع الذى قرر تشريفه . كان المدعوون الذين جاءوا مبكرين إلى العرس على أحر من الجمر لرؤية يسوع منذ أن عمده يوحنا وأعلن على الملأ أنه المسيح المنتظر . وكانت أم يسوع بنفسها تشرف على ترتيب المقاعد ، ووضع أكاليل الزهور التى تضوعت بعبقها من أركان الحجرات . وعندما ذهبت إلى الحجرة التى احتوت على ستة أجران حجرية حسب تطهير اليهود ، وجدت العريس يرفع الغطاء عن الواحد تلو الآخر وهو ينظر إلى داخله بقلق . فسألته مريم :

ــ ما الذى يقلقك يا بنى ؟!

ــ أخشى ألا تكفى الخمر هذا العدد الكبير من الضيوف ثم اننا لا نستطيع شراء المزيد منها .

ربتت العذراء على كتفه بحنان الأمومة كلها :

ــ لا تخش شيئاً يا بنى .. فإن البركة تحل حيثما حلّ !

وغادرت الغرفة وابتسامة حانية تفترش وجهها الودود المنير . وقف العريس لحظات وهو يلم أطراف ثوبه الأبيض اللامع سائلاً نفسه :

ــ ماذا تقصد ؟! ربما كانت تقصد ابنها الذى سيشرف العرس والذى أصبح حديث الناس جميعا ؟! لكن ماذا يمكن أن يفعل لو وجد المدعوون أن الخمر قد نفدت ؟! ربما احتقره البعض لفقره ، وربما اتهمه البعض الآخر بالبخل ؟! وماذا يمكن أن يقول رئيس المتكأ وهو الذى جاء ليشرف الحفل ؟!

خرج العريس مهموماً وهو يدعو الله فى قلبه أن يجنبه شر النظرات المشفقة الراثية لحاله أو الهمسات الجارحة حتى لا تتحول أجمل لحظات عمره الى أتعس ليلة فى حياته .

كانت العروس سليلة أسرة مريم ، وتعرف يسوع منذ طفولتها إذ أن قريتها

قانا لم تكن تبعد عن الناصرة بأكثر من أربعة أميال . ويبدو أنها كانت من الأطفال الذين ترددوا على محل النجارة حيث كان يسوع يقدم لهم اللعب الخشبية الصغيرة ، ويقص عليهم الأمثال والقصص ، ويترنم معهم بالمزامير . فقد تعلقت به كأخ أكبر ، وعندما تناقل الأهالى أخباره كمعلم مرسل من الله لخلاص البشرية ، قالت للجميع :

ــ لن يكون العرس عرساً إلا بحضوره .

ونقلت مريم رغبتها إلى ابنها الذى لم يشأ أن يخيب رجاءها ، فقد جاء من أجل كل البسطاء ، وإدخال السرور إلى قلوب البؤساء . كان منبعاً لا ينضب من البهجة حيثما حل .

جلست العروس فى الصدارة إلى جوار عريسها الذى حاول كتم القلق حتى لا يطفح على صفحة وجهه . كانت ترتدى نقابا ناصع البياض وإكليلا من زهور الآس الرقيقة الدقيقة فوق جدائل شعرها الأسود الناعم اللامع ، وقد علت وجنتيها حمرة الخجل العذرى فى انتظار وصول يسوع ومعه تلاميذه فيلبس وبطرس ويوحنا . فلم تكن طقوس الزواج لتبدأ إلا مع حلوله .

وجاء يسوع ومعه تلاميذه وسط بهجة القلوب المنتظرة . وسرعان ما بدأت مراسم الحفل ، وقراءة النصوص المقدسة ، وإنشاد الأهازيج المنتشية ، ونثر أوراق الورد المعطرة ، ودوران كؤوس الخمر الفخارية والخشبية على المدعوين الذين علت ضحكاتهم وتمنياتهم للعروسين بالرفاء والبنين . وكانت مريم أم يسوع تشرف على راحتهم وطلباتهم بهمة لا تعرف الكلل كما لو كانت أم العروس ، فى حين انتحى يسوع وتلاميذه ركنا قصيا سعداء بحفل الزواج المتواضع .

كانت شمس الغروب الحانية تتسلل من قضبان النوافذ الحديدية لتفترش الموائد والجدران ووجه العريس بعينيه الحائرتين الزائغتين حول مدخل حجرة الأجران حيث توقف الخدم عن الخروج منها بكؤوس الخمر ، فى حين أسرعت مريم منها إلى يسوع فى ركنه القصى وهى تكاد تهمس فى أذنه :

ــ ليس لهم خمر !

كانت الأجران قد فرغت من الخمر ، لكن يسوع أجاب أمه مخاطباً إياها

باللقب الذى كان دليلاً على الاحترام والتبجيل فى تلك الأيام : أى ياسيدتى ، لأنه لم يكن عازماً أن يعلن نفسه فى تلك الليلة فقال لها :

ـــ ما لى ولك ياإمرأة . لم تأت ساعتى بَعْدُ !

تذكرت مريم إجابته حين كان صبياً يناهز الثانية عشرة من عمره ، عندما ذهبت مع يوسف للبحث عنه فى الهيكل بعد غياب ثلاثة أيام عنهما ، فإذ به يتساءل مندهشاً :

ـــ ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فى ما لأبى ؟!

لكنها منذ موت يوسف ، اعتادت أن تلجأ إليه كلما احتاجت شيئاً . فهى أمه أولاً وأخيراً ، ولم يحدث أن رفض لها رجاء من قبل . ولم تكن تعلم أنه رفض منذ أيام قليلة أن يحول الحجارة خبزاً لسد جوعه عندما جربه إبليس فوق الجبل ، لكنه يبدو الآن وقد قبل بصدر رحب أن يحول الماء خمراً ليستر خجل أصدقائه ويجنب أحباءه مأزقاً حرجاً . ولذلك التفتت مريم بابتسامة رقيقة إلى الخدم الذين تجمعوا حولها وقالت لهم ببساطتها المحببة :

ـــ مهما قال لكم فافعلوه !

انتقلت الإبتسامة إلى عينى يسوع المضيئتين قائلاً :

ـــ املأوا الأجران ماء .

أسرع الخدم حاملين جرار الماء الفخارية وقاموا بصبها فى الأجران حتى امتلأت على آخرها ، وقبل أن يعودوا بالجرار أمرهم يسوع :

ـــ استقلوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ .

تابع يسوع مع تلاميذه الخدم وهم ينهلون بالكؤوس من الأجران ويبدأون برئيس المتكأ . لم يكن أحد يعلم من أين جاءت الخمر . وكان العريس يتابع ما يجرى بعيون ذاهلة لا تعى شيئاً ، فلم يعلم ما جرى سوى مريم والتلاميذ والخدم ، أما المدعوون جميعاً فقد ظنوا أن الخدم يملأون الأجران بخمر جديدة .

ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ، وطفحت النشوة على عينيه المسبلتين ووجنتيه المتوردتين ، ثم رشف منه مرة ثانية ودعا العريس بإشارة من إصبعه فأسرع الشاب إليه وهو لا يكاد يعى ما يدور ، بل ضاعفت كلمات الشيخ

من ذهوله :

ـــ كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون . أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن .

شكره العريس وعاد إلى مقعده إلى جوار عروسه التى كانت تراقبه فى سعادة . أختلطت الأمور عليه فلم يعرف إذا كان ما يجرى حلماً جميلاً أو واقعاً رائعاً ؟! وكان له العذر كل العذر إذ أن ما جرى كان بداءة الآيات ، فعلها يسوع فى قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه .

بعد عرس قانا الجليل كان عيد الفصح على الأبواب . صعد يسوع مع تلاميذه إلى أورشليم على الطريق المحاذية لبحيرة الجليل الزرقاء ، والمراعي الخضراء ، والكروم النضرة التى تعرف بكروم الأمراء . وفى طريقهم شمالاً مروا بكفرناحوم حيث كان يقطن بعض تلاميذه الآخرين على ضفاف البحيرة . استراحوا هناك بضعة أيام ثم انضموا إلى إحدى قوافل الحجاج الصاعدة إلى أورشليم للعيد . ولم يكن الأمر بالنسبة ليسوع مجرد حج أو حضور لطقوس الفصح ، وإنما كان بمثابة أول إعلان عن شخصه ورسالته داخل عرين الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين .

كانت محبة المسيح منصبة على الشعب الذى لم يكن يملك أية قوة أو نفوذ . فقد كانت السلطة والسطوة والامتيازات فى أيدى الكتبة والفريسيين والصدوقيين الذين يمثلون الأرستقراطية الكهنوتية ، والهيرودسيين الذين يمثلون الارستقراطية السياسية . الفئة الأولى اتخذت من الكهنوت سلاحاً تحمى به طبقتها الإجتماعية المرفهة ومصالحها الإقتصادية الراسخة ، أما الفئة الثانية فقد اقترنت امتيازاتها الإجتماعية والإقتصادية بمصالح هيرودس بصفته ممثلاً للإمبراطورية الرومانية تحت اشراف مندوبها الرسمى بيلاطس البنطى . وكان عليه بصفته الحاكم اليهودى أن ينال رضاء المندوب الرومانى ، حتى يظل الشعب اليهودى كوكباً سياراً فى فلك الامبراطورية التى تحكم أكثر من نصف العالم . وكان أول شروط هذا الرضاء السامى أن يبقى شعبه فى خضوع تام ، حتى لا تصبح التقارير الواردة من بيلاطس البنطى مصدر إزعاج لبلاط الامبراطور فى روما . وكان هذا هو الهدف السامى أيضاً لطبقتى الأرستقراطية الكهنوتية والسياسية بحيث تظل الإمتيازات الإجتماعية والإقتصادية فى أيدى زعمائها والسائرين فى ركابهم .

وسط هذه الغابة المخيفة المتشابكة الأطراف والمصالح والفروع والسلطات دخل يسوع بثورته التى تهدف إلى قلب كل الأمور رأساً على عقب . فهو لا يحب هذه الطبقات الراسخة بامتيازاتها والتى تدعى لنفسها حقوقاً إلهية ليست لها ، وتفعل الظلم وتبرره بالدين ، وتشيع روح الإحتقار للفقراء

والبسطاء والمتضعين ، وكأن الفقر لعنة هبطت عليهم من السماء ، ووصمة أصابهم بها القدر وعليهم أن يحتملوها صاغرين حتى مماتهم . ولذلك لم يتردد يسوع فى الشروع فى تحطيم القوالب الدينية الجوفاء التى صبوا فيها معتقدات الناس حتى يظلوا تحت رحمتهم . وكانت زياراته للهيكل فى هذه المرة اعلاناً لثورته الإلهية وبذلك تحققت نبوءة مريم العذراء بعد أن بشرها ملاك الرب بميلاده المعجز :

ــ شتت المستكبرين بفكر قلوبهم
أنزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين
أشبع الجياع خيرات
وصرف الأغنياء فارغين

وكان الكتبة والفريسيون والصدوقيون قد جعلوا من هيكل الرب مركزاً للمعاملات المالية والصرافة ، أما الفناء الخارجى المحاط بالأعمدة الرخامية الباذخة والمرصع بالنافورات المرمرية التى تنهل من مائها البللورى العصافير والحمام ، فقد أصبح سوقاً للماشية التى يتاجر فيها أبناء حنان رئيس الكهنة . وكثيراً ما كانت صلوات العابدين فى الهيكل ومزاميرهم تتلاشى ولا تسمع تحت وطأة ضوضاء السوق ، ورنين العملات المعدنية على موائد الصيارفة ، وثغاء الأغنام وخوار الثيران ، ونداءات الباعة الذين جاءوا لعرض بضاعتهم من كل فج عميق . ولم يجرؤ أحد أن يرفع صوته بالإعتراض على هذه الإعتداءات المتكررة ، إذ أن الهيكل نفسه كان ينال نسبة كبيرة من هذه الأرباح والمعاملات التى زادت من إيراداته وجعلت منه مؤسسة إقتصادية ترتكب فيها كل المخازى والصراعات المرتبطة بهذا النوع من النشاط .

فى زياراته السابقة للهيكل فى أعياد الفصح كان يسوع يرى هذه المهازل ويكتم ثورته داخل مرجل غضبه . فلم يكن قد أعلن ذاته بعد . أما فى هذه المرة فقد أضمر فى نفسه شيئاً ، فقد كانت الثورة الإلهية على وشك أن تدق الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد .

فى هذه المرة كانت المدينة المقدسة غاصة بجموع الوافدين إليها من كل أصقاع الأرض وقد ارتدت أبهى حللها مع حلول الربيع بنسماته التى لم تكن تخلو من لسعات باردة . كانت طرقاتها زاخرة بالعربات الفاخرة والخيول

المطهمة ، وحول الهيكل تجمعت جماهير من الحجاج بأزيائهم القومية الجذابة ذات الألوان الباهرة ، من كل حدب وصوب ؛ كانوا يدخلون الهيكل ويخرجون منه فوجا فوجا . فى حين انتظرت بقية الأفواج دورها فى فناء الأمم الخارجى المكشوف تحت قبة السماء بزرقتها اللانهائية ، بأروقته الفخمة الجليلة ، وأعمدته المنحوتة الهائلة . لكن هذا المشهد الجليل كان تحت رحمة الماشية التى تخور وتضرب أرض الفناء بحوافرها وتكاد ترفس العابدين القريبين منها ، والصيارفة والجباة والعشارون الذين يسيل لعابهم لرنين عملاتهم المعدنية جذباً للزبائن والعملاء ، والباعة الذين يساومون بصيحات منكرة لإجبار الزبائن على الرضوخ لبضائعهم وأسعارهم . وبالطبع فإن أصداء هذا الضجيج الذى يصم الآذان قد ترددت فى قدس الهيكل نفسه .

ولكن المأساة الحقيقية تمثلت فى اعتياد أهالى أورشليم والحجاج القادمين من القرى المجاورة والمدن القريبة على هذه الأوضاع الشائنة ، بل وكادت أن تصبح فى نظرهم جزءا لا يتجزأ من تقاليد الهيكل ، بل وطغى الإهتمام بها على الصلوات والطقوس نفسها . ولم يضج أو يئن من هذه المناظر المؤذية سوى أفراد الشعب الكادح الذين ظل الهيكل فى نظرهم شعاراً مقدساً ، فلم يكن لديهم من الأمور الدنيوية ما يشغلهم عن الشئون الدينية . أما الشيوخ الوافدون من بلاد بعيدة فكانت ألسنتهم أو عيونهم تنطق بكلمات ذاهلة مشمئزة :

— لم يكن شىء من هذا فى يومنا .

فقد عاصر الطاعنون منهم فى السن العصر الذهبى للهيكل ، لكن الشكوى ظلت مجرد كلمات متناثرة تكاد تصل إلى حد الهمس وسط ضوضاء السوق التى تصم الآذان . فقد كانت سطوة الكهنة مداً كاسحاً يمسك الدين باليمين والدنيا باليسار . ولذلك لم يهتموا كثيراً بالأنباء التى وردت مع الجليليين حول النبى الشاب القادم من الجليل ، وأقوال يوحنا المعمدان عن ألوهيته ، والمعجزات التى جرت على يديه هناك . ذلك أن زمام الأمور سيظل فى النهاية بين أيديهم القوية وقبضتهم الحديدية . ومع ذلك لم يمنعوا أنفسهم من حب الإستطلاع الذى جرفهم نحو هذا الشاب المثير لمعرفة حقيقة أمره . خاصة أنه لم يكن الشاب الوديع ، الهادىء ، الرقيق الذى سمعوا عنه بل اجتاح الهيكل كعاصفة عندما خطا أول خطوة له داخله فى ذلك الفصح التاريخى .

كان مكفهر الوجه ، صلب الملامح ، عابس النظرات التى ومضت بالصرامة والحسم والغضب والحنق وهو يدخل فناء الهيكل كأنه قائد رأس جيش جرار جاء ليؤدب العصاة الآثمين الذين كانوا يبيعون البقر والغنم والحمام ، والذين يتاجرون فى العملة على موائدهم المتناثرة فى أرجاء الفناء . صنع المسيح سوطاً من حبال ، وطرد الجميع من الهيكل بأغنامهم وأبقارهم التى علا الغبار تحت حوافرها ، وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم ، وصاح فى باعة الحمام :

ـــ ارفعوا هذه من ههنا . لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة .

كان تلاميذه يحيطون به مذهولين وهم يتذكرون ما قيل فى التوراة :

ـــ غيرة بيتك أكلتنى .

ذهل الكهنة لهذا الشاب الذى اجتاح الهيكل كالاعصار ، فلم يكن الأمر بالبساطة التى تصوروها ، فقالوا له صائحين :

ـــ أيَّة آية تُرينا حتى تفعل هذا ؟!

أجابهم يسوع وقد انتصبت قامته الطويلة بنفس الحسم والحنق :

ـــ انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أُقيمه !

امتزج ذهولهم برنة سخرية :

ـــ فى ست وأربعون سنة بنى هذا الهيكل أفأنت فى ثلاثة أيام تقيمه ؟!

كان من المستحيل أن يدركوا بعقولهم المتحجرة أنه يتكلم عن هيكل جسده الذى سينقضوه بعد عامين ليبقى بين الأموات ثلاثة أيام ويقوم بعدها . بل إن تلاميذه أنفسهم لم يستطيعوا أن يستوعبوا ما يقصده إلا بعد عامين عندما وقع ما قاله .

أدرك الكهنة أن ثقتهم فى أنفسهم كانت أكثر من اللازم ، بل لم تكن فى محلها على الإطلاق . فهذا الشاب بمفرده نجح فى تعرية عورات الكهنة الذين يتاجرون بالهيكل ، وكشفهم أمام جماهير الشعب الكادح الواقع تحت سطوتهم . وهذا لا يعنى سوى زلزلة سلطانهم الراسخ . ولذلك فأمر هذا الشاب لا يمكن أن يؤخذ بهذا الاستخفاف . فهو يملك جاذبية آسرة يمكن أن تصيب من يواجهه بشلل الكلام أو حتى الحركة . فهى ليست نابعة من

سلطان أو جاه أو مال بل كامنة فيه كمون النور والحرارة فى الشمس . يكفى أنه وصف الهيكل بأنه بيت أبيه دون أن يناقشه أحد فى معنى ما قاله .. كما أنه لم يلتزم الحذر فى غضبه الذى وجد صدى عميقاً فى عيون الشعب الذى شعر أنه ينطق بلسانه . لقد فعل مالم يجرؤ أحد من قبل على فعله مهما بلغ شأنه وسلطانه . ولذلك يتحتم مراقبة حركاته وسكناته حتى لا يفاجأوا ذات يوم قريب وهو يسحب البساط تحت أقدامهم التى أصابها الإرتعاش .

(١٥)

لما كان يسوع فى أورشليم فى عيد الفصح ، آمن كثيرون باسمه إذ رأوا مرأى العين الآيات التى صنعها ، وذاع صيته فى كل أرجاء المدينة المقدسة لكنه لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان عالماً بكل ما يدور فى الصدور ، ولأنه لم يكن محتاجاً الى شهادة من إنسان لأنه علم ما كان فى الإنسان .

لم يخل مجلس من الحديث عنه داخل بيوت أورشليم كلها . وحتى المارة فى الطرقات والعائدين فى القوافل لم يستطيعوا أن يكتموا انبهارهم بذلك النبى الشاب الذى تحدى ذوى السطوة والسلطان فى الهيكل والدولة ، فى الدين والدنيا ، ويتهمهم جهاراً نهاراً بالإنتهازية والجشع والغدر والإتجار بالهيكل نفسه . وكان من الطبيعى أن يقف له الفريسيون والكتبة والصدوقيون والهيرودوسيون بالمرصاد ، وأن ينسجوا الخطط فى مجالسهم فى تلك الليلة لاحتواء هذا الإعصار الذى اجتاحهم من حيث لا يعلمون . لكن الشىء العجيب أن جاذبيته الآسرة كانت قادرة أيضاً على اختراق هذا الحاجز الصلب من العصبية المقيتة ضده ، خاصة بعد الآيات التى صنعها والتى لا يستطيع أن ينكرها سوى جاحد أو مغرض أو منافق أو معتوه . ولذلك كان هناك من الكهنة والفريسيين من آمن به وإن لم يجرؤ على إعلان ما فى صدره على الملأ .

من هؤلاء الفريسيين كان إنسان اسمه نيقوديموس يتمتع بمرتبة رئيس لليهود . شعر بميل خفى وجارف نحو ذلك النبى الشاب برغم العداء الصريح الذى أبداه له زملاؤه الأحبار والرؤساء والحاخامات . وأوقعه صراعه النفسى العارم بين شقى الرحى : بين أفكاره الرجعية المحافظة المتحجرة وجبنه من مواجهة زملائه بما يشعر فعلاً وبين رغبته العارمة فى لقاء شخصى مع هذا المعلم الشاب الذى جاء بتعاليم وأفكار ومعجزات وآيات لم تكن تخطر على بال أحد . ومع ذلك لم يعدم الوسيلة التى يمكن أن يطفىء بها نار رغبته .

تحت ستار الليل الموشى بخيوط القمر الفضية فى أسبوع عيد الفصح ، تسلل نيقوديموس بمفرده فى عباءته الطويلة السوداء ، منتحياً الجانب الظليل من الطريق حتى لا ترصده العيون فيطير الخبر كالصاعقة إلى زملائه ثم ينهال على

أم رأسه . فقد رتب كل شيء بحرص وعناية بعد أن عرف أن يسوع يقيم فى بيت تلميذه يوحنا فى أورشليم . فخطط فى ذهنه مسبقاً للطريق التى سيسلكها إلى البيت الذى يقع فى أحد أزقة أورشليم . وهى طريق ليس بها بيت يقطنه من يعرفه ويستطيع أن يتجسس عليه .

وأخيراً بلغ البيت الذى يقع فى آخر الزقاق الضيق الذى عجز ضوء القمر عن التسلل إلى أرضه وواجهات منازله . نقر بأصابعه على الباب دقات حريصة وهو يتلفت يمنة ويسرة . وسرعان ما انفتح الباب على وجه يوحنا الذى نظر إلى نيقوديموس مستفسراً فسأله فى الحال بصوت هامس :

ـــ هل المعلم بالداخل ؟!

تردد يوحنا لحظة ثم سأله :

ـــ من يريده ؟!

ـــ قل له : نيقوديموس رئيس اليهود !

اختفى يوحنا بالداخل ولا يزال نيقوديموس يتلفت يمنة ويسرة حتى فوجىء بوجه يسوع المضىء بنور الشموع وقد برز من عتمة الداخل وهو يقول له بصوت متدفق بالحب :

ـــ تفضل ..

واقتاده يسوع بنفسه إلى غرفة جانبية صغيرة أضاءتها ثلاث شمعات تحت نافذة ذات قضبان حديدية . جلسا فى مواجهة بعضهما البعض ونيقوديموس يتأمل وجه يسوع المتألق بالضياء ويقول له فى خشوع :

ـــ يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأنه ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التى أنت تعمل إن لم يكن الله معه .

عبرت ابتسامة مضيئة وجه يسوع الحنون وهو يجيبه :

ـــ الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله .

تساءل نيقوديموس وقد أخذت الحيرة بمجامعه :

ــ كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ ؟! ألعلَّه يقدر أن يدخُل بطن أمه ثانية ويولد ؟!

أجابه يسوع مشفقاً عليه من صعوبة ما يقوله له :

ــ الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخُلَ ملكُوتَ الله . المولود من الجسدِ جسدٌ هو ، والمولود من الروح هو روحٌ . لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق . الريح تَهُبُّ حيثُ تشاءُ وتسمعُ صَوْتَها لكنك لا تعلم من أين تأتى ولا اين تذهب . هكذا كُلُّ من وُلِدَ من الروح .

كان يوحنا قد جلس ملتصقاً بمدخل الغرفة لعله يرتوى من كلمات النعمة المتدفقة من فم المعلم ، وإن صعب عليه بعضها ، لكن السكون المطبق أعانه على الإنصات الجيد . لم يتوقف سيل التساؤل المنهمر من نيقوديموس للمعلم :

ــ كيف يمكن أن يكون هذا ؟!

ــ أجابه يسوع بنبرات لا تخلو من دهشة :

ــ أنت مُعلمُ إسرائيل ولستَ تعلم هذا ؟! الحقَّ الحقَّ أقولُ لك إننا إنما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا . إن كنتُ قلتُ لكم الأرضيات ولستم تؤمنون .. فكيف تؤمنون إن قُلتُ لكم السمويَّات . وليس أحدٌ صعد إلى السماء إلاَّ الذى نزل من السماء ابن الإنسان الذى هو فى السماء .. وكما رفع موسى الحَّيَة فى البرية هكذا ينبغى أن يُرفع ابنُ الإنسان لكى لا يَهلْك كلُّ من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية .

خرج نيقوديموس من عند يسوع وقد نسى القلق من أن يلمحه أحد . فقد كانت الأفكار المتلاطمة والمشاعر المضطرمة داخله ، دوامة دار فى قلبها حتى القاع . لقد جاء إلى يسوع مشفقاً عليه من حماسة الشباب التى يمكن أن تدفعه الى آماد من الطيش والتهور لا تحمد عقباها . فأراد ــ وهو الشيخ الحكيم ، المحنك ، الخبير بشئون الدين والدنيا ــ أن يسدى إليه بنصائحه حتى يبلغ رسالته دون مخاطر قد تقضى عليها . وان كان ينوى أن يقيم ملكاً زمنياً تباهى به إسرائيل الدنيا كلها ، فسوف يكون هو أول حلفائه ومناصريه .

لكنه بمجرد أن رأى وجهه شعر بأنه تلميذ أمام معلم كبير ينادى بأفكار وفلسفات أوشك أن يستوعبها نيقوديموس بقلبه ، لكن عقله ظل مغلقاً ، معتماً ، لا يستطيع أن يتلمس طريقه وسطها ، تماماً مثل هذا الزقاق الضيق المعتم الذى يخب المسير فيه الآن . لم يكن لنيقوديموس أن يدرك كيف أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية ، لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم . فالذى يؤمن به لا يدان والذى لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد . وهذه هى الدينوينة إن النور قد جاء إلى العالم لكن الناس أحبوا الظلمة أكثر من النور ، لأن أعمالهم كانت شريرة ولابد أن يكشف النور حقيقتها .

وصلى نيقوديموس وهو يقترب من باب بيته أن يضىء إله إسرائيل قلبه باليقين الذى ينقذه من لجة الحيرة التى بلغ قاعها .

(١٦)

جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ومكث معهم هناك وكان يُعّمد الناس الذين كانوا يتوافدون عليه عند سماع نبأ مجيئه . مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه . وفى الوقت نفسه كان يوحنا يعمد فى عين نون بقرب ساليم حيث كانت عيون المياه تتدفق فى غزارة . لكن تلاميذ يوحنا لم يتقبلوا بصدر رحب الشعبية الجارفة التى صاحبت يسوع حيثما حل . فى تلك الفترة كان يسوع وتلاميذه سعداء بالتجوال فى ريف اليهودية الجميل الوادع ، وبالمحبة التى تحيط بهم حيثما حلوا . لم تكن لديهم نقود لكن كرم الضيافة جعلهم فى غنى عن المال . ساروا عبر الطرقات الريفية التى تشق التلال وتتلوى بين الربى الداكنة وعيون المياه الجارية بخريرها الموسيقى ، وداعبوا الصغار الذين كانوا يخرجون من فتحات الأكواخ على جانبى الطريق لتحية العابرين وتوديع المسافرين . وكان من حظ أعمى كفيف أو أبرص بائس أن يقابلهم فى الطريق فينال الشفاء على يدى يسوع .

ومن حين لآخر كانوا يركنون إلى قرية فوق التل جلباً للراحة والإسترخاء بعد طول عناء ، فيهرع القرويون فى المساء بعد عودتهم من حقولهم ليلتفوا حول النبى الشاب الذى سبقته أخباره إليهم من أورشليم ، فيحدثهم عن مجد الله القادم ، ويروى لهم أمثاله وقصصه التى تجعلهم يسبحون معه فى أجواء صافية من الوجد والحب الإلهى ، أجواء لم يألفوها بل ولم يسمعوا عنها من قبل . وكانوا يدعونه لتناول العشاء معهم ليباركه ويباركهم . وفى الكوخ الذى يحل فيه ضيفا كانت سعادة ، منتشية ، عجيبة ترفرف على أصحابه وكل الموجودين معه ، وأحياناً كانت تلمح ربة الدار فى خجل عن ولدها المريض القابع فى غرفة جانبية ، فينهض ويذهب إليه ليضع يده على رأسه فيبرأ فى الحال ، ويتحول الكوخ إلى فردوس صغيرة أعلى التل .

وفى الصباح كان يسوع يتجول فى القرى المجاورة ، وذلك بالقرب من يوحنا المعمدان على مسافة بضعة أميال فى البرية . وكان يوحنا قلقاً بعد أن أنقضت شهور عديدة لم ير فيها شيئاً ولم يصل إلى أذنيه سوى أخبار شحيحة

عن المسيح الذى بشر بقدومه وانتظره طوال حياته . كان منعزلاً فى البرية فلم تصل إليه أخبار الآيات والمعجزات التى صنعها يسوع فى أورشليم وغيرها . كان منهمكاً فى الدعوة للبر والتوبة وملكوت السماء ، لكن الجموع الغفيرة لم تعد تتبعه ، وهدأت العاصفة التى استقبله بها الناس وجعلت منه أعظم قوة روحية فى إسرائيل . فأكلت الغيرة قلوب التلاميذ لأجل معلمهم ، بل وخاضوا جدلاً عنيفاً مع يهود آخرين حول معنى التطهير . ولما عجز تلاميذ يوحنا عن إقناع هؤلاء اليهود أن معلمهم هو الرائد لجأوا إليه قائلين :

ــ يا معلم هوذا الذى كان معك فى عبر الأردن الذى أنت قد شهدتَ له هو يُعمّد والجميع يأتون إليه .

أجابهم يوحنا وقد زاوله القلق والتوتر فى نبرات حادة ناصعة :

ــ لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أُعطى من السماء . أنتم أنفسكم تشهدون لى أنى قلت لست أنا المسيح بل إنى مُرسَل أمامه . من له العروس فهو العريس . وأما صديق العريس الذى يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس . إذاً فرحى هذا قد كمل . ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص .

عاد البريق إلى عينى يوحنا وقد اشتدت قبضة يده حول عصاه فى حين أصابت رياح البرية وبر الإبل الذى يلف جسده النحيل بارتعاشة . سار يبشر بصوت أشد وأقوى مما ألفه الناس منه منذ ذلك اليوم المشهود الذى التقى فيه بيسوع على ضفاف نهر الأردن وقام بتعميده . كانت كلماته شظايا وعيد وتهديد موجهة إلى قلوب الحكام والرؤساء قبل أن تتجه إلى عامة الشعب . كان الحق ينطلق من بين شفتيه سهاماً نارية لا تفرق بين عظيم ووضيع . حتى هيرودس الملك لم يسلم منها وظلت أصداء كلمات يوحنا تطارده فى صحوه ومنامه حول هيروديا امرأة فيلبس أخيه والتى كان قد تزوج بها :

ــ لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك .

تذرع هيرودس بالصبر لعل يوحنا يراجع نفسه ويلتزم الصمت ، لكنه ظل صوتاً صارخاً فى البرية ، مدوياً فى أذنيه ليل نهار . وكانت هيروديا تحنق عليه من قلبها ، واحترقت شوقاً إلى قتله ، لكنها لم تقدر لأن هيرودس كان يهاب

يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس ، وكان مصراً على حمايته لإيمانه بأنه لن يهرب من العقاب السماوى إذا أصابه أى مكروه . لكن عندما أصابت سهام يوحنا النارية رغبات هيرودس المحرقة فى هيروديا ، عجز هيرودس عن كبت رغبته فى الانتقام من الصوت الصارخ فى البرية فقرر أن يلقى به فى السجن لعله يتعلم أن هناك حدوداً لما يفعل ويقول ، ويتحتم عليه ألا يتجاوزها .

فى زنزانة خانقة مظلمة فى القلعة السوداء التى كانت أحد حصون فلسطين الجنوبية ألقى بيوحنا المعمدان . كانت القلعة رابضة على كومة من الصخور الرمادية الداكنة ، العابسة التى تنحدر حتى مياه البحر الميت الراكدة ، والتى أطل عليها يوحنا من كوة زنزانته الحديدية المعتمة لتنهش قلبه بالكآبة والحزن . لم يكن له سوى أن يتسلل ببصره منها واقفاً على أطراف أصابع قدميه أو أن يجلس القرفصاء على الأرض المتربة غير المستوية مسنداً ظهره إلى الجدار الحجرى الخشن .

وكم كانت فرحة الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودوسيين بالزنزانة التى أحاطت الصوت الصارخ بالصمت والسكون والخرس !! فهو الصوت الذى خطف منهم الأضواء ، وأحال كلماتهم إلى ألفاظ جوفاء ، وجمع حوله الذين انفضوا من حولهم ، وبلغت به الجرأة أن يهدد الملك وينذره شخصياً ، فلم يتردد لحظة واحدة فى أن يتهمه بالزنا أمام الملأ . لكنهم لم يدركوا أن دور يوحنا المعمدان فى تمهيد الطريق لمجيء المخلص قد أكمل بعماد يسوع المسيح وبداية رسالته الإلهية ، وأن الزمن قد دار دورته وحانت ساعة الخلاص .

ظل يوحنا المعمدان طوال شهور الصيف سجين زنزانته المعتمة وهو الذى اعتاد حياة البرية المنطلقة بين هبات الرياح ، واشراقات الشمس ، وتألقات القمر والنجوم ، وطيران النسور والصقور ، وعدْو الذئاب والثعالب ، وحفيف الخلاء بين الجبال الصخرية والكثبان الرملية . لم تتبق له سوى الذكريات والتأملات والصلوات والكوة التى تربطه بالعالم خارج الزنزانة ، أعلى منحدرات التل حيث قام قصر هيرودس الملك شامخاً بأعمدته الرخامية الناصعة وقبابه التى تصافح السحاب ، وعبر مياه البحر الساكنة المعتمة تلمست عيناه مشاهد صباه وشبابه المبكر ، ومهد أحلامه عن المسيح وملكوت الله

القادم والذى طال انتظاره منذ قرون بعيدة ، ولقاء المسيح يوم العماد حين هبطت الحمامة المقدسة المتألقة ببريق الذهب والفضة لتلمسه فى نهر الأردن .

كذلك كان تلاميذ يوحنا المعمدان يأتونه من حين لآخر حاملين معهم أخبار الدنيا ، لكنه لم يعد يهتم إلا بأخبار سيده وربه بعد أن أصبح نهباً لنوبات عارمة من الضيق واليأس والتساؤلات الشائكة . فقد تفرق تلاميذه عقب القبض عليه . وأطاع بعضهم نصيحته باتباع يسوع إلى الجليل ، لكنهم كانوا حيارى يائسين لأن يسوع لم يعلن آياته ومعجزاته فور عماده ، ولم يفعل شيئاً مادياً ملموساً لاستعادة مجد مملكة إسرائيل الضائع . فكانوا يخبرون يوحنا كيف أنه يجول بين الفقراء والبسطاء والجهلاء الذين لا حول لهم ولا قوة يبشرهم بملكوت السموات حتى نعته الكتبة والفريسيون بأنه صديق العشارين والخطاة . وكان تلاميذ يوحنا يرون أن مجد مملكة إسرائيل الضائع لا يمكن أن ينهض على أكتاف هؤلاء الضعفاء . أما السجين الصامت فكان يصغى إليهم وهو مطرق الرأس فى جلسة القرفصاء التى أصابت ظهره بالانحناء ، ولم يفطنوا إلى دوامة الحيرة والشك التى تكاد تقتلع جذور اليقين من أعماق وجدانه .

أوشك يوحنا أن يطلب منهم أمراً يقطع به الشك باليقين ، لكن ميعاد زيارة التلاميذ كانت قد انتهت ، إذ فتح الباب الخشبى السميك بعوارضه الحديدية محدثاً صوتاً كنواح الثكالى وأطل حارسان بخوذيتهما النحاسيتين اللامعتين ليعلنا أن الزيارة قد انتهت . تردد التلاميذ للحظات لكن معلمهم أشار لهم بالخروج فخرجوا مطأطىء الرءوس ليغلق الباب خلفهم بالأقفال الحديدية الصدئة ، ليعود المعمدان إلى وضع رأسه بين يديه فى إطراقة الذكريات والتأملات والصلوات ودوامات الحيرة والشك وسط الزنزانة المعتمة ، الضيقة ، الخانقة التى تشع جدرانها برطوبة العفن .

(١٧)

لم يعد يوحنا المعمدان يثير قلق الفريسيين بعد أن ألقى به فى زنزانته المعتمة فى القلعة الكئيبة ، فاتجهت أنظارهم بتركيز مريب مكثف على يسوع عندما سمعوا أنه يعمد تلاميذ أكثر من يوحنا ظناً منهم أنه جاء ليكمل ما بدأه المعمدان . و لم يدركوا أن دور المعمدان كان دور نذير البشرية وبشيرها بحلول مخلصها ، وقد انتهى دوره عند هذا الحد كى يبدأ يسوع رسالته الإلهية العظمى . لم يعرف أحد من الفريسيين أو الكتبة أو الصدوقيين أو الهيرودوسيين آفاق المهمة التى جاء المسيح من أجلها ، ولذلك رصدت عيونهم حركاته وسكناته حتى لا يفلت زمام الأمور من أيديهم فى غفلة منهم .

ترك يسوع اليهودية مع تلاميذه ومضى إلى الجليل . وعندما توغلوا فى السامرة بين التلال والمنحدرات ، استأذنه تلاميذه للذهاب إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً فى حين آثر يوحنا أن يلازم سيده كظله . أذن لهم يسوع على وعد باللقاء مرة أخرى عند بئر يعقوب . فقد كانت صحبتهم له صحبة بهجة وسرور ونشوة نابعة من شخصيته الجذابة الآسرة ، وهم يسيرون معه وخلفه فوق التلال والروابى وبين الحقول والغدران ، فلم تكن أيام الهموم الطاحنة وليالى الآلام الكبرى قد آن أوانها بعد ..

فى طريقه إلى الجليل كان لا بد ليسوع أن يجتاز فى السامرة حيث يسكن ألد أعداء اليهود . فأتى إلى مدينة فى السامرة يقال لها سوخار بقرب الضيعة التى وهبها يعقوب ليوسف ابنه . وكانت هناك بير يعقوب التى جلس يسوع على حافتها مع تلميذه يوحنا ، طلبا لبعض الراحة لساقيه المنهكتين وجسده المرهق بعد عناء سفر مجهد حتى الساعة السادسة ، مما جعله يشعر بالعطش ، لكنه آثر الإسترخاء أولاً فى انتظار عودة تلاميذه من المدينة .

لمح امرأة قادمة من السامرة لتستقى ماء ، انحنت على البئر بعباءتها القرمزية لتدلي بدلوها وقد أمسكت بالحبل الغليظ باليمنى واتكأت على الحافة الحجرية باليسرى ، حين سمعت طلب يسوع .

اعطينى لأشرب .

التفتت إليه المرأة السامرية متسائلة فى دهشة :

ـــ كيف تطلب منى لتشرب وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ؟! فاليهود لا يعاملون السامريين ؟!

أجابها يسوع وابتسامة حانية تضىء وجهه الجميل :

ـــ لو كنت تعلمين عطية الله ومن هو الذى يقول لك اعطينى لأشرب لطلبت أنت منه فأعطاك ماءً حياً !

لم تستوعب المرأة كلماته فنضح ضيق الأفق على نبراتها :

ـــ ياسَيِّد .. لا دلو لك والبير عميقة . فمن أين لك الماءُ الحى ؟! ألعَّلك أعظمُ من أبينا يعقوب الذى أعطانا البير وشرب منها هو وبنوه ومواشيه ؟!

لم ييأس يسوع من تنوير ظلمة قلبها :

ـــ كلُّ من يشرَبُ من هذا الماء يعطشُ أيضاً .. ولكن من يشرب من الماء الذى أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد .. بل الماءُ الذى أُعطيه يصيرُ فيه ينبوع ماءٍ ينبع إلى حياة أبدية !

لم تدرك المرأة النعمة المتدفقة من فمه فطلبت منه ببساطة :

ـــ ياسيد أعطنى هذا الماء لكى لا أعطش ولا آتى إلى هنا لأستقى !

نظر إليها يسوع بعينيه اللتين تخترقان أستار الظلام

ـــ اذهبى وادعى زوجك وتعالى إلى ههنا .

ترددت المرأة للحظات ثم قالت هامسة فى شبه استحياء :

ـــ ليس لى زوج !

كان يسوع يطالع ما فى صدرها :

ـــ حسناً قلت ليس لى زوج . لأنه كان لك خمسة أزواج والذى لك الآن ليس هو زوجك . هذا قلت بالصدق !

بهتت المرأة لدرجة أنها تركت الحبل يسقط وراء الدلو فى أعماق البئر ، وحاولت أن تستعيد صوتها الذى خرج مبحوحا :

ــ يا سيد أرى أنك نبى !! آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه !!

ضم يسوع ذراعيه على صدره الذى يحيط به رداؤه الكتانى الأبيض وقال لها بصوت نابض بالحنان :

ــ يا امرأة صدقينى أنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب . أنتم تسجدون لما لستم تعلمون . أما نحن فنسجد لما نعلم . لأن الخلاص هو من اليهود . ولكن تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق . لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له . الله روح . والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا .

إستعادت المرأة اتزانها فقالت بصوت واضح النبرات :

ــ أنا أعلُم أنَّ مَسِيًّا الذى يقال له المسيح يأتى . فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شىء !

أخبرها يسوع بكل الحسم القاطع :

ــ أنا الذى أكلّمك هو .

نسيت المرأة الجرة التى وضعتها على حافة البئر وهى تتأمل يسوع فى ذهول صامت عجز عن إيجاد كلمات مناسبة تعبر عن الطوفان الهادر داخلها . وفى اللحظة نفسها جاء التلاميذ حاملين الطعام من المدينة وهم يتعجبون لكلامه مع امرأة . لكن لم يجرؤ أحدهم أن يسأل : ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها ؟!

فى حين تركت المرأة التى ألجمها الذهول ، جرتها ومضت إلى المدينة لتهتف لكل من تقابله :

ــ هلموا ــ انظروا إنساناً قال لى كلَّ ما فعلتُ .. ألعلَّ هذا هو المسيح ؟!

وترددت أصداء هتافاتها فى آذان الناس وقلوبهم فهرعوا فى الطريق إلى بئر يعقوب ، فى حين افترش التلاميذ الحافة الحجرية للبئر بلفائف الطعام التى أحضروها من المدينة قائلين لسيدهم :

ــ يا مُعَلّم كُلْ

فقال لهم وهو ينظر إلى السحب التى انفرجت عن ثغر السماء المنير بلون فضى :

ـــ أنا لى طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم !

تساءل التلاميذ حائرين فيما بينهم :

ـــ ألعل أحداً أتاهُ بشىءٍ ليأكل ؟!

كان لابد ليسوع أن يوضح لهم دائماً ما خفى عليهم :

ـــ طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله . أما تقولون أنه يكون أربعة أشهر ثم يأتى الحصاد . ها أنا أقول لكم ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد . والحاصد يأخذ أجرة ويجمع ثمراً للحياة الأبدية لكى يفرح الزارع والحاصد معاً . لأنه فى هذا يصدق القول إن واحداً يزرع وآخر يحصد . أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه . آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم .

ومكث يسوع فى السامرة يومين كانا بالنسبة للسامريين كأيام الأعياد والأفراح . فقد آمن به كثيرون منهم بسبب المرأة التى كانت تشهد أنه قال لها كل ما فعلت . ولم يخيب يسوع رجاءهم فشرفهم بالوجود بينهم يومين ، وتضاعفت أعداد الذين آمنوا به ، وقالوا للمرأة بنبرات طافحة بالبشر واليقين :

ـــ إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن . لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيحُ مخلص العالم .

وتنافس أهل السامرة فى أن يفوز كل منهم بدعوة يسوع لتشريف بيته وتقديسه . لكن من لم يفز منهم بهذه البركة الخاصة كان يشعر بأن نسمات البركة الشاملة تسرى بين طرقات المدينة وأزقتها وتحتويها لتضعها عند قدمى يسوع . ولو كان الأمر بيدهم لأبقوه معهم أطول مدة ممكنة . لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه . فقد ودعوه كلهم عند الفجر بقلوب واجفة وعيون دامعة ، لكنهم عندما عادوا إلى بيوتهم وجدوها تردد أصداء كلمات النعمة والبركة التى تدفقت من فم يسوع فى اليومين اللذين عاشهما بينهم .

(١٨)

ترك يسوع السامرة إلى الجليل حيث ابتدأ يكرز ويقول لكل من التفوا حوله واتبعوه :

ــ توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات .. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل .

وكانت هالة المجد المحيطة به قد تربعت فى قلوب كل من استمعوا إلى كلماته المتدفقة بالنعمة الإلهية . وكانت كل أفئدة الجليليين تهفو إليه بعد ما علموا بمعجزاته وآياته ومواقفه فى أورشليم فى شهر الفصح ، فمنهم من عاين بنفسه ، ومنهم من بلغته الأخبار من العائدين من المدينة المقدسة ، ومنهم من عرف بمعجزة تحويل الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل منذ شهور .

عندما بلغ يسوع تخوم الجليل ، ودع تلاميذه الذين اطمأنوا على سيدهم إذ رأوا مظاهر الترحيب الجماهيرى قد بدت طلائعها جارفة . وكان يسوع ينوى الذهاب غرباً إلى موطنه فى الناصرة ، أما تلاميذه فكان عليهم أن يذهبوا شرقاً إلى موطنهم للصيد . وكان عليهم أن يعوضوا ما فاتهم من صيد خلال فترة تغيبهم بعيداً فى جولاتهم مع السيد ، والتى استمرت بضعة أشهر اتسمت بالغبطة والبهجة والنشوة الروحية بلا حدود . فساروا إلى كفر ناحوم فى حين اتجه السيد إلى الناصرة ماراً فى طريقه بقانا الجليل .

فى قانا الجليل أقام يسوع فى بيت نثنائيل الذى كان قد أجتذبه إلى جماعة تلاميذه وأصدقائه فى تلك الزيارة الشهيرة التى شهدت معجزة العرس . كانت فرحة نثنائيل بحلول السيد فى بيته لا توصف ، لدرجة أنه لم ينم ليلته ، ونهض تاركاً فراشه مع أول شعاع للفجر ليجهز بستان بيته لاستقبال السيد لعله يطلب قضاء بعض الوقت فيه أو الجلوس على المقعد تحت شجرة التينة التى رآه السيد تحتها قبل أن يدعوه فيلبس برغم المسافة الشاسعة التى كانت تفصل بينهما . كذلك لم تكن بيوت قانا بأقل فرحة من نثنائيل بقدوم المعلم إلى بلدتهم ، خاصة أسرة العرس الشهير .

كان يسوع قد رغب فى الراحة بضعة أيام ، لكن كيف تتأتى الراحة له على وجه هذه الأرض بعد أن أصبح مصدراً لراحة البشر وسعادتهم ؟ وبعد أن أصبحت القلوب والأفئدة تلهث خلفه فى غدوه ورواحه ، فى صحوه

ومنامه . ففى أثناء إقامته فى قانا الجليل فى ذلك اليوم على بعد عشرين ميلاً من كفرناحوم حيث يقيم تلاميذه ، كان الحزن يخيم على أحد بيوت تلك البلدة العامرة بأغنياء القوم ، إذ كان بين سكانها أحد رجالات بلاط هيرودس الملك وكان ابنه الوحيد يعانى سكرات الموت . وكان قد بلغه خبر مجىء يسوع إلى قانا ، فامتطى حصانه وانطلق به على الطريق إلى قانا كأنه فى سباق مع الريح ، ترتفع به الروابى وتهبط به الوهاد ، ويتطاير الشرر من سنابكه فوق الطريق الصخرى بين التلال حتى دخل قانا وبلغ بيت تثنائيل حيث وجد الأهالى وقد تجمعوا فى البستان حول يسوع وكلهم آذان صاغية وعيونٍ شاخصة إلى كل حركاته وسكناته . قفز الرجل من على حصانه اللاهث ، وشق صفوف الجموع المتراصة حتى بلغ يسوع فانحنى أمامه قائلاً فى ضراعة :

ــ أرجوك يا سيد أن تنزل بلدتنا وتشفى ابنى لأنه مشرف على الموت .

لم تخل كلمات السيد من دهشة وسخرية متسائلة :

ــ أنتم لا تؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب !

لم يلتفت خادم الملك للمعنى الذى قصده السيد فقد كان فى عجلة لاهثة من أمره :

ــ ياسيد انزل قبل أن يموت ابنى !

ــ عندئذ أجابه يسوع بمنتهى الحسم كأنه يصدر إليه أمراً :

إذهب ..ابنك حى .

فى الحال آمن الرجل بالكلمة التى قالها له يسوع وتراجع حتى المكان الذى ترك فيه حصانه فامتطاه وانطلق به عائداً كالسهم فوق الروابى وبين التلال ، وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه ليسبقه ويطمئن على سلامة ابنه حتى دخل كفر ناحوم وبلغ بيته ، وفيما هو نازل من على حصانه الذى كان يتصبب عرقاً من جسمه الساخن استقبله عبيده وأخبروه قائلين فى سعادة دافقة :

ــ ابنك حَى !

سألهم عن الساعة التى فيها أخذ يتعافى وقد أسكرته نشوة الخبر فقالوا له وهم يلتفون حوله :

فى الساعة السابعة تركته الُحمَّى !

غمر الإيمان واليقين قلب الأب ، فقد كانت هى نفسها الساعة التى قال له فيها يسوع : ابنك حى ! وهرع لاهثاً إلى داخل البيت ليحتضن ابنه الذى جلس معافى على أريكة ، ودموع الفرح تطفر من عينيه ، والأم تسأل زوجها فى لهفة :

ــ قل لى .. ماذا حدث ؟! ماذا قلت له ؟! وماذا قال لك ؟!

نظر إليها وابنه لا يزال بين أحضانه قائلاً فى ضراعة :

ــ آمنت به .. آمنت به .. آمنت به ..

وجدت الأم لسانها يلهج بالحمد :

ــ الحمد لله .. الحمد لله .. ونحن أيضاً .. ونحن أيضاً .

آمن الرجل وبيته كله . وكانت هذه آية أخرى صنعها يسوع عندما جاء من اليهودية إلى الجليل . وسرى النبأ فى كل القرى التى مر بها خادم الملك بين كفرناحوم وقانا ، والتى استراح فى بعضها لساعة أو أقل : كورزين وبيت صيدا حيث طريق البحيرة تتلوى فوق المنحدرات وسط أرض وعرة ، يمتلىء فيها الخلاء بالأعشاب البرية التى تتفتح عن أزهار بديعة وحشية فى فصل الربيع ، وتعلوها التلال التى تتمسح البحيرة بسفوحها عند ضفتها الغربية . لقد أصبحت هذه الطبيعة مهرجاناً لأشواق الأب وأفراحه بشفاء ابنه الوحيد .

واستأنف يسوع مسيرته إلى موطنه الذى نشأ وتربى فيه : الناصرة . وقد سبقته أخبار آياته وعجائبه إلى هناك ، وبدلاً من أن يتيه الناصريون فخراً بابن بلدتهم الذى أصبحت سيرته العطرة على كل لسان فى اليهودية والجليل ، حدث ما يثبت أن البشرية لم تخرج بعد من ظلمات الجهل والغباء وضيق الأفق ، حتى بعد أن أسبغ الله عليها نور نعمته بهبوط ابنه الوحيد على الأرض . ففى الناصرة دخل يسوع المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقف على المنبر ويقرأ . كانت العيون شاخصة إليه ببريق المصابيح الزيتية فيها عندما دُفع إليه سفر إشعياء النبى . بدا المنبر قصيراً أمام طلعته المهيبة وقامته المديدة وهو يفتح السفر ليقرأ :

ـــ روح الربّ عليّ لأنه مسحنى لأُبشر المساكين . أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب .. لأنادى للمأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر . وأرسل المنسحقين فى الحرية . وأكرز بسنة الرب المقبولة .

طوى يسوع السفر ولم يزد كلمة واحدة إذ سلمه إلى الخادم وجلس فى حين كانت عيون جميع الذين فى المجمع لا تزال شاخصة إليه فى جلسته ، والصمت يخيم على رءوسهم ، والسكون يعشش فى أركان المجمع شبه المعتمة إلا من ظلال المصابيح الزيتية المتراقصة عليها . شعر يسوع بالعيون المحيطة به فى انتظار ما ينطق به فنهض ليقول لهم :

ـــ إنه اليوم قد تم هذا المكتوب فى مسامعكم !

كان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ، وسرت الهمسات المتسائلة بين الأفواه والآذان :

ـــ أليس هذا ابن يُوسُفْ ؟ أليس هذا ابن يُوسُفْ ؟!

لم يعبأ يسوع بهمساتهم إذ قال لهم بنبرات قاطعة :

ـــ على كل حال تقولون لى هذا المثل : أيها الطبيبُ أشف نفسك . كم سمعنا أنه جرى فى كفرناحوم . فافعل ذلك هنا أيضاً فى وطنك !

سرت الهمسات مرة أخرى وقد امتزجت بنظرات متفحصة لقامته المديدة المهيبة داخل ردائه الأبيض الناصع ، لكن الصمت أطبق على شفاههم بمجرد أنه قال :

ـــ الحقَّ أقولُ لكم إن ليس نبيّ مقبولاً فى وطنه .. وبالحق أقول لكم إنَّ أرامل كثيرة كنَّ فى إسرائيل فى أيام إيليا حين أغلقت السماء مدة ثلاث سنين وستة أشهر لما كان جوع عظيم فى الأرض كلها . ولم يرسَل إيليا إلى واحدة منها إلا إلى إمرأة أرملة إلى صرفة صيدا .. وبرص كثيرون كانوا فى اسرائيل فى زمان أليشع النبى ولم يُطهَّر واحد منهم إلا نعمان السريانى .

تحولت الدهشة والإعجاب بكلمات النعمة الخارجة من فمه إلى ذهول نضح على الوجوه ثم تجسد فى ملامح جافة وصارمة من الغضب . سرت همهمة مكتومة تحولت إلى كلمات متناثرة فى كل اتجاه كحمم البركان ، وإذ

بالفريسيين والكتبة ينهضون ويلتفون حوله ، وخلفهم تراصت صفوف جميع الذين فى المجمع . سطعت المصابيح الزيتية على العيون الجاحظة على وجوه نحاسية . وأمسكوا به وقد استسلم لأيديهم وهم يخرجون به من المجمع سائرين فى طرقات الناصرة التى شهدت طفولته البريئة وصباه الغض ، والتى ا نتظت الآن بالأهالى الذين يهرعون خلفه وتثير أخفافهم الأتربة كقطيع الأغنام أو البقر ، فى حين وجفت بعض القلوب على المصير الذى قرروه له . فلن تكون نهاية مسيرة كئيبة مثل هذه خيراً على الإطلاق . واستمر الموكب الغاضب المزمجر كرياح الشتاء فوق قمم الجبال . والرعاع يلوحون بقبضات أيديهم المطبقة فخورين بالنصر الذى سيحققونه على هذا الشاب الوديع ، المتواضع ، الحنون ، المحب ، الذى لم يفعل سوى آيات الحب وعجائب الخلق ، فيكون جزاؤه أن يقتادوه هكذا كمجرم يستحق أبشع أنواع العقاب . هكذا تتحول الطبيعة البشرية المتقلبة من النقيض إلى النقيض ، من نظرات الإعجاب والإمتنان إلى قلوب الحجر والصخر ، من ارتشاف ماء الحياة المتدفق مع كلماته إلى الحكم عليه بالموت .

تكشفت النوايا السوداء عن المصير الأسود الذى أعدوه له ، عندما مالوا إلى الطريق المؤدية إلى حافة الجبل الذى بنيت عليه الناصرة . وضاعفوا من سرعة خطواتهم وهو مستسلم لهم تماماً ، ولم يتجاسر أحد من القطيع السائر أن يفتح فمه معترضاً بكلمة واحدة . وسرعان ما بدت المنحدرات والصخور الداكنة أسفل الحافة التى برزت شامخة مثلما بدت حافة جبل التجربة من قبل ، يوم أرى إبليس ممالك الأرض كلها ليسوع عند السفح .

عند نهاية الحافة شرعوا فى أن يطرحوا يسوع إلى أسفل وسط شهقات بعض الصبية وصرخات بعض النسوة . كانت الهاوية داكنة ، مخيفة ، سحيقة ، باردة ، والرياح تعصف بكل الواقفين ، وتتردد أصداء عويلها بين الكثبان الرملية والمنحدارت الصخرية المتجهمة . لكن عندما تسابقت الأيدى إلى دفعه إلى الهاوية ، أصابها ما يشبه الشلل الذى أحال الواقفين إلى أصنام حجرية صنعها المثال وتركها هكذا منذ عهد سحيق . وإذ بيسوع وقد جاز وسطها ومضى فى طريقه إلى كفرناحوم التى عند البحر فى تخوم زبولون ونفتاليم . لكى يتم ما قيل بإشعياء النبى القائل :

ـــ أرض زَبُولون وأرضُ نفتاليم طريقُ البحر عبرُ الأُردن جليلُ الأُمَم . الشعبُ الجالسُ فى ظُلمةٍ أبْصَرَ نوراً عظيماً . والجالسون فى كورة الموتِ وظلاله أشْرَق عليهم نورٌ .

(١٩)

جاء يسوع إلى كفرناحوم ، تلك المدينة الصغيرة الواقعة على ضفة بحيرة الجليل ، والتى اتخذها يسوع موطناً ثانياً له . أطل الجليل بهضبته الشامخة ناحية الشمال بين الجبال ، وكان البعض هو العلاقة التى تربط بين الشمال والجنوب برغم مجيء ملك الحب لينشره فى كل أرجاء المسكونة . كان أهل الجنوب ينظرون إلى أهل الشمال على أنهم أحط منهم وأقل شأناً فى كل شيء . وشاعت على ألسنتهم أقوال أصبحت مأثورة من أمثال : « إنه لم يقم نبى من الجليل » ، و « أمِنْ الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح » ؟! ولم يسلم أهل الجليل من احتقار أهل يهوذا وسخريتهم من سلوكهم وثقافتهم ولهجتهم ، خاصة وأنها كانت لهجة مميزة ، ويسهل التعرف عليها بين مختلف اللهجات التى كانت تتجمع فى أورشليم فى شهر الفصح .

لكن أهل الجليل قابلوا الإحتقار بأشد منه ، والسخرية بأمر منها إذ كانوا فخورين بوصف التلمود لهم قائلاً : « امتازوا عن أهل الجنوب بحرصهم على الشرف والكرامة أكثر من المال » . فهم سكان الهضاب الشامخة التى لم تعرف سوى الحرية والكرامة والعزة والكبرياء ، ولم ترضخ رقابهم لذل الغاصبين ، فى حين خنع أهل يهوذا ورضوا بالظلم والمهانة حياة مستمرة لهم دون أن يثوروا أو حتى يعترضوا . وكان الجليل فخوراً بخيره العميم حيث تدفقت المياه الجارية فى الأنهار المنحدرة من جبال لبنان ، والمتفجرة من العيون الكامنة فى بطون الجبال . ولذلك امتاز الجليل بأراضيه الزراعية الخصبة ، وحفل بالقرى والضياع المتناثرة ، وسط شعوب وأمم غنية ، فى حين كانت تجرى فى سهوله ووديانه أشهر الطرق المعروفة فى عالم ما قبل ميلاد المخلص والتى سارت عليها جيوش أشور وروما ، وقوافل التجار الأثرياء الباحثين عن اللآلىء الثمينة ، وأرجل البشر اللاهثين وراء المتع المحرمة من مواطن أشير ونفتالى الورعة المتدينة ، إلى مدائن فينيقيا المتهتكة الفاسقة ، والإبن الضال فى عودته إلى أبيه من أرض التيه . فقد كانت طرقات صاعدة هابطة ، ملتوية ومستقيمة كطرق الحياة الدنيا تماماً . وكأن يسوع عندما جاء إلى الجليل قد جاء للدنيا كلها . وقد فعل. فقد كانت هذه الطرق تجمع بين كل الألوان المتعاقبة ، وتحفل بالحركة المستمرة . فهناك طريق القوافل الكبرى بين دمشق والبحر الأبيض

المتوسط ، طريق البحر الشهير الذى وصفه إشعياء بقوله : « طريق البحر ، عبر الأردن ، جليل الأمم » . وقد أدرك الرومان أهميته فعبَّدوه ومهَّدوه ، وفرضوا المكوس على البضائع المارة فيه . وفى محطة كفرناحوم كان متى العشار يجلس إلى مائدته يتقاضى المكوس والضرائب على التجارة والقوافل المارة على الطريق عند محطته حيث ارتفع شعار النسر الذهبى على دار الجباية .

كذلك كان هناك الطريق الشرقى القادم رأساً من بلاد العرب ، والطريق الجنوبى الكبير النازل والمكتظ بقوافل التجار ، ومواكب الجنود ، وجموع الموظفين الرسميين والمسافرين من بلدان كثيرة ، وهو الطريق الذى سار فيه التجار المديانيون قديماً يوم حملوا يوسف معهم فى قافلتهم وباعوه إلى فوطيفار رئيس حرس فرعون مصر فى ذلك الزمن البعيد . وكلها طرق تشق الوادى العميق الذى يقطع فلسطين كلها من الشمال إلى الجنوب . وفى قاع الوادى يتدفق نهر الأردن . أما بحيرة الجليل فتنبسط عند سفح الجبل على مقربة من بداية الوادى العميق فى الجليل حيث الطبيعة تتجلى بكل جمالها العارى البرى .

وكانت المدن الزاهرة والجنان الفيحاء تتناثر كاللآلىء على ضفاف البحيرة التى تتهادى على أمواجها أسطول للصيد ، وصنادل الملك ويخوته ، وزوارق النزهة من مدينة طبرية العظيمة وغيرها من المدن . أما على ضفة البحيرة عند كفر ناحوم فقد كانت الأسماك تعبأ لتصديرها إلى المدن الأخرى ، فى حين تطل عليها جبال حرمون بقممها المكسوة بتيجان الجليد الأبيض المتألق . وعلى بعد ستة أميال تقع طبرية المدينة الشهباء الفاتنة ، موطن هيرودس ، وعاصمة الجليل السياسية . وهى مدينة طروب ، زاخرة بالمتع الحسية والملذات الدنيوية ، تمتزج فيها الوثنية باليهودية ، تشهد طرقاتها جماعات رجال البلاط الملكى يمتطون خيولهم أو عرباتهم الفاخرة فى أبهة وخيلاء ، والجنود والموظفين فى أزيائهم الرسمية وخوذاتهم النحاسية اللامعة ، والعاهرات اللاتى أخفين وجوههن تحت طبقات كثيفة من الأصباغ الفاقعة ، وبنات الليل المتجولات عند نواصى الطرقات وفى الأزقة المعتمة ، وسهرات السكر والعربدة الرومانية التى تنعقد على شكل حفلات صاخبة على ضفاف البحيرة أو المساحات الخضراء الملاصقة لمجارى المياه .

وقد اشتهرت كفر ناحوم بتوافد المرضى إليها خاصة الأثرياء منهم ، والذين

كانوا يقبلون عليها من كل أنحاء البلاد للاستشفاء فى ينابيع عمواس الحارة المتاخمة لها ، والاستمتاع بأشجارها الوارخة الظلال ، وحدائقها الفيحاء ، وحياتها الباذخة ، ومغانيها اللعوب . ففيها كل ما تشتهيه الأنفس . ولذلك كانت قبلة الرومان ، المدنيين منهم والعسكريين . فعلى منحدر الجبل شمخت ثكنات الحرس الرومانى البيضاء بأعمدتها الرخامية ، وحولها تجول الحراس والجنود فى الحدائق غير عابئين بنظرات البغض والكراهية المسلطة من عيون الشعب . كذلك هناك فى أهم طرقات المدينة المجمع الأبيض الذى بناه القائد الرومانى للشعب اليهودى ، فقد كان يميل إلى الدين اليهودى ويحب شعبه ، وذلك على النقيض تماماً من ضباطه وجنوده الذين لا يرون فى الدنيا سوى الإمبراطورية الرومانية . وهو المجمع الذى ذهب إليه يسوع فى أيام السبت للكرازة . أما على سفوح التل فقد بزغت قصور العظماء والكبراء وسط جنانها السندسية حيث عاش يايرس رئيس المجمع ، وسمعان الفريسى الثرى .

وكانت بيت صيدا أو مدينة الصيادين جزءًا من كفر ناحوم ، وتقع وراء طرقات كفر ناحوم الضيقة الملتوية عند أطرافها ، وحوانيتها الصغيرة المفتوحة طوال اليوم ، وميناؤها الصغيرة المكتظة بالقوارب المتراقصة فوق أمواجها الحانية ، والشُرع الرمادية المطوية . فى هذه المدينة سكن الشيخ العجوز زبدى معلم الصيادين ، وكان يملك عدة زوارق صيد صغيرة مع ولديه يعقوب ويوحنا وأمهما سالومى التى عاشت على حلم تولى ولديها مكانة رفيعة فى مملكة يهوذا التى ظنت أن المسيح قد جاء لإحيائها على الأرض . كذلك كانت هناك دار سمعان بطرس التى عاش فيها مع أسرته وحماته وأخيه اندراوس ، والتى كثيراً ما أقام فيها يسوع عند مجيئه إلى كفر ناحوم .

وكانت تجارة الأسماك نشيطة مزدهرة ، واشتهر سمك البحيرة فى أورشليم ومدن سوريا وروما نفسها . كما كانت النباتات والمزروعات حول البحيرة بمثابة أعجوبة من أعاجيب الطبيعة التى جمعت فى تلك البقعة نباتات من كل الأصقاع والأنواع والأجواء . فعلى شاطىء البحيرة الحار نمت فواكه المناطق الحارة ، ثم يتدرج المناخ وتتنوع معه أنواع الخضروات والفواكه والثمار لتنمو فى الطقس الذى يلائمها ، وتطرح ثمراتها طوال أشهر العام . وهناك قول مأثور عن الأحبار والفريسيين يردد أن الرب الإله خلق سبعة بحار ، لكن بحر الجليل هو بهجة نفسه .

أما عند الزاوية الشمالية الغربية من البحيرة فتشمخ الحوافى الجبلية العالية ثم تأخذ فى الانحدار حتى تلامس سهل جنيسارت الخصب ، والذى كانت البحيرة مسماه باسمه قبل أن يغيره هيرودس الكبير إلى بحيرة طبرية تقربا وزلفى للإمبراطور الرومانى طيباريوس قيصر . وعند بداية هذا الإنحدار تقع قرية مجدل ، مسقط رأس مريم المجدلية ، ثم كورزين وبيت صيدا وكفر ناحوم حيث زوارق الصيد القديمة الصغيرة ذات الألواح الخشبية الخشنة ، تتماوج مع رقصات المياه تحتها ، وصيحات البحارة والصيادين ، وضحكات الأطفال الذين يلهثون وراء بعضهم بعضاً .

أما عبر البحيرة على مسافة ستة أميال ، تبدو بلاد الجدريين على المنحدرات والمرتفعات الوعرة عند خط الأفق حيث تنطبق السماء عليها ، وحيث ترسو السفن العابرة للبحيرة قادمة من الشاطيء المقابل . وفوق تلك المرتفعات قضى يسوع ليلة بأكملها يصلى لله ، وبين مقابرها عاش مجنون هائم ، حطم كل السلاسل التى قيد بها وأثار الرعب فى نفوس كل المناطق المجاورة .

أما عند الناحية الجنوبية من البحيرة فتقع أرض حاصور الشهيرة فى تاريخ اسرائيل ، حيث هرع سيسرا رئيس جيش ملك كنعان إلى خيمة ياعيل امرأة حابر القيتى ليبل شفتيه المحترقتين بعد أن ذاق بعض لفحات الجحيم . أما فى الناحية الشمالية فكانت هناك البقعة الفسيحة التى عرفت باسم « موضع الخلاء » والتى كانت تتسع لحشود تربو على الخمسة آلاف نسمة .

لكن هذه البحيرة ذات الزرقة الصافية ، والتى تحيطها مدن الصيد المزدحمة ، والموانىء الصغيرة ، والسهول الخصبة ، والحدائق الفيحاء ، وتكتنفها التلال والآكام والمرتفعات من كل حدب وصوب ، هذه البحيرة الجميلة الوادعة لم تكن تخلو من زوابع فجائية عاتية ، وعواصف قاسية عنيفة تحيل صفحتها الرقراقة المتماوجة فى وداعة إلى تلال وجبال من الأمواج الصاخبة المزمجرة التى تفتح أفواهها ، وتكشر عن أنيابها لابتلاع كل من وما يأتى فى طريقها ، ولا تهدأ إلا بعد أن يستقر ساكناً فى جوفها السحيق ، وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى بين القبائل الجبلية الرافلة فى مرحها ، والبلاد المشرقة فى بهجتها ، والأجناس والشعوب والأمم الذاهبة والقادمة على مسرح الحياة .

هذا الجليل كان مهداً لكرازة يسوع ، وإليه انتسب فلقب بالجليلى ، واتخذ

من مدينته كفر ناحوم موطناً ثانياً له ، وإليه جاء ليكرز ببشارة ملكوت الله ويقول :

— قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل .

(٢٠)

كانت فرحة التلاميذ بقدوم يسوع السعيد إلى كفر ناحوم لا تقدر ، لكن مطالب الحياة وهموم الصيد كانت شديدة الوطأة فاضطرتهم إلى الخروج مع زملائهم إلى عرض البحر للصيد . لكنها كانت ليلة نحس للصيادين ، إذ غاب القمر ، وجثمت العتمة ، وبدا البحر وكأنه خلا تماماً من أسماكه . وقفت الزوارق على شكل دائرة ألقوا وسطها الشباك ، ثم انتظروا والملل يكاد يقتلهم ، وبعد الوقت المقرر سحبوها إلى أعلى والأمل يراودهم لثقلها الذى يجذب سواعدهم إلى أسفل ، لكن سرعان ما تبخر الأمل ليتربع اليأس مكانه على قلوبهم . فقد كانت الشباك مليئة بالرمال والصخور والأحجار الصغيرة والعظام المتآكله . وعندما كرروا المحاولة لم يجنوا سوى تمزق الشباك .

وظلوا على هذه الحال حتى الفجر حين فقدوا الأمل تماماً ، فخرجوا من الزوارق ، وغسلوا الشباك ، وارتموا على الشاطىء ليجنوا على الأقل بعض الراحة لأجسادهم التى أُنهكت دون جدوى ، ثم يلحقوا بالسيد الذى أوحشهم كثيراً . وإذ مع اشراقة الصباح وجدوا يسوع قادماً إلى شاطىء البحيرة وقلوب الجميع تهفو حوله ، القلوب التى أحبها يسوع والتى وجد فيها من الحب والقناعة والحماس ما لم يجده عند أهل بلدته الناصرة الذين جاءوا به إلى حافة الجبل حتى يطرحوه إلى أسفل . هُرِعَ أهل كفر ناحوم حوله وخلفه يلحون عليه لسماع المزيد عن ملكوت الله . فلم يطلبوا منه المعجزات التى أصر أهل الناصرة على أن يجريها معهم وإلا فجزاؤه الطرح من على حافة الجبل . فقد كانت سعادة يسوع بهم أنه جاء إلى البشرية بنعم وآيات روحية أعظم من مجرد شفاء الأمراض الجسدية وكان مجرد وجوده معهم سعادة غامرة لا حدود لها .

حاول بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنا ابنا زبدى أن يخترقوا الصفوف المتراصة حول السيد ، لكنهم فشلوا وإذ بهم فى يأسهم المتجدد يتقدم السيد منهم ليدخل سفينة بطرس طالب منه أن ينأى عن البر قليلاً . قفز بطرس فى خفة الغزال برغم إنهاكه الذى تبدد أمام إحساسه بالنشوة المفاجئة الغامرة ، وأمسك بمجدافى الزورق ليحركهما بساعدين من حديد حتى ابتعد عن

الشاطىء عدة أمتار ثم ألقى بالمرساة إلى قاع البحيرة ، وقبع خلف السيد الذى وقف فى المقدمة ليواجه الجموع الواقفة على الشاطىء وفى المقدمة برز أندراوس أخو بطرس ويعقوب ويوحنا اللذان لم يلحقا بالسيد فى الزورق . تحول الشاطىء إلى عيون شاخصة إلى المعلم وقد تألقت بأشعة الشمس المنعكسة على صفحة البحيرة الصافية الساكنة ، وعلى سفوح الجبال الصفراء المحيطة بهم .

من السفينة الصغيرة تدفقت كلمات النعمة من فم المعلم . ولأول مرة استمع البشر إلى أفكار حلقت بهم فى آفاق لم يصل إليها عقلهم من قبل : ملكوت الله .. مملكة السماء .. الآب والإبن والروح القدس .. الميلاد من الماء والروح .. الميلاد من فوق .. الحياة الأبدية .. الخلاص .. حب الله للعالم .. أبواب السماء المفتوحة على مصاريعها لكل البشر مهما ارتكبوا من خطايا .. فالتوبة الصادقة حق للجميع .

لم يستطع أندراوس ويعقوب ويوحنا الانتظار أطول من ذلك على الشاطىء فقفزوا فى قارب حتى بلغوا سفينة المعلم ليجلسوا على يمين بطرس ويساره ، فى حين عشش الصمت على رءوس الجموع ، وسكنت الريح ، وخشعت الجبال وأحاطت خيوط الشمس الواقفين بدفئها الحانى ، وصدحت كلمات المعلم فى الآذان كموسيقى إلهية تردد أصداءها أرجاء الكون . كانت لحظات خارج حدود الزمان ، ومشاهد خارج حدود المكان ، نسى فيها بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنا تعب الليلة الماضية ، العقيمة ، اليائسة ، المعتمة التى لم يفوزوا فيها بسمكة واحدة تقطع حبل النحس المشدود إلى قواربهم .

فرغ المعلم من الكلام لكن عطش الجموع إلى ينبوع النعمة المتدفق من فمه لم يعرف الارتواء بعد . لكن المعلم أراد أن يتركهم لأنفسهم حتى يتأملوا ويستوعبوا ما سمعوا ، وإن كانت عيونهم لا تزال شاخصة إليه ببريق الشمس ، وآذانهم تكاد تلتقط رفيف أجنحة العصافير بين أحضان السهول النائية . التفت المعلم إلى بطرس آمرا إياه :

ــ أبعد إلى العمق وألقوا شباككم للصيد ..

أسرع بطرس كى يفك الشراع الملفوف حول الصارى وهو يقول لسيده :

ـــ يا معلم .. قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئاً ولكن على كلمتك ألقى الشبكة .

رفع بطرس المرساة وأشار إلى السفينة الأخرى التى كانت تلازمهم فى صيد الليلة الماضية ، فأسرع زملاؤه إلى فك شراعها الملفوف وشده ليمتلىء بالريح ، وتتبع سفينة بطرس التى بدأت تمخر عباب البحيرة التى تراقصت أمواجها فى دوائر متقاطعة مع حركة الدفة التى أمسك بها يوحنا . وعندما أصبحت الجموع المرابطة على الشاطىء مجرد خطوط أو أشباح عند خط الأفق ، ألقى بطرس بالمرساة وكذلك فعلت السفينة الأخرى التى وقفت قبالتها . أسرع بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس بالقاء الشبكة وقلوبهم تنبض بدفقات مثيرة داخل صدورهم اللاهثة . ولم يطل بهم الانتظار ففى لحظات خاطفة مالت السفينة مع حبال الشبكة المشدودة بأذرع بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنا الذين أسرعوا جاهدين لإخراجها فإذِ بالأسماك الكبيرة والصغيرة ، الفضية والرمادية والبيضاء والحمراء تقفز وتتراقص فى ضوء الشمس الذهبى ، على شكل تلال وأكوام تمزق قاع الشبكة محدثة فيه ثقوباً واسعة أفلتت منها بعض الأسماك . فأشاروا صائحين إلى شركائهم فى السفينة الأخرى أن يأتوا ويساعدوهم . تخلص الزملاء من ذهولهم المعقود على وجوههم النحيلة السمراء وأسرعوا إليهم ليملأوا السفينتين حتى أخذتا فى الغرق . لم يصدق بطرس عينيه فخر عند ركبتى يسوع متضرعاً :

ـــ أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطىء .

لم يحتمل كاهله القوى العريض الشرف الإلهى الذى حل عليه وعلى سفينته ، فخر ساجداً منادياً يا يسوع بلقبه الفعلى الحقيقى لأول مرة : يارب ، فى حين تحول يعقوب واندراوس ويوحنا والصيادون الآخرون إلى تماثيل من ذهول عقد ألسنتهم ، وأغرقهم فى صمت أبلغ من أى كلام . ووسط حبال الصمت والسكون المشدودة انهمك يعقوب ويوحنا فى إصلاح الشباك التى تمزقت مع عودة السفينتين المثقلتين بصيدهما الوفير إلى البر حيث ظلت الجموع المشتاقة إلى ينبوع النعمة فى انتظار عودتهم . لاحظ يسوع أن ذهول بطرس كان ممزوجاً بخوف غريب ، مبهم ، غامض كامن فى أعماقه ، فربت على كتفه فى حنان بالغ قائلاً :

ـــ لا تخف . من الآن تكون تصطاد الناس .

ثم التفت إلى أندراوس ويعقوب ويوحنا وكلماته ترن فى قلوبهم :

ـــ هلم ورائى فأجعلكم صيادى الناس .

ولما جاءوا بالسفينتين إلى البر وسط تهليل الجموع المنتظرة ، تركوا كل شيء : السفينتين والشباك والصيد الوفير وتبعوه ، والجموع فى أعقابهم . فقد اتضحت أخيراً لعيون البشرية ملامح طريق الخلاص .

(٢١)

كانت الخدمة الصباحية فى المجمع تبدأ عادة فى الساعة التاسعة من كل سبت . فى ذلك الصباح كان أهالى كفر ناحوم يهرولون فى كل الطرقات المؤدية إلى المجمع الأبيض القائم على التل ، زرافات مع أفراد أسرهم ، ووسطهم بطبيعة الحال يسوع الذى يخطو بخطوات واسعة فى ردائه الكتانى الأبيض الناصع وحوله بطرس وأندراوس وأسرتهما ، وخلفه زبدى الشيخ الوقور مصطحباً زوجته وولديه يعقوب ويوحنا ، وأيضاً يايرس رئيس المجمع والقائد الذى هرع إلى يسوع فى قانا الجليل ليشفى ابنه المشرف على الموت فى كفر ناحوم ، تصحبه الآن زوجته وأم الولد التى كادت تموت شوقاً لرؤية ذلك الذى أنقذ فلذة كبدها من مرض الموت .

كان الجميع فى ملابس السبت الزاهية الألوان ، وعندما بلغوا المجمع أسرع يسوع بالدخول وخلفه صبت الطرقات الغاصة بالقادمين للصلاة إلى داخله حتى طفح بهم إلى أبوابه الخارجية والفناء المحيط به . فقد عرف الجميع بحضور يسوع إلى المجمع بعد أن دعاه رئيس المجمع إلى الخطابة والوعظ . ذلك أن عادة المجامع فى ذلك الزمن كانت دعوة المشاهير للقاء الجموع بهدف الاستفادة من علمهم وخبرتهم وفكرهم .

وكانت طقوس السبت تبدأ بوقوف رئيس الكهنة لافتتاح الصلوات :

— مبارك أنت يارب . ملك العالم . يامن أنشأت النور وخلقت الظلمة . يا من تصنع السلام وتخلق كل شىء ... مبارك الرب إلهنا لأجل أمجاد صنع يديه .. ولأجل مصادر الأنوار التى جعلها لحمده وتسبيحه . آمين .

تدفقت أشعة الشمس من زجاج النوافذ المعشق بألوان متعددة تكرر نجمة داود بأحجام مختلفة ، فتناثرت النجوم الحمراء والصفراء والخضراء والزرقاء على الأرض الرخامية والمقاعد والمصلين الذين يرددون الصلاة الثانية فى طقوس السبت :

— بحب عظيم قد أحببتنا أيها الرب إلهنا .. وبشفقة متدفقة قد أشفقت علينا ياأبانا وملكنا .. لأجل آبائنا الذين اتكلوا عليك ... ارحمنا وعلمنا . أنر

أبصارنا بناموسك .... وحد قلوبنا لنحبك ونخاف اسمك .. لأنك أنت إله تعد لنا خلاصاً .. وقد اخترتنا لك من بين شعوب الأرض .. مبارك الرب الذى من فيض محبته قد اختار شعبه اسرائيل . آمين .

إستمرت الصلوات المتضرعة لله وامتزجت بالبخور المعطر الذى ضاعف من خشوع القلوب التى بدأت فى تلاوة قانون الإيمان اليهودى :

ـــ اسمع يااسرائيل .. الرب إلهك رب واحد ..

وتخشع الرءوس ساجدة وصوت رئيس الكهنة يجلجل بقانون الإيمان ، وإن كانت تختلس النظرات من حين لآخر إلى يسوع الذى انحنى بقامته المديدة الممشوقة وردائه الكتانى الأبيض وقد أسبل عينيه فى حديث إلهى مع الآب . وبمجرد أن انتهى رئيس الكهنة من تلاوة قانون الإيمان ، اهتزت أرجاء المجمع بصوت الشعب يدوى بإجابته على رئيس الكهنة ، ومعه يسوع وبطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب يرددون مع الجماهير الخاشعة المحتشدة :

ـــ حقاً أنت إلهنا وإله آبائنا .. ملكنا وملك آبائنا . مخلصنا ومخلص آبائنا ... الرب يملك العالم إلى أبد الدهور ! مبارك الرب مخلص إسرائيل . آمين .

ومع الجموع أحنى يسوع وتلاميذه رؤوسهم عند البركات الست التى بدأت :

ـــ مبارك الرب إلهنا ، إله آبائنا ، إله ابراهيم واسحق ويعقوب .. مبارك أنت أيها الرب ، ترس ابراهيم .... مبارك أنت أيها الرب يا من تحيى الموتى ... أنت قدوس واسمك قدوس ... آمين .

وبعد الصلوات بدأت خدمة طقس الصلاة بالدرس الأول ثم الدرس الثانى . وبعد الفراغ من هذه الخدمة الطقسية تقدم رئيس الكهنة إلى المنبر وفتح بكل وقار وخشوع الدرج الموضوع فيه سفر الشريعة ليقرأ منه فصولاً ثم انتقل إلى سفر الأنبياء الذى انتهى منه لتبدأ العظة . لم يجهد رئيس الكهنة نفسه فى البحث عن حبر جليل أو فريسى شهير ليلقى العظة كالعادة ، بل اتجه بنظراته فوراً إلى الزائر الكريم الجالس إلى جوار بطرس والذى أصبح حديث كفر ناحوم كلها فى الأيام الأخيرة وقال له :

ـــ أيها السيد الكريم .. إذا كنت ترغب فى التوجه بكلمة نصح للشعب فلتتفضل بإلقائها علينا .

شخصت الأبصار إليه فى وجد وشوق . نظر يسوع حوله بوجهه المضىء وعينيه النورانيتين ثم نهض ليتقدم إلى المنبر وإيقاع أقدامه تردده دقات القلوب المنتظرة على أحر من جمر ، حتى بلغ المنبر واعتلاه فى حين كان بطرس يحك لحيته الكثة بأظافر عصبية وعيناه ترمشان بسرعة .

بدأ يسوع بقراءة الدرس من سفر الأنبياء ليفيض على الحاضرين بكلمات النعمة المتدفقة من شفتيه وقلبه .

بهت الجميع من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة الذين كانت كلماتهم تتراقص بجرسها الفخِم أمام الآذان لكنها تظل عاجزة عن النفاذ إلى القلوب . استرسل يسوع فى كلماته الآسرة لكن وقع ما استراح له الكتبة والفريسيون ، وما يمكن أن يقطع حبل الإنبهار الذى ربط العيون إلى الخطيب الغريب . فجأة دوت فى الهيكل صرخات أصابت الأجساد بقشعريرة جعلت العرق يتصبب عند البعض . وتعجب الجميع كيف لمجنون به روح نجس أن يسمح له بدخول مكان مقدس مثل هذا ؟! هل دسه أحد الكتبة أو الفريسيين للتشويش على العظة الجليلة حتى لا يملك يسوع القلوب أكثر مما ملك ؟! هل أتى به أحدهم ليضع يسوع موضع الامتحان على مرأى ومسمع من الكل ، فإذا لم يطرد الروح النجس فلن يصدق أحد ما يقوله بعد ذلك ؟! أم أن أحدهم رأف بحال المجنون فأدخله فى زمرة المصلين كى ينال الشفاء على يدى يسوع بعد طول عذاب ؟! أم أن الروح النجس الذى طالما هام بالمجنون على وجهه بين المقابر وفى الطرقات ، وألقى به حيث ألقى ، دفعه إلى التسلل إلى داخل المجمع ليتمجد اسم الله ؟!

كان المشهد مثيراً . يسوع يقف إلى المنبر بقامته المديدة ووجهه النورانى ، والمجنون يدور حوله بروحه النجس ، يصرخ ويرغى ويزبد وكأن أقدامه كانت مغلولة بسلاسل من حديد ، وقد تعلقت القلوب الواجفة والعيون الشاخصة إلى وجه يسوع الساكن ، المطمئن ، الحازم ، وعينى المجنون وكأنهما تقطران دماً مع الصرخات المتدفقة من الأسنان النخرة :

ـــ آه ! ما لنا ولك يايسوع الناصرى . أتيت لتُهلكنا . أنا أعرفك من

تلاشت التساؤلات الحائرة فى عقول الجموع ، بل وكادت قلوبها أن تتوقف عن الخفقان لتسمع ما سينطق به فم يسوع ، ولترى ما سيفعله فى الشيطان الذى تلبس جسد هذا البائس . انتهره يسوع بصوت عظيم :

ـ اخرس وأخرج منه .

فى الحال صرعه الروح النجس وصاح بصوت عظيم ترددت أصداؤه بين أرجاء المجمع الضخم وهو يخرج منه ليتركه صحيحاً معافى .

غطى الذهول كل المصلين وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بتساؤلات لا ينتظرون لها إجابة :

ـ ما هذا ؟!

ـ ما هو هذا التعليم الجديد ؟!

ـ لأنه بسلطان يأمر ؟!

ـ يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه ؟!

كان المريض قد ارتمى عند قدمى يسوع نائماً كالطفل ، يتنفس فى هدوء وسكينة وكأنه عائد من رحلة آلام طويلة ، حرمته من النوم سنوات عديدة . كان الموقف أعظم وأروع من أن يتقول الكتبة والفريسيون على يسوع بأنه أخرج الروح النجس فى يوم سبت .

كان سبتاً مشهوداً موعوداً . خرجت الجموع من المجمع لتملأ الطرقات بأحاديثها الذاهلة المثيرة عما سمعته ورأته ، وسرت الأخبار كالبرق فى الليلة الظلماء وهرع الكل لإبلاغ من لم يكن له حظ وشرف الحضور . أما يسوع فقد خرج إلى طريق الميناء حيث أحاط به فى سيره الوئيد بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس إلى بيت بطرس الذى طار على أجنحة النشوة عندما لبى السيد دعوته إلى الغذاء . لم يعبأ بطرس بكسر السبت ، فقد أكد له إحساسه الداخلى أن الحياة العجيبة المقدم عليها مع السيد أروع وأشمل من أية قوانين دينية سابقة . ولذلك فإن إعداد الغذاء فى السبت لصانع القوانين الإلهية نفسه ، أمر لا يحتاج إلى جدل أو حتى مجرد إحساس بالذنب . فرب السبت هو الذى صنع السبت وهو الذى يستطيع أن يصنع به ما يشاء .

لكن عندما بلغوا بيت بطرس لم يكن غذاء السبت قد أعد بعد . كان البيت فى حالة ارتباك واضطراب وبمجرد دخول السيد إذ بزوجة بطرس تهرع بأنفاس لاهثة لتعلن أن الحمى أصابت أمها وجعلتها تهذى فى فراشها . نظر يسوع إليهم بعينيه الحانيتين الحبيبتين اللتين أشاعتا دفء الطمأنينة فى عروقهم ، وتقدم إلى غرفة نومها وأقامها ماسكاً بيدها ، وفى الحال هبطت حرارتها ، وتصبب العرق من جبينها . وتركتها الحمى فقامت وصارت تخدمهم .

أما فى كفر ناحوم فكانت القوانين الدينية تطبق بمنتهى الصرامة على كل الأهالى حتى غروب الشمس . فالشلل التام لحركة الحياة يفرض عليهم حتى رحيل آخر شعاع لضوء النهار . ومع هذا فقد كادوا يموتون شوقاً للنور الذى احتواه بيت بطرس . وبمجرد أن بدأ المغيب سمع الملتفون حول السيد فى بيت بطرس وقع أقدام القادمين ، وأحاديث المتلهفين ، وهمهمة الجموع الحاشدة ، وعندما تطلعوا خارج النوافذ والأبواب الداخلية ، وجدوا المدينة كلها مجتمعة على الباب الخارجى .

كان البيت يطل على الساحل حيث القوارب المربوطة بالحبال والشباك المعلقة على عصى من الغاب كى تجف حيث طرح المحمومون على حصر من السمار ، والأمهات يجلسن بأطفالهن الذين أصبحوا هياكل عظمية ، والصبية يقودون آباءهم العميان ، والآباء أولادهم العميان ، فى حين تقبض الأذرع المفتولة والأيدى الصارمة على ذوى الأرواح النجسة منعاً لهياجهم .

نهض يسوع ليتصفح المشهد وقد سطع وجهه على المرضى ، والعميان ، والمجانين ، ومنكسرى القلب . وفى الحال تقدم وسطهم وهو يتألم لآلامهم ، وينحنى ليأخذ فى أحضانه طفلاً مريضاً جثت أمه المتألمة عند قدميه ، فى حين يركض إليه صبى هزيل سقيم وكأنه مشدود إليه بقوة خفية فيلمس رأسه مباركاً إياه ، عندئذ يقفز مهللاً والحيوية تدب فى أوصاله . أما العميان والمحمومون فقد تلمس بعضهم طريقه إليه فى حين انتظر البعض الآخر مع المقعدين دورهم للشفاء . ولسان الكل يلهج بالحمد والشكر والحب عندما تتلاشى الأوجاع والأسقام أمام لمساته الطاهرة كما تتلاشى الظلمة المتكاثفة أمام الضياء المبهر . فالأطفال والصبية يقفزون هنا وهناك وسط ضحكات مجلجلة لم يسمعها آباؤهم وأمهاتهم من قبل ؛ والمحمومون يشعرون بالعرق البارد يسرى

تحت أرديتهم وعباءاتهم وأمامه تخفت لسعة السعير فى أجسادهم فيرفعون أيديهم إليه وتلهج ألسنتهم بالحمد والشكر ؛ والمقعدون يحسون بالدماء الساخنة تجرى في عروق سيقانهم التى ترفعهم واقفين ناهضين ليسجدوا أمام قدميه عاجزين عن التعبير عما يجيش بصدورهم ؛ والعميان يفركون عيونهم وهم يرون صفحة البحيرة التى عكست أشعة القمر والنجوم الفضية فلا يملكون سوى البكاء فرحاً . أما المجانين ذوو الأرواح النجسة فقد ملأوا الجو صراخاً وعويلاً حتى اقترب منهم المخلص ليخرجهم بكلمة واحدة منه دون أن يدعهم ينطقون بحرف واحد ، لأنهم فى الحال عرفوه وعرفوا أن لا قبل لهم به برغم أعدادهم الهائلة .

وعندما عاد الجميع أصحاء ، مبتهجين ، مبهورين ، مذهولين ، منتشيين إلى بيوتهم ، عاد يسوع مع بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب إلى بيت بطرس كى يبيت فيه . وغط الجميع فى نوم عميق بعد يوم طويل شاق ، لكن بمجرد أن تسلل أول شعاع للفجر من خصاص نافذة غرفة يسوع ، نهض على الفور ليخرج ويمضى إلى موضع خلاء حيث صلى هناك . كانت أضواء الغسق لا تزال تغرق الأفق فى ردائها الأرجوانى ، وصدح النسيم بأنغام سرمدية عند سفح التل ، وركع يسوع فى ردائه الكتانى الأبيض ووجهه المضىء نحو السماء التى أزاحت ستائرها المعتمة لتكشف عن ثغرها المشع بألوان الطيف ، وتحول الكون كله إلى سيمفونية خالدة من الألوان والأنغام والألحان والظلال والأصداء .

استيقظ بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا ليجدوا غرفة المعلم شاغرة . هرع بطرس وخلفه الباقون خارجاً فإذ بالجموع قد أحاطت بالبيت من كل جانب وكانت الأسئلة تتناثر هنا وهناك :

ــ أين السيد ؟!

ــ هل لا يزال المعلم بالداخل ؟!

ــ نتمنى أن نراه ولو للحظة !

ــ أين المعلم ؟!

ــ نحن لا نشبع من كلامه أبداً .

لكن بطرس والذين معه هرعوا إلى موضع الخلاء حيث وجدوا السيد جاثياً على تربة الأرض السمراء متشيا بجواره الصامت مع أبيه ، فى حين بزغت أشعة

الفجر الذهبية الخجلى على قمم التلال المطلة بهاماتها على وجه البحيرة بجمالها الهادىء . تردد بطرس بعض الشيء كي لا يقطع الخلوة الإلهية ، لكن يسوع أحس بوجودهم فنظر إلى بطرس بابتسامة حانية ، فقال بطرس بنبرات لا تخلو من حرج :

ــ إن الجميع يطلبونك .

لم تزل الإبتسامة المضيئة على وجهه وهو يقول لهم :

ــ لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضاً لأنى لهذا خرجت .

فخرجوا معه إلى كل مجامع الجليل للكرازة وطرد الأرواح النجسة ، وشفاء الأمراض المستعصية ؛ يسبقهم صيته الذى غطى الآفاق حيثما ذهبوا ، وتعلق به أمل المرضى الذين وقف الطب البشرى أمامهم بلا حول ولا قوة . ففى إحدى القرى التى مروا بها أسرع إليه أبرص جاثياً على ركبتيه وصائحاً فى ضراعة :

ــ إن أردت تقدر أن تطهرنى .

فاضت نفس يسوع بالحنان على منكسر القلب ومد يده ولمسه قائلاً له :

ــ أُريدُ فأطُهر .

فى اللحظات نفسها تلاشت البقع الرمادية والسوداء والحمراء القانية التى افترشت جلد المريض ، واكتسى بلون وردى جميل ، ظل ينظر إلى ذراعيه ويديه وساقيه وقدميه وقد أصيب لسانه بما يشبه الشلل ثم صاح وهو يدور حول نفسه ليعلن على الملأ :

ــ لقد شفيت .. لقد شفيت وطهرنى المخلص !

لكنه فوجىء بيسوع ينهره بأمر حاسم :

ــ أنظر .. لا تقل لأحد شيئاً بل اذهب أرِ نَفْسَكَ للكاهن وقدم عن تطهيرك ما أمر به موسى شهادة لهم .

صمت الرجل ذاهلاً للحظات وغير مدرك للسر فى أمر يسوع الذى عجز عن تنفيذه فخرج بعيداً ليصيح وينادى ويذيع الخبر حيثما ذهب ، فهرعت

الجموع حوله من كل فج عميق ، لكن لأن يسوع ساعته لم تكن قد حانت بعد لإعلان رسالته كلها ، فلم يعلن عن ذاته فى المدن التى مر بها وفضل الخروج إلى المواضع الخالية ، ومع ذلك ظلوا يأتون إليه من كل ناحية . وكانت البرارى هى ملجأه الوحيد ليعتزل ويصلى . لكن الناس فى المدن والقرى كانوا يرددون بعد كل معجزة من معجزات شفائه قول إشعياء النبى :

ــ هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا .

ولذلك عندما عاد إلى كفرناحوم ليستريح فى بيت بطرس بعد جولاته المضنية فى الجليل تبعته الجموع لتحيط بالبيت ليل نهار بحيث أصبح بؤرة لدوامة متكاثفة من الأجساد البشرية ، والأعناق المشرئبة ، والعيون الشاخصة ، والنظرات المتلهفة لرؤيته ولو فى لمحة عابرة . فالبعض منهم لم يصدق أنه يعيش فى عصر تقع فيه كل هذه المعجزات المذهلة ، والبعض حسد نفسه على أنه ولد ووجد فى هذا العصر العجيب الذى يتحول فيه مسار البشرية إلى وجهة مختلفة تماماً ، والذى تفتحت فيه آفاق لم يعرفها العالم منذ عهد آدم .

عبر هذا المحيط البشرى نظر يسوع أربعة رجال أشداء جاءوا من قرية بعيدة حاملين رجلاً مفلوجاً على فراش ، لعلهم يجدون ثغرة ينفذون منها إلى البيت ويصلون بالمفلوج إلى يسوع ، لكن كل المنافذ والفتحات كانت مسدودة بالكتل البشرية . ومع ذلك بلغ أحدهم السور الخلفى للبيت وأشار للباقين بما يعنى أنه لابد من تسلق الجدار حتى يصلوا إلى السقف فيفتحونه لإنزال الفراش بحبال أمام يسوع .

كان الأربعة يعلمون أن المفلوج المحمول على الفراش يدفع ثمن خطاياه من صحته وجسده ، فكم ضرب بنصائحهم عرض الحائط وسار فى الطرق المعبدة البيضاء إلى مدن الفسق والفساد والدعارة فى فينيقيا ، حيث ارتمى فى أحضان بائعات الهوى ، وأضاع أمواله فى عيش مسرف وفى لهو وعبث وترنح بالخمر حتى نضبت أمواله ولم يستطع أن يعالج نفسه من مرض التقطه فى ليلة دنسة . لكن أصدقاءه لم يبخلوا عليه باستدعاء الطبيب الذى أعلن عجزه عن علاجه ، وأكد أنه سيبقى طريح الفراش إلى أن يصبح طريح القبر . ومع ذلك لم يتخل عنه أصدقاء العمر الذين حملوه بفراشه إلى كفرناحوم بمجرد سماعهم بعودة يسوع إليها .

عندما بلغوا السور الخلفى للبيت أسرع أحدهم إلى الشاطىء الذى لا يبعد أكثر من أمتار معدودة وأحضر بعض الحبال التى يمدها الصيادون على الرمال ، وعاد ليربطوا زوايا الفراش الأربع بحبال تمكنهم من إنزاله . رفعوا الفراش بأيديهم حتى وضعوه على الجدار ثم قفز أربعتهم متسلقين الجدار ثم السقف الذى وقفوا عليه بأقدام راسخة وقد أمسكوا بالحبال ، كل من زاوية . رفعوا الفراش بحرص شديد ، والمفلوج ينظر بعينين حائرتين مترددتين إلى الجماهير المتراصة حول مداخل البيت وقد تعلقت عيونها بالمنظر العجيب المثير ، خاصة وأن الفراش فى صعوده إلى السقف كان على وشك أن ينقلب به عندما زلت قدم أحد الممسكين بالحبال لكنه تماسك فى اللحظة الأخيرة حتى وضع الفراش على حافة السطح .

فى الداخل كان يسوع يشرح للذين التفوا حوله معنى ملكوت الله ومملكته السماوية التى لا تتشابه مع ممالك الأرض فى شىء حينما سمع ضجيجاً فوق السطح . لكنه لم يعره التفاتاً مستأنفاً حديثه حول الإيمان الحقيقى بملكوت الله والذى لا تقف فى طريقه أية عقبة أرضية . ثم توقف عن الحديث عندما ازداد الضجيج ، وإذ بغطاء السقف المصنوع من الألواح السميكة العريضة المقطوعة من جذوع النخيل يرتفع تدريجياً لتتدفق أمواج الضياء الذهبى وتنعكس على وجه يسوع الذى رفع عينيه ليرى أربعة وجوه لوحتها الشمس ، تدخل فراشاً مربوطاً بحبال من فتحة السقف وعليه جسم مشلول لرجل لا تزال عيناه ورقبته متشبثة بالحياة التى هجرت بقية أعضاء جسده .

أفسح الملتفون حول يسوع مكاناً هبط فيه الفراش . تدفقت العذوبة الحانية من وجه يسوع المبتسم عندما رأى إيمانهم الذى لم تعقه عقبة ، وحبهم الذى لا يعرف الحدود لصديقهم . نظر إلى ذلك الوجه الشاحب المغضن المطروح عند قدميه ، والعينين الغائرتين الخابيتين الطافحتين بإحساس دفين بالذنب وتأنيب الضمير ، إذ أن مرضه كان روحياً قبل أن يكون جسدياً . فالجسد أمره هين أما الخطيئة فأجرتها الموت . عندئذ قال يسوع للمفلوج :

— يابنى .. مغفورة لك خطاياك .

إجتاح الذهول الرجل العليل . فقد شعر بالحياة تدب فى أوصاله لكنه لم يدر ماذا يفعل لدرجة أنه نسى أن ينهض ، إذ يبدو أنه بسبب طول الرقاد

نسى كيف يحرك أعضاءه . ومع ذلك كانت الدماء الساخنة تتدفق فى عروقه التى عاد إليها النبض مرة أخرى . لكن كان وقع كلمات يسوع أشد على قوم من الكتبة والفريسيين مندسين بين الملتفين حوله ، ودارت فى نفوسهم تساؤلات مسعورة :

ـــ لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف ؟!

ـــ من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده ؟!

تساؤلات ظلت حبيسة صدورهم لأن حب الجماهير الجارف ليسوع كان أقوى من أى سلطان لهم عليها . ومع ذلك شعر يسوع بروحه فى اللحظة نفسها بالأفكار التى تنهش أنفسهم فسألهم وقد ثبت بريق عينيه عليهم بصفة خاصة :

ـــ لماذا تفكرون بهذا فى قلوبكم ؟! أيهما أيسر أن يقال للمفلوج ، مغفورة لك خطاياك ، أم أن يقال : قم واحمل سريرك وأمشى ؟!

حاول الكتبة والفريسيون التخلص من جاذبية بريق عينيه النافذ إلى قلوبهم لكنهم لم يستطيعوا وهو يواصل كلماته الآسرة :

ـــ ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا . قال للمفلوج لك أقول قم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك ..

كان المفلوج يتابع الحوار مذهولاً وكل النظرات قد سلطت عليه . فإذ به يقوم للوقت ، ويحمل سريره ، ويخرج قدام الكل وقد بهت الجميع وهم يمجدون الله بألسنة تردد فى انبهار :

ـــ ما رأينا مثل هذا قط !! ما رأينا مثل هذا قط !!

أصبح يسوع يفضل الأماكن الخلاء بعد أن تكاثرت الجموع الوافدة لسماع كلماته . فقد ضاقت البيوت بهم ولفظت معظمهم خارجاً ، ولم يشأه يسوع أن يحرمهم من نعمته ففاض بها عليهم حيث فى الخلاء متسع للجميع . فكان يتنقل بهم من شاطىء البحر إلى سفح التل إلى أعلى الجبل إلى أرض الوادى . وفيما هو مجتاز لطريق البحر . عبر الأردن ، جليل الأمم بالقرب من كفرناحوم ، تألق شعار النسر الذهبى متطاولاً فوق دار الجباية حيث جلس لاوى بن حلفى يأخذ العشور ويجبى الضرائب . رآه يسوع وقال له كلمة واحدة فقط :

— اتبعنى !

فترك كل شىء فى الحال وقام وتبعه ليتحول من العشار لاوى بن حلفى إلى التلميذ متى بن حلفى . وكانت فرحة متى لا تقدر فصنع ليسوع ضيافة كبيرة فى بيته ، والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعاً كثيراً من عشارين وآخرين . انهمك التلاميذ فى تناول الفطير والسمك المشوى فى حين كان الكتبة والفريسيون يتابعونهم بعيون حانقة ، ثم يوجهون إليهم أسئلتهم كسهام حارقة بمجرد خروجهم بعد انتهاء المأدبة :

— لماذا تأكلون وتشربون مع عشارين وخطاة ؟!

تردد التلاميذ لحظات بحثاً عن إجابة مقنعة لكن سرعان ما أفحم يسوع السائلين :

— لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة .

لم يتقبل الكتبة والفريسيون الهزيمة بسهولة فأخرجوا ما تبقى فى جعبتهم من حجج :

— لماذا يصوم تلاميذ يوحنا كثيراً ويقدمون طلبات وكذلك تلاميذ الفريسيين أيضاً .. وأما تلاميذك فيأكلون ويشربون ؟!

صمت الفريسى الذى تكلم نيابة عن زملائه ، وضم رداءه الأسود حول ساقيه فخوراً بقوة منطقه وبراعة حجته فى حين انصبت النظرات على يسوع فى انتظار رده :

ــ أتقدرون أن تجعلوا بنى العرس يصومون ما دام العريس معهم ؟! ولكن ستأتى أيام حين يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون فى تلك الأيام ..

نضح عجزهم عن الفهم والاستيعاب على عيونهم المترددة فيما بينهم ، ومع ذلك صمتوا لعله يفصح لهم عن مغاليق كلماته :

ليس أَحَدٌ يَضَعُ رقعةً من ثوبٍ جديدٍ على ثوب عتيقٍ . وإلا فالجديد يَشُقُه والعتيق لا توافقه الرقعة التى من الجديد . وليس أحد يجعل خمراً جديدة فى زقاق عتيقة لئلاً تُشقَّ الخمرُ الجديدةُ الزقاق فهى تهرق والزقاق تتلف . بل يجعلون خمراً جديدةً فى زقاقٍ جديدةٍ فتحفظ جميعهاً . وليس أحدُ إذا شرب العتيقَ يُريد للوقتِ الجديدِ لأنه يقول العتيق أطيبُ .

كانت كلمات يسوع المضيئة تحيطه بهالة نورانية وقد وقف أمام بيت متى العشار بقامته المديدة فى ردائه الكتانى الناصع البياض وحوله تلاميذه وفى مقدمتهم متى الذى لا يزال يرى فى زيارة السيد لبيته شرفاً لم يكن ليحلم به فى يوم من الأيام ، وهو الذى ينتمى إلى طبقة العشارين المحتقرة والمكروهة من كل الأهالى . فهم أداة الوالى الرومانى فى ابتزاز أموال أبناء وطنهم دون ضمير أو حياء ، فكانوا يحملونهم بما لا طاقة لهم به حتى يوردوا للخزانة الرومانية مبالغ مجمدة دفعة واحدة ويأخذوا الباقى لأنفسهم . ولا شك فى أن هذا كان نهج متى عند مكان الجباية فى محطة كفرناحوم على الطريق الأبيض الممتد من دمشق إلى البحر الأبيض المتوسط ، حيث انتظار أهل المدينة والغرباء والصيادين ورجال القوافل والمسافرين من كفر ناحوم ، لأداء الجباية التى يفرضها عليهم العشار ، لكن كلمة واحدة من يسوع جعلت منه إنساناً جديداً كل الجدة .

حاول الكتبة والفريسيون الإلمام بمدلولات الثوب والرقعة والخمر والزقاق لكن أفقهم الضيق أطبق على عقولهم خاصة عندما أضاف يسوع ما ضاعف من حيرتهم :

— اذهبوا وتعلموا ما هو . إنى أريد رحمة لا ذبيحة .

هم يسوع أن يترك المكان مع تلاميذه فى نفس اللحظة التى همس فيها كبير الفريسيين فى أذن الواقف إلى جواره والحنق يكاد يخنقه :

— صديق العشارين والخطاة !

لكن يسوع رمقه بنظرة مشعة داخل دهاليز نفسه وكهوفها المظلمة فانكمش الرجل متجنباً نظرته التى ألهبت روحه بسياط من نار خفية . وغادر يسوع المكان مع تلاميذه لينضموا إلى إحدى القوافل الصاعدة إلى أورشليم من محطة كفرناحوم . شرعت القافلة فى التحرك ومتى يرمق شعار النسر الذهبى فوق دار الجباية بابتسامة ذات مغزى ، ابتسامة اتسعت عندما وقعت عيناه على العشار الجديد الذى رابط فى مكانه ، فقد شعر أنه ولد من جديد .

سارت القافلة بعرباتها ودوابها حتى نهاية تخوم الجليل لتعبرها متوغلة بين تلال السامرة ووديانها حتى بلغت حدود اليهودية لتشق طريقها جنوباً إلى أورشليم التى كانت على أهبة الاستعداد لاستقبال عيد الفصح . ترجل يسوع وتلاميذه عند أسوار المدينة المقدسة ليدخلوا من باب الضأن حيث كانت هناك بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا . وهى بركة ذات مياه صافية نقية تحيط بها خمسة أروقة زاخرة بأرائك خشبية ومقاعد حجرية يفترشها جمهور كثير من مرضى وعمى وعرج وعسم فى انتظار الملاك الذى كان ينزل أحياناً فى البركة ويحرك الماء . فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أى مرض اعتراه .

دخل يسوع الرواق الذى اضطجع فيه انسان ظل مريضاً منذ ثمان وثلاثين سنة لدرجة أن فراشه قد فقد لونه . لمحه يسوع فاقترب منه سائلاً إياه :

— أتريد أن تبرأ ؟

أجاب المريض دون أن يعرف من هو :

— يا سيد .. ليس لى إنسان يلقينى فى البركة متى تحرك الماء ..بل بينما أنا آت ينزل قدامى آخر !

صمت الرجل وفمه يقطر مرارة . فلم يكن على يقين أن السيد الذى يخاطبه

سوف ينتظر إلى جواره حتى يهبط الملاك ويحرك الماء فيحمله ويلقى به فى الحال . لكن كلمات عجيبة دقت أذنيه ومعها ما يشبه نفحات الحياة التى سرت فى أرجاء جسده الذى لم ينهض به منذ زمن بعيد . كانت كلمات السيد كالأوامر التى تصدر لتنفذ على الفور :

ـــ قم . احمل سريرك وامشى .

وفى الحال وجد المريض العتيد نفسه وهو ينهض كأنه كان مضطجعاً لساعة أو ساعتين . جعله الذهول ينظر حوله كأبله لا يصدق ما جرى له دون أن يهبط الملاك ويحرك الماء ويلقى به أحد فى الحال ، وهو الحلم الأثير الذى ظل يراوده ويعيش على أمله طيلة ثمان وثلاثين سنة . لم يجد الرجل فى نفسه القدرة فقط على حمل نفسه بل حمل سريره أيضاً ومشى به تحت وطأة من الدهشة الجارفة ، أنسته أن يشكر هذا السيد العجيب على معجزته الخارقة ، كما أنسته أنه كان فى يوم سبت ولا يحل له أن يحمل سريره ويمشى به . لم يشعر إلا بالربيع الذى كسا المدينة المقدسة بحلة سندسية مرصعة بالزهور الحمراء والورود البيضاء ، وقد سرى فى عروقه بدفء الحياة ونشوتها التى كادت تطير به فوق قباب الهيكل . لقد نسى أنه يهودى يعيش وسط يهود لا يعرفون فى حياتهم سوى التطبيق الحرفى والشكلى للناموس . ذهل اليهود لمنظره فهرعوا خلفه حتى أحاطوا به صائحين صارخين :

ـــ لا يحل لك أن تحمل سريرك !! لا يحل لك أن تحمل سريرك !

منحته النشوة المفاجئة قدرة المواجهة دون حرج :

ـــ الذى أبرأنى هو قال لى احمل سريرك وامشى !

لم تهتم العيون الجاحظة ، واللحى الكثة ، والأنوف المعقوفة المحيطة بالرجل ، بروعة المعجزة ، قدر اهتمامها بالتحرى عن الإنسان الذى أغراه بكسر السبت :

ـــ من هو الإنسان الذى قال لك احمل سريرك وامشى ؟!

لكن الرجل ببساطة شديدة لم يكن يعلم من الذى شفاه . تلفت حوله بعيون فاحصة ونظرات ثاقبة ثم عاد الى الوجوه المحيطة به :

ـــ لا أعرف .

كان يسوع قد غادر المكان ، وأى مكان يمكن أن تلتف فيه الجموع حوله . فلم تكن ساعته قد حانت بعد . فقد ذهب مع تلاميذه إلى الهيكل للصلاة وأداء شعائر عيد الفصح . وفى الوقت نفسه كان الرجل على وشك أن يعود إلى بلدته كى يشاركه أهله فرحة شفائه العجيب ، لكنه تذكر فى اللحظة الأخيرة أن عليه أن يذهب إلى الهيكل ليشكر الله على نعمته الكبيرة التى أسبغ بها عليه . وبالفعل حقق الله له بغيته إذ قابل يسوع الذى بادره بقوله :

ـــ ها أنت قد برئت .. فلا تخطىء لئلا يكون لك أشرٌ .

جحظت عينا الرجل وصاح متهللا :

ـــ إذاً .. فأنت يسوع الناصرى !! لا أحد يتكلم ويفعل مثلما تكلمت وفعلت معى !!

ثم خرج لاهثاً ليندس بين جموع اليهود صائحاً مهللا بأن يسوع هو الذى أبرأه . وطار النبأ بينهم كوقع الرعد وهزيمه فى يوم مطير وتناثروا فى الهيكل وفنائه ، وفى أورشليم وطرقاتها بحثاً عن ذلك الذى كسر السبت المقدس . وعندما عثر عليه بعضهم فى الهيكل طردوه خارجه لأن قداسة السبت من قداسة الهيكل .وعندما خرج يسوع مطروداً من الهيكل تلقفه اليهود خارجه مطالبين هذه المرة بقتله لأن من يقتل السبت لابد أن يقتل .

سرى الرعب فى عروق بطرس ومتى وأندراوس ويوحنا ويعقوب إذ لم يتصوروا أن الموت يمكن أن يكون نتيجة لفعل معجزات الخير فى هذه المدينة المقدسة . لكن سرعان ما ترك الرعب مكانه للذهول وهم يجدون يسوع يواجه اليهود بمنتهى الهدوء والطمأنينة وكأنهم لم يطلبوا حياته فى تلك اللحظات الكئيبة :

ـــ أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل !

وقعت كلمات يسوع على أذان اليهود كهزيم الرعد فى اعصار كاد أن يخلعهم من جذورهم . صمتوا للحظات وعندما استوعبوا معانيها أرغوا وأزبدوا وتطايرت صرخاتهم كحمم بركان زلزل كيانهم :

. لابد أن يقتل !!

إنه لم ينقض السبت فحسب !!

ـ لقد جدف وكفر !!

ـ قال أمامنا جميعاً إن الله أبوه !!

ـ كيف يجرؤ على أن يعادل نفسه بالله ؟!

ـ القتل هو أقل عقاب له !!

ـ حتى يصبح عبرة لمن يعتبر !

إنتفض التلاميذ رعباً ، وأوشك بطرس على أن يسلم مقاليد أموره لساقين تسابقان الريح لكنه تماسك فى اللحظة الأخيرة عندما خرجت كلمات يسوع بنفس الهدوء والطمأنينة :

ـ الحق الحق أقول لكم لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعَملُ .. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الإبن كذلك . لأن الآب يحب الإبن ويريه جميع ما هو يعمله . وسيريه أعمالاً أعظم من هذه لتتعجبوا أنتم . لأنه كما أنَّ الآب يقيم الأموات ويحيى كذلك الإبن أيضاً يحيى من يشاء . لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كلَّ الدينونة للابن . لكى يكرم الجميع الإبن كما يكُرِمونَ الآب . من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذى أرسله .

هدأ الاعصار وعشش السكون على رءوس المحيطين به برغم هدير المشاعر المتصارعة داخل صدورهم . كانت لكلماته الغريبة العجيبة جاذبية لا تقاوم وإن رفضوها فى أعماقهم إما صلفا وكبرياء ، أو جهلاً وعجزاً عن فهمها ، أو رعباً من سطوة الكتبة والفريسيين ، لكنهم لم يستطيعوا أن يجذبوا عيونهم بعيداً عن بريق عينيه ، وآذانهم عن رنين كلماته الهادئة المطمئنة وهو يواصل حديثه وكأنهم لم يطلبوا حياته منذ لحظات :

ـ الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة . الحق الحق أقول لكم إنه تأتى ساعة وهى الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون . لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته كذلك أعطى

الإبن أيضاً أن تكون له حياة فى ذاته . وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان . لا تتعجبوا من هذا .. فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته . فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيآت إلى قيامة الدينونة .

مسحت عينا بطرس أيدى الواقفين وجيوب عباءاتهم الداكنة فلم يلمح سيفاً ولا خنجراً ، فاطمأن قلبه واقترب من يسوع حتى كاد أن يلصق كتفه بكتفه . استعرض بطرس العيون المسلطة عليهم فوجدها لا تتحرك فى محاجرها وكأنها أصبحت من زجاج فى وجوه تماثيل من حجر ، مشدوهة لكلمات المعلم :

ـــ أنا لا أقدرُ أن أفعل من نفسى شيئاً . كما أسمعُ أدين ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى .. إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى ليست حقاً . الذى يشهدُ لى هو آخر .. وأنا أعلم أن شهادته التى يشهدها لى هى حقّ . أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحقّ . وأنا لا أقبلُ شهادة من إنسان . ولكنى أقول هذا لتخلصوا أنتم . كان هو السراج الموقد المنير وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة . وأما أنا فلى شهادة أعظمُ من يوحنا .

سرت همهمة بين الأفواه الفاغرة ، والعيون الجاحظة توشى بالقلق والاضطراب والرفض المشتعل لكن كلمات المخلص نزلت عليها كأمطار الشتاء :

ـــ لأن الأعمال التى أعطانى الآب لأكملها .. هذه الأعمالُ بعينها التى أنا أعْملها هى تشهد لى أنَّ الآب قد أرسلنى . والآبُ نفسه الذى أرسلنى يشهد لى . لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته .. وليست لكم كلمة ثابتة فيكم . لأن الذى أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به .

عادت الهمهمة لكنها خافتة هذه المرة وإن طفت على سطحها كلمات متناثرة مثل : من هو حتى يقول هذا ؟! عجباً !! لا أصدق أذنى !!لكن كلمات المعلم أخدتها :

ـــ فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياةً أبديةً . وهى التى تشهد لى . ولا تريدون أن تأتوا إلىَّ لتكون لكم حياة . مجداً من الناس لست أقبلُ .

ولكنى قد عَرَفْتكم أن ليست لكم محبةُ اللهِ فى أنفُسكم . أنا قد أتيت باسم أبى ولستم تقبلوننى . إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه . كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعضٍ . والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلُبونه .

تسللت النظرات إلى المفلوج المندس بين الملتفين حول يسوع ، وإلى ساقيه المعروقتين اللتين كان المثل يضرب بهما فى الضمور والذبول ، وها هما الآن تحملانه كأوفر ما تكون الصحة والحيوية المتدفقتين من عينيه !! لكن كيف يستوعبون هذه الأفكار والكلمات التى تدق آذانهم لأول مرة فى حياتهم التى لم يسمعوا فيها من قبل سوى شريعة موسى ؟!

ـــ لا تظنوا أنّى أشكوكُم إلى الآب . يوجد الذى يشكوكم وهو موسى الذى عليه رجاؤكم . لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هو كتب عنى . فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامى ؟!

ثم ألقى يسوع ببصره عبر الجموع المحيطة به ، فشاهدوا معه فناء الهيكل المقدس بأروقته الفخمة الرحبة وأعمدته الرخامية الشامخة وقد تحول إلى حظيرة للماشية التى تلقى بروثها على أرضه ، ويعلو رغاؤها من حين لآخر ، فى حين جلس الصيارفة والجباة إلى موائدهم الخشبية المتهالكة يخشخشون بعملاتهم الذهبية والفضية والبرونزية ، ووقف الباعة يساومون بأصوات منكرة عالية تردد صداها فى قدس الهيكل نفسه . أما الحمام فلم يحتمل أصداء هذا الصخب فطار بعيداً محلقاً فى قبة السماء التى التحف بها الفناء العارى .

(٢٣)

عاد يسوع مع تلاميذه من أورشليم إلى الجليل سيرا على الأقدام هذه المرة . فقد ألبس الربيع الحقول غلالات سندسية توهجت خضرتها تحت أشعة الشمس الذهبية ، وتراقصت أعوادها مع مداعبات النسيم العليل المشبع بأريج الزهور البرية المنتشية بالدفء السارى فى الوجود ، والتى تفتحت عن دوائر بيضاء ، وقلوب حمراء ، ومثلثات صفراء وسط سنابل القمح الذهبية المتمايلة يمنة ويسرة مع هبات الريح المتمسحة بها .

كانت رحلات الخلاء نشوة خالصة لبطرس واندراوس ويوحنا ويعقوب ومتى حين ينطلقون مع يسوع كأطفال لا يعرفون فى الدنيا سوى سعادة الالتفاف حول أبيهم ليغترفوا من نهر حنانه الفياض ، ومظاهر الطبيعة الباسمة بثغور حمراء بضة . وكانت الرحلة تستمر كما يحلو لها أن تستمر . ففى النهار يسيرون من قرية إلى أخرى ، وفى الليل ينهلون من فيض النعمة المتدفق من فم المعلم قبل أن يداعب النعاس جفونهم وقد التحفوا برداء القمر الفضى . ولم يكن للرحلة أن تتوقف مع حلول السبت لأنهم كانوا فى صحبة رب السبت نفسه .

ففى السبت التالى لخروجهم من أورشليم واصلوا رحلتهم إلى الجليل . وكانت معجزة شفاء المفلوج قد أكدت للفريسيين أن ما يفعله هذا النبى الجديد لن يمر بخير عليهم ولذلك وضعوا عليه عيونهم فى غدواته وروحاته حتى يضبطوه متلبساً بنقض الشريعة دون مبرر إنسانى أو غير إنسانى . ولذلك خرجت العيون خلفه من أورشليم وإن تظاهرت بأنها تسير معه على نفس الطريق بمحض الصدفة . فى ذلك السبت ضبطت عيون الفريسيين تلاميذ يسوع متلبسين بقطف السنابل وفركها بأيديهم ثم أكلها ، وسرعان ما تقدموا منهم لإثبات الحالة فى سؤال مغرض :

ــ لماذا تفعلون ما لا يحل فعله فى السبوت ؟!

نظر التلاميذ إلى معلمهم الذى أجاب عنهم بسؤال كالسيف :

ــ أما قرأتم ولا هذا الذى فعله داود حين جاع هو والذين كانوا معه ؟!

كيف دخل بيت الله وأخذ خبز التقدمة وأكل وأعطى الذين معه أيضاً .. الذى لا يحل أكله إلا للكهنة فقط ؟! وقال لهم إنَّ ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً !

صمت للحظات كى يمنحهم فرصة للاستيعاب لكن الجباه الحجرية والعيون الزجاجية لم تتحرك ولم تومض فاستأنف يسوع حديثه :

ــ أما قرأتم فى التوراة أنَّ الكهنة فى السبت فى الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء ؟! ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل .. فلو علمتم ما هو ؟! إنى أريد رحمة لا ذبيحة .. لما حكمتم على الأبرياء !! إنما جعل السبت لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت !

فتش الفريسيون الواقفون فى كهوف عقولهم المعتمة عن حجة يردون بها على يسوع لكنهم عجزوا عن إيجاد مجرد كلمات يملأون بها فراغ السكون المشحون بضيقه منهم . عندئذ أشار يسوع لتلاميذه بمغادرة المكان فى طريقهم إلى الجليل ، فواصلوا الرحلة تاركين الفريسيين واقفين كالأصنام بجباههم الحجرية وعيونهم الزجاجية التى لا ينم عنها أى بريق . لكن أنباء المسيرة كانت الحديث اليومى للفريسيين من اليهودية حتى الجليل ، بعد أن ذاع صيت يسوع وأصبحت كلماته على كل لسان ، وآياته حديث كل مجلس ، مما ضاعف من هواجسهم ومخاوفهم إذ يبدو أن جموع الشعب قد انتقلت من كفتهم إلى كفته ، وأوشك الميزان الذى ظل فى صالحهم منذ أيام موسى أن ينقلب لصالح هذا الشاب الأعزل من كل سلاح دنيوى ، لكن قوته الروحية أصبحت جارفة وعلى وشك أن تجرفهم فى طريقها . ولذلك لابد لمن وضع كل العراقيل والعقبات والسدود والحواجز فى طريق هذا الطوفان الجديد الذى يفوق فى اكتساحه الطوفان الذى وقع فى أيام نوح . فليست هناك سفينة للكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة للنجاة من الطوفان الجديد ، ولذلك يتحتم عليهم القضاء على الطوفان نفسه . لكن هل كان هذا فى مقدورهم وهم الذين لم يتركوا شاردة أو واردة للإيقاع بيسوع ؟!

مع حلول السبت التالى دخل يسوع مع تلاميذه أقرب مجمع فى طريقهم إلى الجليل . وهناك صار يعلم ويبشر بملكوت الله الذى يسمو فوق كل الحدود والمحاذير والنواميس القديمة . أما الكتبة والفريسيون المتربصون به فقد تهامسوا

فيما بينهم ، ثم نهض كبيرهم فجأة وهو يضم أطراف عباءته السوداء حول جسده النحيل ، ويرفع عينيه عوضاً عن إحدوداب ظهره ، ويتساءل بنبرات مرتعشة وابتسامة صفراء :

ــ هل يحل الإبراء فى السبوت ؟!

خرج صوت يسوع وقد امتزج فيه الحسم بالوداعة :

ــ أى إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه ؟! فالإنسان كم هو أفضل من الخروف . إذاً يحل فعل الخير فى السبوت .

تركزت نظراتهم الخابية على الرجل ذى اليد اليابسة الذى هرع إلى المجمع بمجرد علمه بوصول المعلم إليه لعله ينال الشفاء على يديه كما فاز به الكثيرون من قبل . وكان يسوع يقرأ أفكارهم ككتاب مفتوح أمامه ، ويعرف نواياهم مسبقاً ، لكنهم كانوا يظنون أن دهاءهم أعتى من قوته الروحية الجارفة . فى الحال أمر المريض :

ــ قم وقف فى الوسط .

ثم نظر إليهم متسائلاً فى ضيق :

ــ هل يحل فى السبت فعل الخير أو فعل الشر ؟! تخليصُ نفس أو إهلاكها ؟!

لكن الصمت الكئيب كان إجابتهم إذ كان كل همهم أن ينقض السبت على مشهد من المصلين جميعاً فى المجمع حتى يمسكوا عليه القرينة التى يقضون بها عليه . نظر إليهم فى غضب وحزن لغلاظة قلوبهم ثم أمر الرجل :

ــ مُدَّ يَدَك .

مدها الرجل وفى الحال عادت صحيحة كالأخرى . وفى الحال أيضاً سرت همهمة ولغط بين الكتبة والفريسيين والهيرودسيين ، ثم انطلقت أقدامهم فى تخبط عصبى إلى خارج المجمع وتشاوروا عليه لكى يهلكوه ، وامتزجت الأسئلة بالأجوبة فى حمى مستعرة :

ــ كيف نسمح له بنقض الناموس عياناً بياناً هكذا ؟!

ألم تعد لنا سلطة توقفه عند حده ؟!

آن الأوان كي نخلعه من جذوره التي رسخها في نفوس الجهلاء !

ـ الزمن لا يسير في صالحنا .. وربما أصبحنا يوماً لنجده يجلس على عرش الملك هيرودس شخصياً !

ـ إذا تركنا النار تستفحل حتى تحرقنا فلن نلوم إلا أنفسنا !

ـ ألسنا حماة الشريعة والناموس ؟!

ـ أم أننا أصبحنا كريشة في مهب العاصفة ؟!

ـ إذا لم نقض عليه بأسرع ما يمكن فلن يرحمنا رب إسرائيل !

لكن يسوع كان يقرأ ما سطر في صدورهم ، فانصرف إلى بحر الجليل ، وتبعته جموع كثيرة فشفى كل مرضاهم ، وأوصاهم بكتمان آياته وعجائبه لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل :

ـ هوذا فتاى الذى اخترته . حبيبى الذى سُرَّت به نفسى . أضع روحى عليه فيخبر الأمم بالحق . لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصفُ . وفتيلة مدخنة لا يطفىء . حتى يُخْرِج إلى النُصرِة . وعلى اسمه يكونُ رجاءُ الأُمَم .

وتدفقت أمواج الجموع خلفه حيثما ذهب وحيثما حل ، وبلغ إيمانهم به أنه قادر على كل شيء ، ولم يترددوا في أن يحضروا إليه مجنون أعمى وأخرس ، فشفاه في الحال ، فإذ بالروح النجس يتركه ، والأعمى الأخرس يتكلم ويبصر . وبُهت كل الجموع وألسنتهم تردد متهدجة :

ـ ألعل هذا هو ابن داود ؟! ألعل هذا هو ابن داود ؟!

لكن الفريسيين المندسين حوله حيثما ذهب وحيثما حل رددوا بين الجموع كلماتهم المخضبة بالسم :

ـ هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين !

لم يكن يسوع في حاجة إلى التصنت على همساتهم المسمومة ، إذ كان يقرأ أفكار عقولهم ومشاعر قلوبهم . رنت كلماته القاطعة كالسيف الذهبي في

آذانهم ، وردد الأفق أصداءها فى الأرض الخلاء التى التفوا فيها حوله ، وكانت الشمس قد تركت كبد السماء لتميل إلى الغروب وتحيط الجميع بأشعتها الحانية وكلهم آذان لكلمات المخلص :

ـــ كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب . وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت . فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته . فكيف تثبت مملكته . وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون . لذلك هم يكونون قضاتكم . ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله . أم كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوى وينهب أمتعته إن لم يربط القوى أولاً . وحينئذ ينهب بيته ؟! من ليس معى فهو عَلَىَّ ومن لا يجمعُ معى فهو يفرق .

بهت الفريسيون لوقع كلماته على قلوب الجموع . أرادوا مقاطعته والتشويش على صفاء اللحظات وسموها لكن ألسنتهم لزمت أفواههم كما لو كان قد أصابها شلل . انعكست شمس الغروب على وجهه المضىء وعينيه المتألقتين بنور لم تعرفه الأرض ، وصدحت ألحان السماء مع رنين كلماته الذهبية على صفحة بحر الجليل :

ـــ لذلك أقول لكم : كل خطية وتجديف يُغفر للناس . وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس . ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له . وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى .

ثم نظر يسوع إلى شجرة شامخة قرب خط الأفق القرمزى وقد أطلت ثمارها الأرجوانية والوردية والصفراء بهجة للعيون من بين أوراقها الخضراء وفروعها الفتية الذاكنة التى تداعبها هبات النسيم وسط حفيف الخلاء الناطق بالصفاء الساكن المردد للكلمات المقدسة :

ـــ إجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً . أو اجعلوا الشجرة ردية وثمرها ردياً . لأن من الثمر تعرف الشجرة . ياأولاد الأفاعى : كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار . فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم . الإنسان الصالح من الكنز الصالح فى القلب يخرج الصالحات . والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور . ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين . لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك

تدان .

سرت الهمهمة الهامسة واللغط المكتوم بين صفوف الفريسيين : كيف يسمح لنفسه بأن يهيننا ؟! كيف ينادينا بأولاد الأفاعى ؟! لكن كبيرهم سرعان ما صاح لعله يمسك عليه قرينة لا يمكن أن يبررها :

ــ يا معلم نريد أن نرى منك آية .

لم يسترح يسوع للكلمات المغرضة فجاءت اجابته صفعة مدوية :

ــ جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبى . لأنه كما كان يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال .

نضحت الحيرة من عيون الناظرين فلم يدركوا الأسرار الإلهية التى ينطق بها . فقد علت حكمته على أفهامهم :

ــ رجال نينوى سيقومون فى الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان . وهوذا أعظم من يونان ههنا . ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع هذا الجيل وتدينه . لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان .. وهوذا أعظم من سليمان ههنا .

أوشكت الشمس على المغيب وسرت فى الجو لسعة هواء بارد . تحرك يسوع ومعه الجموع وإذ بأحد الذين شفاهم بعد طول مرض مستعص يسجد له ويرجو تشريفه فى بيته القريب . أقامه يسوع مبتسماً ابتسامته الحانية الوادعة وسار معه حتى دخل البيت الصغير المتواضع الذى سرعان ما اكتظ بالجموع وفاض بها خارجاً . وسرعان ما أضيئت الشموع فى كل الأرجاء فى حين جلس السيد فى الصدارة وعند قدميه أسرعت الجموع لاحتلال أقرب المواضع منه . أما الذين ظلوا فى الخارج فقد أطبقوا بآذانهم على الأبواب والنوافذ حتى لا تهرب منهم كلمة من كلماته العجيبة .

ــ إذا خرج الروحُ النجس من الإنسان يجتازُ فى أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد . ثم يقول أرجع إلى بيتى الذى خرجت منه . فيأتى ويجده فارغاً مكنوساً مزيناً . ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك . فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله . هكذا يكون أيضاً

لهذا الجيل الشرير .

أضاءت ربة الدار سراجاً زيتياً وجاءت لتضعه على منضدة خشبية صغيرة بجوار المخلص ، وقد نضحت عيناها بفرحة شفاء رجلها بعد أن فقدت الأمل سنوات طويلة . فى نفس اللحظة صاح أحد الواقفين بالباب مخاطباً المعلم :

ــ هوذا أُمُّكَ وإخوتُك واقفون خارجاً طالبين أن يكلِّموكَ .

فأجابه يسوع متسائلاً فى رقة وعذوبة وهو ينظر إلى بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب ومتى الملتفين حوله :

ــ من هِي أُمّى ؟! ومن هم إخْوَتى ؟!

ثم مدَّ يده نحو تلاميذه قائلاً :

ــ ها أُمّى وإخوتى . لَأنَّ مَنْ يصنعُ مشيئة أَبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأُمّى .

وعاد إلى حديث النعمة المتدفق من شفتيه بآيات وعجائب أبهرت الآذان والقلوب التى ظلت خاشعة له حتى مطلع الفجر فى حين مات الفريسيون بغيظهم من هذه القوة الروحية الجارفة التى يملكها هذا الشاب العجيب . ولذلك طاردهم كابوسه ليل نهار ، ولم يعد لهم حديث سوى عن وسائل التخلص منه ، الممكنة وغير الممكنة . فقد أصبحت قلوب الجموع تهفو إليه حيثما حل ، ومن لم يره يحلم برؤيته إلى أن يراه . وعندما انصرف مع تلاميذه إلى البحر تبعه جمع كثير من الجليل ومن اليهودية ومن أورشليم ومن أدومية ومن عبر الأردن ، والذين حول صور وصيدا وغيرهم ممن سمعوا كم صنع فأتوا إليه ، لدرجة أنه طلب من تلاميذه تجهيز سفينة صغيرة كى يبتعد بها عن البركى لا يزحموه أكثر من هذا . فكان كل مريض يهرع إلى لمسه فيشفى فى الحال ، والأرواح النجسة حينما نظرته خرت له وصرخت قائلة :

ــ إنك أنت ابن الله .

وبرغم أن يسوع أوصى كل من فاز بمعجزة منه ألا يتكلم عنها ، وأصر على تكرار وصيته مراراً ، فإن الآيات والعجائب كانت كالشمس الساطعة فى كبد السماء لا يمكن طمسها بعيداً عن العيون المتطلعة المبهورة . حتى

الفريسيين أنفسهم عجزوا عن إنكارها وكانت كل حججهم أنها تنقض الناموس وتهدم الشريعة .

(٢٤)

ظلَّ يسوعُ يطوف المدن كلها والقرى يعلم فى مجامعها ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفى كل مرض وكل ضعف . وكان قلبه الوديع يفيض بالعطف والحنان والحب على الجموع التى تلتف حوله من كل حدب وصب ، والتى كانت مشتتة بين أقوال الكتبة ، وفتاوى الفريسيين ، وسلطات الهيرودسيين ، كغنم لا راعى لها ، لكنها بمجرد أن وجدت الراعى الصالح المخلص،لمحت بين يديه حبل النجاة فتعلقت به هرباً من الهاوية التى فغرت فاها لتبتلعها . وكان يسوع يشعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه ، فلابد من تلاميذ ورسل ومساعدين لحمل الرسالة إلى كل أرجاء المسكونة ، خاصة بعد أن يكملها يسوع على الأرض ويعود إلى أبيه . ولذلك قال لتلاميذه :

ــ الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون . فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده .

ثم خرج إلى الجبل ليصلى ويقضى الليل كله فى مناجاة إلهية . ركع على قمة الجبل ووجهه المضىء صوب السماء التى اختفى فيها القمر والنجوم ، لكن ضوءاً فضياً إفترش صفحتها بغلالة متلألئة غطت أطرافها خط الأفق الذى تلاشت عنده الحدود بين السماء والأرض . ففى لحظات سرمدية تحول الكون إلى طوفان من نور يملأ العين بنشوة لم يجربها أهل الأرض ، نور يمتزج بوجه يسوع النورانى وشفتيه اللتين تهمسان برنين الصلاة الربانية التى تصدح بها مواكب الملائكة حول عرش الرب . فهى لمحة من تلك اللمحات التى لم ترها عين ، ولم تسمع بها أذن بشر ، لكنها ومضة من حياة أبدية جاء الإبن إلى الأرض ليعد لها ، ويفتح أبوابها الدهرية لكل التابعين له والمؤمنين به . أما ذوو العيون التى اعتادت الظلمة ، ولم تر أبعد من مواطىء أقدام أصحابها ، وأغلقت جفونها الكليلة المرتعشة فى وجه الفيض النورانى ، فلا مفر من أن تأتى اللحظة التى تحتويهم فيها الظلمة الأبدية ، حين يصبح الموت والعدم والفناء حلماً أثيراً ومستحيلاً .

ظلت الصلاة الربانية فى تلك الليلة النورانية حتى مطلع النهار حين افترشت الغلالة الذهبية الأرجوانية خط الأفق وامتدت لتطاول كبد السماء ، فنهض

يسوع بقامته المديدة فى ردائه الكتانى الناصع البياض ودعا تلاميذه الإثنى عشر : سمعان الذى يقال له بطرس وأندراوس أخوه ، يعقوب ويوحنا ابنا زبدى ، فيلبس وبرثولماوس ، متى وتوما ، يعقوب بن حلفى وسمعان الذى يدعى الغيور ، يهوذا أخا يعقوب ثم يهوذا الإسخريوطى . وكان يسوع قد لقب يعقوب بن زبدى وأخاه يوحنا بلقب بوانرجس أى ابنى الرعد لأنهما كانا متفجرين حرارة وغيرة على الرسالة السماوية . أما برثولماوس فهو الذى أحضره فيلبس أولاً إلى يسوع ولذلك قرن اسمه به . أما يعقوب بن حلفى فقد لقب بالصغير لصغر سنه ، وكانت أمه امرأة كلوبا أخت مريم أم يسوع ، كذلك فإن أخاه يهوذا كان يسمى لباوس ويلقب تداوس . أما سمعان فكان لقبه الغيور باليونانية أما لقبه بالعبرانية فكان القانونى ، وكان ينتمى إلى فرقة من فرق اليهود قبل اتباعه للمسيح . وكانت هذه الفرقة تدعى اتباعها لفنحاس فى الغيرة لأجل الشريعة ، ولكنهم صاروا فيما بعد متعصبين ، مفسدين ، سفاكى دماء . أما لقب الإسخريوطى فهو يونانى شتق من العبرانى نسبة إلى مدينة تدعى قريوت .

فاضت مشاعر التلاميذ وتباينت بمجرد وقوع اختيار يسوع عليهم . فقد وقعوا تحت وطأة المهمة الإلهية خاصة عندما أعطاهم سلطاناً كى يخرجوا الأرواح النجسة ، ويشفوا كل الأمراض ، لكنهم آمنوا بأنهم مع يسوع يستطيعون أن يأتوا بكل الخوارق . وكان يسوع قد علم بما يجيش بصدورهم ويزلزل قلوبهم فأوصاهم قائلاً وناظراً إلى عيونهم المتعلقة بكلماته :

ـــ إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت إسرائيل الضالة . وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : إنه قد أقترب ملكوت السموات . أشفوا مرضى . طهروا برصاً . أقيموا موتى . أخرجوا شياطين . مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا . لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم . ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا. لأن الفاعل مستحق طعامه .

جلس يسوع على صخرة نائية على قمة الجبل وعلى الرمال المحيطة بها تربع التلاميذ دون أن يلمحوا القرى والحقول والطرقات والقنوات المتناثرة عند سفح الجبل وحول ضفاف بحيرة طبرية . فقد كانت صدورهم تصطخب بأمواج

متلاطمة ، وعقولهم نهباً لأفكار متصارعة ، وعيونهم مشدودة لوجه المعلم ، وآذانهم لكلماته :

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحقّ . وأقيموا هناك حتى تخرجوا . وحين تدخلون البيت سلّموا عليه . فإن كان البيت مستحقاً فليأت سلامكم عليه . ولكن إن لم يكن مستحقاً فليرجع سلامكم إليكم . ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم . الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة .

صمت يسوع للحظات شعر فيها الإسخريوطى بنظرات المعلم مسلطة عليه فأصابته قشعريرة سرت فى مسام جلده وتشاغل بالنظر إلى مساحات الخواء المترامية عند أقدام الجبل ، والإنصات إلى صوت حفيف الرياح التى تمسح السفح هابطة لتداعب صفحة البحيرة الساكنة . ثم عادت كلمات السيد تدوى فى أعماقه الموحشة :

ــ ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب . فكونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام . ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وفى مجامعهم يجلدونكم ، وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم وللأمم . فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون ، لأنكم تعطون فى تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم . وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده . ويقوم الأولادُ على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى . ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص . ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى . فانى الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان .

شعر توما بصقيع الشك يسرى فى عروقه ، الشك فى قدرته على تحمل الأهوال التى يحدثهم عنها يسوع . فهو فى النهاية بشر يحمل داخله كل ثغرات الضعف الإنسانى ، وإذا كان له أن يصبر إلى المنتهى حتى يخلص فلن يكون هذا إلا بمدد دائم ومتصل من يسوع الذى نظر إلى توما بابتسامة حانية وادعة سرت داخله بدفء اليقين مع وقع كلماته المشحونة بالحكمة الإلهية :

ــ ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده . يكفى التلميذ

أن يكون كمعلمه والعبد كسيده . إن كانوا قد لقبوا ربَّ البيت بعلزبول فكم بالحرى أهل بيته . فلا تخافوهم ، لأن ليس مكتوم لن يستعلن ولا خفى لن يعرف .. الذى أقوله لكم فى الظلمة قولوه فى النور . والذى تسمعونه فى الأذن نادوا به على السطوح .

إرتفعت الشمس حتى اقتربت من كبد السماء وغمرت الكون بالدفء والنور . وبدت قمة الجبل الجالس عليها يسوع مع تلاميذه فلكاً راسخاً بين أمواج الضياء الغامر للمدن والقرى والحقول والطرقات والقنوات والضفاف عند أقدام الجبل وحول رمال البحيرة وعبرها حيث بلاد الجدريين الوعرة وشواهد قبورها . صدحت نبرات يسوع وقد امتزجت بتغريد العصافير الهابطة والصاعدة بين الأشجار المتناثرة على سفح الجبل :

ـــ لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها . بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم . أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم . وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة . فلا تخافوا . أنتم أفضل من عصافير كثيرة . فكل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبى الذى فى السموات . ولكن من ينكرنى قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدام أبى الذى فى السموات .

ابتسم بطرس فى ثقة غامرة بالنفس . فما استحق أن يحيا من ينكر أمام الناس حبيب قلبه يسوع ! فمنذ أن طلبه ليتبعه ليصطاد الناس لحظيرة الإيمان بدلاً من صيد السمك وقد أصبح النور الذى يملأ حياته والسلام الذى يعمر قلبه . فكيف ينكر النور أو السلام إلا أعمى أو مجنون ؟! ربت يسوع على كتف بطرس الجالس عند قدميه قائلاً :

لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ما جئتُ لألقى سلاماً بل سيفاً . فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أُمّها والكنة ضد حماتها . وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحبَّ أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى . من وجد حياته يضيعها . ومن أضاع حياته من أجلى يجدها .

اهتز الإسخريوطى فى جلسته على الرمال الرطبة . ونظر بطرس فى استعطاف متسائل إلى معلمه عن السر فى ذكر الصليب ؟! فالصلب عقوبة رومانية بشعة لا تطبق إلا على عتاة المجرمين والأشرار وكثيراً ما كان يطلب ممن يحكم عليه بالصلب أن يحمل صليبه إلى موضع قتله وإعدامه . فكيف يحمل كل تلميذ منهم صليبه ويتبعه حتى يستحقه ؟! وهم الذين كلفوا من يسوع بحمل الرسالة الإلهية منذ لحظات ؟! كيف سيؤدون الرسالة إذا جرى لهم ما يجرى لعتاة المجزمين والأشرار ؟! وغير ذلك من التساؤلات التى اجتاحت عقل بطرس وغيره من التلاميذ الذين ظلت قدرتهم على الفهم والاستيعاب عاجزة عن إدراك مغزى كلمات المخلص ، ومع ذلك كانوا مشدودين إليها بجاذبية لا تقاوم :

ــ من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى . من يقبل نبياً باسم نبى فأجر نبى يأخذ . ومن يقبل باراً باسم بار فأجر بار يأخذ . ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره .

ولما أكمل يسوع أوامره لتلاميذه الاثنى عشر نهض ليهبط على سفح الجبل وحوله هرول تلاميذه الذين شعروا أن العمر تقدم بهم سنوات وسنوات مع اللحظات التى قضوها معه وأصبحوا بعدها تلاميذه الذين كلفوا بهذه المهمة الإلهية التى ينوء بها مثل هذا الجبل الذى يهبطون عليه الآن . نقد مضت أيام الإنطلاق الحر فى صحبة المخلص كأطفال لا يعرفون فى هذه الدنيا سوى متعة الالتفاف حول أبيهم والإتكال عليه . تركت السعادة البريئة مكانها للمسئولية الجسيمة . إن ما جرى منذ لحظات على قمة الجبل هو بداية طريق الأشواك والآلام والأهوال التى لا بد أن يخوضها كل منهم حتى المنتهى . أشواك تصبح أمامها تلك الأشواك النابتة بين الصخور على سفح الجبل فراشاً من ريش النعام المطرز بالحرير والدمسق ، خاصة وأنهم شاهدوا بأنفسهم كيف تآمر عليه الفريسيون والهيرودسيون أكثر من مرة للتخلص منه لمجرد أنه أتى بمعجزات الخير والشفاء فى السبت . فماذا سيفعل بهم هؤلاء الجبابرة ذوو القلوب الحجرية عندما يكتشفون أن القضية لم تعد مجرد نقض للسبت ، وإنما تعديل لكل الموازين المقلوبة ، وتحطيم لكل القوالب المتحجرة ، وانطلاق لعهد جديد بكل

ما تحمله هذه الجدة من معان ودلالات ؟! لابد أن هذا هو ما قصده يسوع حين قال :

ـــ من أضاع حياته من أجلى يجدها .

وبمجرد هبوط يسوع إلى سفح الجبل وحوله تلاميذه كانت الجموع فى الانتظار . الجموع التى قدمت من جميع اليهودية وأورشليم وساحل صور وصيدا ليسمعوه ويشفوا من أمراضهم . كانت الأيدى والسواعد تمتد جاهدة لتلمسه لأن قوة كانت تخرج منه وتشفى الجميع . كان يسوع يرى فى آيات الشفاء والإبراء من الأمراض الجسدية والنفسية مجرد وسيلة لغاية أسمى هى الكرازة بملكوت الله القادم ، لكن معظم من نالوا الشفاء على يديه اعتبروا شفاءهم الغاية التى ما بعدها غاية ، ومع ذلك واصل يسوع آياته ومعجزاته . فالإنسان لن يؤمن إلا إذا شاهد وعاين ولمس بنفسه . أما التلاميذ الملتفون حول يسوع فى محاولة لإبعاد الجموع عنه قدر الإمكان حتى لا تطبق عليه من كل ناحية فقد انشغلوا بصراعهم العضلى عن صراع المشاعر المتلاطمة داخل نفوسهم منذ أن تلقوا منه التكليف الإلهى بالمهمة الخالدة على قمة الجبل الذى شهد أسمى لحظات البشرية وأخطرها .

(٢٥)

كانت حياة يسوع زاخرة بالعمل المتصل ، الشاق ، المضنى ، إذ كان يشعر بأن الوقت ضيق ولا يسمح بالراحة والإسترخاء . ذلك أن إصلاح الخطأ الدهرى الذى وقعت فيه البشرية منذ أن ارتكب آدم الخطيئة الأولى بغواية الحية ، أمر مصيرى يحتاج إلى جهد إلهى متصل وشاق لخلع جذوره التى تشعبت فى الأرض بالفساد والعفن والموت بعد أن فقدت الأرض ملحها . ولذلك طاف يسوع بكل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب . فذاع خبره فى جميع سورية والتى كانت عبارة عن الولاية الرومانية التى كانت فلسطين قسمها الجنوبى الغربى . فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم . فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن الواقعة شرقى الأردن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن .

وجد يسوع مع الأيام أن دور الكرازة يجب أن يتسع لتصبح العجائب والمعجزات مجرد جزء منه . فقد التفت حوله الجموع من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، وآن الأوان لتدق كلمة الله كل الأسماع والقلوب والعقول . فالشفاء من الخطيئة أهم وأجدى وأروع وأسمى وأعظم من الشفاء من المرض . فالجسد مهما تدفق بالصحة والعافية فمصيره الفناء والموت . أما الروح إذا مرض فمصيره الهلاك الأبدى وإذا صح فالحياة الأبدية . وهى الحياة التى جاء من أجلها يسوع إلى الأرض . ولذلك لما رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل وحوله تلاميذه وفى أعقابهم الجموع التى هرولت بين ممرات الجبل ، وأشواكه النابتة ، وصخوره الناتئة ، فبدت زحفاً مقدساً إلى الأعالى بين هبات الرياح التى تمايلت بالزهور البرية يمنة ويسرة ، وتطايرت معها أطراف العباءات بألوانها الداكنة : السوداء والرمادية والزرقاء والبنية ، والفاتحة : البيضاء والصفراء والخضراء والحمراء . فقد كان الكل فى سباق ليلحق بأقرب موضع من المعلم . كانت الأقدام تدق الجبل فى صعودها اللاهث المبهور حتى بلغت قمة الجبل حيث جلس يسوع على صخرة عالية وحوله تلاميذه . دلت ابتسامته الحانية الوادعة على سعادته الغامرة بهؤلاء البسطاء الذين تزاحموا للنهل من ينبوع نعمته . انتظر لحظات حتى يلتقطوا أنفاسهم المبهورة ثم فتح فاه وعلمهم

بكلمات حملتها الرياح إلى كل الآذان البعيدة حتى خط الأفق حيث انطباق السماء على الأرض :

طوبى للمساكين بالروح . لأن لهم ملكوت السموات .

طوبى للحزانى . لأنهم يتعزون .

طوبى للودعاء . لأنهم يرثون الأرض .

طوبى للجياع والعطاش إلى البر . لأنهم يشبعون .

طوبى للرحماء . لأنهم يرحمون .

طوبى للأنقياء القلب . لأنهم يعاينون الله .

طوبى لصانعى السلام . لأنهم أبناء الله يدعون .

طوبى للمطرودين من أجل البر . لأن لهم ملكوت السموات .

طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . إفرحوا وتهللوا . لأن أجركم عظيم فى السموات . فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم .

نطقت العيون الجاحظة المتألقة بخواطر جاشت بالنفوس . فإذا كانت الشريعة القديمة قد هبطت على جبل سيناء أو جبل الشريعة ، فإن شريعة العهد الجديد تهبط على هذا الجبل أيضاً . لكن هناك فرقاً كبيراً بين الجبلين . فقد أنزل الرب النار على جبل سيناء فتصاعدت منه سحب الدخان الكثيفة المخيفة كدخان الآتون فارتجف الجبل وسط موجات الضباب والظلام والزوبعة ، وكان المنظر هكذا مخيفاً حتى قال موسى :

ــ أنا مرتعد ومرتعب !

لم يكن أحد يستطيع ليس فقط الصعود إلى الجبل ، بل ولا حتى مجرد لمسه ، أما هنا على تل قارون حطين أعلى الجبل فقد جلس يسوع محاطاً بالحب والسلام والأمان والطمأنينة . اندثر الخوف ، وانحسرت الزوابع ، وخمدت الأعاصير ، وداعبت النسمات العليلة الحانية الوجوه المشرقة بالبشر ، والعيون المعلقة بالرجاء المتدفق من بين شفتيه :

ـــ أنتم ملح الأرض . ولكن إن فسد الملح فبماذا يملح . لا يصلح بعد لشىء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس . أنتم نور العالم . لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل . ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت . فليضىء نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات .

إبتسم شيخ جليل من المنصتين فى نشوة ومضت فى عينيه الخابيتين . فهناك على الجبل قديماً كان الرب بعيداً عن الناس ، أما الآن فالرب نفسه قد أخذ صورة الإنسان كى يجلس بينهم ليخاطبهم جميعاً ، لا فرق بينهم وبين تلاميذه المختارين . أما على جبل سيناء فى القديم فقد خاطب الرب موسى وحده حيث أعطاه الشريعة أو القانون الذى ينبغى أن يطاع ، أما هنا على جبل يسوع فقد تدفقت ينابيع النعمة والحكمة الإلهية . ففى القديم منحهم الله قانوناً أما الآن فيعطيهم الحياة نفسها :

ـــ لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فانى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات . وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السموات . فإنى أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات .

تململ بعض الكتبة والفريسيين المندسين وسط الجموع . تعجب أحدهم كيف يهين علماء الشريعة الذين حافظوا على تقاليدها ، وحفظوا الهياكل والمجامع تحت إشراف الكهنة ؟! أهذه هى مكافأتهم على تعليم الناس الدين ، والتخصص فى النسخ والكتابة للشعب ، والتدقيق فى عملهم ، وكتابة اسم الله بأقلام مخصوصة ، وألوان مخصوصة ، والتحمس لتطبيق ما ينسخوه حتى أصبح عدد كبير منهم أعضاء فى السنهدريم وهو مجمع معلمى الشعب ورؤساء الطوائف وعدد أعضائه سبعون شخصاً ينتخبون من الكهنة والكتبة واللاويين والشيوخ برئاسة رئيس الكهنة . وهو بمثابة مجلس الشيوخ ، ويسيطر على حياة اليهود الدينية والدنيوية معاً ، إذ فى يده السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية جميعاً ، وفى الوقت نفسه هو الهيئة الكهنوتية العليا التى تصدر الأحكام فى

كل المخالفات التى تقع ضد الشريعة وتقوم بتنفيذها أيضاً ، عدا حكم الموت الذى يجب رفعه للوالى الرومانى كى يعتمده . تبادل الفريسيون والكتبة النظرات الحانقة وعيونهم تتساءل :

ــ كيف يتسنى لهذا النبى الشاب أن يهين بهذه البساطة أعضاء هذه الهيئة الدينية والمدنية الموقرة والتى بيدها أن تقول له : قف عند حدك ؟!

لكن النظرات المتسائلة لم تتحول إلى كلمات مسموعة . فلم تكن هناك فى الآذان والقلوب والعقول سوى كلمات المعلم :

ــ قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل يكون مستوجب الحكم . وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم . ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع . ومن قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك . وحينئذ تعال وقدم قربانك . كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه فى الطريق . لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن . الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير .

همس فريسى فى أذن جاره وعيناه تدوران فى محجريهما :

ــ يبدو أنه جاء لينقض كل ما ورد فى شريعة موسى ؟!

أجابه الآخر وعيناه لا تفارقان وجه يسوع :

ــ إنه يضيف الجديد الذى أتى به ، إلى القديم الذى نعرفه !

عادت همسات الفريسى كفحيح الأفعى :

ــ عندما يقول ويكرر : أما أنا فأقول لكم .. فإنه يعنى أنه ينقض كل ما سبق !

ــ ألا تلاحظ النور النابع من وجهه ؟!

أشاح الفريسى بوجهه بعيداً فى ضيق :

ـــ إنه انعكاس ضوء الشمس !

ـــ لا .. إنه نور من نوع لم نره من قبل !

ـــ يبدو أنك أصبحت من أتباعه ؟!

ـــ ربما .

نظر يسوع الى الرؤوس المتراصة أمامه على ممرات الجبل ومنحدراته ورفع ذراعه كأنه يباركها ثم قال :

ـــ قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن . وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه . فإن كانت عينيك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم . وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى . ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى .

إهتزت امرأة قابعة إلى جوار نتوء صخرى صغير وكأن رعشة قد انتابتها . نظرت حولها فى حيرة واضطراب ثم أحكمت عباءتها القرمزية حول جسدها الجميل حتى كادت أن تخفى وجهها تماماً .

ـــ أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة . لا بالسماء لأنها كرسيُّ الله . ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه . ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء . بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير .

أضاءت وجه بطرس الوديع ابتسامة مشرقة فى جلسته عند قدمى سيده وهو يرى السحب النقية الشفافة تتهادى فوق قمة الجبل التى بدت وكأنها قطعة من الفردوس .

ـــ سمعتم أنه قيل عينٌ بعين وسنٌ بسنٍ . وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . ومن أراد

أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

نظر توما إلى وجه سيده ثم جال بعينيه بين الحاضرين المنصتين فهاله عددهم الغفير الذى يتزايد حتى أصبح الجبل ، من قمته الى آخر سفحه ، يبدو وكأنه ارتدى عباءة عملاقة من ثيابهم التى داعبتها النسمات النقية . تراقصت فى مخيلته تساؤلات ممضة ، مثيرة للحيرة والشك : هل سيمنحه الله القدرة على التبشير بهذه الرسالة العجيبة وإقناع الناس بها كما يفعل يسوع الآن ؟! إن كل ما جاء فيها جديد تماماً على الآذان والقلوب والعقول ولذلك فهى فى حاجة إلى إيمان جديد يسعى إلى منابع الحياة الأبدية ولا يكتفى بالتفسير الحرفى للشريعة ! إن يسوع يضرب لتلاميذه المثل الآن فى التبشير والكرازة ، وهم يستمدون منه القوة والصبر والصمود ، لكن إلى متى سيظل معهم ؟! عاد توما ينظر إلى وجه سيده وكأنه يستمد العون منه :

ــ سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم . لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات . فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأىُّ أجر لكم ؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ؟! وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون ؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا ؟! فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل .

ابتسم متى ابتسامة عريضة عندما ذكر يسوع العشارين . من يصدق الآن أن متى العشار الذى عاش حياته يأخذ من الناس الجباية كى يكتسب رضاء سادته الرومان ويضاعف ثروته من عرق الآخرين ، أصبح الآن تلميذ يسوع الذى عليه أن يعطى الآخرين بلا حدود ؟! لن يعطيهم مالا لكنه سيمنحهم مفتاح الحياة الأبدية الذى منحه إياه يسوع يوم رآه جالساً إلى مائدته أمام دار الجباية وأمره : اتبعنى . وهو لا ينسى المأدبة التى أقامها فى داره لوداع موظفى الجباية والعشارين الآخرين فى دائرته احتفاء بهذا الحادث الجلل فى حياته . فقد شعر فى رفقة المسيح بجرأة جعلته يدعو يسوع والعشارين إلى

بيته فى آن واحد . أما يسوع فقد رحب بتناول الطعام مع العشارين والخطاة فمن أجل هؤلاء جاء . وفى حضرته أحس الحاضرون بحب جارف أزال كل الحواجز المصطنعة ، فقد كانت نظرته إليهم زاخرة بكل عطف وحنو واحترام .

بل جلس إلى جانب مضيفه لاوى بن حلفى الذى أصبح منذ ذلك اليوم متى التلميذ ، يغمس معه فى نفس الطبق ، ويشترك فى أحاديث المائدة بلا كلفة ، حتى شعر كل واحد منهم بأنه انسان أفضل مما كان عند بدء المأدبة . برغم أن العشارين هم الفئة المنبوذة من كل طبقة ، خاصة من الكتبة والفريسيين الذين تهجموا على تلاميذ يسوع فى اليوم التالى عندما قابلوهم على ضفاف البحيرة فى كفرناحوم سائلين إياهم فى سخرية :

— لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟! لماذا يجالس أمثال هؤلاء ؟!

لكن يسوع لم يعبأ بهذه العقول المتحجرة التى أحالت الشريعة إلى مجرد حروف لا معنى لها وقوالب صماء لا حياة فيها . تذكر متى كل هذه الذكريات السعيدة وهو يستمع إلى كلمات المخلص :

— احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم . وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات . فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون فى المجامع وفى الأزقة لكى يمجّدوا من الناس . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكى تكون صدقتك فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية .

تبادل الأخوان يعقوب بن زبدى ويوحنا نظرات خاطفة كأنها تقول إن ما يسمعانه ليس مجرد عظة روحية وإنما شريعة جديدة يضع بها يسوع الأسس الدائمة لملكوت الله على الأرض . فلم يأت يسوع — كما يظن معظم الناس — لإنشاء مملكة على وجه الأرض ، وإنما لإقامة مملكة السماء والحياة الأبدية . وهى مملكة يمكن الإتصال بملكها بمنتهى البساطة والسهولة ، فهو يستمع إلى كل رعاياه — دون استثناء — فى أية لحظة من لحظات الليل والنهار .

— ومتى صليت فلا تكن كالمرائين . فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس . الحق أقول لكم إنهم قد

استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية . وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم . فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم . لأنَّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه . فصلوا أنتم هكذا :

أبانا الذى فى السموات . ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم . وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا . ولا تدخلنا فى تجربة . لكن نجنا من الشرير . لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد . آمين .

ترددت أصداء الصلاة عند خط الأفق حيث تتصل السماء والأرض ، وحيث ومض نور عجيب تدثرت به ملائكة تحمل أبواقاً ذهبية تصدح بالكلمات الإلهية ، وكأن السماء فتحت لتهبط منها هذه الكوكبة التى امتزج وميضها الفضى بأشعة الشمس الذهبية فتحول الكون كله إلى لحن يسبح بمجد الله ، وكلمات المخلص تتوالى :

ـــ إن غفرتم للناس زلاَّتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى . وإنْ لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم . ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين . فإنهم يغيرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك . لكى لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذى فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية .

ـــ لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد لكم السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون . لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً . سراج الجسد هو العين . فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً . وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً . فإن كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام كم يكون . لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال .

بدا يهوذا الإسخريوطى مهموماً كما لو كانت كلمات المعلم قد طرقت آذانه دون أن تدخل قلبه وتتربع داخله . فقد تم اختباره أميناً لصندوق التلاميذ ، وهم لا يملكون فى هذا العالم شيئاً ذا قيمة ، ولا يعملون بالتجارة التى تعود عليهم بالربح الوفير . حتى متى العشار الذى كان يجمع من الجباية ثروة تجعله يقيم المآدب الكبيرة الفاخرة ، ترك حرفته ليتبع يسوع وليس معه ما يقيم أوده ليوم واحد . وضع يهوذا وجهه بين ذراعيه وهو جالس القرفصاء مستنداً إلى كومة متداعية من الرمال الهشة محاولاً استيعاب كلمات المعلم :

ــ لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون . ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس . أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوى يقوتها . ألستم أنتم بالحرى أفضل منها ؟ ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدةً . ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأمَّلوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل . ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا . أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنتم ياقليلى الإيمان . فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ؟! فإنَّ هذه كُلّها تطلبها الأمم . لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها . لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد . لأنَّ الغد يهتم بما لنفسه . يكفى اليومَ شرُّه .

غردت العصافير الصغيرة حاملة فى مناقيرها بعض السنابل الذهبية ، وهدل الحمام الأبيض مسبحاً بمجد الله فوق رؤوس الجالسين المنصتين ، وتمايلت زنابق الحقل مع هبات النسيم العليل عند سفح الجبل ، ونضح العشب بقطرات الندى التى تألقت كجواهر ملكية ، وتوالت كلمات المخلص فاتحه باب الحياة الأبدية على مصراعيه ليدخل منه كل من يسمع أقواله هذه ويعمل بها :

ــ لا تدينوا لكى لا تُدانوا . لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون . وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك . وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك دعنى أُخرج القذى من عينيك وها الخشبة فى عينيك ؟ يا مرائى أخرج أولاً الخشبة من

عينك . وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك .

بدا الوادى عند سفح الجبل عميقاً جداً كالهاوية التى تفغر فاها لابتلاع كل الساقطين ، حيث تنبسط بحيرة الجليل شمالاً حيث الجروف العالية التى تنحدر حتى تنبسط أمامها سهل جنيسارت الخصب . ومع ذلك لم يشعر أحد الجالسين المنصتين ليسوع بالخوف من أن تزل قدمه فيسقط حتى قاع الهاوية حيث الكلاب تنبح والخنازير ترعى .

ـــ لا تعطوا القدس للكلاب . ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير ، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم . اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم . لأن كل من يسأل يأخذ . ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له .. أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً . وإن سأله سمكة يعطيه حية . فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه . فكلُّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم . لأن هذا هو الناموس والأنبياء .

ـــ أدخلوا من الباب الضيق . لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك . وكثيرون هم الذين يدخلون منه . ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه .

ـــ احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً ؟! هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة . وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية . لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة . كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار . فإذاً من ثمارهم تعرفونهم .

بدت شجيرة صغيرة نابتة عند أحد منحدرات السفح وهى تقاوم بعض الأشواك النابتة حول أسفل الجذع وكأنها تريد جاهدة أن تخنقها ، ومع ذلك واصلت الشجيرة شموخها النامى لاستقبال نسمات الهواء النقى المشبع بقطرات الندى ، وقد استند جذعها إلى صخرة راسخة باعدت بعض الشىء بينه وبين الأشواك المغيرة . فقد كانت إرادة الله تتجلى فى كل شىء كما تجلت فى كلمات المخلص :

ــ ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات . بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات . كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحينئذ أُصَرِّحُ لهم إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يافاعلى الإثم .

اهتز بعض الكتبة والفريسيين المندسين وسط الجالسين المنصتين وتبادلوا فيما بينهم النظرات الحانقة ثم الهمسات الذاهلة :

ــ لأول مرة منذ عهد آدم نسمع من يقول عن نفسه : يارب ! يارب !!

ــ وفى الوقت نفسه لا يحرك أحد ساكناً !!

ــ كأن ما يقوله حقيقة راسخة لا تقبل الجدل !!

ــ ما الذى دها الناس ؟!

ــ إذا لم نقاومه نحن فلن يفتح فمه بكلمة !

ــ وسيجرفنا التيار لنندم حين لا ينفع الندم !

ــ اذاً فلتتكلم أنت متهماً إياه بالتجديف !

ــ ولماذا لا تفعل أنت ؟!

ــ الجميع أصبحوا آذانا صاغية وقلوباً مفتوحة لكلماته .. أخشى أن أقابل بالاستهجان والسخرية !!

ــ ولماذا تريدنى أن أتورط فى مثل هذا المأزق ؟!

ــ لم نعد ندرى ماذا نفعل ؟!

ــ تعالت أصوات الاستهجان حول همسات الكتبة والفريسيين الحائرة المتسائلة فكتمتها لتعلو كلمات المخلص :

ــ فكل من يسمعُ أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط ، لأنه كان مؤسساً على الصخر . وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل . فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط . وكان سقوطه عظيماً .

فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه . لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة والفريسيين . فى تلك اللحظات الخالدة تذكر بطرس وأندراوس قول المخلص لهما يوم طلب منهما اتباعه :

ــ هلم ورائى فأجعلكما صيادى الناس .

فقد ضرب المخلص المثل لهما الآن بكيفية اصطياد الناس الذين غطوا الجبل حوله لينهلوا من أنهار النعمة المتدفقة من بين شفتيه . منذ ذلك اليوم الذى هجرا فيه مهنة صيد السمك ، لم يعرفا كيف يصطادا الناس . فقد كان صيد السمك هو كل ما يعرفانه فى الحياة ، أما الآن فقد أدركا أن اصطياد الناس لا يحتاج إلى صبر وجهد عضلى بقدر ما يحتاج إلى إيمان ينبع من أعمق أعماق القلب ، وهى مهمة ليست يسيرة . فإذا كان صيد السمك ينتقل بالسمك من مرحلة الحياة إلى الموت حتى يصب بعد ذلك فى الأفواه الجائعة الفاغرة ، فإن اصطياد الناس ينتقل بهم من الموت إلى الحياة الأبدية . وإذا كان السمك يتخبط فى الشبكة على غير هدى لافظاً أنفاسه الأخيرة فى أعقاب صيده ، فإن طريق الحياة الأبدية تتضح ، وتتبلور وتشرق معالمها ، للناس بمجرد اصطيادهم فى محبة يسوع .

تلاطمت هذه الخواطر الهادرة داخل بطرس وأندراوس وهما يلحقان بالسيد فى هبوطه على سفح الجبل وقد تبعته جموع كثيرة حتى كادت أقدامها أن تخفى معالم الجبل الذى بدا وكأنه جبل من الأجساد البشرية .

(٢٦)

كانت كلمات المخلص تدق أسماع الجموع وقلوبها عندما هبط يسوع على الجبل ليدخل كفرناحوم عائداً إلى غرفته الصغيرة فى بيت بطرس . دخل يسوع المدينة محاطاً بقلوب عامرة بالخشوع العميق ، فازدحمت طرقاتها الضيقة ، الملتوية ، الصاعدة ، الهابطة ، بالجموع التى انضمت إلى الجموع الهابطة معه . وعندما اقترب من بيت بطرس إذ بوفد من شيوخ كفرناحوم جاءوا مهرولين فى عباءاتهم السوداء ليستوقفونه ويتقدمون إليه ليقول له كبيرهم وهو يحك لحيته الشهباء بأصابعه المعروقة فى بعض الحرج :

ــ يامعلم .. هناك شاب عبد لقائد مئة مريض مرض الموت وهو عزيز عنده .. ويرجوك أن تتحنن عليه بالشفاء !

ربت يسوع على ظهر الشيخ المقوس فى حنان بالغ :

ــ وما سر هذا الحماس لأممى ؟! هل لأنه القائد الرومانى للثكنات العسكرية الرومانية القائمة على التل ؟!

كان يسوع يعلم إجابتهم مقدماً وهو يشير بذراعه إلى التل القابع على ضفة البحيرة ، لكنه أراد اعترافاً معلناً عما يدور فى قلوبهم . تهدج صوت كبيرهم :

ــ إنه مستحق أن يُفعل له هذا لأنه يحب أمتنا وقد بنى لنا المجمع .

ابتسم يسوع ابتسامته الحانية الوادعة وسار معهم للقاء القائد الرومانى الذى كان قد عرف الكثير عن يسوع . فقد كان زميلاً لذلك النبيل الذى شفى يسوع ابنه المريض فى كفرناحوم بكلمة منه . وبعد ذلك توالت عليه التقارير من رجاله وعيونه عن هذا الشاب الذى يخترق طرقات المدينة بشق الأنفس بسبب الجموع المحتشدة حوله حيثما حل وحيثما ذهب . لكن القائد الرومانى لم يملك سوى احترامه وتوقيره على البعد بحكم منصبه الذى يحيطه بمحاذير كثيرة ، وإن ظل يتمنى أن يشهد معجزة من معجزاته .

لمح القائد الرومانى يسوع قادماً وخلفه الجموع عند منعطف الطريق المؤدى إلى الثكنات الرومانية العسكرية ، فذهل لأنه لم يكن يتصور أن يأتى اليه يسوع بهذه البساطة والعذوبة ، فأسرع بإرسال أصدقائه ورجاله ليقولوا له على

لسانه :

يا سيد لا تتعب . لأنى لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفى . لذلك لم أحسب نفسى أهلاً أن آتى اليك . لكن قل كلمة فيبرأ غلامى لأنى أنا أيضاً إنسان تحت سلطان . لى جند تحت يدى . وأقول لهذا إذهب فيذهب ولآخر ايت فيأتى ولعبدى إفعل هذا فيفعل .

سر يسوع وتعجب مما قاله الرجل الذى رأى العالم غير المرئى معسكراً من القوات والفصائل الحية الجبارة الخاضعة لقدرة يسوع القاهرة ، وتخيل رؤيا ملكوته الآتى لكل البشر والممتد إلى ما وراء تخوم شعب الله المختار . وهى الرؤيا التى ظلت غائمة فى نفوس بنى اسرائيل أنفسهم . لذلك التفت يسوع إلى الجمع الذى يتبعه مؤكداً له :

ــ أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا . إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات . وأمّا بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان .

كان قائد المئة يتابع الحوار الدائر بين يسوع وأصدقائه ، وعندما لم تصل إلى أذنيه كلمة منه ، لم يطق صبراً وهرول إلى يسوع ليقف أمامه منحنياً فى خوذته النحاسية اللامعة وليسمع كلمات يسوع التى نزلت على قلبه نزول المطر على أرض أحرقها الجفاف :

ــ إذهب وكما آمنت ليكن لك .

فبرأ غلامه فى تلك الساعة وسط تهليل الجموع التى تحولت عيونها إلى ومضات من النشوة ، ونبضات من الحب الجارف لهذا النبى الشاب الذى أتى ليعيد صياغة قوانين الكون . ولم تعد الجموع تطيق بعداً عنه بحيث لم يقتصر تتبعها له داخل كفرناحوم فحسب بل امتد ليشمل كل مدينة ينتقل إليها المخلص . ففى اليوم التالى ذهب يسوع إلى مدينة صغيرة تدعى نايين للبشارة والكرازة.مع تلاميذه والجموع المهرولة فى أعقابه . وهى مدينة تقع على جانب حرمون الصغير الشمالى على بعد نحو ثلاثة أميال إلى الجنوب من جبل طابور وعشرين ميلاً من كفرناحوم . ومعنى كلمة « نايين » : سار

وجميلِ ، لأنها كانت مدينة جميلة بالفعل حيث الماشية ترعى الأعشاب على جوانب التلال ، وتغطى الخضرة النضرة معظم المساحات ، وتشمخ الأشجار حتى تكاد تداعب السحب والضباب المحيط بها .

كان الفلاحون عائدين من حقولهم ، ارتجل الشباب منهم حاملين الفئوس عل أكتافهم والسلال على ظهورهم فى حين امتطى الشيوخ ظهور الدواب ، وهم يغنون بعض الألحان الشعبية الريفية . وكانت أشعة الشمس المائلة إلى المغيب تداعب الأشجار وسطوح المنازل البيضاء فى تلك البلدة الصغيرة الهادئة الجميلة فى حين انشغل الأطفال باللعب والجرى عند بابها وحول سورها الحجرى القديم .

كل شيء كان يوصى بالبهجة والهدوء والسعادة ويسوع يقترب من باب المدينة محاطاً بتلاميذه وخلفه الجموع ، لكن عويلاً شق الجو الناعس وولولة مزقت السكون فجأة ، وإذ تبدو عند باب المدينة مقدمة جنازة حاشدة أعقبها نعش بداخله جثة صبى ميت ملفوف باللفائف الكتانية البيضاء والرأس والأكتاف عارية . وخلف النعش أرملة تتعثر تحت وطأة مصابها ، إذ أن الميت كان ابنها الوحيد . وكعادة الناس عندما يفسحون الطريق لموكب الجنازة ، انتحى يسوع وتلاميذه وأتباعه جانباً من الطريق لتمر الأم بنعش ولدها وخلفها جمهور المشيعين دون أن تقع عينها على ذلك الواقف الذى يرقبها وقلبه يسيل عطفاً وإشفاقاً عليها .

تقدم منها يسوع وربت على كتفها فى حنان دافق :

ـــ لا تبكى .

نظرت إليه المرأة بعينين حمراوتين ذاهلتين دون أن تدرك قصده . لكن حملة النعش كانوا قد توقفوا كأن أمراً خفياً قد صدر إليهم فى حين تقدم يسوع من النعش ولمسه قائلاً :

ـــ أيها الشاب لك أقول قم .

سمعه المشيعون غير مصدقين ثم ذاهلين عندما شاهدوا الميت يجلس فى نعشه وابتدأ يتكلم فى ذهول متسائلاً :

ـــ أين أنا ؟! ماذا جرى لى ؟! أين كنت ؟! وما هذا الذى أجلس فيه ؟!

ولماذا تحملونني هكذا ؟! وإلى أين ؟!

أمسك يسوع بذراعي الصبي وأخرجه من النعش ليدفعه إلى أمه التي احتضنته بذراعين من حديد وكأنها لا تصدق نفسها ، إذ بدا الأمر كله وكأنه حلم ، إذ كيف يقوم ابنها من الموت وهي التي شهدت تكفينه بنفسها ؟! هل تضحك أم تبكي أم تصرخ أم تقهقه ؟! لكنها جثت عند قدمي يسوع لتبللهما بدموعها وهي تشكره بكلمات غير واضحة في حين صرخ أحد المشيعين :

ـــ لم يقم أحد ميتا من قبل سوى إيليا وأليشع !! فليتمجد اسم الرب !

سيطر الذهول على الجميع ومجدوا الله قائلين :

ـــ قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه .

وسرعان ما انتشر الخبر كالبرق في كل اليهودية وفي جميع الكورة المحيطة ، ولم يعد لكل الألسنة حديث في الليل أو النهار سوى المعجزة التي توحي بتغيير مسار البشرية كلها . كانت لحظات خارج اطار الزمان والمكان الذي عاش البشر داخله منذ عهد آدم . وطارت الأنباء حتى بلغت مسامع يوحنا المعمدان في السجن . لم يعد ذلك الصوت الصارخ في البرية . فقد أطبقت على أنفاسه وكلماته تلك الزنزانة الخانقة المظلمة في القلعة السوداء التي كانت أحد حصون فلسطين الجنوبية الرابضة على كومة من الصخور الرمادية ، الداكنة ، العابسة التي تنحدر حتى مياه البحر الميت الراكدة التي أصابت قلب يوحنا بالكآبة والحزن اذ لم يكن هناك فنظر آخر تقع عليه عيناه من كوة زنزانته الحديدية سوى قصر هيرودس الملك الشامخ بأعمدته الرخامية الناصعة وقبابه التي تصافح السحب ، والذي يذكره دائماً بالجريمة التي ارتكبها هيرودس بزواجه من هيروديا زوجة أخيه فيلبس ، والتي كانت السبب الرئيسي في الالقاء به في السجن .

ظل يوحنا نهباً لنوبات عارمة من الضيق واليأس والتساؤلات الشائكة . ذلك أن يسوع لم يفعل شيئاً مادياً ملموساً لاستعادة مجد مملكة إسرائيل الضائع ، وكان من تبقى من تلاميذ يوحنا يعود لزيارته في زنزانته ويحكي له عن جولات يسوع بين الفقراء والبسطاء والجهلاء الذين لا حول لهم ولا قوة

والذين لا يمكن أن ينهض عل أكتافهم مجد إسرائيل المتوقع . وأخيراً بعد طول تردد قرر يوحنا أن يقطع الشك باليقين خاصة أن يسوع نفسه لم يكن قد أعلن على الملأ وبأسلوب مباشر أنه المسيا الذي جاء فداء لإسرائيل . فقد أراد يوحنا أن يحصل على تصريح مباشر من صاحب الأمر حتى يموت مرتاح البال بعد أن أحس أن نهايته وشيكة فى ذلك السجن الكئيب .

كان يسوع يقوم بجولات التبشير والكرازة المعتادة فى الجليل ، بين تلاميذه وأمام الجموع التى سارت فى أعقابه حين ظهر شابان بدت على وجهيهما آثار الإحباط والإعياء من السفر وهما يحاولان جاهدين الإقتراب من يسوع الذى التفت إليهما فجأة فإذ بهما يقولان فى صوت واحد دون تفكير أو تردد :

ـــ يوحنا المعمدان قد أرسلنا إليك قائلاً : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟!

ابتسم يسوع دون أن يجيبهما فقد كان منهمكا فى تلك الساعة فى شفاء كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة ، ثم التفت إليهما وقد نضح الذهول على نظراتهما ، وكلمات يسوع تدق أسماعهما :

ـــ إذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما . إن العمى يُبْصرون والعُرْج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون . وطوبى لمن لا يعثر فىَّ .

تهللت عيون رسولى يوحنا وسجدا أمام يسوع ثم انسحبا مسرعين لتبليغ الرسالة التى ينتظرها معلمهما على أحر من جمر . أما يسوع فالتفت إلى الجموع ليحدثهم عن يوحنا :

ـــ ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح . لكن ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أأنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟ هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى بيوت الملوك . لكن ماذا خرجتم لتنظروا . أنبيًّا ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبى . هذا هو الذى كُتِب عنه : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء طريقك قدامك . الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . ولكنَّ الأصغر فى ملكوتِ السموات أعظمُ منه . ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوتُ السموات يُغصَب والغاصبون يختطفونه . لأن جميعَ الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا . وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو

إيليا المزمع أن يأتى . من له أذنان للسمع فليسمع .

لاحظ التلاميذ بعض ملامح الأسى وقد امتزجت بوميض عينى يسوع وهو يقول بنبرة حزينة :

— بمن أُشبّه هذا الجيل . يُشْبِه أولاداً جالسين فى الَأسواق ينادون إلى أصحابهم ويقولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا . نُحنا لكم فلم تلطموا ، لأنه جاء يوحنا لا يأكُل خبزاً ولا يشربُ خمراً . فتقولون به شيطانٌ . جاءَ ابنُ الإنسان يأكُل ويشربُ فتقولون : هوذا إنسانٌ أكولٌ وشرّيب خمر ، محبٌ للعشارين والخطاةِ . والحكمةُ تبررت من جميع بنيها .

إسترخى جسد يوحنا المشدود على أرض زنزانته الحجرية التى لم تعد كئيبة فى نظره ، بل اتسعت كوتها الحديدية حتى كادت أن تحتوى الدنيا بأسرها : نسمات السماء الطلقة ، وشمس الخلاء الذهبية ، وصفاء البرية عندما كان صوتها الصارخ ، وشاهد صباه ، ومهد أحلامه عن المخلص القادم وملكوت الله الذى طال انتظاره ، ويوم معمودية يسوع المشهود حين هبطت الحمامة المقدسة التى لامست رأسه فى وقفته بين دفقات نهر الأردن : يوم الفرح العظيم الذى شاركت فيه السماء بتسبيح الملائكة ورنين النواقيس الذهبية التى تعشى الأبصار ببريقها ، وتنسُ الآذان بأصدائها ، كما شاركت فيه الأرض برقرقة المياه الحانية على سطح النهر الوادع وخريرها الذى امتزج بألحان السماء التى انفتحت لتحتوى الأرض فى أحضانها .

ومضت عينا يوحنا برغم وجهه الناحل الذى أجهده الزهد وأنهكه السجن . كانت الرسالة التى عاد بها التلميذان بعد لقائهما بيسوع قطرات ماء بلورى صاف على قلب يوحنا الذى أوشك أن يحترق شكاً ويأساً وحيرة ، وتحولت لسعات جمر النار داخله إلى رقرقة حانية للمياه مثل تلك التى داعبت قدمى المخلص يوم معموديته فى نهر الأردن . أخيراً قهر ابن البرية مخالب الوحشة والوحدة والقيود والشك التى كانت تنهش وجدانه وعقله فى الزنزانة المظلمة ، العابسة ، الخانقة . لم يكن يوحنا يخاف الموت ، بل كان كل خوفه أن يموت دون أن يصل إلى ضفاف اليقين لتستكين عليها نفسه المضطربة ، القلقة ، المنهكة . وها قد بلغها على نور الرسالة التى جاءته من المخلص نفسه ، فليأت الموت عندما يطيب له أن يأتى . يكفيه شرفاً أنه دخل تاريخ البشرية بصفته النبى الذى جاء ليعد طريق الرب ، ويصنع سبله مستقيمة ، وبشهادة يسوع أمام الجموع : لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان .

ترك يوحنا جلسة القرفصاء ، ومد ساقيه على الأرض الحجرية وأسند ظهره إلى الجدار السميك ، وابتسامة مضيئة على وجهه عندما تذكر كلماته لتلاميذه :

ـــ حسناً . قد انقضى زمنى . وعندما أذهب أنا يحل من هو أبهى منى ،

الذى كنت أترقبه . أنتم أنفسكم تشهدون لى أنى قلت لست أنا المسيح بل إنى مرسلٌ أمامه . ما أنا إلا صديق العريس المتواضع يكمل فرحى به . وها أنا أصمت ولكن فى هذا الصمت المحيط بى أتسمع صوت العريس . لذلك أنا أفرح . هو يزيد وأنا أنقص . إذن فرحى هذا قد كمل .

أخيراً غمرت أمواج الفرح قلب يوحنا المكدود ، برغم أشباح الموت التى تتراقص عند الأفق خارج الزنزانة ، متربصة به عندما تحين ساعة الانقضاض عليه . فلم يكن على استعداد أن يحيد عن موقفه قيد أنملة ، وقد حاول هيرودس معه أكثر من مرة أن يثنيه عن قراره الذى أعلنه على الملأ ، فباغته ذات يوم بزيارته فى السجن .

كان مغيب الشمس قد افترش ممرات السجن ودهاليزه وحجراته بعتمة تمزج البرودة بالسكون الذى لم تقطعه سوى همسات بعض الحراس ووقع أقدامهم . لكن ضجيجاً عالياً قطعه هذه المرة ، وإذ بضوء الشموع والمصابيح الزيتية التى يحملها الحراس يملأ الدهليز خارج الزنزانة ، وإيقاع أقدام رتيبة يقترب من الباب الخشبى المدجج بالمسامير الحديدية الغليظة ، وصوت حاد يصدر أمراً بالتوقف ثم يعلو صرير الباب وهو يفتح ليفيض نور الشموع والمصابيح الزيتية داخل الزنزانة ، ويعشى بصر يوحنا للحظات فيفرك عينيه ليرى هيرودس الملك فى عباءته الحريرية الحمراء ، وطيلسانه الأبيض الناضع ، ووجهه الطافح بالحمرة ، والمنتفخ الأوداج . ظن يوحنا أنه رآه فيما يرى النائم لكن هيرودس أشار بيده فأسرع أحد الحراس حاملاً مقعدين وضعهما فى الزنزانة الضيقة . نهض يوحنا حتى يفسح مكاناً للمقعد . جلس هيرودس على أحدهما وأشار إلى يوحنا فجلس بدوره ولم تكن المفاجأة قد زايلته بعد . أطلق هيرودس ضحكة قصيرة وأشار للحراس بالإنصراف فاختفوا . قال ليوحنا :

ـــ الملك لا يزور إلا الملوك والأباطرة من أمثاله !

لم يتبين يوحنا ما يدور على وجه هيرودس لأن ظهره كان مواجهاً لضوء المصابيح الزيتية التى انتشرت فى الدهليز والتى انعكست على وجه يوحنا الناحل المنهك ، وجسده الذى لم يختف هزاله تحت لباس وبر الإبل . تذكر يوحنا أيام كان صوتاً صارخاً فى البرية فأجاب هيرودس وقد عاد إليه إصراره وحسمه :

ـــ كل البشر أمام الحق سواسية !

ابتلع هيرودس الإجابة على مضض ، فقد كان يوحنا يشكل عنده صوت الضمير الذى حاول كبته مراراً ولم يفلح . فقد كان يهاب يوحنا عالماً أنه بار وقديس ، بل كان يطرب بالإستماع إليه والتحاور معه ساعات طويلة ، حتى لو واجهه بحقائق حياته عارية من كل زيف . فكر هيرودس قليلاً ثم أجابه :

ـــ ولولا أنى أحب الحق لما أتيت إليك هنا !!

ـــ لكن هذا المكان لا يليق بالملوك والأباطرة !

ـــ إنه المكان الوحيد الذى وجدت فيه حماية لك من المكائد التى تحاك لك .

ـــ إنك تنام فى فراش واحد مع من تحيك لى هذه المكائد !

ـــ إنها زوجتى على أية حال !

ـــ لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك !

ـــ ها قد عدنا إلى الموضوع القديم الذى أخاف عليك من إثارته بدون مبرر !

ـــ أليس الحق مبرراً كافياً ؟! سيظل الموضوع جديداً طالما كان الزواج قائماً !! أما حياتى فلا تخف عليها لأنها هبة الله الذى يمنحها ويستعيدها كما يشاء !

ذهل هيرودس لهذا الإصرار الصخرى الذى لم ينل منه السجن ، وزادت هيبته فى عينيه . فلو كان عنده رجل أو اثنان مثل يوحنا فى بلاطه لما خشى شر المكائد والفتن . إنه صوت الحق وعليه أن يستمع إليه حتى النهاية . قال هيرودس :

ـــ إنك تشغل نفسك بموضوع شخصى وتافه ! وحياتك لابد أن تكون أثمن من هذا الموضوع حتى لو كان مرتبطاً بحياة ملك !!

ـــ فى الحق كل الأمور سواسية ! من يتجرأ على إهدار جزء ولو صغير

من الحق فقد أهدر الحق كله .

ــ لا أريد للحوار يدخل فى طريق مسدودة كالعادة ! إننى أخيرك بين حريتك والإصرار على موقفك !

ــ حق الرب فوق حرية البشر !

نهض هيرودس محنقاً واستدار صائحاً :

ــ لن أسمح لنفسى بالندم إذا وقع لك مكروه .. فستكون أنت المتسبب فيه !

أجابه يوحنا بصوت رصين :

ــ لابد أن يدفع كل إنسان ثمن ما جنت يداه !

خرج هيرودس ليصفق الباب خلفه ، وعاد الظلام الممتزج بالبرودة والسكون ليحتوى الزنزانة بعد أن تلاشى وقع الأقدام على دهاليز السجن الحجرية . لكن يوحنا تمدد بجسده المنهك فى استرخاء لذيذ لم يشعر به من قبل ، وراح فى سبات عميق زارته فيه أطياف المخلص النورانية فبددت وحشة نفسه وحيرتها .

أما هيرودس فلم ينم ليلتة وظل يتقلب فى فراشه حتى أحست به هيروديا التى ظنت أنه اقتنع برأيها وقرر قتل يوحنا ولذلك فإن ضميره يقلقه لإيمانه بأنه بار وقديس . لكنها ، تساءلت فى دلال :

ــ هل هناك ما يقلق مولاى ؟!

ــ أجاب فى اقتضاب محاولاً الابتعاد إلى الطرف الآخر من الفراش :

ــ أبداً !

لم تزل تحتويه بين ذراعيها الغائصتين فى الفراش الوثير :

ــ مولاى مسئول عن مملكة بأسرها ! فكيف يترك هذه المسئولية التاريخية الجسيمة ليشغل فكره بأمر رجل كان يعوى كالذئاب فى البرية ؟!

أشاح بوجهه بعيداً وهو يقول :

ـــ لا تتكلمى عنه بهذه الطريقة .. إنه بار وقديس !

ـــ ولو .. مملكتك تأتى فى المقام الأول .. وحمايتها مسئوليتك الأولى والأخيرة .. وعليك أن تقضى على كل من يهدد أمنها !

ـــ كيف أخاف على مملكتى من رجل أعزل لا يملك سوى الحق فى قلبه ؟!

ـــ كل انسان يعتقد أن الحق معه هو .. وكل الآخرين على باطل !

ـــ لا تحاولى اللعب بالألفاظ والأفكار !

ـــ على كل حال .. ما استحق أن يعيش فى مملكتك من يتحدى كلمتك !

كان منطق هيروديا قوياً هو الآخر فوجد هيرودس نفسه بين شقى الرحى لا يعرف لنفسه قراراً . لمح على مائدة مرمرية قريبة من الفراش قنينة نبيذ كبيرة تلمع فى ضوء المصباح الزيتى الخافت فنهض يعب منها فى جوفه لعلها تنشله من دوامات الحيرة التى تكاد تبتلعه فى قاعها ، فى حين جلست هيروديا فى الفراش ترقبه كحدأة تتربص بفريستها . وبالفعل ارتمى هيرودس على فراشه وقد أثقل النبيذ جفونه وأغرقه فى دنيا من الأحلام والكوابيس والهواجس حتى تسلل أول شعاع للفجر من الشرفة الرخامية المذهبة ، فنهض جالساً فى فراشه كما لو كان قد قرر أمراً وعقد العزم عليه .

أما يوحنا فقد استيقظ من سباته العميق على ضجيج حراس يفتحون باب الزنزانة . نهض جالساً ليجد الشمس تمد أصابعها الحانية من الكوة الحديدية لتداعب جفونه التى لا تزال فى استسلامها لبقايا النعاس المطمئن والتى سرعان ما تلاشت مع صيحة كبير الحراس وهو يثبت خوذته النحاسية اللامعة على رأسه :

ـــ هيا معنا !

ـــ إلى أين ؟!

ـــ لا نعرف .. نحن ننفذ الأوامر الصادرة لنا !

ـــ هل حانت الساعة ؟!

دخل حارسان وأمسكا بذراعيه فنهض معهما مستسلماً لقبضتيهما

الحديديتين وصيحاتهما التى اخترقت أذنيه :

ــ هيا بنا .

خرجا به فوجد عشرة حراس واضعين أيديهم على مقابض سيوفهم ساروا حوله فى خطوات عسكرية تدق الأرض الحجرية فيتردد صداها بين أرجاء الممرات الباردة والدهاليز المعتمة حتى وجد يوحنا نفسه فى ضوء الشمس والهواء الطلق خارج الأسوار . وأمام باب السجن وقفت عربة تجرها ستة خيول فى انتظار يوحنا الذى اقتيد إليها وقد أمسك الصمت بتلابيبه ، وإن لم تكبت نظراته حيرته . أصعدوه وأجلسوا على إحدى الأريكتين الوثيرتين وجلس بعضهم إلى جواره والبعض الآخر أمامه لكنهم تفادوا نظراته النافذة بوميضها المثير .

إنطلقت العربة بكل قوة خيولها المطهمة التى أثارت حوافرها وسنابكها بعض الرمال والأتربة ، وعيون الحراس ترقبه من طرف خفى وهو ينظر فى حيرة إلى الحدائق الغناء التى تخترقها العربة ، والزاخرة بالورود الفيحاء ، وقنوات المياه البللورية ، وأفنان الأشجار الباسقة الوارفة التى تتهادى بينها الفتيات الفاتنات فى ثيابهن البيضاء الشفيفة ، فى حين تنسدل جدائل شعرهن الفاحم اللامع أو الذهبى البراق حتى تكاد تلامس وتداعب خصورهن فى سيرهن الوئيد مع هبات النسمات الرقيقة .

تبادل الحراس الابتسامات ظناً منهم أن يوحنا قد استراح لمناظر هذا النعيم بعد تقشف طويل فى البرية وكبت مرير فى السجن وهو فى ريعان شبابه ، لكنه نظر إليهم بوميضه المخيف فأرخوا جفونهم وتظاهروا بمتابعة المشاهد التى تمر بها العربة ، فى حين همس أحدهم فى أذن السائق فأبطأ من انطلاق الخيول ، لكن يوحنا كان قد ثبت عينيه على الطريق الذى أخذ فى الصعود صوب القصر الملكى الذى بلغته العربة أخيراً لتقف أمام بوابته الرخامية فيسرع حراسها لتسلم يوحنا الذى هبطوا به وساروا به دون أن ينبس ببنت شفة بين حدائق القصر الفيحاء الغناء فى جمعها بين عطر الزهور وتغريد البلابل . وعند الباب الداخلى تسلمه اثنان من العبيد الأشداء فى ثياب خضراء وقد أحاطت بهم باقة من فتيات فاتنات فى عمر الزهور ومعطرات مثلها فى ثياب وردية شفافة . حاولت إحداهن الإمساك بيد يوحنا فى رقة باسمة ودلال ضاحك لكنه نفض يدها فى

عنف كمن لدغته حية .

سرن خلفه ضاحكات هامسات بين أبهاء القصر التى تتألق بوميض المرمر والذهب فى الأركان والأعمدة والمقاعد المتناثرة المغطاة بالمخمل الأحمر ، والمصابيح الزيتية التى لا تزال تمزج ضوءها المتراقص بعطر زيتها النادر . لكن يوحنا لم يلتفت يمنة أو يسرة بل سار كما لو لم يكن هناك ما يستحق النظر حتى بلغ القاعة الذهبية الكبرى ليرى هيرودس جالساً على عرشه فى صدارتها فى رداء أبيض مطرز بخطوط ذهبية ، يكاد يحاكى بياض وجهه وشعر رأسه الذى يميل إلى الصفرة اللامعه . ابتسم هيرودس فى حين تراجع العبدان والفتيات خلف باب القاعة . صاح هيرودس مهللاً وهو يشير بذراعه ليوحنا :

ـــ تقدم يايوحنا .. لم تكن الزنزانة مساء أمس مكاناً مناسباً للإستمتاع بالحوار معك ! فحديثك ممتع برغم كل شيء !

ـــ تقدم يوحنا حتى وقف أمامه دون أن يفتح فمه فأشار هيرودس إلى معقد صغير أمام العرش :

ـــ يبدو عليك الضعف والهزال .. إجلس !

جلس يوحنا دون أن يفتح ثغرة فى جدار الصمت الذى حاول هيرودس هدمه :

ـــ هل تعانى من الندم عندما أدركت أنك حرمت نفسك من متع الدنيا ومباهجها ؟! إن شاباً فى سنك ووسامتك وسحرك كان لابد أن يرتدى الحرير والدمشق .. ويتعطر بزيت الفل والياسمين .. ويرشف أغلى الخمور المعتقة . ويلتهم أشهى اللحوم والأسماك .. ويصاحب أجمل الفتيات .. لا أن يلبس وبر الإبل الخشن ويضع على حقويه منطقة من جلد ويهيم على وجهه فى البرية أو ينام على أرض الزنزانة الحجرية .. ولا أن يأكل الجراد والعسل البرى .. إن إيمانك بالله لاشك فيه .. وقد خلق الله أطايب الحياة لنتمتع بها .. حرام عليك أن ترفسها بقدمك كأنها رجس . وتقضى نصف حياتك فى البرية ونصفها الآخر فى السجن لمجرد عناد لا مبرر له .

عندئذ زمجرت نبرات يوحنا فى هدير مكتوم :

ـــ وقد خلق الله الحق أيضاً لنسير على هداه .. وحرام عليك أن تطمس

نوره من أجل شهوات مظلمة زائلة .. فتقضى حياتك كلها فى الإثم وحياتك الأخرى فى الجحيم لمجرد نزوة لا مبرر لها .

ندم هيرودس على استدعائه ، فهو صخرة لا تلين حتى لو واجهت طوفان نوح ، ورنت فى أذنيه كلمات هيروديا فى هدأة الليل وعتمته ، لكنه لم يقبل الإسلام لهذا الشاب الأعزل الذى يبدو أمامه مخلوقاً غريباً مخيفاً لا يتكلم لغة البشر .

وفجأة طرأت على بال هيرودس فكرة اهتز لها :

ــ إذاً .. فلنعقد صفقة .. أتمسك أنا بالحق على حد قولك .. وتتمسك أنت بالحياة الطيبة الطبيعة وبهذا تعود المياه إلى مجاريها وترضى كل الأطراف المعنية ..

ــ إننا يمكن أن نختلف حول معنى الحياة الطيبة الطبيعة .. فهى تعنى عندى التقشف والزهد ووبر الإبل والجراد والعسل البرى .. لكننا لا يمكن أن نختلف حول معنى الحق .. لأنه حق الله ولا نملك التصرف فيه على أهوائنا ..

فقد هيرودس تحكمه فى أعصابه للحظات لكنه عاد يجاهد للتماسك :

ــ لم يجرؤ أحد فى مملكتى أن يقول مثل هذا الكلام فى حضرتى وأمام عرشى !

ــ لم أطلب المجىء إلى هنا !

تذرع هيرودس بالصبر والحيلة واللين فخفتت نبراته حتى بلغت درجة الإلحاح الهامس :

ــ اليوم عيد ميلادى .. وسيكون عيد الإفراج عنك أيضاً إذا تخليت عن عنادك .. ستكون الطاعة هديتك لى والحرية هديتى لك .. فأنت لا تزال أحد رعاياى .. وطاعتى عليك واجبة .. ومع ذلك فأنا أطلبها هدية منك ..

ــ لا أملك سوى أن أقدم لك فى عيد ميلادك هدية السماء !

سأله فى لهفة لم يخفها :

ــ وما هى ؟! لا بد أنها أروع من كل هدايا الأرض !!

ـــ ها نحن نتفق لأول مرة !

ـــ رائع .. وما هى ؟!

ـــ الحق !

صرخ فيه هيرودس بصوت مشروخ لكن يوحنا لم يهتز فى جلسته :

ـــ وأنا هديتى لك .. السجن مدى الحياة ! لا فائدة !! لا فائدة !

ثم نهض ليدور فى القاعة كأسد حبيس فى قفص ويصيح مناديا الحراس :

ـــ خذوه من هنا .. خذوه من هنا .. لا أريد أن أرى وجهه .. لا أريد أن أسمع صوته .

ترددت أصداء صرخات هيرودس فى أرجاء القاعة الذهبية والحراس يهرعون للإمساك بيوحنا ودفعه خارجاً فى شراسة لم يسترح لها هيرودس الذى أذهلته القوة الهائلة التى يتمتع بها هذا الشاب الزاهد ، المتقشف ، الهزيل ، المنهك القوى .

ترك هيرودس القاعة إلى باب جانبى فوجد هيروديا ملتصقة بمدخله وهى تقول له فى تساؤل هامس :

ألم أقل لك ؟!

لكنه صرخ وهو يكاد يزيحها من طريقه :

ـــ أرجوك .. أتركينى وحدى .. لا أريد أن أرى أحدا .. لا أريد أن أرى أحدا !

لكنها سارت فى أعقابه ومعها فحيحها :

ـــ لقد نجح فى استفزازك يوم ميلادك .. فلتجعل العيد عيدين كما قلت لك !

أشاح بذراعه ومضى بعيداً عنها ، فتركته لتدخل غرفة جانبية جلست فيها ابنتها سالومى فى ثوب أحمر . جلست هيروديا على طرف الفراش الوثير أمام ابنتها :

ــ ألم ترى كيف أهاج يوحنا غضب الملك ؟!

أجابت سالومى بابتسامة تمزج الدلال بالخبث :

ــ سيظل صوته نذيراً بالشؤم طالما أن الملك عاجز عن اتخاذ قرار لكتمه !

ــ يبدو أنه آن الأوان لنا أن نأخذ نحن هذا القرار !!

ــ كيف ؟! هل سنرشو حراسه فى السجن حتى يتخلصوا منه ؟!

ضحكت هيروديا ضحكة مقتضبة :

لا أحب لابنتى الجميلة أن تشغل عقلها بمثل هذه الأفكار الساذجة !!

ــ لكن كيف ؟!

ــ سأجعل الملك يصدر قراره الليلة بنفسه !!

ــ كيف ؟! إلا إذا كان غائبا عن وعيه ليتغلب على تردده ؟!

نهضت هيروديا لتغلق الباب وتعود إلى ابنتها بوميض غريب فى عينيها وفحيح مريب بين شفتيها :

ــ تماما .. وسأحكى لك كيف ؟! فلم أعد أحتمل إهانات هذا المخلوق الغريب أكثر من هذا !

أما هيرودس فظل مكتئباً فى غرفته يرفض رؤية أحد ، ويعب من الخمر لعلها تهدىء من سورة غضبه حتى حل المساء لتضاء القاعة الذهبية بالمصابيح الزيتية ، الذهبية ، المعطرة ، والشموع التى تتراقص فى كل الأركان والزوايا وحول الأعمدة المرمرية . وتتابع وصول القادة والكبراء والأعيان وسادة الجليل ليجلسوا فى دائرة واسعة يقطع محيطها عرش هيرودس الذى نهض له الجميع وانحنوا بمجرد دخوله مع هيروديا التى جلست على يساره وسالومى التى جلست ملتصقه بأمها .

لم تفارق نظرات هيروديا وجه زوجها المغتم ، فكانت تدعى الإبتسام ثم تصب له المزيد من الخمر فى كأسه التى يرفعها إلى شفتيه دون تردد ، ودون إنصات لكلمات التحية والتهنئة والمديح المنهالة من الحاضرين ، الواحد بعد الآخر ، ولا لأنغام الفرقة الموسيقية التى عزفت بالدفوف والقيثارة ألحاناً

واكتب أصوات المطربين والمطربات التى رنت فى أرجاء القاعة الفسيحة كان هيرودس مشغولاً عن الجميع بأفكاره وخواطره وهواجسه التى علا ضجيجها داخله على صخب الحاضرين عندما سرى بينهم روح المجون والخلاعة والسكر والعربدة .

رأت هيروديا أن الملك قد شرب بما فيه الكفاية ، وكانت تعلم كم يعشق مشاهدة ابنتها سالومى وهى ترقص رقصاتها المخضبة بعطر الشرق وسحره الذى لا يقاوم !! فمالت على أذنه لتتحول همساتها إلى أول ابتسامة ترتسم على وجهه منذ أن دخل القاعة . ثم نهضت لتدق على الطاسة النحاسية اللامعة المعلقة بالقرب منها ، فران الصمت على القاعة برغم تردد الأنفاس الساخنة اللاهثة ، وجلجل صوت هيروديا :

ــ فى العيد السعيد لميلاد مليكنا المفدى .. تفضل جلالته بالسماح لابنتى سالومى باهداء رقصة احتفالاً بهذه المناسبة الجليلة !

عادت إلى مقعدها فى حين نهضت سالومى لتتهادى بين الحاضرين حتى بلغت قلب الدائرة . أشارت إلى الفرقة الموسيقية ثم صفقت بكفيها فانطلقت الموسيقى على نفس الإيقاع ، ثم شرع جسدها فى التلوى داخل غلالته الوردية ، والعيون تدور فى محاجرها مع حركات تمايلها ، ودلالها ، واقترابها منها ، وابتعادها عنها ، والأكف تصفق مع إيقاعات الموسيقى ، والحناجر تتقاذف بأصوات الإستحسان والانتشاء من كل أرجاء القاعة .

لكن كل هذه الدوامة الفوارة من النشوة لم تثر هيروديا التى كانت منهمكة بمتابعة ما يطرأ على وجه الملك من تغيرات ، ولم تبتسم إلا عندما تجاوب الملك مع دقات الدفوف وارتعاشات جسد سالومى التى اقتربت منه رافعة ذراعيها اللتين تلويتا كحيتين ، لتنتقل عدوى التلوى إلى جسدها الذى كاد أن يلفظ الغلالة الوردية لكنها أمسكت بخناقه ، فخبأت سالومى وميض عينيها العسليتين بأناملها الدقيقة التى تألقت بخواتم العقيق والياقوت والزمرد واللؤلؤ . وأوشك الملك أن يتمايل طرباً معها وقد تحالفت مع دوار الخمر عليه حتى كاد أن يخر صريع النشوة التى غاص إلى قاعها المعتم البارد ، وجعلته يصيح بعينين جاحظتين حمراوين :

ــ أقسم أن أمنحك ما تطلبين ! مهما كان ما تطلبين !

فى الحال توقفت سالومى عن الرقص ، وأطبق السكون على القاعة لتتبادل مع أمها نظرات نارية كومضات البرق ثم يرن صوتها فى أرجاء الصمت وفى أسماع السكارى المنتشين :

ــ أعطنى ههنا على طبق ..

صمتت لحظة ثم أردفت :

ــ رأس يوحنا المعمدان !

أصطكت الكلمات الرهيبة بآذان السكارى فتبخرت سحب النشوة بين تلافيف أمخاخهم فى لحظات كئيبة ، فهم يعلمون أن هذا النبى العجيب محبوب من كل أفراد الشعب البسطاء ، ومهاب من أصحاب السلطة والسطوة ، ويعلمون أيضاً لماذا تطلب سالومى رأسه !! وسط هذه المشاعر المتلاطمة فى السكون الذى يسبق العاصفة ، علت شهقة مكتومة من بين شفتى هيرودس الذى كاد يعود إلى صوابه من هول ما سمع ، وهو يحاول التحكم فى أطرافه الساخنة ورأسه الثقيل :

ــ أطلبى شيئاً مفيداً !!

لكن سالومى أعادت كلماتها بنفس النبرات :

ــ رأس يوحنا المعمدان على طبق .

إنتصب هيرودس فى جلسته على عرشه المرمرى الذى شعر بتمايله تحته :

ــ أعطيك نصف مملكتى ! رأس يوحنا المعمدان لن يفيدك فى شىء !!

وعادت نفس النبرات كوميض سيف بتار على عنق هيرودس :

ــ رأس يوحنا المعمدان على طبق .

اغتم الملك مفكراً فى مخرج من هذا المأزق ، لكن صوت هيروديا اخترق أذنه اليسرى كخنجر مسموم :

ــ كلام الملوك لا يرد .

كاد رأس هيرودس أن يسقط على صدره وهو يشير بذراعه اليسرى لكبير الحاشية الواقف إلى جواره بأن ينفذ الأوامر . وسرعان ما اختفى الرجل من

باب جانبى للقاء قائد الحرس الملكى الذى أصدر أوامره إلى الجلاد وأربعة من الحرس بقطع رأس يوحنا المعمدان ثم إحضاره على طبق من فضة إلى قاعة الإحتفال .

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل عندما انطلقت من حظائر القصر نفس العربة التى أحضرت يوحنا إلى القصر للقاء هيرودس فى صباح نفس اليوم . كانت ليلة غاب قمرها ، وتكاثفت طيات ظلمتها ، فبدت الأشجار بين الروابى كالأشباح بين المقابر ، والعربة تطوى الطريق صاعدة هابطة ، وقد سكن الهواء على سطح البحر سكون الموت . بدت فى الأفق حمرة شاحبة ، لا هى حمرة الغسق أو الشفق ، وتساقطت أمطار خفيفة لطمت وجوه الحراس والجلاد الذى نظر إلى السماء المعتمة فتصور أنها تبكي بدموع ساخنة من عينيها الحمراوين اللتين ومضتا عند خط انطباقها على الأرض .

توقفت العربة عند بوابة السجن الحجرية ليلتقى الحراس بالحراس الذين يعلمون بالمهمة التى جاءوا من أجلها ، فيصعدون معهم على الدرجات الداكنة حاملين المشاعل فى حين حمل أحدهم طبق الفضة ، وأخرج الجلاد سيفه ذا النصل العريض بوميضه الأحمر فى ضوء المشاعل التى أضاءت الدهليز المؤدى إلى باب الزنزانة الصغيرة . فتح الباب فأحدث صريراً كالعدم ليدخل الجلاد ويقف أمام يوحنا الذى كان غارقاً فى سبات عميق برغم أضواء المشاعل التى غمرت الزنزانة . صاح الجلاد بصوت أجش حاول أن يخفى به خوفه هو :

ــ قم يايوحنا .. قم !

نهض يوحنا جالساً وهو يفرك عينيه محاولاً تغطيهما بأصابع نحيلة من المشاعل . لمح الجلاد وميض عينى يوحنا المثير فانتابته رعشة أصابت جلده كله بقشعريرة عارمة لكنه أخفاها بصيحة أخرى :

ــ قم .. قلت لك قم .. فأنا لا أستطيع أن أؤدى مهمتى هكذا !

نهض يوحنا فى صمت رهيب وقد علم أن ساعته قد حانت . لم يهتز وظل ينظر إلى الجلاد بوميض عينيه النافذ كالسكين إلى أعماق قلبه فاختلجت نبرات الجلاد :

ــ قل شيئاً !!

لم يفتح يوحنا فمه بكلمة فى حين خلع أحد الحراس خوذته النحاسية اللامعة وأمسكها بيد مرتعشة مثل نبرات الجلاد :

— كل من قطعت رأسه من قبل قال أو فعل شيئاً : صرخ .. توسل ... استعطف .. كانت له رغبة أخيرة ! هل لك رغبة أخيرة ؟!

إمتزج وميض عينى يوحنا بألسنة المشاعل المتمايلة ، وكأن شبح ابتسامة ساخرة قد تعلق بالشفتين الناحلتين دون كلمة واحدة تمنى الجلاد أن تخرج من بينهما . فعاد للصياح :

— لم أر مثلك من قبل !!

لمح كبير الحراس السيف المرتعش فى يد الجلاد فصاح فيه :

— ماذا دهاك ؟! أهذا أول رأس تقطعه ؟! مولانا فى انتظارنا وأنت تضيع الوقت فى ثرثرة فارغة ؟!

صاح الجلاد بصوت كهزيم الرعد وهو يرفع السيف :

— لابد مما ليس منه بد !

ثم طار الرأس والدماء تتناثر منه حتى سقط فى ركن ، وتهاوى الجسد فى ركن آخر ولم تزل به بعض نبضات الحياة ، وتدثرت الأرض الحجرية برداء لزج من الدماء القانية الساخنة ، فأسرع حارس شاب إلى الدهليز خارجاً حيث أفرغ على الجدار كل ما فى أمعائه فى حين أمسك الجلاد بالرأس وأغمض العينين بأصابع مرتعشة ثم وضعه على طبق الفضة دون أن يعاود النظر إليها . وكذلك فعل الحراس الآخرون الذين هبطت عليهم كآبة ثقيلة سوداء كالليل ، سرت فى ألسنتهم بلعاب مر كالموت .

أما المحتفلون فى القاعة الذهبية فقد انقشعت نشوتهم تماماً لتتربع على قلوبهم نفس الكآبة المرة . وظل هيرودس ينظر إليهم فى ومضات ذاهلة كأنه لا يراهم ، فى حين جلست سالومى ملتصقة بأمها وعيونهما مثبتة على الباب الذى سيدخل منه رأس يوحنا المعمدان . تمنى بعض الجالسين أن يكون الأمر كله مجرد كابوس سوف يتبخر سريعاً كما تبخرت سحب النشوة ، فى حين إنهمك البعض الآخر فى تجرع مزيد من الكؤوس متشبثاً بأذيال النسيان ، لكن

السكون المطبق مع الحركة التى كادت أن تنعدم أحال المحتفلين إلى أصنام جالسة أو واقفة ، منتصبة أو منحنية حتى سمعوا وقع أقدام على الأرض المرمرية خارج الباب الرئيسى وإذ بالجلاد يدخل متوجهاً بخطوات مهتزة إلى العرش وقد حمل بين يديه طبق الفضة وعليه رأس يوحنا المعمدان الملطخ بقطرات الدماء . إنحنى الجلاد أمام الملك الذى أشاح بذراعيه بعيداً وكأنه لا يريد أن يرى شيئاً ، فنهضت هيروديا لتأمر الجلاد بإدخال الطبق فى غرفتها .

ومنذ تلك اللحظات الكئيبة طارد يوحنا هيرودس فى صحوه ومنامه ، لم ينس ذلك الوجه الذبيح الملطخ بالدماء ، والعينين المغلقتين فى وداعة كطفل نائم . وجاءته التقارير تحمل إليه لعنات الشعب كالصواعق . فعاش وفى نفسه شيء من يوحنا ، شيء كبؤرة صديدية تفرز سمومها فى عروقه وأعصابه ، خاصة عندما يختلى بنفسه ، لدرجة أنه عندما سمع بعد ذلك عن المعجزات التى صنعها يسوع لم يملك سوى أن يصرخ جهاراً أمام رجال حاشيته :

ـــ هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات !!

فقالوا له :

ـــ إنه إيليا .. إنه نبى أو كأحد الأنبياء !

لكنه عاد يصرخ بعصبية أصبحت إحدى سماته :

كلا : هذا هو يوحنا المعمدان الذى قطعت أنا رأسه . إنه قام من الأموات ولذلك تعمل به القوات !

(٢٨)

وتوالت أحداث الملحمة الإلهية لتكشف مدى الغلظة التى تجسدت فى القلوب البشرية المعتمة التى رأت نور الله لكنها لم تفتح له كل منافذها حتى يسطع فى دهاليزها وسراديبها وكهوفها . وبرغم أن المعجزات والآيات المادية الملموسة كانت واضحة لكل ذى عينين فى بلاد مثل كفرناحوم وكورزين وبيت صيدا ، وكانت كفيلة بترسيخ وتعميق الإيمان الجديد فى قلوب أهلها ، فإنهم وجدوا فى معجزات يسوع مجرد وسيلة للتخلص من الأمراض والعاهات من أجل حياة دنيوية أسعد وأمتع ، كذلك كانت إقامة الموتى مجرد بلسم لمحنة أهل الميت ، وليست إشارة للحياة الأبدية التى لا تعرف الموت ، والتى من أجلها قهر المسيح الموت . ولذلك ابتدأ يسوع يوبخ المدن التى صُنعت فيها أكثر قواته وآياته ومعجزاته لأنها لم تتب :

ـــ ويل لك ياكورزين . ويل لك يابيت صيدا . لأنه لو صنعت فى صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديما فى المسوح والرماد . ولكن أقول لكم إن صور وصيدا تكون لهما حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لكما . وأنت ياكفرناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية . لأنّه لو صنعت فى سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم . ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لك .

فقد كان للبشرية عذرها منذ ارتكب آدم الخطيئة الأولى وحتى مجيء المسيح ، لكن مع بدء يسوع لكرازته وآياته وعجائبه تلاشى هذا العذر بعد أن اتضحت معالم الطريق المؤدية إلى الحياة الأبدية ، وهى المعالم التى بذل الكتبة والفريسيون أقصى ما فى وسعهم لطمسها بضيق أفقهم ، وتعصبهم الأعمى ، وتفسيرهم الحرفى للناموس حتى يظل فى أيديهم سلاحاً بتارا يتحكمون به فى رقاب العباد الذين ساروا خلفهم كالقطيع ، لا يستخدمون عقولهم ولا يفكرون لأنفسهم بأنفسهم ، فعجزوا عن رؤية نور الله الذى تألق أمام عيونهم بالفعل فى شخص يسوع ، ولم يدركوا أنهم يعيشون عصراً كانت البشرية كلها تتمنى لو عاشته لكنها لم تدركه ، سواء من قبله أو من بعده .

ولكن لأن يسوع جاء لكل البشر فلم يرفض دعوة سمعان الفريسى الذى دعاه ليأكل معه فدخل بيته واتكأ فى القاعة الفاخرة التى تجسد الرفاهية التى كان الفريسيون ينعمون بها ويرفلون فيها . كانت الحشايا المخملية بألوانها الحمراء والخضراء والزرقاء متناثرة بمحاذاة الجدران ووسطها مائدة خشبية قصيرة حفرت على جوانبها نجمة داود وقباب الهيكل وأعمدة فنائه . وكان إعداد المائدة قائماً على قدم وساق من ربة البيت وخدمه الذين قاموا بتوزيع الأطباق والصحائف النحاسية والأكواب الفخارية هنا وهناك . وكان من عادة ذلك الزمان أن يدخل أى انسان يرغب فى مقابلة أهل البيت أثناء تناول الطعام حتى لو كان غير مدعو ، فالباب مفتوح ويؤدى إلى الجالسين على الحشايا أو البساط فى استرخاء وأقدام عارية .

كانت فى المدينة امرأة ارتكبت من الخطايا ما جعل نفسها مثقلة باحساس الذنب والإثم ، وكم هفت نفسها للقاء يسوع رغبة فى إنارة داخلها المعتم بقبس منه ! ولذلك هُرعت إلى بيت سمعان الفريسى تكاد تطير إليه عندما علمت أن يسوع متكىء فيه ، وفى قبضة يدها قارورة طيب دخلت بها دون أن تجرؤ على مواجهته ، إذ وقفت خلفه عند قدميه دون أن يراها ، وانحنت والدموع أنهار على وجنتيها لتنسكب على قدميه وتمسحهما بشعر رأسها ثم تقبلهما . فتحت قارورة الطيب وشرعت فى دهنهما به فشاع أريجه فى أرجاء القاعة ، كما شاع بريق التوبة فى عينيها المخضبتين بالدموع المتألقة . فى حين كان الفريسى يتابع ما يجرى بصمت مشحون بأفكار لم تنطلق من كهوف نفسه إلى كلمات على لسانه :

ــ لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التى تلمسه وما هى . إنها خاطئة !

لكن يسوع فاحص النفوس والقلوب والكلى قال له :

ــ ياسمعان عندى شىء أقوله لك .

إندهش سمعان لكلمات يسوع المفاجئة إذ كان قد التزم الصمت والتأمل منذ أن اتكأ ، فأجابه وكله شوق لما سيقوله :

ــ قل يامعلم !

تكلم يسوع بلهجة من يسرد قصة بسيطة :

ـــ كان لُمداين مديونان . على الواحد خمس مئة دينار وعلى الآخر خمسون . وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً . فقل أيهما يكون أكثر حباً له ؟!

تردد سمعان قليلاً غير مدرك لمغزى المثل ثم أجاب :

ـــ أظن الذى سامحه بالأكثر !

فأجابه يسوع بنبرات قاطعة حاسمة :

ـــ بالصواب حكمت !

لكن سمعان لم يستوعب أى نوع من الربط بين دعوة الطعام التى لباها المعلم وهذا المثل الذى قصه عليه إلا عندما التفت يسوع إلى المرأة وقال لسمعان الذى كان ينظر فى حيرة إلى الجالسين :

أتنظر هذه المرأة . إنى دخلت بيتك وماء لأجل رجلى لم تُعط . وأما هى فقد غسلت رجلى بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . قبلة لم تقبلنى . وأما هى فمنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجلى . بزيت لم تدهن رأسى . وأما هى فقد دهنت بالطيب رجلى . من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً . والذى يغفر له قليلٌ يحب قليلاً ..

شعر سمعان بكلمات المعلم كالصواعق على رأسه ، فقد اكتفى بدعوته للطعام دون أن يقوم بواجبات الضيافة الأخرى التى كانت سائدة فى ذلك الزمان . لم يدر ماذا يقول ، فشغل نفسه بالنظر إلى أطباق الأسماك واللحوم المشوية والفطائر والفواكه دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم إلى الجالسين الذين لم يرفعوا عيونهم عن يسوع ، بل ولم يخفوا دهشتهم على شفاههم الملتوية أو حواجبهم المنحرفة ويسوع يوجه حديثه للمرأة :

ـــ مغفورة لك خطاياك .

تحولت الدهشة إلى ذهول داخل المتكئين الجالسين ولسان حالهم يقول فى صمت مطبق على كلماتهم المتسائلة فى حيرة :

ـــ من هذا الذى يغفر خطايا أيضاً ؟!

لم يعبأ يسوع بما يعتمل داخلهم بل التفت إلى المرأة وقال لها بمنتهى الحنو والوداعة :

ــ إيمانك قد خلصك . إذهبى بسلام .

وخرجت المرأة لا تلوى على شيء . فقد تحول إحساسها بالذنب والإثم إلى شعور غامر بالتوبة والغفران وتألق جارف بالتطهير والنشوة كما لو كانت أقدامها تسير على الهواء وهامتها بين السحب .

وتتابعت فصول الملحمة الإلهية مع سير يسوع ومعه الاثنا عشر من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى يكرز ويبشر بملكوت الله . وكانت الأرواح الشريرة تصرخ وتخرج من ضحاياها ، والأمراض تتلاشى وتنقشع كسحابات الصيف ، والموتى يقومون كأنهم قادمون من نوم عميق مع كل خطوة يخطوها . فعل هذا مع مريم التى تدعى المجدلية التى أخرج منها سبعة شياطين ، ويونا امرأة خوزى وكيل هيرودس وسوسنة وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن .

لكن الحرب التى شنها يسوع على الكتبة والفريسيين والناموسيين لم تكن أقل هوادة من تلك التى أعلنها على الأرواح الشريرة والأمراض والعاهات والموت نفسه . فقد دعاه فريسى آخر ليتغدى عنده ، فدخل واتكأ معه برغم أن نيته لم تكن نقية . فقد تعجب الفريسى أن يسوع لم يغتسل أولاً قبل الغداء ، وكان يسوع قد ضاق ذرعا بضيق أفق الفريسيين وتعصب الناموسيين الأعمى ، إذ أنهم كانوا ينظرون إلى الإغتسال قبل الطعام نظرتهم إلى طقس دينى ، مقدس ، مصون ، لا يمس ، وليس كوسيلة للنظافة التى يجب أن تتبع من أجل الحياة الصحية السليمة . فلم يكن الربط بين الاغتسال والطعام سوى خرافة دينية ضمن الشكليات الفارغة التى أغرموا بها وفرضوها على الناس . ولذلك كانت حرب يسوع ضدهم هذه المرة حرباً بلا هوادة وبلا استخدام للأمثال والعبر . كانت هجوماً مباشراً لإصابة كبد الحقيقة ولإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعية بعد أن انحرفت كثيراً وطويلاً على أيديهم . ولذلك لم يوجه يسوع كلامه هذه المرة إلى مضيفه بل إلى جميع المتكئين :

أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة وأما باطنكم فمملوء اختطافاً وخبثاً . ياأغبياء أليس الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضاً . بل

أعطوا ما عندكم صدقة . فهوذا كل شيء يكون نقياً لكم . ولكن ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تعشرون النعنع والسذاب وكل بقل وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله . كان ينبغى أن تعلموا هذه ولاتتركوا تلك . ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تحبون المجلس الأول فى المجامع والتحيات فى الأسواق . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لا يعلمون .

لم يتوقع الحاضرون المتكئون فى دعة أن تتحول مأدبة الغداء إلى اعصار يعريهم بهذا العنف الجارف الهادر ، وحاول أحد الناموسيين الحاضرين الصمود للإعصار قدر إمكانه حتى لا يتحولوا إلى ريش فى مهب الريح قائلاً :

ـــ يامعلم حين تقول هذا تشتمنا نحن أيضاً !

لكن الناموسى لم يكن يدرك أن يسوع قد قرر أخيراً فتح باب المواجهة بينه وبينهم على مصراعيه حتى لا يضلوا عقول الناس أكثر مما ضلت . ولذلك كان رد يسوع بركاناً هادرا لم ينج أحد من الحاضرين من حممه :

ـــ وويل لكم أنتم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم . ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم . إذاً تشهدون وترضون بأعمال آبائكم . لأنهم هم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم . لذلك أيضاً قالت حكمة الله إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلاً فيقتلون منهم ويطردون . لكى يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم : من دم هابيل إلى دم زكريا الذى أُهلكَ بين المذبح والبيت . نعم أقول لكم إنه يطلب من هذا الجيل . ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة . ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم .

إهتزت الأجساد المترعة والنحيفة داخل العباءات السوداء والبنية والكحلية ، وحكت الأصابع المعروقة والغليظة اللحى السوداء والبيضاء ، الخشنة والناعمة ، وانتفخت بعض الرقاب فزادت غلظة فوق غلظة ، وابتدأ الكتبة والفريسيون يحنقون جداً ويصادرونه على أمور كثيرة . وهم يراقبونه طالبين أن يصطادوا شيئاً من فمه لكى يشتكوا عليه . فقد كشف أخيراً عن مدى قدرته على تحديهم بمفرده . ولم تعد سياسة الإحتواء والمهادنة وإخناء الرؤوس للعاصفة حتى تمر دون إصابات ، سياسة حكيمة . فهو ينتقل من

معركة إلى أخرى ، ومن نصر إلى آخر ، ومن معجزة إلى أخرى ، لا يعرف الهزيمة أو التردد أو التراجع أو اليأس ، ولو استمرت الأمور على ما هى عليه فسيقلب الموائد على رؤوسهم جميعاً كما قلبها بالفعل على رؤوس الصيارفة فى فناء الهيكل يوم ذهب لحضور الفصح ، لكنه هذه المرة لن يبعثر أموالهم وعملاتهم الفضية والذهبية بل سيبعثر حياتهم وطبقتهم ولن تقوم لهم قائمة بعد ذلك . صحيح أنه أتى بمعجزات لم تتأت لنبى من قبل ، لكنها ليست عذرا كى يشق حياتهم مثلما تقطع السكين الزبد ، وخلفه الجموع التى تلهث فى أعقابه حيثما ذهب وحيثما حل . فقد أصبحت تحركاته رعباً متجدداً للكتبة والفريسيين والناموسيين ، وبالفعل صدق حدسهم إذ بمجرد خروجه من بيت ذلك الفريسى تجمعت ربوات الشعب حوله حتى كاد بعضهم يدوس بعضاً ، وبدلاً من أن يفض الزحام الخانق أعلن الحرب على الفريسيين قائلاً لتلاميذه الذين حاولوا صنع سور بأجسادهم لإبعاد الجموع بقدر الإمكان :

ـــ أولاً تحرزوا لأنفسكم من خمير الفريسيين الذى هو الرياء . فليس مكتوم لن يستعلن ولا خفى لن يعرف . لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور وما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح . ولكن أقول لكم ياأحبائى لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر . بل أريكم ممن تخافون . خافوا من الذى بعد ما يقتل له سلطان أن يلقى فى جهنم .

وتساءل الفريسيون المندسون وسط الجموع فى حيرة ممضة :

ـــ هل نحن الذين نقتل الأبرياء ونلقى بهم فى جهنم ؟ هل يقصدنا نحن بذلك ؟!

(٢٩)

إعتاد يسوع أن يلجأ إلى البحر كلما أرهقته الجموع . فقد كان يومه مشحوناً بالعمل منذ بزوغ أول ضوء للنهار حتى حلول المساء وأحياناً بعد ذلك . حتى فى فترات الراحة العابرة عندما يدعى لزيارة أو غداء كان يكرز بملكوت الله ، وإذا صمت فالآخرون يسألونه ولا بد أن يجيب عن أسئلتهم ، وإذا صمتوا هم واحتفظوا بما يعتمل داخلهم فى طى الكتمان فإنه يضطر إلى الإجابة عن تساؤلاتهم التى لم يتفوهوا بها أصلاً . أما ساعات السير تحت لهيب الشمس أو فى طيات الصقيع فكانت أضعاف ساعات الجلوس والاسترخاء والاتكاء . فقد كانت الرسالة الإلهية مهولة ، وشاقة ، ورهيبة ، ولا مفر من مواصلتها حتى تؤتى ثمارها لكل البشرية .

فى ذلك اليوم عندما حل المساء شعر يسوع برغبة شديدة فى الراحة والنوم ، لكن الجموع لم تفض حصارها له ، عندئذ أمر تلاميذه بالعبور إلى كورة الجدريين التى تقع على ضفة البحيرة المواجهة للجليل حتى يستريح قليلاً ثم يستأنف كرازته هناك .

لكن القلق اجتاح بطرس الخبير بالبحيرة ومناخها . فقد كانت بحيرة طبرية واقعة فى غور بين جبال تجعلها عرضة لعواصف ودوامات رهيبة تجعل من الوادى قاعا لها ، وتحيل الأمواج إلى جبال هادرة . وفى تلك الليلة كانت هبات الرياح الباردة توحى بوقوع مثل هذه العاصفة . ومع ذلك لم يفتح بطرس شفتيه بكلمة بل اشترك مع التلاميذ فى صرف الجموع ، ثم استقلوا مع يسوع السفينة بعد أن أشار بطرس لصيادين آخرين بركوب سفنهم الصغيرة والإبحار معهم لعل الحظ يصادفهم وأبحروا إلى داخل البحيرة فى ضوء قمر وليد شاحب ، وكلما ابتعدوا عن الشاطىء أخذت الأمواج فى الارتفاع والارتطام بجانبى السفينة ودفتها التى أمسكها بطرس بكل قوته حتى يقاوم تخبط السفينة ومخاوفه التى تؤكد له أنها ستكون ليلة ليلاء ، فهو أدرى الموجودين بالبحيرة والرياح . أما يسوع فقد غلبه الإرهاق ونام فى المؤخرة قرب الدفة على الوسادة التى يجلس عليها المجدفين فى حين انهمك أندراوس وفيلبس ويوحنا ومتى فى التجديف للحفاظ على توازن السفينة فى مهب العاصفة التى أوشكت أن تمزق

الشراع إرباً .

تعالت أمواج البحر حول السفينة ، كما تعالت أمواج القلق داخل بطرس عندما رأى المعلم نائماً كطفل برىء وديع لا يحمل من هموم العالم شيئاً . تساءل بطرس فى نفسه وهو حائر بين الامساك بالدفة والخوف على الشراع :

ـــ من غيره نستطيع أن نلجأ إليه فى الملمات ؟! هل نتجرأ ونوقظه اذا ما سارت الأمور من سىء إلى أسوأ ؟!

وارتفعت الأمواج حتى أخفت ضوء القمر الشاحب ، وارتمت بقممها ذات الزبد الفوار على قلب السفينة وقاعها فأخذت تمتلىء وتثقل . تبادل التلاميذ نظرات سريعة مذعورة ، ودون تفكير مسبق هرعوا لإيقاظ يسوع صارخين حتى تصل أصواتهم إلى أسماعه عبر هدير الأمواج وزئيرها ولطماتها على وجوههم ولحاهم الغارقة :

ـــ يا معلم أما يهمك أننا نهلك .

إستيقظ يسوع بنظرات تشع ثقة وطمأنينة ثم نهض منتهراً الريح :

ـــ كفى !

ثم نظر إلى البحر آمراً إياه بجدية وحزم :

ـــ أسكت . إبكم !

وفى الحال سكنت الريح ، واستوت صفحة المياه كما لو كانت طبقة بللورية تعكس ضوء القمر الذى لم يعد شاحباً بل افترش البحيرة بوميضه الفضى ، وصار هدوء عظيم ترددت فيه أصداء الأنفاس التى لا تزال لاهثة بعد استيقاظها من كابوس العاصفة ، وجلجل صوت يسوع قائلاً لتلاميذه :

ـــ ما بالكم خائفين هكذا ؟! كيف لا إيمان لكم ؟!

لكن خوفهم هذه المرة لم يكن من العاصفة بل كان منه هو شخصياً . ودون تفكير قالوا بعضهم لبعض مقاومين ذهولهم قدر إمكانهم :

ـــ من هو هذا ؟! فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه ؟!

حاولوا الهروب من وطأة أفكارهم الجاثمة على أنفاسهم بالانهماك فى

التجديف الذى أصبح نزهة بحرية فى ضوء القمر وعلى صفحة بللورية من مياه صافية ، متألقة حانية كالوسادة الناعمة . أما يسوع فقد عاد إلى نومه حتى الخيوط الأولى من الفجر عندما بدت فى الأفق ضفاف كورة الجدريين . ومع بزوغ الشمس التي افترشت بنسيجها الذهبى البحيرة وضفافها رست السفينة ؛ وأسرع بطرس وأندراوس إلى ربطها بالحبال التى لفاها حول القوائم الخشبية الغليظة المفروشة فى رمال الشاطىء ، وكذلك فعلت السفن الصغيرة التى شاركت سفينة يسوع رحلتها المثيرة .

وبمجرد أن وضع يسوع قدميه على رمال الشاطىء فإذ بإنسان عار به روح نجس ، قدم من القبور التى يسكن فيها بعيداً عن الأحياء المأهولة بالسكان . كان منظره بشعاً ، مقززاً بشعره الكث المترب ، وعينيه الحمراوين الذاهلتين الجاحظتين ، وجسده الملطخ ببقع الدماء التى جف بعضها فى حين لا يزال البعض الآخر يحتفظ بلزوجته وطراوته ، وصوته الذبيح الذى يمزج نباح الكلاب بعواء الذئاب بنقيق الضفادع . إقترب من يسوع فاهتز التلاميذ خوفاً وضيقاً ، خاصة أن أحداً لم يقدر أن يربطه ولا بسلاسل ، واذا استطاع فإنه سرعان ما يقطع السلاسل ويكسر القيود . فلم يقدر أحد أن يذلله . وكان دائماً ليلاً ونهاراً فى الجبال وفى القبور يصيح ويجرح نفسه بالحجارة .

عندما رأى يسوع ركض وسجد له ، لكن يسوع أمره :

ــ أخرج من الإنسان ياأيها الروح النجس !

فصرخ بصوت عظيم ولا تزال جبهته فى التراب عند قدمى المخلص :

ــ مالى ولك يايسوع ابن الله العلى . أستحلفك بالله أن لا تعذبنى !

سأله يسوع بنفس الحسم :

ــ ما اسمك ؟!

ارتعش صوته وهو يجيب :

ــ إسمى لجيئون لأننا كثيرون .. أستحلفك بالله أن لا ترسلنا إلى خارج الكورة !

نظر يسوع حوله فوجد عند الجبال المحيطة بالبحيرة قطيعاً كبيراً من الخنازير

يرعى فى حين رجاه كل الشياطين قائلين :

ـــ أرسلنا إلى الخنازير لندخل فيها !

فأذن لهم يسوع وفى الحال خرجت الأرواح النجسة لتدخل فى قطيع الخنازير الذى سرعان ما اندفع من على الجرف إلى البحيرة بكامل عدده الذى يبلغ الألفين ليختنق فى المياه عن بكرة أبيه . أما رعاة الخنازير فظنوا أنفسهم فى كابوس يرزحون تحت وطأته فلاذوا بالفرار غير مصدقين أعينهم وأخبروا كل من قابلوه فى المدينة وفى الضياع بما رأوه رؤية العين . وفى الحال خرج الجميع ليروا ما جرى ، وجاءوا إلى يسوع فنظروا المجنون الذى كان فيه اللجئون جالساً فى هدوء ، ولابساً عباءة منحها له أحد التلاميذ ، وعاقلاً ينظر إليهم والعرفان بمعجزة يسوع يفيض من عينيه الدامعتين فى وداعة .

نظرت الجموع بعضها لبعض والخوف يأخذ منهم كل مأخذ ، وأرادوا أن يتأكدوا مرة أخرى من شهود العيان فسمعوا ما سمعوه من قبل من رعاة الخنازير . عندئذ سرت همسات محمومة بين الأفواه والآذان :

ـــ ما هذه القوة المخيفة التى يمتلكها ؟!

ـــ كلمة واحدة من فمه تقضى على كل هذه الأرواح الشريرة فى لحظة !

ـــ هذا يعنى أن فى استطاعته أن يفعل أى شيء !!

ـــ ونظل نحن تحت رحمته ليفعل بنا ما يشاء !

ـــ وماذا سيكون مصيرنا لو غضب علينا ؟!

ـــ الغرق فى البحيرة كالخنازير تماماً !

ـــ خير لنا أن يتركنا لحال سبيلنا !

ـــ ويذهب هو إلى سبيله أيضاً !

منحت الهمسات المحمومة أحد شيوخهم الجرأة على مواجهة يسوع وخلفه ردد البعض كلماته :

ـــ إمض من تخومنا ! إمض من تخومنا !

إبتسم يسوع فى سخرية مريرة ولم يفتح شفتيه بكلمة بل عاد ليدخل

السفينة ، وفى أعقابه المجنون الذى شُفى من الأرواح النجسة يلهث ويتضرع :

ـــ خذنى معك ! أريد أن أكون معك !

لكن يسوع التفت إليه و لم يدعه يدخل السفينة قائلاً فى حزم :

ـــ إذهب إلى بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك .

نفذ الرجل الأمر الإلهى فى الحال ، وذهب لينادى فى العشر المدن كم صنع به يسوع . فتعجب الجميع ومجد بعضهم الله .

وعادت سفينة يسوع تشق عباب البحيرة وحولها السفن الصغيرة التى تبعتها منذ بداية الرحلة حتى بلغت كفرناحوم حيث كان سكن يسوع . وبمجرد أن اقتربت السفينة من رمال الشاطىء وألقت مرسيها ، كانت الجموع محتشدة كعادتها فى انتظار عودته والأقدام غائصة فى الرمال الممتزجة بالماء والملح والقواقع الصغيرة . تهللت أساريرهم بمجرد رؤيتهم لطلعة يسوع البهية . وبمجرد أن وطأ يسوع الشاطىء بقدميه إذ بأحد رؤساء المجمع واسمه يايرس قد هرع إليه وخر ساجداً عند قدميه وهو يتضرع إليه فى لجاجة :

ـــ ابنتى الصغيرة على آخر نسمة . ليتك تأتى وتضع يدك عليها لتُشفَى فتحيا .

سعد يسوع لإيمان الرجل فمضى معه مسرعاً لكن الجموع ظلت تزاحم الرجل اللاهث ، الحزين ، المضطرب ، القلق فى الاقتراب من يسوع قدر الإمكان ، ووسطهم استماتت امرأة شاحبة اللون وزائغة النظرات المحاطة بهالات سوداء كى تمس ولو ثياب يسوع لتشفى . كانت قد أصيبت بنزيف دم منذ أثنتى عشرة سنة ، وقد أحال حياتها إلى جحيم . و لم يخفف الأطباء الكثيرون الذين ترددت عليهم شيئاً من آلامها المبرحة ، بل على النقيض من ذلك تماماً ، ظلت حالتها تتأخر من سىء إلى أسوأ ، ومالها ينضب معينه إلى أن جف تماماً ونزيفها لم يعرف الجفاف .

وبرغم أن القوة كانت تتسلل من جسدها كما تتسلل المياه بين الأصابع من كل قطرة دم تنزفها ، فإن إيمانها بيسوع منحها قوة أعانتها على اختراق الحشود المتلاصقة ، المتراصة ، الصاخبة ، المحيطة به حتى اقتربت منه لتمد ذراعها ، وقطرات العرق تغرق عينيها ووجهها ، ولسانها يلهج بأنفاس مبهورة وهمسات

متقطعة :

ـــ إن مسست ولو ثيابه شفيت . إن مسست ولو ثيابه شفيت !

وأخيراً نجحت فى أن تمس ثيابه بأطراف أصابع يمناها ، وفى نفس اللحظة المبهرة شعرت بأن ينبوع دمها قد جف فى جسدها الذى عرف الشفاء من الداء بعد أيام اليأس وليالى الألم التى امتدت لتغطى اثنتى عشرة سنة من عمرها . وفى اللحظة نفسها التفت يسوع ناظراً بين الجموع ، شاعراً فى نفسه بالقوة التى خرجت منه ، قائلاً مع الصمت الذى هبط على الرؤوس :

ـــ من لمس ثيابى ؟!

عندئذ لم يملك تلاميذه المحيطون به سوى أن يتعجبوا متسائلين فى كلمات كادت أن تكون واحدة دون تفكير :

ـــ أنت تنظر الجمع يزحمك وتقول من لمسنى ؟!

لكن يسوع كان مشغولاً بالبحث بعينيه عن تلك التى فعلت هذا . أما المرأة التى كانت قد ابتعدت قليلاً بعد لمسه فجاءت وهى خائفة مرتعدة ، وخرت ساجدة لتعترف أمام الجموع بكل ما بدر منها تجاهه ! وابتسم يسوع فى حنان جارف قائلاً لها :

ـــ ياابنة إيمانك قد شفاك . اذهبى بسلام وكونى صحيحة من دائك .

والتفت يسوع إلى الأمام ليواصل سيره إلى بيت يايرس رئيس المجمع فى نفس اللحظة التى وصل فيها البعض من البيت قائلين له نائحين :

ـــ ابنتك ماتت . لماذا تتعب المعلم بعد ؟!

انتابت رئيس المجمع رعشة أوشكت أن تسقط به صريعاً على الأرض ، لكن يسوع بصوته الحبيب قال له وهو يربت على كتفه :

ـــ لا تخف . آمن فقط .

ثم اختار يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب ليتبعوه وأمر الآخرين بالانصراف إذ لا يعقل أن تتزاحم كل هذه الجموع عند بيت أصاب فيه الموت زهرته وينبوع البهجة فيه . وفى الحال انصرفت الجموع طاعة لأمر المعلم الذى

بكاء ذاهل :

ـــ لماذا تضجون وتبكون ؟! لم تمت الصبية لكنها نائمة !

تحول البكاء والعويل إلى ضحك وهذيان ، فهو يعتقد أنهم لا يدركون الفرق بين النوم والموت لكنه أمر الجميع بالخروج فأطاعوا ، ودخل غرفة نوم الصبية فى صحبة أبيها وأمها وبطرس ويعقوب ويوحنا . كانت الصبية مضطجعة ، مغمضة العينين ، ووجهها فى شحوب الغطاء الأبيض الذى تدثرت فيه . أمسك يسوع بيد الصبية وقال لها :

ـــ طليثا قومى .

كلمات بسيطة هادئة تفسيرها :

ـــ ياصبية لك أقول قومى .

فى الحال نهضت الصبية وتركت الفراش لتسير على قدميها فى الغرفة ، سعيدة ، رشيقة ، خفيفة ، جميلة فى ثوبها الأبيض الناصع فلم تكن قد تعدت اثنتى عشرة سنة . بهت الحاضرون وهم يتابعون المشهد العجيب بنظرات مبهورة ، دامعة تتنقل بين القائمة من الأموات وبين المخلص الذى أقامها . لكنه ببساطته المعهودة أوصاهم كثيراً أن لا يعلم أحد بذلك ، وطلب منهم أن يحضروا لها طعاماً حتى تسد رمقها . لكن الأب والأم خرا ساجدين فى بكاء الفرحة العارمة عند قدمى يسوع الذى ومضت ابتسامته الحانية فى ضوء الشمس المتسلل من قضبان النافذة ، قائلاً فى بهجة :

ـــ قلت لكم .. الصبية جائعة .

لم يرسل يسوع تلاميذه الإثنى عشر ليكرزوا بملكوت الله ، قبل أن يعطيهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين والأمراض بل والموت . واعتمدوا فى معاشهم على ما لديهم من المدخر القليل وعلى سخاء المحبين لهم . ونظراً لأن الأيام المتبقية ليسوع فى هذا العالم أصبحت قليلة ، فقد أرسلهم ليمارسوا تعليمهم وتدريبهم استعداداً لليوم الذى يتركهم فيه . خرجوا من لدنه اثنين اثنين : بطرس وأندراوس ، يوحنا ويعقوب ، فيلبس وبرثولماوس ، متى وتوما ، يعقوب بن حلفى ولباوس ، سمعان القانونى ويهوذا الإسخريوطى ، وهم يحملون على أكتافهم الرسالة الإلهية التى ستعود بالبشرية إلى مسارها الصحيح الذى كان الله قد رسمه لها قبل أن يرتكب آدم الخطيئة الأولى .

إنتشر التلاميذ فى المدن والقرى والضياع يبشرون ويكرزون بملكوت الله القادم ، لكنهم سرعان ما عادوا إلى كفرناحوم ليحملوا إلى يسوع خبرين : أحدهما حزين والآخر سعيد . ففى الجنوب تناقل الناس خبر قتل هيرودس ليوحنا المعمدان وذلك بقطع رأسه ، وكان يسوع على علم بهذا الخبر إذ أن تلاميذ يوحنا دفنوا الجسد وأتوا وأخبروا يسوع ، لكن الجديد فى الخبر الحزين أن الجموع فى كل بقاع الجليل كانت ثائرة على مظالم هيرودس التى بلغت قمتها المأسوية بقتل يوحنا المعمدان لمجرد أنه أعلن كلمة الحق فى وجهه ، وكانت نذر الشر تتطاير فى الجو الملبد بالغيوم القاتمة وتنبىء بأحداث دموية قادمة .

أما الخبر السعيد فتمثل فى حماس التلاميذ وسعادتهم بنجاحهم الباهر فى مهمتهم الإلهية التى بدت فى نظر بعضهم مستحيلة فى أول الأمر . فقد عادوا إلى يسوع ولسانهم يلهج برنة البهجة ونشوة الإنتصار :

ـــ يارب حتى الشياطين كانت تخضع لنا باسمك .

وبالإضافة إلى روح الإيمان واليقين الذى بثه التلاميذ فى نفوس الجموع التى ذهبوا إليها لتبشيرها ، فإن الأنظار كلها اتجهت إلى يسوع بعد أن تأكد لديها خبر مقتل يوحنا المعمدان ، وأصبح يسوع بمثابة القائد الجديد للثورة ضد هيرودس وغيره من الظالمين الآثمين . لكن يبدو أن الفهم الخاطىء لرسالة

يسوع قد دفع الجموع إلى التعبير العلنى عن تمنياتها بتنصيب يسوع زعيماً سياسياً لإنقاذ شعب الله من نير الظلم والعدوان ، تحقيقاً للحلم القديم الأثير بإقامة المملكة التى ستعيد مجد إسرائيل الضائع . فلم تدرك الجماهير الثائرة الصاخبة أن مملكة يسوع هى مملكة فى السماء وليست على الأرض .

ولذلك عندما التأم شمل التلاميذ مرة أخرى حول يسوع ، أحدثت الجماهير الصاخبة الثائرة هرجاً ومرجاً لم تشهد كفرناحوم مثيلاً لهما من قبل ، وتحرك يسوع وتلاميذه وسط طوفان من البشر الذين أصبح مجرد تجمهرهم بهذا الشكل يمثل ثورة عارمة فى وجه الظلم والطغيان . لكن يسوع كان متعباً وكذلك تلاميذه الذين عادوا تواً من مهمتهم الشاقة ، فى حين أن هذه الأمواج الهادرة من البشر لا تتيح لهم أية فرصة للراحة أو حتى لتناول الطعام ، عندئذ قال لهم يسوع بلهجته الأبوية الحانية :

ـــ تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء واستريحوا قليلاً .

أسرع بطرس ليسحب سفينته إلى شاطىء البحر ليخطو السيد إلى داخلها وفى أعقابه التلاميذ الذين أحاطوا به وهم يفردون الشرع الرمادية والسمراء ، ويوجهون الدفة إلى الجهة الشمالية الشرقية صوب تلال الريف بعيداً عن الرخام والضجيج لتجديد نشاطهم وتبادل الأحاديث حول التجارب التى مروا بها والخبرات التى اكتسبوها فى أولى رحلاتهم بعيداً عن المعلم . كانوا يتضاحكون ويقاطعون بعضهم بعضاً من فرط حماس كل منهم لرواية ما مر به للمعلم . كان البحر بالنسبة لهم هو نزهتهم الوحيدة بعيداً عن ضغوط العمل وزحام الجماهير ، ومع ذلك فقد فرضت أحاديث الساعة نفسها عليهم ، وكان رأيهم شبه الإجماعى أن الشعبية الكاسحة والشهرة الطاغية اللتين تحيطان بيسوع حيثما حل وحيثما ذهب ، قد أكدت لهم أن هيرودس وخلفه رؤساء الكهنة وفئات الفريسيين والكتبة والناموسيين والصدوقيين لن يقفوا مكتوفى الأيدى وهم يرون سلطانهم العريق الراسخ يتهاوى بعد أن أوشك الشعب كله أن ينفض من حولهم ليحيط يسوع بكل القلب والعقل . والدليل على ذلك أن السفينة كانت تتهادى فى البحيرة مبتعدة عن الجماهير المزدحمة على الشاطىء ، لكن هذه الجماهير وغيرها من مدن وقرى أخرى بمجرد أن عرفت اتجاه السفينة ركضت بحذائها من كل اتجاه بل وسبقتها لتكون فى استقبالها حيث ترسو .

حتى النساء اللاتى حملن أطفالهن المرضى ركضن إلى هناك مع الجماهير الغفيرة . ومع ذلك حسم يسوع قلق تلاميذه من السلطة السياسية والكهنوتية بأن أكد لهم على أن صاحب الرسالة المؤمن بها تماماً لا يفكر فى أى اعتبار آخر سوى توصيلها ، أما إذا انتابته المخاوف من أية سلطات أو عقبات مهما كانت ، فإن إيمانه برسالته يصبح أمرا مشكوكاً فيه تماماً .

بدأت التلال الريفية على الضفة الشمالية الشرقية فى الإقتراب ، وعندما اتضحت معالمها أصيب التلاميذ بخيبة أمل ارتسمت على وجوههم المرهقة . فقد كان أملهم أن ينالوا بعض الإسترخاء فى موضع الخلاء الذى دعاهم إليه يسوع ، لكنهم بهتوا عندما وجدوا الجماهير التى كانت فى انتظارهم أضعاف أضعاف الجماهير التى تركوها على ضفاف كفرناحوم . نظروا إلى المعلم والإحباط يأخذ منهم كل مأخذ ، لكنهم فوجئوا أيضاً بالسعادة المتألقة على وجهه المضىء وهو يستقبل بنظرات باسمة وذراعين محدوتين الجماهير المنتظرة على أحر من جمر .

وبمجرد أن رست السفينة إلى الشاطىء وهبط منها يسوع مع تلاميذه ، أرتفعت حناجر الجماهير المتراصة بالتهليل والتمجيد ، وأوشكت القلوب أن تقفز من الصدور لتحيط به . وكان يسوع مبتهجاً بهم كعادته دائماً مع كل من يحتاج إليه ، وسرعان ما توجه إلى الأمهات اللاتى يحملن فلذات أكبادهن المرضى ليطيب خاطرهن ويشفى أطفالهن . وانقضى النهار كله فى معجزات الشفاء وآيات الكرازة : العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون . أما التلاميذ فقد انهمكوا فى تنظيم هذه الآلاف المؤلفة توفيراً للوقت والجهد ، فكان يوماً من أشق الأيام التى قضوها مع المعلم فى العمل والجهاد حتى مالت الشمس إلى الغروب حين رفع يسوع عينيه فرأى نفسه محاطاً بأمواج بشرية جائعة ومتعبة ، وإن كان الذين نالوا الشفاء والحياة على يديه قد نسوا الجوع والتعب . أراد يسوع أن يمتحن تلاميذه فاستدعى فيلبس وسأله :

ــ من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء ؟!

قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل . وبالفعل أجابه فيلبس ببساطة شديدة :

— لا يكفيهم خبز بمئتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيرا !

عندئذ قال التلاميذ بما يشبه الإجماع :

— إصرف الجمع ليذهبوا إلى القرى والضياع حوالينا فيتوا ويجدوا طعاماً لأننا ههنا فى موضع خلاء .

فقال لهم يسوع بابتسامة حانية :

— أعطوهم أنتم ليأكلوا .

نظرروا إليه فى دهشة عاجزة عن الرد لكنه أردف متسائلاً :

— كم رغيفاً عندكم ؟ اذهبوا وأنظروا .

تفرقوا بين الجماهير بحثاً عما يطلبه ، وكان أندراوس أول من عاد إلى المعلم ليقول له لاهثاً والعرق يتصبب على جبينه :

— هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان !

لكنه تساءل فى شك يائس :

— ما هذا لمثل هؤلاء ؟!

وقبل أن يفتح يسوع فمه كان التلاميذ قد عادوا ليأمرهم :

— إجعلوا الناس يتكئون رفاقاً رفاقاً على العشب الأخضر .

أسرع التلاميذ ليقسموا الجماهير صفوفاً صفوفاً مئة مئة وخمسين خمسين ، وكان عددهم نحو خمسة آلاف . ثم جاء أندراوس بالأرغفة الخمسة والسمكتين إلى يسوع الذى رفع نظره نحو السماء وباركها ثم كسر وأعطى التلاميذ ليقدموا للجماهير بقدر ما شاءوا . وإذا بالأرغفة والسمكتين آلافاً مؤلفة تفيض على الجائعين الآكلين حتى شبعوا ، ويسوع ينظر إليهم بعينين متألقتين بالحب والحنان فى ضوء القمر الفضى الذى لم يصل إلى العشب الندى كعادته ، لأن العشب كان قد اختفى تماماً تحت المتكئين ، وعندما تأكد يسوع من شبع الجميع قال لتلاميذه :

— إجمعوا الكسر الفاضلة لكى لا يضيع شىء !

وانتهى اليوم الشاق للتلاميذ بأن جمعوا وملأوا اثنتى عشرة قفة من الكسر . فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع ، رددت ألسنتهم كلمات مبهورة أكدت على أن يسوع هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم . فأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً ، انصرف إلى الجبل وحده لأنه كان قد أمر تلاميذه أن يدخلوا السفينة حتى يكون قد صرف الجمع . وقد هرع التلاميذ إلى السفينة لأنهم كانوا فى أشد الحاجة إلى الراحة والاسترخاء . أما يسوع فقد أطفأ نار الثورة التى كانت على وشك أن تندلع ، إذ أن خمسة آلاف من البشر المتفجرين حباً وحماسة ، كفيلون بقلب كل الموائد على رأس هيرودس ورؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والناموسيين والصدوقيين ، لكن يسوع لم يردها ثورة بشرية لأنه نزل إلى الأرض من أجل ثورة سماوية . ولذلك بمجرد ذهاب التلاميذ إلى السفينة ، وتفرق الجماهير تنفيذاً لأمره ، مضى إلى الجبل ليصلى وقد سطع على وجهه الحبيب ضوء نورانى غير ضوء القمر الذى افترش قمة الجبل وسفحه ، وردد حفيف الرياح عند الأفق أصداء نبراته الإلهية حيث تنطبق السماء على الأرض ويتحول الكون كله إلى ملحمة إلهية لا يستوعبها عقل بشر .

أما التلاميذ فقد استرخوا لبعض الوقت ثم شرعوا فى التجديف حتى يلتقوا بيسوع عند الضفة التى سيهبط عليها من الجبل . لكن سرعان ما اختفى القمر وراء غمام قاتم ، وزأرت الرياح تعصف عصفها بين التلال ، وهاج البحر وتحولت أمواجه إلى جبال هادرة . وتذكر بطرس الرحلة البحرية التى نام فيها يسوع واضطروا إلى إيقاظه لإنقاذهم من القاع الذى فتح فاهه لإبتلاعهم . أما الآن فأين المخلص ؟! إنهم وحدهم فى مواجهة هذه المحنة وقد اعتادوا وجوده معهم بصفة شخصية ! أين هو ؟!

تلاطمت المخاوف والهواجس فى رؤوسهم كما تلاطمت الأمواج بقممها الفوارة بالزبد وسفوحها الدوارة بالدوامات حول سفينتهم الصغيرة ، لأن الريح كانت مضادة . ولهج قلب بطرس بصلاة صامتة حارة كى ينقذهم الله من الهاوية الهادرة فى قاع البحر المظلم . وفى الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر . فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر وقد أحاطته هالة نورانية وسط الأمواج المعتمة اضطربوا صارخين :

ـــ إنه خيال ! إنه خيال !

وتعالت صرخاتهم حتى غطت على هدير الريح والمياه ، فكلمهم يسوع فى الحال بصوته الذى يتدفق بالسلام والطمأنينة :

ـــ تشجعوا . أنا هو . لا تخافوا .

فأجابه بطرس بنبرات مرتعشة رعباً :

ـــ ياسيد إن كنت أنت هو فمرنى أن آتى إليك على الماء .

فأجابه ببساطته المعهودة :

ـــ تعال .

نزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتى إلى يسوع . ولكن لما رأى الريح شديدة خاف وإذ ابتدأ يغرق وقدماه تغوصان فى المياه صرخ قائلاً :

ـــ يارب نجنى .

ففى الحال مد يسوع يده وأمسك به قائلاً له بنبرة عتاب رقيق :

ـــ ياقليل الإيمان لماذا شككت ؟!

ولما دخلا السفينة سكنت الريح . أما التلاميذ الذين فى السفينة فقد جاءوا وسجدوا له قائلين :

بالحقيقة أنت ابن الله . بالحقيقة أنت ابن الله .

ذرع أرخيلاوس ملك اليهودية القاعة الذهبية جيئة وذهاباً وهو يكاد يتعثر فى أذيال ردائه الأحمر المطرز بخطوط ذهبية ، وقد طفح بياض وجهه وعينيه بحمرة عاصفة ، وتناثرت جدائل شعره حول رأسه دون أنه تبدئ صفرتها اللامعة المعتادة . دار فى الأركان وحول الأعمدة والمقاعد المتناثرة بالمخمل الأحمر ، والمصابيح الزيتية التى لا تزال تمزج ضوءها المتراقص بعطر زيتها النادر .

كان أخيلاوس قد استدعى قائد الحرس وأعضاء مجلس السنهدريم للتشاور فيما يجب عمله تجاه يسوع الذى أوشكت الأمور أن تدين له فى كل أرجاء المملكة . ويبدو أن قلقه المتزايد قد دفع به للنزول إلى القاعة الذهبية قبل ميعاد لقائهم . وظلت نظراته الزائغة معلقة بين الحين والآخر بالباب الرئيسى حتى دخل قائد الحرس ومعه أعضاء مجلس السنهدريم لينحنوا أمام الملك فى عباءاتهم السوداء ، فأشار إليهم بالجلوس على المقاعد المتناثرة بالمخمل الأحمر ، لكنهم لم يجلسوا إلا بعد أن استوى أرخيلاوس على عرشه المرمرى المذهب محاولا أن يبدو راسخاً بلا قلق ينهش داخله . قال :

ــ إن السبب الذى استدعيتكم من أجله ليس خافياً عليكم ! فهو خطر يهدد سلطتكم الكهنوتية التى تسلمتموها منذ أيام ابراهيم وحرصتم عليها حتى الآن . لكننى أرى حرصكم هذا وقد تحول إلى مجرد محاجاة لأقوال هذا الشاب العجيب الذى يسحب البساط من تحت أقدامكم يوماً بعد يوم .

وقف قيافا الكاهن وهو يشد أطراف عباءته حول جسده المشدود :

ــ بالنيابة عن زملائى الكهنة أقول لجلالتكم إن العقاب الرادع لهذا الشاب لا تملكه سوى سلطة جلالتكم .. أما السلطة الكهنوتية فهى لا تملك سوى العمل على حماية الناموس والشريعة !

جلس قيافا ليقول له أرخيلاوس بمنتهى الحزم :

ــ أنت تعلم أن سلطة السنهدريم تمتد لتشمل حياة اليهود الدينية والمدنية معاً .. كما أنه الهيئة الكهنوتية العليا المختصة بالحكم فى كل المخالفات التى تقع

ضد الشريعة .. وفى سلطته إصدار الأحكام ومتابعة تنفيذها . فماذا تنتظرون ؟!

نهض حنان الكاهن وهو يضبط العمامة على رأسه :

ــ عدا حكم الموت فيجب رفعه للوالى الرومانى كما تعلمون جلالتكم !

حك أرخيلاوس لحيته التى تمزج الصفرة بالحمرة ثم قال بعد تفكير :

ــ لم يصل تفكيرى إلى هذا الحد ! فأخى هيرودس يعانى من مقتل يوحنا المعمدان !

نهض قائد الحرس مؤديا التحية العسكرية قائلاً بنبرة صارمة :

ــ فلنرسل له من يقضى عليه بطعنة نجلاء فى ظهره وسط الجماهير الصاخبة .. فلن يدرى أحد من طعنه !

نهض سمعان الأبرص عضو السنهدريم ليقول للقائد :

ــ بلغنى أنه شعر بامرأة تمد ذراعها لتلمس ثوبه من الخلف طلباً للشفاء من نزيف مزمن .. فكيف لا يشعر بمن يحاول طعنه ؟!

واصل قائد الحرس الدفاع عن رأيه :

ــ لن يشعر بشىء إلا بعد أن تكون الطعنة قد تمت .

حسم ارخيلاوس الجدل وقد استرخى قليلاً على عرشه :

ــ فلنفكر فى طريقة أكثر تعقلاً !

قاوم قائد الحرس مشاعر الإحباط التى غمرته :

ــ فلنغرق السفينة التى اعتاد أن يتجول بها فى البحيرة مع أصدقائه الصيادين !

أشار أرخيلاوس إلى قائده بالجلوس فجلس وهو يخلع خوذته النحاسية اللامعة ليضعها على ساقيه ويجفف عرق رأسه وجبهته .

نهض يوشافاط الكاهن وعضو المجمع ليقول :

ــ لقد خاضت سفينته القديمة المتهالكة أكثر من عاصفة عاتية و لم تغرق .

بل إن تلاميذه يقولون إنه نهر الريح والبحر فسكتا .. وفى مرة أخرى جاءهم سائرا على الماء وسط العاصفة لينقذهم !

أشاح قيافا بوجهه بعيدا قائلاً :

ـــ فليقل تلاميذه ما يحلو لهم ! لكن علينا أن نفعل شيئاً ! أردف يهوشافاط قائلاً :

ـــ لذلك أرى وضعه فى السجن بتهمة نقض الشريعة وتهييج الشعب حتى تهدأ الأمور .. فالشعب سرعان ما ينسى من لايراه بعينه ويسمعه بأذنه .. فالقضاء عليه تدريجا وببطء خير من القضاء المبرم العلنى عليه .. إذ سيصبح بطلاً وشهيداً فى نظر الجميع ! وربما وقع ما لا تحمد عقباه !

انتصب أرخيلاوس فى جلسته وقد بدا عليه التفكير العميق :

ـــ إن موقف بيلاطس البنطى بصفته الوالى الرومانى المسئول عن الأمن فى هذه المنطقة الحساسة من مناطق الامبراطورية الرومانية موقف غريب للغاية .. فهو لم يحرك ساكناً برغم شعبية يسوع الجارفة التى تمكنه الآن من تحريك الجماهير الغفيرة بكلمة من فمه أو إشارة من يده !

نهض الكاهن نيقوديموس وهو ينتقى عباراته بعناية وينظر حوله فى ريبة وشك :

ـــ لاشك أن عيون بيلاطس البنطى مبثوثة وسط الجماهير .. ولابد أن هذه العيون لم تلمس خطراً كامناً فيما ينادى يسوع به . فهو يبشر بمملكة فى السماء ليست لها علاقة من قريب أو بعيد بممالك الأرض !

انتفض الكاهن يورام ليقول بنبرات حادة غير منتقاة :

ـــ لابد أنه يتكلم هكذا فى البداية .. لكن ويل لنا جميعاً عندما يتمكن من رقابنا .. بل ربما دفعه طموحه إلى تحدى الامبراطورية الرومانية ذاتها .. وثورة سبارتاكوس ليست بعيدة عن أذهان الأباطرة الرومان !

أمّن أرخيلاوس على كلام يورام الذى جلس راضياً عن نفسه :

لابد أن نوحى لبيلاطس البنطى من طرف خفى .. انه إذا لم يبلغ الأمر بنفسه للإمبراطور فى روما .. فإن هناك من سيبلغه به من خلف ظهره ..

فأمن الامبراطورية أمر لا يمكن التساهل فيه .. وإذا كان سبارتاكوس قد ثار لتحرير عبيد الإمبراطورية .. فإن يسوع ينادى بتحرير كل البشر من كل سلطان دنيوى .. وهذا أخطر على الامبراطورية التى تحكم أكثر من نصف البشر فى هذا العالم !

نهض الكاهن فوطيفار وكلماته الهادئة توحى بالثقة البالغة بنفسه :

ــ ولماذا لا نحكم على هذا الإنسان بالطرد والنفى من المملكة فنتجنب كل المشاكل التى يمكن أن تنتج عن قتله ! وإذا كان بطبيعته مثيراً للمتاعب والمشاكل فليثرها بعيداً عنا !

لكن الكاهن روسموفين وقف محتجاً :

ــ ما فائدة الشريعة إن لم تحفظ ؟!

أكد الكاهن أتولومبه على ما قاله روسموفين :

لماذا تُرك كل هذه المدة ليفعل فيها ما يشاء .. ولم يحكم عليه بالموت منذ أول مرة نقض فيها الشريعة ؟! وما أكثر هذه المرات ؟!

تشجع نيقوديموس وهو يتعجل كلماته :

ــ إن شريعتنا لا تصرح بالحكم على أحد ما لم تؤخذ أولاً أقواله عما فعل .

إنتفض حنان واقفاً وقد تهدج صوته :

ــ ما أسهل أن ينكر كل شىء إذا ما أخذت أقواله .. لكن لدينا شهود عليه منذ أول مرة نقض فيها السبت !

عندئذ تكلم يوسف الرامى لأول مرة :

ــ لا أستطيع أن أمنع نفسى من الشعور بالعار عندما لا أجد أحداً يدافع عن هذا البار .. إنه لم يشهر سلاحاً واحداً فى وجوهنا سوى آرائه وكلماته التى يؤمن بها .. فما أضعفنا من أحبار ورؤساء كهنة إذا كان مصيرنا كله مهدداً بمجرد آراء وكلمات !! إن مجرد اجتماعنا هذا إعتراف مشين بضعفنا فى مواجهته !

أربد وجه أرخيلاوس غضبا وهو يسأل يوسف فى سخرية :

ـــ وماذا تقترح أيها الحبر الجليل لتواجهه بقوة ؟!

لم يتردد يوسف فى أن يقول :

ـــ فلنواجهه بنفس أسلحته .. الرأى بالرأى .. والكلمة بالكلمة .. فهو لم يطلب من أتباعه أن يشهر أحدهم سيفاً فى وجوهنا .. بل كان فى إمكانه أن يعلنها ثورة عارمة علينا يوم اجتمع بما يزيد على خمسة آلاف رجل فى أرض خلاء .. قرر معظمهم أن يختطفوه ليجعلوه ملكاً .. لكنه صرفهم فى رفق ثم ذهب ليصلى وحده على الجبل .

جلس يوسف وقد قبعت لحظات من الصمت المشحون على رؤوس الجميع . حتى أرخيلاوس بدا مستغرقاً فى تفكير عميق حتى قال الكاهن وعضو المجمع سوباط :

ـــ الشرائع لا تحكم على أحد بالموت بدون سبب !

علق الكاهن ميزا بقوله :

ـــ إن كان باراً فلنسمع منه وإن كان مجدفاً فليطرد .

قرر الكاهن ريفاد أن يدلى برأيه أخيراً :

ـــ اجعلوه أولاً يعترف بذنبه ثم عاقبوه !

علق الكاهن رحبعام محاولاً حسم القضية :

ـــ نحن لنا شريعة وبموجبها يجب أن يموت !

إستراح قيافا لقول رحبعام فقال مؤكداً :

ـــ الأجدر أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة بأسرها .

عاد الامتعاض إلى وجه أرخيلاوس والضيق إلى نبراته :

ـــ ها قد عدنا مرة أخرى إلى حلقتنا المفرغة ! وهذا يؤكد للأسف كلام الكاهن يوسف عن ضعفنا فى مواجهته !!

نظر الكهنة والأحبار فى ضيق إلى زميلهم يوسف الرامى لكنه لم يعبأ بنظراتهم وهمساتهم إذ كان راضياً عما قاله . نهض حنان غاضباً ليؤكد أن زمام

المبادرة لم يضع من أيديهم :

ــ إذا كان أخذ أقواله أمراً غير عملى .. وإذا كان من المتعذر إيجاد أدلة مادية مقنعة على مواقف متباعدة نقض فيها الناموس فإن عيد الفصح قد اقترب .. وفى اعتقادى أنه سيقدم لنا من الأدلة المادية العلنية الكثير وعلى طبق من فضة .. ساعتها لن يستطيع أن ينكر .. لأننا سنكون شهوداً عليه أمام الملأ .. وسنثبت له أننا لسنا عميان قادة عميان كما يدعى علينا ..

أضاف قيافا إلى كلمات حنان ما بث الحماس فى الجالسين .

ــ وسنبث حوله العيون لرصد كل حركاته وسكناته . فنحن فى النهاية خدام للشريعة والناموس ولسنا قتلة ! ويبدو أنه من النوع الذى يسعى إلى حتفه بظلفه ولابد أن يقضى على نفسه بنفسه !

علق أرخيلاوس فى سخرية واضحة :

ــ وتكتفون أنتم بمتعة المشاهدة والمتابعة حتى يقضى على نفسه بنفسه ؟!

أضاف قيافا بما يشبه الإعتذار :

ــ لم أقصد هذا .. فمن أجل جلالتكم لا يزيد أن نكرر مأساة يوحنا المعمدان فى الجليل وكلما سارت الأمور فى سياقها الطبيعى ففى الإمكان أن ننفذ كل خططنا بهدوء وبدون قلاقل خاصة وأن الشريعة والناموس فى صفنا !

أضاف أرخيلاوس مستعيداً ثقته بنفسه :

ــ عموماً إذا سارت الأمور إلى أسوأ فلدى الحرس القوى الذى سيتصدى للدفاع عن مليكه .

اشرأب عنق قائد الحرس وانتفخت أوداجه فخوراً بمليكه الذى أضاف متسائلاً فى شك :

ــ أما أنتم فلا أعرف من يحميكم إذا بلغتم هذا الوضع ؟!

ثم نهض ليدق بالعصا ذات الكرة على الطاسة النحاسية اللامعة المجاورة لعرشه منهياً الإجتماع ومغادراً القاعة ، وفى أعقابه قائد الحرس بقامته الطويلة وبنيته الضخمة ذات العضلات المفتولة ، فى حين عاد رؤساء الكهنة والأحبار

أدراجهم خارجين من القاعة الذهبية وقد تربعت صورة يسوع المضيئة فى كهوف عقولهم المعتمة ، لكنهم حاولوا تجنبها والهرب منها بتكرار الثرثرة حول ما يجب عليهم أن يفعلوه فى مواجهة هذا الطوفان الذى لم يكن يخطر لهم على بال برغم كل النبوَّات التى مهدت لمجيئه منذ أيام إبراهيم وحتى عهد ملاخى آخر أنبياء العهد القديم .

(٣٢)

شعر التلاميذ أن الدوائر تضيق حول معلمهم عندما عادوا معه فى السفينة إلى كفرناحوم ليعلم فى المجمع . وكانت هذه التجربة أول امتحان حقيقى لإيمانهم به . فقد اكتظ المجمع عن آخره بالذين جاءوا من كل الأرجاء ليسمعوا كلمات من أطعم الخمسة آلاف بخمسة أرغفة شعير وسمكتين حتى شبعوا ثم ملأوا اثنتى عشرة قفة من الكسر المتبقية من الآكلين . فقد بدأت المواجهة المباشرة بين يسوع وخصومه من رؤوساء الكهنة والأحبار واللاويين والفريسيين والكتبة والناموسيين والصدوقيين والهيرودسيين ، فقد أعلن عن ذاته وجوهره وغير ذلك من المعانى التى لم يفهموها أو أساءوا فهمها ، خاصة وأن سوء النية كان مبيتا لديهم منذ البداية . فقد شعر التلاميذ ببداية طريق الأشواك والأهوال التى سيخوضوها مع يسوع ، ولذلك تركوا شيطان القلق والتردد والتراجع يرتع داخلهم . فقد وقف يسوع على منبر المجمع فى كفرناحوم بقامته المديدة ، وردائه الكتانى الناصع البياض ، ووجهه النورانى لينادى بأفكار لم تخطر ببال أحد من قبل :

ـــ الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبوننى ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم . اعلموا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة الأبدية الذى يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآبُ قد ختمه .

نهض أحد الفريسيين ليقاطعه ويسأله :

ـــ ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ؟

أجاب يسوع بلهجته الوديعة :

ـــ هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى هو أرسله !

قاطعه أحد الكتبة بسؤال مغرض :

ـــ أيَّة آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟! ماذا تعمل ؟! آباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا !

أجابه يسوع بنفس الأفكار والكلمات السلسة المعهودة فيه :

ـــ الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء . لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم .

قال بعض البسطاء المنصتين له بقلوبهم :

ـــ ياسيد أعطنا فى كل حين هذا الخبز .

رفع يسوع ذراعيه فوق المنبر كأنه يحتضن الجماهير :

ـــ أنا هو خبز الحياة . من يقبل إلىّ فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً ولكنى قلت لكم أنكم قد رأيتمونى ولستم تؤمنون . كل ما يعطينى الآب فالىّ يُقبل ومن يُقبل إلىّ لا أخرجه خارجاً . لأنى قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى . وهذه مشيئة الآب الذى أرسلنى أنّ كل ما أعطانى لا أُتلف منه شيئاً بل أُقيمه فى اليوم الأخير . لأن هذه هى مشيئة الذى أرسلنى أنّ كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه فى اليوم الأخير .

سرت همسات التذمر بين اليهود الحاضرين بقيادة الفريسيين وأتباعهم ، وترددت فى الآذان :

ـــ كيف يجعل من نفسه خبزا ؟!

ـــ وليس خبزا عاديا بل خبزا نازلا من السماء !!

ـــ كيف بالله عليك ؟!

ـــ أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذى نحن عارفون بأبيه وأمه ؟!

ـــ كيف يقول بهذه البساطة إنى نزلت من السماء ؟!

لم يعبأ يسوع بهذه الهمسات والتساؤلات التى أقلقت تلاميذه أنفسهم وهم قابعون حوله ، خائفون عليه ، فقد قال :

ـــ لا تتذمروا فيما بينكم . لا يقدر أحد أن يُقبل إلىّ إن لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . إنه مكتوب فى الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من الله . فكل من سمع من الآب وتعلم يُقبل إلىّ . ليس أن أحداً

رأى الآب إلا الذى من الله . هذا قد رأى الآب .

حاول الفريسيون وأتباعهم التشويش بالهمسات والتعليقات لكن آذان الجماهير كانت مع يسوع برغم عجزها عن استيعاب كلماته بعقولها ، لكن كلماته أضاءت قلوبها بنور عجيب مثير :

ـــ الحق الحق أقول لكم من يؤمن بى فله حياة أبدية . أنا هو خبزُ الحياة . آباؤكم أكلوا المنَّ فى البرية وماتوا . هذا هو الخبز النازل من السماء لكى يأكل منه الإنسان ولا يموت . أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء . إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد . والخبز الذى أنا أُعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم .

لم يحتمل اليهود هذه المرة فعَلَتْ همساتهم إلى مستوى الجدل الصاخب قائلين لبعضهم بعضاً :

ـــ كيف يقدر هذا أن يُعطينا جسده لنأكل ؟!

ـــ كيف يظن أننا يمكن أن نصدق ما يقول ؟!

ـــ أكاد أشك فى أنه هو نفسه يفهم ما ينطق به !!

وبلغت الهمسات والتساؤلات المحمومة أسماع التلاميذ الذين تحول خوفهم إلى ذعر . فالمهمة ليست بالبساطة التى ظنوها ، والتيار أعتى من أن يحتمل ، لكن يسوع مضى فى كرازته وكأن شيئاً لم يكن :

ـــ الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . لأنَّ جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق . من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فيَّ وأنا فيه . كما أرسلنى الآبُ الحى وأنا حى بالآب فمن يأكلنى فهو يحيا بى . هذا هو الخبز الذى نزل من السماء . ليس كما أكل آباؤكم المنَّ وماتوا . من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد .

علت الهمسات والتساؤلات التى كانت خلسة فى الآذان لتصبح كلمات متلاطمة حول أعمدة المجمع وبين أبهائه ، حتى أن التلاميذ الجالسين حول المنبر ، منصتين إلى سيدهم ومعلمهم لم يكتموا ذهولهم واعترافهم بأن :

هذا الكلام صعب . من يقدر أن يسمعه !

لم تصل همسات التلاميذ الخائفة إلى أسماع المعلم ، لكنه كعادته أدرك ما يجول فى نفوسهم المتذمرة خفية من أقواله ، فقال لهم متسائلاً بنفس الهدوء العجيب والمنطق الصلب :

ـــ أهذا يُعْثركم ؟! فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً . الروح هو الذى يحيى . أما الجسد فلا يفيد شيئاً . الكلام الذى أُكلمكم به هو روح وحياة . ولكن منكم قوم لا يؤمنون . لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذى يسلمه .

تجنب التلاميذ نظراته النافذة إلى أعماقهم المضطربة كسهام نارية تكشف عن كهوفها المظلمة وهو يضيف قوله لهم :

ـــ لهذا قلت لكم إنه لا يقدر أحد أن يأتى إلىَّ إن لم يُعط من أبى .

أدرك كثيرون من تلاميذه هول المهمة المقدمين عليها . فهى ليست مهمة صعبة فحسب بل غير مفهومة أيضاً . أى مهمة مستحيلة ، ولذلك تراجعوا إلى الوراء و لم يعودوا يمشون معه خوفاً من نظرات الآخرين إليهم ، فقد كان البعض يعتبرهم مخلوقات غريبة قادمة من عالم آخر لمجرد اتباعهم لهذا النبى ، الشاب ، الغامض ، العجيب الذى يأتى بآيات غريبة ويتفوه بكلمات أكثر غرابة أصبحت الآن تستعصى على كل الأفهام . لكن التردد والخوف والتراجع كلمات لم تكن فى قاموس يسوع الذى واجه الإثنى عشر بما يدور داخلهم :

ـــ ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا ؟!

لكن بطرس بنفس حماسه المندفع لم يحتمل وقع هذه الكلمات :

ـــ يارب إلى من نذهب .. كلام الحياة الأبدية عندك .. ونحن قد آمنَّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحى ..

هذه المرة ألقى يسوع فى وجوههم بكلمات أحالت خوفهم إلى ذهول جعلهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً فى شكوك قاتلة كأصابع اتهام بالخيانة :

أليس أنى أنا اخترتكم الاثنى عشر وواحدٌ منكم شيطان ؟!

من هو هذا الشيطان بينهم والمفروض فيهم أن يحملوا الرسالة الإلهية التى

تتلمذوا على يديه من أجلها ؟! سؤال تفجر بينهم كالبركان الذى تناثر على رؤوسهم بحممه فأحال حيرتهم إلى ضياع ، ويقينهم إلى شك فى وقت شرع فيه اليهود فى طلب يسوع لكى يقتلوه ، ولذلك امتنع عن التردد فى اليهودية ، واقتصرت كرازته على أنحاء الجليل .

فكر كثيرون من التلاميذ فى التراجع وتسرعوا فيه فعلاً ، ولكنهم إلى أين ؟! إن التراجع عن اتباع يسوع بعد الارتباط الفعلى به ليس بالأمر اليسير كما ظنوا لأول وهلة ! فالحياة بعده لم تعد كما كانت قبله ! إنه ارتباط مصيرى بطريقة أو بأخرى . ومنذ تلك اللحظة تراوحت دوافع التلاميذ فى اتباع يسوع بين الحماس والإحباط ، بين اليقين والشك ، بين البهجة والحزن ، بين الإقدام والخوف ، بين الشجاعة والجبن ، بين النظر إلى الأمام والتلفت إلى الخلف ، بين الأمل واليأس . كانوا فى مجموعهم يجسدون البشر بكل تناقضاتهم وصراعاتهم ، وكان يسوع مدركاً لكل ما ينهش وجدانهم ومع ذلك قبلهم على علاتهم ، فمن أجل هؤلاء وأمثالهم جاء .

وتوالت آيات يسوع أمام التلاميذ الذين كثيراً ما قتلهم الإحساس بالذنب أو بالنقص أو بالضعف أو بقلة الإيمان كلما قابلوا ، من غير اليهود ، من هم أكثر يقينا منهم ، وهم تلاميذ المسيح الذين يتبعونه فى غدواته وروحاته ، ويرون آياته ومعجزاته رؤية العين ، ويتلقون تعاليمه وأمثاله من فمه شخصياً . فقد ذهب إلى تخوم صور وصيدا ، ودخل خلسة بيت أحد الأصدقاء ليستريح فيه من غناء الأيام الماضية ، وحرص الصديق على تنفيذ أوامر يسوع بألا يعلم أحد بوجوده فى بيته هو وتلاميذه . لكن هيهات !

كان حلول يسوع فى أية قرية أو مدينة ، خبرا مثيرا سرعان ما يتردد فى أرجاء الموضع مثلما يومض البرق فى الليلة الظلماء ، برغم حرص يسوع فى بعض الأحيان على أن يكون حلوله سراً . ولذلك فإنه بمجرد دخوله البيت أتت إليه امرأة أممية فينيقية سورية ، وبرغم أنها ليست من اليهود فإنها خرت ساجدة عند قدميه وكلها يقين بأن يسوع لن يخيب رجاءها :

ـــ ياسيد .. ابنتى بها روح نجس .. وليس سواك يمكنه اخراجه من جسدها المعذب .

لكن يسوع أجابها بكلمات أذهلت تلاميذه الذين لم يعتادوا مثلها فى قسوتها وصرامتها :

ـــ لم أرسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالة !

قبلت قدميه بعينين دامعتين :

ـــ ياسيد أعنّى .

أردف قائلاً كحد السيف :

ـــ دعى البنين أوّلاً يشبعون .. لأنه ليس حسناً أن يُؤْخذ خبزُ البنين ويطرح للكلاب !

تابع التلاميذ الحوار مذهولين والمرأة تجيب :

ـــ نعم ياسيد .. والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين !

عندئذ نظر يسوع إلى تلاميذه نظرات ذات مغزى حاد ثم التفت إلى المرأة الساجدة :

ــ لأجل هذه الكلمة اذهبى . قد خرج الشيطان من ابنتك !

انتفضت المرأة واقفة لا تكاد تصدق نفسها ولا تدرى ماذا تفعل سوى أن لسانها ظل يلهج بالحمد والشكر وهى تنطلق من البيت لتبتلعها شوارع القرية لاهثة تكاد تطير إلى ابنتها حيث وجدتها راقدة فى هدوء ، مبتسمة فى سعادة وقد تصبب العرق من جبينها ووجهها بعد أن خرج الشيطان من جسدها . احتضنتها ودموع الفرح تغرق وجهيهما ، وهمسات الحمد والشكر تتقاذف على لسانيهما .

كم كان خجل التلاميذ من أنفسهم وهم يشاهدون بأنفسهم إيمان هذه المرأة الكنعانية الأمية والذى لا تشوبه شائبة ! أما يسوع فقد أصبح يميل إلى الاختلاء بهم أكثر حتى يصبحوا أكثر قدرة على تشرب تعاليمه التى تحتاج إلى عقول جديدة . ولذلك ترك إقليم صور وصيدا إلى أماكن أخرى منعزلة مثل نواحى د لمانوثة التى كانت من الأقاليم الجرداء المحيطة بالبحيرة ، ومنها إلى منابع نهر الأردن شمالى الجليل حيث المناظر الطبيعية الأخاذة عند منحدرات جبل حرمون التى تحتضن المدينة الصغيرة الجميلة التى يطلق عليها اسم قيصرية فيلبس . هناك فى أحد منحدرات الجبل المطل على المدينة اختلى بحوارييه ليسألهم مختبراً إيمانهم الذى كان قد اهتز يوم تعليمه للجماهير فى مجمع كفرناحوم :

ــ من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان ؟

قالوا :

ــ قوم قالوا يوحنا المعمدان !

ــ وآخرون إيليا .

ــ وآخرون إرميا .

ــ أو واحد من الأنبياء .

كان يسوع عالماً بأفكار الناس عنه ، ولم يكن فى انتظار هذه الإجابات ، لأن هدفه كان الوقوف على مدى ما بلغوه من استيعاب وادراك للتعليم الذى

تلقوه على يديه طوال السنتين الماضيتين ، فقد كان مزمعاً أن يترك ملكوت الله أمانة بين أيديهم لتوصيله إلى البشرية جمعاء ولذلك سألهم :

ــ وأنتم من تقولون إنى أنا ؟

عندئذ تفجر حماس بطرس كعادته وهو يجيب بنبضات قلبه :

ــ أنت هو المسيح ابن الله الحى .

فرد يسوع عليه بنبرات الثقة والحب والطمأنينة :

ــ طوبى لك ياسمعان بن يونا . إن لحماً ودماً لم يَعْلِنْ لك لكن أبى فى السموات . وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليها . وأُعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات . وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات .

ومض بريق الذهول فى عيون التلاميذ اللاهثين وراء إدراك ما يقصده على وجه التحديد فى حين كان يوصيهم أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح . ومع التفتح التدريجى لمداركهم ابتدأ يسوع فى مصارحتهم بأنه ينبغى أن يذهب إلى أُورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وفى اليوم الثالث يقوم . لكن تفتح مداركهم لم يكن قد وصل بعد إلى درجة استيعاب هذه الأفكار المذهلة ، فإذ ببطرس نفسه يصيح :

حاشاك يارب . لا يكون لك هذا !

لكن يسوع التفت الى بطرس وقال له بحزم :

ــ اذهب عنى ياشيطان . أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس .

غرق بطرس فى أمواج الحرج والذهول لكن يسوع أردف قائلاً لتلاميذه :

ــ إن أرادَ أحدٌ أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها . ومن يُهْلِكُ نفسه من أجلى يجدها . لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطى الانسان فداءً عن نفسه ؟ فإن ابن الإنسان سوف يأتى فى مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازى

يجازى كل واحد حسب عمله .

ثم نظر إلى تلاميذه بوميض عيون متفحصة لهم واحداً واحداً باستثناء يهوذا الإسخريوطى الذى تجاهله كأنه غير موجود وهو يؤكد لهم :

ـــ الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموتَ حتى يروا ابن الإنسان آتياً فى ملكوته .

وتوالت تعاليم يسوع ، وأصبح التلاميذ أكثر قدرة على استيعاب معظمها ، باستثناء المعنى الشامل لمسألة القيامة من الأموات التى تكلم عنها يسوع أكثر من مرة . وكان لهم العذر فى هذا لأن هذا العالم والعالم الآخر يشكلان فى نظرهم كونين منفصلين ، أما الوجود كله فى نظر يسوع فيمثل وحدة متكاملة لا تعرف الانفصام أو الانفصال ، إذ أن مجىء المسيح نفسه كان بمثابة سد الفجوة بين العالمين ، تلك الفجوة أو الهاوية التى وقعت منذ ارتكب آدم الخطيئة الأولى فى جنة عدن . وكانت أولى مظاهر الاتحاد بين العالم المرئى والوجود غير المرئى يوم ميلاد يسوع فى بيت لحم عندما ظهر ملاك الرب ووقف بجماعة من الرعاة الذين كانوا يحرسون حراسات الليل على رعيتهم ، ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً . فقال لهم الملاك :

ـــ لا تخافوا . فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . إنه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب . وهذه لكم العلامة : تجدون طفلاً مقمطاً مضجعاً فى مذوذ .

ثم ظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السَّموى مُسَبِّحين الله وقائلين :

ـــ المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

ثم توالت مظاهر الاتحاد بين السماء والأرض ، فعندما كان يوحنا المعمدان يقوم بعماد يسوع انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً :

ـــ هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت .

ثم مر حوالى عامين ليأخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه فوق منحدرات جبال حرمون فى ليلة من ليالى الصيف التى غاب فيها القمر

وتكاثفت عليها طبقات الظلمة . وكان السيد كعادته يصلى فوق الجبل ووجهه النورانى صوب السماء التى تألقت فيها نجوم بعيدة لم تخفف من كثافة الظلمة فى حين انتحى بطرس ويعقوب ويوحنا أحد المنحدرات لتلاوة صلواتهم القصيرة ثم سرعان ما تثاءبوا فتدثروا فى عباءاتهم ليستسلموا لسلطان النعاس والنوم . لكن السيد واصل صلاته الحارة ، وطبقات الظلمة تخف وتتلاشى أمام موجات صامتة من الضياء الفضى الذى سطع على وجه يسوع النورانى أو نبع منه ، وقد تغيرت هيئة يسوع فأصبح كياناً من نور ساطع متدفق ، وابيضت ثيابه فى وميض يعشى الأبصار ، وتوحد العالم غير المنظور مع الأرض فى سحابات متألقة تهادت فوق الجبل ، وبين طياتها برزت هيئتا موسى وإيليا العظيمين فى إسرائيل واللذين رحلا إلى العالم الآخر منذ أمد بعيد ، وإذ بهما يتكلمان مع يسوع .

عندئذ تسلل الضوء والصوت إلى عيون النائمين وأسماعهم فنفضوا عن أجفانهم أثقال النوم وعن أجسادهم طيات الغطاء ، لتعشى أبصارهم بالضياء الساطع وتنتشى آذانهم بكلمات موسى وإيليا .

كان المشهد يجل عن أى وصف . ظل الرجال الثلاثة الحيارى المذهولون يتفرسون فى صمت المأخوذ حتى غاب المشهد المبهر عن أبصارهم . عندئذ لم يستطع بطرس المندفع المتهور كعادته ضبط نفسه بعد أن شعر أنه فى السماء من جلال هذا المشهد ، وهو الذى عانى فى الأيام الأخيرة من تلميحات عن موت سيده ومعبوده ، ومن تعنيف يسوع له عندما لم يستطع احتمال فكرة موت سيده وإن كان سيقوم بعد ثلاثة أيام . رأى بطرس لمحات بديعة ، جليلة ، مبهرة من ذلك العالم الذى طالما تحدث عنه المعلم إليهم ، فتمنى وكله حماس مشتعل أن يستمر مشهد السماء إلى الأبد ، فصاح متهللاً :

ــ يامعلم جيد أن نكون ههنا . فلنصنع ثلاث مظال . لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة .

لم يكن بطرس يدرى ماذا يقول ، فقد كان مبهوراً ، مذهولاً لدرجة الرعب ، فترك لسانه يتفوه بما يعن له من أفكار وخواطر وهواجس وكلمات دون ضابط أو رابط . وفيما هو يقول ذلك إذ بسحابة فائرة بالنور والتألق تظللهم ، فأخذ منهم الرعب كل مأخذ عندما وجدوا أجسادهم تدخل فى

السحابة وتتدثر بطياتها النورانية ، وصوت من السحابة يقول :

ــ هذا هو ابنى الحبيب . له اسمعوا .

سقطوا على وجوههم ولم يدروا شيئاً حتى جاء يسوع ولمسهم ، فنهضوا ليروا شعاع الفجر وقد شق مساره فوق الجبل ، ولم يروا أحدا إلا يسوع وحده . فقد انتهى المشهد الإلهى ، وأغلقت السموات أبوابها ليكتشفوا أنهم لا يزالون على الأرض وأمامهم المهام التى ألقاها يسوع على عاتقهم . لكنهم رأوا مجداً كما لوحيد من الآب ، فقد عاينوا عظمة الله بعيونهم وآذانهم ، وكانوا شهودا على نقطة التحول الفاصلة بين العهد القديم والعهد الجديد ، بين العالم القديم والعالم الجديد . فقد كان التجلى بمثابة الإفتتاحية الإلهية للأحداث العظيمة التى اوشك وقوعها فى أورشليم مع اقتراب عيد الفصح . فقد أقر موسى واضع الشريعة للعهد القديم وإيليا مصلح اسرائيل العظيم برياسة المسيح وفضلة عليهما . وبمجرد انصراف النبيين العظيمين ، وسماع الصوت السماوى :

ــ هذا هو ابنى الحبيب . له اسمعوا .

جاءت خاتمة العهد القديم بكل أنبيائه ورموزه ، ليبدأ العهد الجديد ، حياة جديدة أبدية صنعها يسوع لكل البشر بحلوله الإلهى على هذه الأرض ، ورفعه عنها حكم الموت المطبق عليها منذ الخطيئة الأولى .

وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلاً :

ــ لا تحدثوا أحداً بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات .

فحفظوا الكلمة لكنهم فشلوا فى كبت التساؤل الملح داخلهم :

ــ كيف يمكن تفسير القيامة من الأموات مع افتراض أن يحيا المسيح إلى الأبد ؟!

ولم يمنعوا أنفسهم من سؤاله مباشرة :

ــ لماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغى أن يأتى أولاً ؟

فقد كانوا حيارى لظهور إيليا القصير والسرى ، وهم الذين توقعوا أن يرد كل شىء ، وحيارى أيضاً لكلام السيد عن قيامته من الأموات . وكان يسوع

يعلم ما يعتمل داخلهم من صراعات فقال لهم :

ــ قيل إن إيليا يأتى ويرد كل شيء . ولكننى أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا . كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم .

حينئذ فهم التلاميذ أنه يتكلم عن يوحنا المعمدان كما يتكلم عن نفسه ، لكن عقولهم البشرية لم تدرك كل الأبعاد الإلهية المحيطة بالأحداث العظيمة المتوقعة فى أورشليم مع حلول عيد الفصح القادم ، والتى ستبلغ بها الملحمة الإلهية أعلى ذراها .

وتوالت اختبارات الإيمان للتلاميذ . فالرسالة التى كتبت عليهم أن يحملوها لم تكتب لبشر من قبل ، ولذلك كانوا لابد أن تنصهر معادنهم فى بوتقة الإيمان القادر على حمل هذه الرسالة التى ستعيد صياغة تاريخ الجنس البشرى صياغة أبدية . ولذلك سرعان ما هبط بهم يسوع من جبل التجلى حيث شاهد السماء المثيرة للنشوة الروحية إلى السفح حيث صراعات الأرض وآلامها المتجددة . فعندما بلغوا السفح لقيهم التلاميذ الآخرون وقد تجسد القلق والإضطراب وخيبة الأمل على وجوههم ، فى حين نضحت عيون الكتبة والفريسيين المندسين بين الجمع بالتشفى الذى بدت بوادره على وجوههم فى مجمع كفرناحوم عندما تذمر التلاميذ من صعوبة الأفكار التى ينادى بها يسوع ، ورجع كثيرون منهم إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه .

لمح يسوع عند هبوطه مع بطرس ويعقوب ويوحنا أصواتاً مقلقة ، وضجيجاً يمزج كلمات السخرية والأصوات المنكرة بصيحات تدل على أن حادثاً مكدراً قد وقع ، لأن التلاميذ التسعة الآخرين كانوا صامتين مضطربين ، وجباههم تنضح فى ضوء الصباح بعرق الحرج والخجل . أما الكتبة والفريسيون فكانوا يهزأون ويسخرون :

ــ ظنوا أن المعجزات هى لعبتهم المفضلة !!

ــ لم يكن الأمر سوى سحر شياطين وقد انقشع !!

ــ ها قد جاء معلمهم !! لنر ما يمكن أن يفعله !!

لكنه عندما اقترب منهم تحيروا ، إذ يبدو أن طلعته قد بدت مختلفة بعد ليلة العجائب الإلهية فوق جبل التجلى ، وأن وجهه النورانى قد أصبح مشعاً بآيات الجلال والمجد التى لا يلحظها سوى كل ذى عينين مبصرتين . يلمح يسوع النيات السيئة المريبة تتراقص فى عيون الكتبة والفريسيين ، ويتراءف على تلاميذه المنكمشين الخائفين فيأخذهم تحت كنفه وحمايته وهم يركضون للسلام عليه . سأل يسوع الكتبة :

ــ بماذا تحاورونهم ؟!

تراجع الكتبة و لم ينطق التلاميذ بكلمة فى حين انطلق رجل من الجمع ليلقى بنفسه جاثياً عند قدمى يسوع صائحاً :

ــ ياسيد ارحم ابنى . فانه يُصْرع ويتألم شديداً . ويقع كثيراً فى النار وكثيراً فى الماء . ابنى به روح أخرس وحيثما أدركه يمزقه فيزبد ويَصرُّ بأسنانه وييْبَس . فقلتُ لتلاميذك أن يخرجوه فلم يقدروا .

صمت الرجل لاهثاً ويسوع يبكتهم :

ــ أيها الجيل غير المؤمن الملتوى إلى متى أكون معكم . إلى متى أحتملكم . قدموه الىّ ههنا .

برز بعض الرجال الأقوياء من بين الجمع ممسكين بالابن ، فلما رأى يسوع صرعه الروح فى الحال ليقع على الأرض يتمرغ ويزبد . فسأل يسوع أباه :

ــ كم من الزمان منذ أصابه هذا ؟!

أجاب الأب :

ــ منذ صباه ! لكن إن كنت تستطيع شيئاً فتحنن علينا وأعنّا !

فقال له يسوع :

إن كُنتَ تستطيع أن تؤمن . كلُّ شيء مستطاع للمؤمن . فى الحال صرخ الأب بدموع ملتهبة :

أومن ياسيد فأعلن عدم إيمانى !

تراكض الجمع خوفاً من الروح النجس أو رغبة فى مشاهدة ما سوف يحدث ، فانتهر يسوع الروح النجس قائلاً له :

ــ أيها الروحُ الأخرس الأصم أنا آمُرك . اخرج منه ولا تدخله أيضاً .

فصرخ صرخة مدوية رددت صداها منحدرات الجبال وصرعه فى هزات عنيفة ثم خرج ، فصار الإبن كميت حتى همس الواقفون بنظرات الرعب المحرق :

ــ يبدو أنه مات !

ــ لقد مات !

لكن يسوع أمسك بيده وأقامه فقام . وعلى وجوه الكتبة والفريسيين قبع الإحباط ومن عيونهم نضحت خيبة الأمل فى حين استرد التلاميذ أنفاسهم وإن لم يفارقهم الحرج والخجل الذى لم يمنعهم من سؤال يسوع :

ــ ولماذا لم نقدر نحن أن نخرجه ؟!

فابتعد يسوع بهم عن الجمع حتى انفرد بهم وأجابهم :

ــ لعدم إيمانكم . فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم . وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم .

وكانت سعادة التلاميذ بهذا الانتصار غامرة بعد أن رد لهم يسوع اعتبارهم أمام الكتبة والفريسيين ، لكن سعادتهم لم تدم طويلاً إذ أن يسوع درج فى الفترة الأخيرة على تذكيرهم من حين لآخر بموضوع حاولوا نسيانه وتجاهله لأنه كان يهاجمهم فى صحوهم ومنامهم مثل كابوس جاثم على أنفاسهم . كان مجرد تفكيرهم فيه رعباً حقيقياً ، فما بالهم إذا تحقق وهو ما يؤكده لهم المعلم ؟! وقد بلغ بهم الرعب حداً عجزوا عنده عن سؤال المعلم ــ مجرد سؤال ــ عن معنى ما يقصده وكيف سيحدث ولماذا ؟! لكنهم فى الوقت نفسه كانوا يعزون أنفسهم بأن السيد ربما كان يتكلم بأمثال أو رموز كعادته ولا يتحدث عن وقائع مادية سوف تحدث بالفعل عندما يكرر لهم قوله :

ــ إن ابن الإنسان يُسلَّم إلى أيدى الناس فيقتلونه . وبعد أن يقتل يقوم فى اليوم الثالث .

كانت جولاتهم مع يسوع فى الجليل متعة لم يعكر صفاءها سوى هذه الكلمات التى اخترقت قلوبهم بسهام الرعب والحزن . ومع ذلك فقد كانت هذه الجولات من قرية إلى أخرى ، ومن سهل زراعى إلى شاطيء رملى ، ومن تل إلى هضبة ؛ واللقاءات مع مختلف أنواع البشر ، والمواقف المثيرة الزاخرة بالآيات والمعجزات ، كانت هذه كلها مهرباً لهم من هذه الأفكار التى تنهشهم من الداخل . وكان يسوع يلاحظ فى بعض الأحيان انهماكهم فى مناقشات

عقيمه فى أثناء هذه الجولات ، لكنه كان يلتزم الصمت ويتلمس لهم العذر حتى تأتى اللحظة المناسبة فيقوم بتوعيتهم أو بصنع معجزة تردهم إلى جادة الصواب وسلامة اليقين .

ولما جاءوا إلى كفرناحوم حيث يقطن بطرس تقدم الجباة الذين يحصلون درهمين رسوماً للإنتقال سائلين بطرس :

ــ أما يوفى معلمكم الدرهمين ؟!

أجاب بطرس :

ــ بلى .

وأسرع إلى بيته حيث وجد يسوع قد سبقه إليه ، وبادره بالسؤال قبل أن يفتح بطرس فمه بكلمة :

ــ ماذا تظن ياسمعان ؟! ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية ؟ أمن بنيهم أم من الأجانب ؟

أجاب بطرس بتلقائية :

ــ من الأجانب .

أضاف يسوع قائلاً :

ــ فاذاً البنون أحرارٌ .

ظن بطرس أن هذا هو الرأى النهائى للسيد ، فأوشك على الانطلاق خارجاً لإبلاغه للجباة ، لكن سرعان ما قطع يسوع لحظات الصمت ، فتوقف بطرس على الفور لينصت إلى كلمات سيده :

ــ ولكن لئلا نُعثرهم اذهب إلى البحر وألق صنَّارة والسمكة التى تطلع أولاً خُذْها ومتى فتحت فاها تجد إستاراً فخذه وأعطهم عنى وعنك .

أخذ بطرس صنارة من غرفة داخلية فى بيته وأسرع إلى البحيرة لتنفيذ أمر المعلم . وكان إيمانه بالمخلص قد بلغ درجة تنفيذ المعجزة التى يأمر بها دون أدنى دهشة أو حتى تساؤل ، كما لو كانت مظهراً من مظاهر الطبيعة الكونية . فقد حدد السيد حتى نوعية العملة التى سيجدها بطرس فى فم السمكة ،

والإستار عملة رومانية تساوى أربعة دراهم فضة ، فهو كاف لاثنين .

وبالفعل فإن بطرس بمجرد أن جلس على صخرة غائصة فى رمال الشاطىء المبتل بمياه البحيرة فى مدها وجزرها ، ومد ذراعه بالصنارة ليلقى بالشص فى الماء ، شعر بسمكة تجذب الخيط فأسرع بشد الصنارة لتخرج سمكة فضية تتراقص فى ضوء الشمس ، وعندما أمسك بها وفتح فاها لمح بريق العملة الرومانية داخله فمجد الله والتقطها ليهرع إلى الجباة ليدفع المبلغ المطلوب عن السيد وعنه .

عاد بطرس إلى بيته ليجد السيد وقد التف حوله التلاميذ الذين صمتوا ونظرات الخجل تنضح من عيونهم عند سؤال السيد لهم :

ـــ بماذا كنتم تتكالمون فيما بينكم فى الطريق ؟

ففى طريقهم مع المعلم إلى بيت بطرس ثار بينهم جدل حول من فيهم أعظم من الآخرين فى مملكة أورشليم التى سيقيمها يسوع ، والتى ظلوا حتى تلك اللحظة مشتاقين إلى قيامها ، ذلك أن عقولهم لم تكن قد استوعبت بعد كل أبعاد فكرة مملكة السماء . وفى هذا الجدل ظل كل منهم يتيه على الآخرين بمواهبه وقدراته وصلاته الحميمة بالسيد الذى لم يحاول التدخل فى الحديث ليأخذ مجراه حتى نهايته ، خاصة وأنهم تهامسوا به بعيداً عنه لإحساس دفين داخلهم أوحى اليهم أنه قد يوبخهم ويلومهم على ضيق أفقهم . ولذلك سقط السؤال عليهم كوميض عرى كهوف نفوسهم ، فتشاغلوا بالنظر إلى جدران الغرفة المتواضعة أونقوش البساط المتآكل ، أما إلى وجهه فلم يستطيعوا رفع أبصارهم إليه . أدركوا أنه قد عرف كل شىء فعجزت ألسنتهم الحائرة المضطربة عن النطق ، قطع يسوع حبال الصمت الحرج :

ـــ إذا أراد أحد أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل .

ثم دعا يسوع ولداً وأقامه فى وسطهم قائلاً لهم :

ـــ الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات . فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم فى ملكوت السموات . ومن قبل ولداً واحداً مثل هذا باسمى فقد قبلنى . ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يُعلَّق فى عنقه حجر الرحى ويغرق فى

لجة البحر .

إستكان الطفل فى أحضان يسوع وهو يتعجب لنظرات القلق والحرج فى عيون السامعين :

ـــ ويل للعالم من العثرات . فلابد أن تأتى العثرات . ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة . فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك . خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تُلقى فى النار الأبدية ولك يدان أو رجلان . وإن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك . خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى فى جهنم النار ولك عينان .

هرول أهالى كفرناحوم إلى بيت بطرس بمجرد معرفتهم بوجود يسوع ، والتصقوا بآذانهم على المداخل والنوافذ لعلهم يلتقطون أكبر قدر ممكن من كلمات النعمة المتدفقة من فمه ، وينالون الشفاء على يديه . وكانت الأمهات اللآتى حملن أطفالهن أسعد الموجودين ويسوع يتكلم عن الأطفال :

ـــ انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار . لأنى أقول لكم إنَّ ملائكتهم فى السموات كُلَّ حين ينظرون وجه أبى الذى فى السموات ... هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذى فى السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار .

بدت على وجه يوحنا رغبة محرقة فى الكلام والاستفسار ، ولذلك انطلق قائلاً بمجرد أن صمت المعلم :

ـــ يامعلم رأينا واحداً يخرج شياطين باسمك وهو ليس يتبعنا . فمنعناه لأنه ليس يتبعنا .

أجابه يسوع موجهاً كلامه إلى كل التلاميذ المحيطين به :

ـــ لا تمنعوه . لأنه ليس أحد يصنع قوة باسمى ويستطيع سريعاً أن يقول علَّى شرا . لأنَّ من ليس علينا فهو معنا . لأن من سقاكم كأس ماءٍ باسمى لأنكم للمسيح فالحق أقول لكم إنه لا يُضيعُ أَجْره .

عندئذ اشتعل بطرس حماساً كعادته لمعرفة رأى المعلم :

ـــ يارب كم مرة يُخطىء إلَّى أخى وأنا أغفر له . هل إلى سبع مرات ؟

أجابه يسوع بنفس النبرات الحاسمة القاطعة :

ـــ لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات .

واستمر الحديث الإلهى الشهى حتى أقحمت بعض الأمهات أطفالهن بين الحاضرين لكي يلمسهم يسوع وينالوا بركته ، لكن التلاميذ انتهروا الأمهات اللاتى دفعن بأطفالهن إلى يسوع الذى اغتاظ من سلوك تلاميذه وانتهرهم :

ـــ دعوا الأولاد يأتون إلى ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله .

ثم احتضن يسوع الأطفال وهو يضع يديه عليهم ويباركهم . وعندما خرج يسوع مع تلاميذه إلى الطريق ركض رجل كان منتظراً يسوع بالخارج على أحر من جمر وسجد أمامه سائلاً إياه :

ـــ أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

أجاب يسوع سؤاله بسؤال آخر :

ـــ لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا . لا تزن . لا تقتل . لا تسرق . لا تشهد بالزور . لا تسلب . أكرم أباك وأمَّك .

فأجاب الرجل فرحاً :

ـــ يامعلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى .

أحب يسوع بساطته وإخلاصه وحماسه وهو ما يفتقده فى أخلاق الفريسيين والكتبة التى لا تعرف سوى الرياء والمكر والخبث . قال له :

ـــ يعوزك شيء واحد . اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملاً الصليب .

أصبح فرحه المنطلق غما مكتوماً ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه :

ـــ ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله !

تحير التلاميذ من كلامه لكنه أكد لهم :

ـــ مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله .

تضاعفت الحيرة عندهم فبهتوا إلى درجة الذهول المتسائل قائلين بعضهم لبعض :

فمن يستطيع أن يخلص ؟!

نظر إليهم يسوع مفسراً لهم :

ــ عند الناس غير مُستطاع . ولكن ليس عند الله . لأن كلَّ شيءٍ مستطاعٌ عند الله .

لم يستطع بطرس أن يمنع نفسه من الكلام :

ــ ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك .

ابتسم يسوع قائلاً فى حنان :

ــ الحق أقول لكم ليس أحدٌ ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلى ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مئة ضعف الآن فى هذا الزمان بيوتاً وإخوة وأخواتٍ وأمهاتٍ وأولاداً وحقولاً مع اضطهادات وفى الدهرِ الآتى الحياة الأبدية .

وكان عيد الحصاد القومى لليهود ، وهو عيد المظال فى أورشليم قد اقترب ، فقرر يسوع أن يصعد إلى أورشليم ومعه تلاميذه الذين عادوا إلى القلق والحيرة والإضطراب ، لأنه عاد إلى تذكيرهم بما سيحدث له :

ــ ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يُسلَّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلى الأمم فيهزأون به ويجلدونه ويتفلون عليه ويقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم .

ومع ذلك لم تكن هذه الحقائق واضحة فى أذهانهم ، لدرجة أن يعقوب ويوحنا ابنى زبدى قالا له بمنتهى البساطة :

ــ يامعلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا .

فسألهما بنفس البساطة :

ــ ماذا تريدان أن أفعل لكما ؟

أجابا والعشرة الآخرون يتابعونهما بدهشة للطلب المفاجىء :

ـــ أعطنا أن نجلس واحدٌ عن يمينك والآخر عن يسارك فى مجدك .

نضح الغيظ على عيون التلاميذ العشرة لكن يسوع سألهما :

ـــ لستما تعلمان ما تطلبان . أتستطيعان أن تشربا الكأس التى أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا ؟!

ـــ أجابا بسذاجة الجهل والطمع فى مجد قادم :

نستطيع .

جاءت إجابة يسوع كالسيف القاطع :

ـــ أما الكأس التى أشربها أنا فتشربانها وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان . وأما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه إلا للذين أُعدَّ لهم .

شعر يسوع بغيظ باقى التلاميذ من كلام يعقوب ويوحنا فوجه حديثه إليهم جميعاً :

ـــ أنتم تعلمون أن الذين يُحْسَبون رؤساء الأمم يسودونهم وأنَّ عُظماءهم يتسلطون عليهم . فلا يكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً يكون لكم خادماً . ومن أراد أن يصير فيكم أوَّلا يكونُ للجميع عبْداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأتِ لِيُخدَم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين .

وعادت أمواج الحيرة والقلق والإضطراب تغمر قلوب التلاميذ وعقولهم ، فلم تكن معالم الطريق إلى أورشليم واضحة هذه المرة أمام عيونهم ، لكنهم ساروا مع يسوع لعل الأيام القادمة تفك الطلاسم التى أصبح ينطق بها من حين لآخر ، وحاولوا قدر امكانهم التوقف عن التفكير فيما لا يفقهون ، ومع ذلك كانوا يتابعون مشاهد الطريق وهم يضربون أخماسهم فى أسداد هم ، فلم يستوعبوا ما يشاهدون ولم يدركوا ما يفكرون فيه .

لم تكن الرحلة إلى أورشليم مجرد سفر إلى المدينة المقدسة لحضور عيد المظال بل كانت رحلة تعليمية تبشيرية ، وممارسة عملية للتلاميذ للكرازة تحت إشرافه . فأرسلهم قبله ، اثنين ، اثنين ، ليمهدوا الطريق أمامه . وكان يعقوب ويوحنا أول اثنين يصلان إلى قرية عند حدود السامرة . وهناك قوبلا بجفاء انتهى بطرد السامريين الغيوريين لهما لأن يسوع كان متجهاً إلى أورشليم . وعاد التلميذان إليه والحنق يمسك بخناقهما قائلين ليسوع :

ـــ يارب . أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً ؟!

التفت يسوع إليهما وانتهرهما بنبرات حاسمة :

ـــ لستما تعلمان من أى روح أنتما . لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص .

وعندما شعر يسوع بثقل المهمة الملقاة على عاتق الاثنى عشر ، عين سبعين رسولاً وأرسلهم اثنين ، اثنين ، إلى كل مدينة وموضع قبل وصوله لإعداد الأهالى لاستقباله . وفى الطريق بدت صعوبة المهمة حتى عند المتحمسين لاستقبال يسوع وأتباعه ، وذلك فى أمواج الحيرة والإضطراب التى كانت تغمرهم كلما استمعوا إلى إجاباته وردوده المحيرة أو التى يصعب عليهم تنفيذها لارتباطاتهم الدنيوية الملحة . فمثلاً قال له أحدهم :

ـــ ياسيد أتبعك أينما تمضى .

فأجابه يسوع ببساطة :

ـــ للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار . وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه .

نظر الرجل متعجباً لصاحب المعجزات والآيات المذهلة الذى لا يجد أين يسند رأسه ، فى حين قال يسوع لرجل آخر كاد يموت شوقاً للسير فى ركابه :

ـــ اتبعنى .

فاستأذن الرجل فى بعض الحرج :

ـــ ياسيد ائذن لى أن أمضى أولاً وأدفن أبى .

لكن يسوع لم يكن يحتمل أنصاف الحلول . فإما الحياة أو الموت ولا بديل ثالث لهما . أجابه يسوع :

ـــ دع الموتى يدفنون موتاهم . وأما أنت فاذهب وناد بملكوت الله .

وذهب الرجل والتساؤلات الحادة تنهشه من الداخل :

ـــ كيف يتخلص الإنسان من ارتباطاته الدنيوية بهذه السهولة ؟ إن يسوع لا يحب أن يشاركه آخر فى حب الناس له وارتباطهم به ! لكن هل ينطبق هذا أيضاً على علاقة الإنسان بأقرب أقربائه ؟!

تأكد هذا المعنى عندما قال آخر ليسوع :

ـــ أتبعك ياسيد ولكن ائذن لى أولاً أن أودع الذين فى بيتى !

لكن يسوع قال له بنفس الحسم :

ـــ ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله .

واستمرت الرحلة ، واجتاز يسوع الطريق بين السامرة والجليل . وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برص فوقفوا من بعيد صائحين صارخين :

ـــ يايسوع يامعلم ارحمنا .

نظر إليهم يسوع فى حنان دافق :

ـــ اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة .

انطلقوا متهللين وقد تطهروا من المرض الذى زال كأنه لم يكن . وعندما شعر أحدهم بنعمة الشفاء وقد حلت عليه ، عاد أدراجه لاهثاً وهو يمجد الله بصوت عظيم ، وخر على وجهه عند قدميه شاكراً له . وكان سامرياً . نظر يسوع حوله وقال متعجباً :

ـــ أليس العشرة قد طهروا ؟ فأين التسعة ؟ ألم يوجد من يرجع ليعطى مجداً لله غير هذا الغريب الجنس ؟!

ثم التفت إلى الرجل الجاثى على قدميه وقال له :

ــ قم وامض . إيمانك خلصك .

فلقد فاز الرجل بخلاص روحه كما فاز بشفاء جسده ، وهو الأجنبى الغريب ، أما بنو إسرائيل فقد اكتفوا بصحة أجسادهم لأن أرواحهم لم تكن فى اعتبارهم .

وكانت آخر محطة فى الرحلة قبل أورشليم ، بيت عنيا حيث بيت الصديق العزيز لعازر وأختيه مرثا ومريم الذين كانوا قد عرفوا بمجىء يسوع من تلميذين سبقاه لإخبارهم ، فكانت فرحتهم بالعيد فرحتين ، واستعدوا بالمظال الخضراء الجميلة التى نصبوها فى فناء الدار والحديقة ، وانهمكت السيدات فى تجهيز الدار لاستقبال الضيف العظيم حتى يستريح من عناء الرحلة الطويلة .

ومع إشراقة الشمس التى غمرت البيت بالدفء والضياء وصل يسوع وقد أمتزج وجهه النورانى بوعثاء السفر . وكان استقباله بالسجود الخاشع والفرحة المنتشية ، وأسرع لعازر وأخته مريم للجلوس عند قدمى يسوع كى ينهلا من نهر النعمة المتدفق من بين شفتيه ، أما مرثا فقد ارتكبت عندما رأت الإجهاد متجسداً على ملامح السيد ولذلك أسرعت لتجهيز الماء لغسل قدميه ، وإعداد الطعام إذ لابد أنه جائع بعد هذه الرحلة الطويلة التى قطعها سيرا على الأقدام ، كما لابد من تجهيز الغرفة التى سينام فيها ، فلن يقضى اليوم بطوله فى جلسته هذه فى الحديقة تحت المظلة الخضراء مع لعازر ومريم التى أثارت ضيق مرثا بعدم تعاونها مع أختها فى خدمة السيد لدرجة أنها اندفعت خارجة إلى الحديقة لتقف أمامه وتشكوها له :

ــ يارب أما تبالى بأن أختى قد تركتنى أخدم وحدى . فقل لها أن تعيننى .

لكن يسوع أجابها بابتسامة وديعة :

ــ مرثا مرثا .. أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة . ولكن الحاجة إلى واحد . فأختارت مريم النصيب الصالح الذى لن ينزع منها .

أصاب الحرج مرثا بحمرة عابرة على وجهها وتساءلت فى نفسها :

ــ وإذا جلست أنا عند قدمى السيد مثل مريم .. فمن سيقوم بخدمة السيد

وإكرام ضيافته ؟!

تراجعت مرثا لتختفى داخل البيت ، ولتنهمك بفرح وتهليل فى خدمة الضيف الإلهى محاولة الانتهاء منها بأسرع ما يمكن حتى تنضم إلى أخيها وأختها فى الجلوس عند قدميه ، والإنصات إلى كلماته التى أثارت البلاد من أدناها إلى أقصاها .

استراح السيد حتى مساء ذلك اليوم بعد أن أمضى وقته يتحدث مع لعازر فى الحديقة الصغيرة الجميلة ومع الأختين المنتشيتين بالبركة التى حلت بالمنزل . وقبل أن يذهب السيد إلى النوم قام مع لعازر وخرج وسار حتى وصل إلى منحنى الطريق ليلقى بنظره عبر الوادى على أنوار المدينة المقدسة التى تألقت وتراقصت مع هبات الريح لإحياء عيد المظال القومى . ثم عاد يسوع ومعه لعازر للنوم والراحة قبل الذهاب فى الصباح الباكر إلى أورشليم لحضور العيد الذى يعد أبهى وأجمل أعياد السنة ، فيه تستريح الأمة من عناء العمل فى الحقول تحت سياط الشمس المحرقة وفى هبات رياح الصقيع التى تجمد الدماء فى العروق . فهو عيد جمع الغلال من الحقل فى نهاية العام .

كانت الجماهير الغفيرة قد تزاحمت فى الطرقات المؤدية إلى المدينة المقدسة ، قادمة من بلاد مختلفة من ضفاف الدانوب إلى ضفاف الفرات . والتقى الأصدقاء القدامى بالأحضان والقبلات بعد غياب عام بأكمله ، فهو عيد لقاء الأحباب الذين فرقتهم الأيام سعياً وراء الرزق . وكانت الجماهير قد سكنت المظال والأخصاص التى تناثرت فى الهواء الطلق ، على جوانب الطرق ، وحول أسوار المدينة المقدسة ، وفى الميادين الواسعة . وهى أخصاص مصنوعة من أغصان شجر الزيتون والكروم ، وفوق كل خص علقت عناقيد من الفواكه الناضجة . وكان الضجيج يعلو من حين لآخر من داخل هذه المظال والأخصاص ، إذ كان الحجاج يقضون عطلتهم فى تأدية بعض المشاهد المسرحية التى تصور ذكرى أيام البرية التى قضاها أسلافهم فى المضارب والخيام .

لكن فى هذا العام بالذات كان للعيد مذاق آخر ، مثير ومشبع بتوقعات غامضة بحيث لم تعد الأمور تسير سيرتها الأولى . كانت الاحتفالات ومظاهر التهليل وتبادل التحيات بين أفراد الجموع الحاشدة قائمة على قدم وساق ، لكن خلف هذه المظاهر التقليدية سرى شعور جاثم متوثب ، تجسد فى الهمسات المتبادلة فى كل مكان عن يسوع الناصرى الذى أحدثت كلماته وتعاليمه فجوة واسعة وعميقة بين الكهنة والشعب الذى لم يتجاسر ويتكلم عنه علانية خوفاً من عيون الكهنة والفريسيين .

وكانت شهرة يسوع قد ذاعت ، وأصبح إسمه على كل لسان منذ العام الماضى . ولم يدر حوار أو جدل بين أبناء اليهودية وأبناء الجليل إلا وكانت أنباء آياته ومعجزاته وعجائبه قاسماً مشتركاً فيه . أما الحجاج الغرباء الذين جاءوا من البلاد البعيدة فكانوا ينصتون ويتعجبون لهذا النبى الشاب الذى أحيا الآمال القومية القديمة عن المسيا المنتظر ، وتمنوا لو رأوه رؤية العين قبل أن يسلكوا طريق العودة إلى بلادهم . لكن أحلام معظم الحجاج اقتصرت على إقامة المملكة الأرضية التى ستعيد مجد إسرائيل والأخذ بثأرها من أعدائها . فلو كانت هذه هى أحلام النبى الشاب وأهدافه ، فإن هذه الجموع الحاشدة

فرصة لا تعوض للمناداة به ملكاً على المملكة الجديدة .

لكن الأمل فى رؤية النبى الشاب كاد أن يتلاشى ، فقد حل اليوم الرابع للعيد ولم يصل يسوع بعد . وكانت الإحتفالات لا تستمر أكثر من أسبوع تنفض بعده الجموع الحاشدة عائدة إلى بلادها . وقبعت خيبة الأمل على الوجوه التى كانت قد جاءت إلى أورشليم وكلها أمل متوقد أن تحظى برؤيته ، والاستماع إلى كلماته المثيرة ، ومعاينة آياته وعجائبه ومعجزاته . أما الطمانينة فقد ارتسمت على وجوه الشيوخ والحكماء من اليهود . فقد شعروا بأن مجيئه وسط هذه الجماهير الغفيرة المشتاقة إلى رؤيته ، من شأنه أن يضع المدينة المقدسة كلها على فوهة بركان ، خاصة وأن الجليليين الذين أتوا للحج ، وعلى رأسهم أهالى كفرناحوم ، كانوا عازمون على المناداة به مسيا وملكا . أما رؤساء الكهنة والفريسيون والكتبة والهيرودسيون والصدوقيون والناموسيون فقد قرروا سحقه بعد أن أحسوا بالأرض تميد من تحت أقدامهم لأول مرة فى تاريخهم الطويل العريق ، وهم أصحاب السلطة الراسخة والسطوة الطاغية التى لم يجرؤ أحد من قبل — مهما كان — أن يمسها ، سواء من قريب أو من بعيد .

هكذا تجمعت كل عوامل الانفجار فى أورشليم بين حشود اليهود الوافدين من كل شعوب المعمورة وشعاب الأرض ، وقلوبهم جمرات نار متألقة بوميض الحماسة الدينية التى زادتها سيرة النبى الشاب تأججا فوق تأجج فى فناء الهيكل الخارجى الغاص بالمصلين فى انتظار دورهم للدخول إلى الخدمة ، فى حين لم تتوقف المشاحنات والمحاورات الساخنة بين أبناء اليهودية والجليل حول يسوع الناصرى ، والحجاج الغرباء يحاولون قدر إمكانهم استيعاب ما يدور أمامهم من جدل . أما يوحنا تلميذ يسوع فقد تحول إلى آذان صاغية دون أن يخبر أحداً بقدوم يسوع إلى الهيكل فى ذلك اليوم الذى كان الرابع من أيام العيد والذى بلغت فيه المشاحنات قمتها بين المؤيدين والمعارضين ، بين الآملين فى رؤيته واليائسين من تحقيق رغبتهم المحرقة :

— تخلفه عن المجيء حتى اليوم لا يعنى سوى أنه آثر السلامة !

— لا أعتقد .. فسلوكه كان ينم دائماً على المخاطرة بسلامته .

— لم أعرف حتى الآن ماذا يريد على وجه التحديد ؟!

ـــ إنه إنسان بار على أقل تقدير ولم يفعل سوى الخير .

ـــ أهدافه غير واضحة وهذا يدل على أنه يخدع الشعب .

ـــ أتظن أنه المسيا المسيح الذى ننتظره منذ قرون ؟!

ـــ كيف يكون هو وهو قادم من الجليل ؟!

ـــ آيات الأسفار المقدسة تنطبق عليه فقد أتى من نسل داود وولد فى بيت لحم اليهودية .

ـــ لقد أصبح الشعب رهن إشارته !

ـــ ولن تقف السلطات مكتوفة الأيدى !

ـــ إنه شخص عجيب ! فالخوف لا يعرف طريقاً إلى قلبه !

ـــ رأيته فى كفرناحوم .. له هالة لا يستطيع أحد أن يقاوم جاذبيتها بل إنك تتمنى أن تتبعه حيثما يذهب !

وفجأة يتوقف المتحاورون عن الجدل ، وتستدير الوجوه الشابة والهرمة ، العيون المتألقة والخابية ، اللحى السوداء والبيضاء ، الأنوف المستقيمة والمعقوفة ، الشفاه الغليظة والرفيعة إلى قلب فناء الهيكل ، كأنها شدت إليه بخيوط خفية من الجاذبية الآسرة . ويسود الصمت ، وتجحظ العيون وتشرئب الأعناق لرؤية شاب طويل القامة ، ساحر الملامح ، يقف فى ردائه الكتانى الناصع البياض مستنداً إلى عمود رخامى من أعمدة فناء الهيكل . وفى الحال أدرك غرباء اليهود القادمون من الأصقاع البعيدة أنه هو بنفسه دون أن يقول لهم أحد ذلك ، وبرغم أنهم لم يكونوا قد رأوه من قبل .

وفتح يسوع فمه ليعلمهم ، وفاضت النعمة من بين شفتيه ، وسرت همسات متسائلة بين الواقفين :

ـــ كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم ؟!

لكن يسوع أدرك ما يدور فى أذهانهم ، وقرر أن يعلن ذاته على الملأ وأن يصارحهم بما سوف يقع له :

ـــ تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى . إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف

التعليم : هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى ؟! من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه . وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم . أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس ؟! لماذا تطلبون أن تقتلونى ؟!

تصاعدت الهمسات إلى تساؤلات مباشرة إليه :

ــ بك شيطان ! من يطلب أن يقتلك ؟!

لكن يسوع استطرد بنبرات قاطعة لأقاويل الفريسيين :

ــ عملاً واحداً عملت فتتعجبون جميعاً . لهذا أعطاكم موسى الختان . ليس أنه من موسى بل من الآباء . ففى السبت تختنو الإنسان . فإن كان الإنسان يقبل الختان فى السبت لئلاً ينقض ناموس موسى أفتسخطون علىّ لأنى شفيت إنساناً كله فى السبت ؟ لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً .

لم يستطع بعض أهالى أورشليم أن يكبتوا تساؤلاتهم الحائرة بعد أن تركهم يسوع إلى داخل الهيكل ليستأنف تعليمه .قالوا :

أليس هذا هو الذى يطلبون أن يقتلوه ؟ وها هو يتكلم جهاراً ! ولا يقولون له شيئاً ! ألعل الرؤساء عرفوا يقينا أن هذا هو المسيح حقاً ؟!

فرد عليهم البعض الآخر ووسطهم بعض الفريسيين :

ــ ولكن هذا نعلم من أين هو . وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو .

أما يسوع فاستأنف تعليمه داخل الهيكل وقد التف حوله المتعبدون فى شوق ملتهب :

ــ تعرفوننى وتعرفون من أين أنا . ومن نفسى لم آت بل الذى أرسلنى هو حق الذى أنتم لستم تعرفونه . أنا أعرفه لأنى منه وهو أرسلنى .

عندئذ صرخ الرجال الذين أرسلهم رؤساء الكهنة عيونا على يسوع ، مطالبين بالإمساك به ومحاكمته وقتله . وانطلقوا بين الجموع لكنها كانت سداً منيعاً فى وجوههم فلم يلق أحد يدا عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد .

فقد آمن به كثيرون قائلين بصوت جهير دون خوف هذه المرة :

ألعلَّ المسيح متى جاء يعملُ آيات أكثر من هذه التى عملها هذا ؟!

وكادت عيون الفريسيين ورؤساء الكهنة أن تنفجر كمداً وهم يرون أيديهم قد شلت عن الإمساك به وإحضاره إلى مجلس السنهدريم ، فى حين استمر يسوع فى تعليمه :

ــ أنا معكم زماناً يسيراً بعد ثم أمضى إلى الذى أرسلنى . ستطلبوننى ولا تجدوننى . وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا .

وعادت التساؤلات الحائرة تلح على أذهان المستمعين الذين تهامسوا فيما بينهم :

ــ إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده ؟! ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلم اليونانيين ؟! ما هذا القول الذى قال ؟! ستطلبوننى ولا تجدوننى وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا ؟!

واتسعت دوائر دوامة التساؤلات الحائرة التى استغرقت المستمعين والمنصتين حتى قاعها المعتم الغامض .

(٣٧)

ظل خدام الفريسيين ورؤساء الكهنة ، وجنود أرخيلاوس وعيونه حائرين عاجزين عن الإمساك بيسوع وإرسالة إلى السنهدريم لمحاكمته وقتله . فقد أدركوا أنهم لن يفلتوا من غضب الجماهير الهادرة لو أقدموا على فعلة مثل تلك ، وفى الوقت نفسه طحنهم اليأس والكمد والبحث عن إجابات معقولة يعودون بها إلى رؤسائهم . فقد جاء اليوم الأخير العظيم من العيد وكأن شللاً قد حط على عقولهم وقيد أقدامهم وأذرعهم بسلاسل من حديد علته حمرة الصدأ .

بدأت مظاهر ختام العيد بعملية جر المياه مع كوكبة الناس السائرين فى نشوة دافقة إلى بركة سلوام ، وعلى رأسهم الكهنة بثيابهم السوداء المطرزة بالذهب ، وعلى صدورهم علقت نجمة داود الذهبية ، وقد حمل أحدهم الجرة الذهبية . وامتد خلفهم الموكب لينتظم فيه جمع حاشد من الحجاج الوافدين وهم يلوحون بأغصان النخيل والصفصاف صوب السماء ، وينشدون مزامير الحمد والتسبيح ليهوه ربهم .

سار الموكب فى طرقات طويلة ملتوية ، ووسط حدائق غناء جميلة ، وتحت مشربيات مكتظة بالمتفرجين حتى بلغ فى نهاية المطاف بركة سلوام التى انكبوا عليها ، يسحبون منها الماء وهم يهللون بالمزامير والأهازيج . وبرغم كل هذه الطقوس المبهجة ، فإن العقول لم تنصرف عن التفكير فى أقوال وتعاليم يسوع منذ مجيئه إلى الهيكل فى الأيام الأربعة الأخيرة . وكانوا يتلفتون حولهم من حين لآخر لعل أنظارهم تقع عليه . فلم تكن العيون لتشبع من النظر إليه والتملى برؤيته .

عادت الجماهير أدراجها من بركة سلوام إلى الهيكل حيث المذبح الضخم الهائل الذى وقف أمامه الكهنة بثيابهم وأزيائهم الكهنوتية الموشاة بالذهب ، وخلفهم الجموع الحاشدة التى شكلت لوحة عملاقة من الألوان المتنوعة المتنافرة مع أغصان النخيل الخضراء المرفوعة ، ووميض العيون المتسائلة المشتاقة ، ولفتات الوجوه السمراء الشاحبة المنفعلة ، والبيضاء التى لوحتها حرارة الشمس الذهبية ، وأزياء الشعوب المتعددة التى أتت من أطراف

المسكونة ، وارتفاع الحناجر باصوات التهليل والتسبيح للرب .

اشرأبت الأعناق واتجهت العيون لمتابعة الطقس الكبير عندما يقوم الكهنة بسكب الماء والخمر على المذبح رمزاً لتفجير المياه فى البرية فى عهد موسى ، وشكراً لله على غيث السماء المنهمر على الأرض المتعطشة لتخرج خيراتها للناس ، وتوسلا إليه كى يسكب نعمة بركاته على النفوس الظامئة التى لم تجد إشباعاً روحياً عند الكهنة الذين لا يرون فى رحابة العقيدة الدينية السامية سوى طقوس فارغة جافة تؤدى باللسان والذراع والقدم ، أما العقل والقلب فيظلان حيث هما فى دوامة الحياة الدنيوية بكل فقاقيعها المادية وذبدها الكاذب .

ارتفعت الأبواق الفضية مدوية فى أبهاء الهيكل الذى رددت قبابه أصداءها المتجاوبة مع أصداء الترتيل الذى ارتفعت به الحناجر :

ـــ قدموا للرب شكراً ، لأنه صالح ، وإلى الأبد رحمته .

ثم بدأ طقس تقديم الذبائح وساد صمت هائل لم يقطعه سوى رنين صوت جميل ، متفرد ، حبيب إلى قلوب كل من سمعه من قبل :

ـــ إن عطش أحد فليقبل إلىّ ويشرب . من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حى .

لم يكن كلام يسوع مقاطعة للطقس وإنما تفسير وإكمال له حتى يشبع النفوس الجائعة للنعمة ، ويروى القلوب الظامئة للبركة ، ويخرج العقول التائهة المعتمة إلى نور اليقين . فقد ترك الحديث عن الحرف ليتكلم عن الروح الذى كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه .

تهللت ألسنة العابدين فى الهيكل قائلة :

ـــ هذا بالحقيقة هو النبى .

ـــ هذا هو المسيح .

لكن أتباع الفريسيين حاولوا مقاومة المد الهادر :

ـــ ألعل المسيح من الجليل يأتى ؟!

ـــ ألم يقل الكتاب إنه من نسل داود ومن بيت لحم القرية التى كان داود فيها يأتى المسيح ؟!

وانقلب التناغم بين المصلين إلى انشقاق ، والالتحام إلى شرخ ، وأراد خدم الكتبة والفريسيين وعيون أرخيلاوس استغلال الضجيج كى يمسكوه لكنهم رأوا وميض الغضب فى العيون الملتفة حوله والمتلهفة لكلماته ، فلم يجرؤ أحد أن يلقى عليه الأيادى .

ولم تخفف طقوس المساء من بوادر الصراع الكامن بين المؤيدين والرافضين . لكن المؤيدين كانوا الأغلبية الكاسحة ، وأصبحت كلمات يسوع ترن فى أرجاء وجدانهم كلما دوت مزامير التهليل فى أرجاء الهيكل . فعند إشعال الثريات الذهبية ، وإنشاد مزامير الحمد والشكر للرب الذى أرسل عمود النور ليهدى آباءهم فى تيه البرية ، ممسكين بالمشاعل الملتهبة فى أيديهم ، رنت فى آذان الساجدين كلمات يسوع :

ـــ أنا هو نور العالم . من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة .

ـــ أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق . أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم .

ـــ إن لم تؤمنوا أنى أنا هو تموتون فى خطاياكم .

ـــ أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به . أنتم لا تفهمون الآن . ولكن متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أنى أنا هو ولست أفعل شيئاً من نفسى . بل كما علمنى الآب .

ـــ قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن .

ولم تكن كلمات يسوع بلا ثمر ، فقد آمن به كثيرون برغم تحدى الفريسيين له . ولما عجزوا عن إيقاف طوفانه ، رفعوا حجارة ليرجموه . أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً فى وسطهم .

وفى صباح اليوم التالى انعقد مجلس السنهدريم عن بكرة أبيه ، وجلس الحبر قيافا للتحقيق مع الخدم والشرطة الذين عادوا من الهيكل دون أن يحضروا يسوع معهم . سألهم قيافا :

لماذا لم تأتوا به ؟!

أجاب أحدهم بصوت مرتعش :

ــ لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان !

صاح فيهم الكاهن حنَّان بسؤال يمزج السخرية بالغضب :

ــ ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم ؟! ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به ؟! ولكن هذا الشعب الذى لا يفهم الناموس هو ملعون !

عندئذ وقف الكاهن نيقوديموس الذى سبق له أن زار يسوع ليلاً ودار بينهما حوار عن معنى الميلاد بالماء والروح أو الميلاد الثانى . قال نيقوديموس :

ــ ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً ويعرف ماذا أفعل ؟!

كانت نبرات نيقوديموس تجسد بعض التردد والحرج داخله ، فأراد قيافا أن يمحو أى أثر لكلماته فى نفوس أعضاء المجلس فقال له وكأنه ينتهره :

ــ ألعلك أنت أيضاً من الجليل ؟! فتش وأنظر . إنه لم يقم نبى من الجليل !

ثم أضاف حنَّان قوله وهو يستدير محملقاً فى وجوه الأعضاء :

ــ لقد حملت الملك المسئولية كلها فى هذا الموضوع .. ونحن لا نحارب يسوع الناصرى لأننا نخاف منه على سلطتنا ومستقبلنا .. وإنما نحاربه للقضاء عليه قبل أن يقضى على الناموس والشريعة !

تشجع نيقوديموس وإن كان لم يتخل عن تحفظه :

ــ إن الله هو الذى يحمى الناموس والشريعة لأنهما من صنع يديه .

زمجر قيافا ملوحاً بقبضته فى الهواء :

ــ ونحن جند الله لحماية الناموس والشريعة .. ولن يزول الخطر عنهما طالما أن يسوع الناصرى يتحرك ويخطب ويعظ ويعلم هكذا دون رادع .

كان أعضاء السنهدريم يتابعون الحوار فى حيرة من أمرهم ، إذ كيف يقف هذا المجلس القوى بكل سلطاته الدينية والدنيوية عاجزاً حائراً هكذا فى مواجهة شاب أعزل لا يملك سوى كلمته ورأيه ؟! لابد أنه يملك قوة خفية تجعله

يكتسح الأمة كلها بمفرده كالإعصار الذى لا تقف فى طريقه عقبة ؟!

عندئذ قطع كبير الشرطة لحظات الصمت الحائر بلهجته العسكرية :

ــ سننتهز أول فرصة ننفرد فيها به وسنحضره إلى هنا مقبوضاً عليه .

وأضاف شرطى آخر مؤكداً كلام رئيسه :

ــ لقد كان من المستحيل القبض عليه وهو محاط بالجموع التى تحميه بأجسادها !

فأجا حنّان الشرطة بسؤال :

ــ وأين ذهب الآن ؟!

ــ علمت من التحريات التى جاءتنى أنه ذهب إلى جبل الزيتون ليصلى ويبيت ليلته كعادته كلما أتى إلى أورشليم !

ــ ولماذا لا تذهبون الآن وتقبضون عليه ؟!

ــ إذا وفقنا ووجدناه سنقبض عليه ونحضره غدا صباحاً إلى مجلسكم الموقر !

ــ أرجو أن تكون قادراً على الوفاء بوعدك هذه المرة !

أدى رجال الشرطة وخدم الكهنة التحية بالانحناء ثم خرجوا فى الطريق المعتم حيث مال كبير الشرطة على أذن مساعده :

ــ كيف سنعثر عليه فى هذه العتمة وبين النتوءات الصخرية التى تكلل هامة جبل الزيتون ؟! لا أعرف كيف يسير هو وتلاميذه فى هذه الظلمة المطبقة ؟

ابتسم مساعده وهو يهبط على الدرجات الرخامية :

ــ لن نجده بالطبع ! إنهم خائفون على مناصبهم ويتمنون أن تفتك الجماهير بنا .

بادله كبير الشرطة ابتسامته هامساً :

ــ فلنذهب إلى مضاجعنا . فنحن لم نر أطفالنا منذ بداية العيد :

ــ فعلاً كان عيداً شاقاً على غير العادة !

وتنفسا الصعداء فى سيرهما السريع أمام الرجال والخدم .

(٣٨)

لاح نور الفجر على قمم جبل الزيتون ليمتزج بالضياء النورانى المتألق على وجه يسوع وهو ينظر إلى السماء فى ابتهال جعلها تكشف عن ثغرها الفضى الحانى ، فى حين غط التلاميذ فى نوم عميق محتمين بجدار صخرة وقد التفوا بعباءاتهم الداكنة الألوان . واصل يسوع صلاته الصامتة حتى غطت الشمس الكون بردائها الذهبى ، وسرى الدفء فى عباءات التلاميذ ففتح بعضهم عيونه ، وتمطى البعض الآخر ، لكنهم انتفضوا كلهم واقفين عندما أشرق عليهم يسوع بطلعته البهية ، وسرعان ما هرعوا خلفه هابطاً على الجبل صوب الهيكل ، إذ أن العيد لم يكن هدف يسوع بقدر ما كان يهدف إلى التعليم والتبشير والكرازة .

وبرغم وصول يسوع إلى الهيكل فى ساعة مبكرة من الصباح فقد تزاحمت الجموع حوله للإنصات إلى تعليمه . ومنذ اللحظة الأولى من بلوغة الهيكل شعر يسوع بتربص الكتبة والفريسيين به فى محاولة جديدة للإيقاع به . فقد انتهزوا فرصة وقوفه وسط الجماهير فى فناء الهيكل فألقوا أمامه بامرأة ضبطوها متلبسة بجريمة الزنى . ارتمت المرأة على وجهها الذى امتزج عرقه بالتراب ، ويسوع ينظر إليها متأثراً . أمسكوها بأصابع حديدية وأقاموها فى الوسط وقد نزفت جبهتها وأنفها . كانت كلماتهم تقطر تشفياً وخبثاً :

ـــ يامعلم هذه المرأة أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل . وموسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم . فماذا تقول أنت ؟!

قالوا هذا ليجربوه لكى يكون لهم ما يشتكون به عليه . فكثيراً ما اتهموه باللين والتساهل مع الساقطات الطريدات ، فكان يحدثهن فى لين وعطف حتى يزين لهن طريق التوبة إلى الله ، فهو أدرى بضعف الطبيعة البشرية ، وأن كثيرات منهن وقعن فرائس فى أيدى الذئاب من الرجال الذين يتركون أحراراً دون لوم أو تثريب ، فى حين تدفع المرأة ، التى أسقطوها فى العار ، الثمن من حياتها . وكان الكتبة والفريسيون يحفظون عن ظهر قلب تعاليم يسوع التى تنادى بأن خطايا ذوى المقام والحيثية ، خطايا الطمع والحقد والتعصب والتشفى والتكبر والجحود ، هى أشد سواداً فى نظر الله من خطايا أولئك

النسوة الساقطات ، البائسات ، اللاتى ربما كن ضحايا الجوع لأشد الشهوة . فالفريسى المدعى الورع ، المتعجرف ، فى ريائه واحتقاره لعامة الشعب ، لأشد إثماً فى نظر الله من تلك الساقطة فى عار ليس من صنعها وحدها . وقد أعلنها يسوع ذات مرة مدوية على رؤوس الكهنة والكتبة والفريسيين :

ــ إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله .

انتظر الكتبة والفريسيون إجابة يسوع على أحر من جمر وقد راودهم الأمل لأول مرة فى أنهم على وشك الإيقاع والإمساك به . فقد انحنى إلى أسفل ليكتب بأصبعه على الأرض . حاولوا تفسير ما كتب لكنهم عجزوا وظنوا أنه عاجز عن الرد فكبر الأمل فى صدورهم واستمروا يسألونه :

ــ أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل !

ــ موسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم .

ــ ماذا تقول أنت ؟!

عندئذ انتصب يسوع واقفاً وقائلاً بحسم :

ــ من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر .

ثم انحنى مرة أخرى ليكتب باصبعه على الأرض . أما هم فقد شعروا بكلماته وكأنها غيث متدفق على جمرات تشفيهم المشتعلة . أدركوا مدى صغر حجمهم ، واستمعوا إلى صوت ضمائرهم وهى تبكتهم بعد أن ظنوا فى أنفسهم بشرا لم تمسهم الخطيئة من قريب أو بعيد . لم يفتح أحدهم فمه بكلمة بل خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى أصغر فرد من الحاضرين بحيث بقي يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط . فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوى المرأة فسألها بمنتهى الوداعة : .

ياإمرأة . أين هم أولئك المشتكون عليك ؟ أما دانك أحد ؟

فأجابت دون أن ترفع عينيها :

ــ لا أحد ياسيد .

فقال لها يسوع :

ــ ولا أنا أدينك . اذهبى ولا تخطئى أيضاً .

كان يوحنا هو التلميذ الوحيد الذى تابع هذا الموقف المثير فى حين انهمك التلاميذ الآخرون فى التبشير بين أروقة الهيكل ، خاصة فى رواق سليمان حيث التف البسطاء حول بطرس وأندراوس ليسمعوا حديثهما الشيق عن رسالة يسوع الإلهية . وقد تناثر التلاميذ فى أروقة الهيكل بناء على أوامر معلمهم الذى رفض التفافهم حوله لحمايته من مكائد الكتبة والفريسيين ، اذ أن ساعته لم تكن قد أتت بعد . لكنهم سرعان ما التفوا حوله مرة أخرى وهو فى طريقه إلى باب الهيكل عندما رأوا شاباً كفيف البصر واقفاً يستعطى . ولما أمعنوا النظر فى عينيه الغائرتين المظلمتين ، صاح أحدهم :

ــ لقد ولد أعمى !

عندئذ سأله تلاميذه :

يامعلم من أخطأ . هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟!

أجاب يسوع بكلماته التى تشيع اليقين فى القلوب :

ــ لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه . ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهار . يأتى ليلٌ حين لا يستطيع أحدٌ أن يعمل . ما دمت فى العالم فأنا نور العالم .

قال هذا وتفل على الأرض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين عينى الأعمى قائلاً له :

ــ اذهب اغتسل فى بركة سلوام .

فمضى متحسساً طريقه بعكازه حتى بلغ حافة البحيرة ، وهناك انحنى بحرص حتى لامست يده صفحة الماء ثم ارتفعت لتغسل الطين عن عينيه . فإذ بالرموش تنبث ، والجفون تتفتح ، والعينين تلمحان أشباحاً وسط أضواء خافتة آخذة فى السطوع فتبين عن أشجار متناثرة هنا وهناك ، ومستحمين ومتطهرين خارجين من البحيرة وهابطين فيها . كان الرجل ينظر فى الجهات الأربع لا يكاد يصدق ما يرى ! الله ! ما أحلى النور والضياء ! ما أجمل الطبيعة : البحيرة والأشجار والتلال والأطفال ! ما أقدس يد يسوع الناصرى !

أطلق الرجل ضحكات جزلى وألقى بعكازه الخشبى فى البحيرة فطفا مبتعداً على السطح المتماوج ، وعاد الرجل مهرولاً لاهثاً من الانفعال الحار الذى اجتاح عروقه ، والناس يرقبونه ذاهلين وهو يجرى فى الطرقات الطويلة الملتوية ، ووسط الحدائق الغناء الجميلة ، وتحت المشربيات التى لم تخل من المتفرجين .

وقبل أن يبلغ باب الهيكل تجمع خلفه الذين اعتادوا رؤيته يجلس ويستعطى عند الباب الكبير . صاح بعضهم :

ـــ أليس هو الذى كان يجلس ويستعطى ؟!

أجابهم آخرون مؤكدين لهم :

ـــ هذا هو .

لكن آخرين تشككوا :

ـــ إنه يشبهه .

لكنه وقف ليواجههم وهو يمزج النشوة باليقين :

ـــ إنى أنا هو .

فتساءلوا ذاهلين :

ـــ كيف انفتحت عيناك ؟!

أجاب الرجل وهو ينظر حوله فى سعادة :

ـــ إنسان يقال له يسوع صنع طيناً وطلى عينى وقال لى اذهب إلى بركة سلوام واغتسل . فمضيت واغتسلت فأبصرت !

تساءلوا وهم ينظرون حولهم بدورهم :

ـــ أين ذاك ؟

أجابهم وهو يتفحص من حوله :

ـــ لا أعلم .

عندئذ سأله فريسى شاب وفى عينيه بريق من وجد كنزاً :

ـــ هل صنع هذا معك اليوم ؟!

ـــ هذا الصباح المبارك .

ـــ ألا تعلم أنه بذلك نقض بك السبت ؟!

ـــ أنا أعلم شيئاً واحداً .. أنى كنت أعمى والآن أبصر .

كان السنهدريم فى حالة انعقاد دائم لحين القبض على يسوع وإحضاره ، فأمسك الفريسى الشاب بيد الرجل قائلاً :

ـــ فلتقص قصتك أمام المجمع ليسمع أعضاؤه بأنفسهم ما حدث !

لم يقاوم وإنما رحب بالفكرة منقاداً للفريسى :

ـــ أريد أن أحكى قصتى للدنيا كلها وليس للمجمع وحده !

وساروا إلى المجمع الذى دخله الفريسى الشاب ومعه الرجل المبصر ليقف أمام رؤساء الكهنة القابعين فى إحباط وضيق عظيمين على مقاعدهم الخشبية اللامعة . انتصبوا فى جلستهم لينصتوا إلى قصته وبريق الانتقام يومض فى عيونهم الخابية حتى انتهى منها فصاح قيافا :

ـــ هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت !

لكن يوسف الرامى تساءل رداً على قيافا :

ـــ كيف يقدر إنسان خاطىء أن يعمل مثل هذه الآيات ؟!

وحدث شقاق كاد أن يقسم المجمع إلى معسكرين لأول مرة ، مما دعا حنَّان إلى الوقوف وسؤال الرجل بصوت عال حسماً للجدل :

ـــ ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك ؟

لم ينطق الرجل إلا بكلمتين :

ـــ إنه نبى .

عندئذ صاح حنَّان وقيافا وباق أعضاء معسكرهم بأصوات متلاطمة :

ـــ نحن لا نصدق أنه كان أعمى فأبصر !

— لن نصدق إلا إذا شهد آخرون على ما قال !

— ليس هناك شهود أصدق من أبويه !

— لن يغادر الرجل المجمع قبل أن يأتى أبواه هنا للإدلاء بشهادتهما .

وفى الحال أرسلوا من استدعاهما ليدخلا وقد ارتسم التحفظ والحرص واليقظة على وجهيهما وخطواتهما . فهما يعلمان سطوة هذه الفئة المستبدة الغاشمة التى سبق لهما أن أصدرت قانوناً بحرمان كل من يعترف بأن يسوع هذا هو المسيا المنتظر . وكان المحروم يطرد من بيته ومن المجمع ثلاثين يوماً غير الوصمة التى ستلحق به بعد ذلك وربما لاحقته حتى نهاية عمره .

وقفا أمام المجمع ليسألهما قيافا :

— أهذا ابنكما الذى تقولان إنه ولد أعمى ؟! فكيف يبصر الآن ؟!

أجاب الأبوان بصوت واحد وكأنهما يرددان كلمات حفظاها عن ظهر قلب :

— نعلم أن هذا ابننا وأنه ولد أعمى . وأما كيف يبصر الآن فلا نعلم . أو من فتح عينيه فلا نعلم . هو كامل السن . اسألوه فهو يتكلم عن نفسه .

صاح حنَّان فى الرجل المبصر :

— أعط مجداً لله . نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطىءٌ !

لم يعبأ الرجل بصياح حنَّانٍ وإنما تساءل فى هدوء :

— أخاطىء هو ؟! لست أعلم . إنما أعلم شيئاً واحداً . أنى كنت أعمى والآن أبصر .

عاد قيافا إلى سؤاله لعله يجد ثغرة ينفذ منها إلى هدفه :

— ماذا صنع بك ؟! كيف فتح عينيك ؟!

عندئذ لم يستطع الرجل أن يخفى رنة التهكم فى رده :

— قد قلت لكم و لم تسمعوا . لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً ؟! ألعلكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ ؟!

لم يستطع الناقمون كبت غيظهم فشتموه وقالوا :

ــ أنت تلميذ ذاك . وأما نحن فإننا تلاميذ موسى . نحن نعلم أن موسى كلّمه الله . وأما هذا فما نعلم من أين هو !!

تحول التهكم فى لهجة الرجل إلى جرأة متصاعدة ممزوجة بالدهشة :

ــ إن فى هذا عجباً ! إنكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عينى . ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة . ولكن إن كان أحدٌ يتقى الله ويفعل مشيئته فلهذا يسمع . منذ الدهر لم يسمع أن أحداً فتح عينى مولود أعمى . لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً .

أجابه قيافا وحنان وبعض الكهنة الآخرين بصوت كالرعد :

ــ فى الخطايا ولدت أنت بجملتك !

ــ وأنت تعلمنا ؟!

ــ أخرجوه خارجاً .

وفى الحال هجم عليه الخدم وأمسكوه من ذراعيه وألقوه خارجاً وفى أعقابه دفعوا أبويه حتى كادا أن يسقطا على وجهيهما . لكن الرجل لم يعبأ ، فقد كانت فرحته ببصره الذى خلقه له يسوع فى ذلك اليوم المشهود ، أعظم وأكبر من أى اعتبار آخر . ولذلك نهض سعيداً وهو ينفض الغبار من على عباءته ، والحنين يكاد يقتله لرؤية يسوع الذى لم يكن قد رآه حتى تلك اللحظة .

وكان يسوع قد سمع عما جرى له فقابله بالقرب من المجمع ، والرجل لا يكاد يصدق عينيه ، ولا أذنيه اللتين سمعتا سؤال المخلص :

ــ أتؤمن بابن الله ؟

أجابه بسؤال الجهل المتواضع :

ــ من هو ياسيد لأومن به ؟

صارحه يسوع بمنتهى البساطة :

ــ قد رأيته . والذى يتكلم معك هو هو .

وفى الحال لم يتردد الرجل لحظة واحدة بل خر ساجداً :

— أومن ياسيد .

كان الفريسيون قد تكالبوا مرة أخرى حول الرجل إذ تتبعوه ، الواحد بعد الآخر ، بعد إخراجه من المجمع ، ولذلك كان كلام يسوع هذه المرة موجهاً إليهم دون أن ينظر اليهم :

— لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون .

نظر الفريسيون إلى بعضهم بعضاً فى غباء متسائل :

— ألعلنا نحن أيضاً عميان ؟!

أجابهم بمنتهى الحسم :

— لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطية . ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية .

هكذا استمرت الحرب ، الخفية أحياناً والعلنية أحياناً أخرى ، بين يسوع والفريسيين وكل من سار على نهجهم ، إذ أن الفجوة بين ما يقول وبين ما يفهمون كانت شاسعة وعميقة كالهاوية ، بل إنها كانت تزداد فى الإتساع والعمق يوماً بعد يوم . وكانت تبلغ كل ذروة من ذراها كلما ذهب يسوع إلى أورشليم لحضور عيد من أعياد اليهود . فمثلاً عندما ذهب إليها فى عيد التجديد لاحياء ذكرى الجهاد القومى الذى فاز فيه اليهود قبل مائتى سنة على يد زعيمهم وبطلهم يهوذا المكابى فى ثورة العصيان ضد روما ، والذى يأتى بعد عيد المظال بنحو ثلاثة أشهر عندما يهطل الشتاء بأمطاره ، ويستمر ثمانية أيام ، دخل يسوع رواق سليمان ليعلم فأحاط به اليهود الذين هرعوا من أروقة الهيكل الأخرى ليسألوه فى شوق مضن :

— إلى متى تعلق أنفسنا ؟! إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرا ؟

أجابهم يسوع بنفس النبرات الموحية باليقين :

— إنى قلت لكم ولستم تؤمنون . الأعمال التى أنا أعملها باسم إلى هى تشهد لى . أنا هو الراعى الصالح . والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف . ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافى كما قلت لكم . خرافى تسمع

أعرفها فتتبعنى . وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحدٌ من يدى أبى . الذى أعطانى إياها هو أعظم من الكل . ولا يقدر أحدٌ أن يخطف من يدى أبى . أنا والآب واحد .

عندئذ انحنى كثيرون منهم والتقطوا حجارة ليرجموه ، لكن أيديهم تصلبت كما لو أصابها شلل مفاجىء ، فى حين لم يهتز يسوع وإنما أجابهم بنفس اللهجة المشحونة بالسلام ، والطمأنينة التى عادت إلى قلوب تلاميذه المحيطين به :

ـــ أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبى . بسبب أى عمل منها ترجموننى ؟!

قال اليهود ولا تزال أيديهم شبه مرفوعة :

ـــ لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف . فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً .

سألهم يسوع سؤالاً بسيطاً عجزوا عن إجابته :

ـــ أليس مكتوباً فى ناموسكم أنا قلت إنكم آلهة . إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله . ولا يمكن أن ينقض المكتوب . فالذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنى قلت إنى ابن الله . إن كنت لست أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى . ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بى فآمنوا بالأعمال لكى تعرفوا وتؤمنوا أنَّ الآب فىَّ وأنا فيه .

من بين المحيطين بيسوع تعالت صرخات الفريسيين مع أذرعهم الممتدة كالقضبان الحديدية :

ـــ امسكوه .. امسكوه !

لكنه مضى كالطيف من بين أيديهم وحوله تلاميذه إلى عبرالأردن حيث اعتاد يوحنا أن يعمد الناس هناك فى موضع بيت عنيا . مكث يسوع هناك لبعض الوقت فأتى إليه كثيرون وألسنتهم تلهج بالإيمان العميق واليقين القاطع :

ـــ إن يوحنا لم يفعل آية واحدة . ولكن كل ما قاله يوحنا عن هذا كان

حقاً .

وأضاء نور الإيمان كهوف القلوب المعتمة ، وتربع سلطان اليقين على العقول الحائرة التى رست أخيراً على شاطىء الأمان .

(٣٩)

قضى يسوع فصل الشتاء فى خلوة هادئة مع تلاميذه على ضفاف نهر الأردن ، ومع ذلك لم تتوقف آياته ومعجزاته وأمثاله برغم تربص الفريسيين به ، فقد قام بشفاء امرأة منحنية ظلت مصابة بتصلب المفاصل مدة ثمانى عشرة سنة فى يوم سبت . وفى يوم آخر تحدّوه فى قضية الزواج والطلاق فأعلنها مدوية :

ــ يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته . ويكون الاثنان جسداً واحداً . فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان .

ومرة أخرى جاء أحد الناموسيين يطرح عليه سؤالاً ناضحا بالشر والخبث :

ــ ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

فحسم يسوع قضية الإيمان كلها فى جملة واحدة :

ــ تحب الرب إلهك من كل قلبك . وقريبك كنفسك .

فقد كان حب الله وحب الناس هو الدستور الذى أعلنه حيثما ذهب وحيثما حل . فذات يوم دعى إلى بيت فريسى حيث اجتمع الفريسيون والكتبة والناموسيون ، ودار بينهم الحديث المعتاد عن أهمية العشور والطقوس وغسل الأيدى قبل الطعام وغير ذلك من المظاهر التى أغرموا بها ، نظروا إلى يسوع انتظاراً لرأيه فصارحهم كعادته بأن كل هذه الأمور حسنة ولا بأس بها إذا كانت تعبر عن جوهر كامن داخلها . ولكن المشكلة أن بعضهم يراعون هذه الشكليات بمنتهى الدقة لدرجة أنهم ينشغلون بها عن الأمور الخطيرة التى تمس جوهر الناموس الكامن فى محبة الله ومحبة الناس .

وهكذا انقضى الشتاء بثقل صقيعه ، وغزير أمطاره ، وجهامة صفحته التى غطى بها وجه الأرض ، وسفوح الجبال ، وضفاف الأنهار ، وهامات الأشجار ، ومنحدرات الوديان ، وقمم التلال . وابتدأت السحب القاتمة تنقشع بظلالها الكثيفة لتبين عن ثغر الشمس الباسم المشع بالدفء الذى سرى فى الأزهار فتفتحت ، وفى الأشجار فازدهرت ، وفى الأطيار فغردت منطلقة بين الضفاف والأفنان .

حل الربيع فى أعقاب الشتاء ليتم الزمن دورته ، الميلاد الجديد بعد الموت ، نحو حياة خصبة متجددة بالحيوية والإنطلاق . وهى نفس الرسالة التى جاء من أجلها يسوع : الحياة بعد الموت ، الأبدية بعد الفناء . لكن حدث فى ذلك الربيع ما عكر الصفو ، وكسر إيقاع الربيع المتناغم المتجدد . ففى خلوته الهادئة على ضفاف نهر الأردن وسط تلاميذه ، تلقى يسوع رسالة عاجلة من الأختين مريم ومرثا فى بيت عنيا تطلبان النجدة :

ــ ياسيد الذى تحبه مريض .

أدرك يسوع فى الحال أن لعازر قد مات ، وأن الرسالة جاءت مخففة لعله يسرع لشفاء حبيبه . لكنه لم يبرح مكانه لمدة يومين واصل فيهما تعليمه لتلاميذه ، وفى الوقت نفسه لم يبرح لعازر ذهنه طيلة هذه المدة . فقد رأى يسوع أن أيامه على الأرض أصبحت معدودة ، وقد آن الأوان لصنع المعجزة الكبرى التى تعلو فوق كل نواميس الكون ، وتجلو الصدأ عن النفوس البشرية التى عميت عن رؤية نور الله الساطع وسطها . ولذلك مع حلول اليوم الثالث فرغ يسوع من صلاته عند أول شعاع للفجر ثم دخل الكوخ ليوقظ تلاميذه قائلاً :

ــ لنذهب إلى اليهودية أيضاً .

فرك التلاميذ عيونهم لطرد النعاس ، وتثاءب بعضهم ، ثم جحظت حدقاتهم عندما استوعبوا كلمات المعلم صائحين فى دهشة :

ــ إلى اليهودية أيضاً ؟!

ــ كيف ؟!

ــ أكاد ألا أصدق أذنى !

ــ يامعلم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضاً إلى هناك ؟!

لكن يسوع أجابهم بنفس النبرات الموحية باليقين والسلام :

ــ ساعات النهار اثنتا عشرة التى ينبغى أن يعمل فيها الإنسان مادام الله قد أعد له واجبات يعمل فيها . لعازر حبيبنا قد نام وأنا أذهب لأوقظه .

قال تلاميذه كلمات مترددة :

ـــ ياسيد إن كان قد نام فهو يشفى .

فلم يفهموا المعنى الذى قصده يسوع :

ـــ إن كان أحد يمشى فى النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم . ولكن إن كان أحد يمشى فى الليل يعثر لأن النور ليس فيه .

فقد كان يسوع يتكلم عن موت لعازر فى حين أنهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم . عندئذ قال لهم علانية :

ـــ لعازر مات . وأنا أفرح لأجلكم إنى لم أكن هناك لتؤمنوا . ولكن لنذهب إليه .

لم يستطع توما أن يكبت خوفه على سيده من اليهود المتربصين به ، فتكلم عنه بدلاً من الحديث عن الميت الذى سيذهبون إليه :

ـــ لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه .

عندما اقترب يسوع وتلاميذه من بيت عنيا كان بساط الربيع السندسى قد افترش القرية كلها . وفى بستان البيت ترعرعت الأزاهير اليانعة ، وفاحت الورود النضرة بأريجها المنعش ، وانطلقت الأطيار بين الأشجار الباسقة مغردة صادحة بألحان نشوى امتزجت ببكاء الأختين ونحيبهما . وكأن الكون كله فى احتفاله بمهرجان الربيع والتجديد لا يعبأ بآلام البشرية وأحزانها . فالبستان فيه قبر لكنه مورق متهلل بأشجاره وأزهاره وأطياره التى تداعب أطراف رداء الشمس الذهبى ، وتداعبها هبات النسيم العليل المعطر . فلقد مات لعازر و لم يكن أحد يعلم أن يسوع هو وحده القادر على إثبات أن الحياة تعقب الموت ، كما يعقب الربيع الشتاء .

أما الطبيعة البشرية المترددة ، الضعيفة ، المهتزة فى إيمانها ويقينها فقد تجسدت فى الأختين مريم ومرثا . مريم القابعة فى غرفتها المعتمة غارقة فى بحر دموعها بعد أن جاءها الرسول الذى بعثت به إلى يسوع منذ يومين لينقل إليها قوله :

ـــ هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله .

لم تفهم ما قصده من هذه العبارة ، لأن كل ما فهمته أن أخاها لعازر قد مات ودفن وانتهى أمره . أما أختها مارثا فحاولت الهرب من أحزانها بالانشغال كعادتها فى خدمة الضيوف المعزين الذين سارعوا لمشاركة الأسرة فى مصابها . فقد كان لعازر محبوباً من كل أهالى بيت عنيا . وفجأة يجيء إلى مارثا من ينبئها بقدوم يسوع ، فلم تتمالك سوى أن تترك ما فى يديها ، وتهرع للقائه عند مدخل القرية ، وهى تخر أمامه ساجدة نائحة :

ــ ياسيد لو كنت ههنا لم يمت أخى .

لم يكن لديها أمل وطيد لأن لعازر قد صار له أربعة أيام فى القبر ، ولذلك لم تعبأ مرثا باصطحاب أختها مريم القابعة فى غرفتها المعتمة والغارقة فى بحر دموعها للقاء يسوع والترحيب به . ومع ذلك لم تفقد يقينها كاملاً ، إذ أن بصيص الأمل قد أنار قلبها بمجرد رؤية وجه يسوع فتضرعت إليه :

ــ لكنى الآن أيضا أعلم أنَّ كلَّ ما تطلب من الله يعطيك الله إياه .

أدرك يسوع ما يعتمل داخلها فقال لها بمنتهى الثقة واليقين :

ــ سيقوم أخوك .

عاد الإحباط ليطفىء بصيص الأمل داخلها :

ــ أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير .

ابتسم يسوع فيما يشبه الرثاء والشفقة :

ــ أنا هو القيامة والحياة . من آمن بى ولو مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد . أتومنين بهذا ؟

عاد بصيص الأمل إلى كهوف نفسها المعتمة :

ــ نعم ياسيد . أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتى إلى العالم .

ثم طارت عائدة على أجنحة الأمل لتدخل غرفة مريم سرا وتخبرها :

ــ المعلم قد حضر وهو يدعوك .

هبت مريم للقاء يسوع الذى كان قد أوشك أن يصل إلى البيت . وعندما رآها المعزون خارجة لا تلوى على شيء نهضوا ليتبعوها ظنا منهم أنها ذاهبة

إلى القبر لتصريف كربتها بالبكاء على أخيها . لكنها فرت منهم إلى حيث قابلت يسوع وخرت عند قدميه وهم فى أعقابها . تضرعت إليه :

ــ ياسيد لو كنت ههنا لم يمت أخى .

وانخرطت فى بكاء مر شاركها فيه كل الذين هرعوا فى أعقابها . وتألق وميض الدموع فى ضوء الشمس وامتزج بصوت النحيب وصرير البكاء فإذ بيسوع ينزعج بالروح ويضطرب . فقد كان على استعداد أن يحمل آلام البشرية كلها ، فما بالك إذا كانت آلام أعز الأصدقاء وأقربهم إلى قلبه ! سألهم بصوت متهدج لأول مرة :

ــ أين وضعتموه ؟!

أجابوه وسط الدموع الساخنة :

ــ ياسيد تعال وأنظر .

سار معهم وإذ بهم يرونه يبكى فقال بعضهم :

ــ انظروا كيف كان يحبه !!

فى حين ظن البعض الآخر أنه يبكى لعجزه فتهامسوا متسائلين :

ــ ألم يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟!

انزعج يسوع فى نفسه لأنه كان على استعداد لاحتمال أى شيء يصدر عن البشر إلا الشك واليأس وضياع الإيمان واليقين ، ولذلك أسرع الخطى إلى القبر الذى كان مغارة فى أحد أركان البستان ، وضع على فوهتها حجر . أمرهم يسوع بإشارة من يده :

ــ ارفعوا الحجر .

قالت له مرثا بكلمات تقطر أسى :

ــ ياسيد قد أنتن لأن له أربعة أيام .

سألها يسوع بحزم :

ــ ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله ؟

عندئذ رفعوا الحجر وبدا على يسوع أنه يبذل جهداً غامضاً عنيفاً ، ولما كانت هذه أعظم وأروع المعجزات فلابد أنها تطلبت منه أعظم جهد روحى . فقد كان يبذل قوته ليعطى حياة للآخرين منذ أن بدأ رسالته . ولذلك صلى للآب بحرارة متدفقة أمام القبر وقد رفع عينيه النورانيتين نحو السماء :

ــ أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لى . وأنا علمت أنَّك فى كل حين تسمع لى . ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت . ليؤمنوا أنَّك أرسلتنى .

ثم صرخ يسوع بصوت عظيم ارتج له الحاضرون الصامتون الذاهلون :

ــ لعازر هلم خارجاً .

فى تلك اللحظة السرمدية التقى العالم المرئى بالعالم غير المرئى ، وخرج الميت ملفوفا فى أكفانه ، اليدان والساقان فى أقمطة والوجه فى منديل . أما عيون الحاضرين فقد أوشكت على الخروج من مآقيها ذهولاً ورعباً وانبهارا وشوقاً . وصوت يسوع يرن فى القلوب قبل الآذان :

ــ حلوه ودعوه يذهب .

وجد الحاضرون أنفسهم واقفين على أبواب العالم غير المرئى لدرجة أنهم شعروا أن أجسادهم قد أصبحت كالأطياف السارية فى حضور هذا المخلص الإلهى الذى يقهر الموت ويعيد الحياة إلى جسد أنتن ، بكلمة من فمه . ولذلك لم يملك كثيرون من الحاضرين سوى الإيمان الذى غمر قلوبهم كفيضان كاسح . أما عيون الفريسيين المندسة حوله فى كل مكان فقد هرعت إلى ساداتها لإخبارهم بكل التفاصيل المثيرة حول المعجزة التى يمكن أن تشكل نقطة تحول فى المواجهة الجارية بينه وبينهم ، وبذلك تحققت آية يسوع التى قال فيها عنهم :

ــ ولا إن قام واحد من الأموات يؤمنون .

وسرعان ما تلقى رؤساء الكهنة والفريسيون النبأ الذى هبط على رؤوسهم كالصاعقة ، وقبل حلول المساء كانت أورشليم من أدناها لأقصاها تدوى بهذه الأنباء التى وضعتها على فوهة بركان ، أوشك أن يطلق حممه على كل خصوم يسوع الذين وجدوا فيما حدث فى الصباح نذر ثورة قد تصل به إلى قمة المملكة ليتوج عليها ، وربما أزاح سلطان الرومان فى طريقه ليصنع عيداً حقيقياً للتجديد ، تجديد أمة إسرائيل . وبعد ذلك لن يجرؤ أحد على مواجهة اعصاره

العارم .

ولذلك تم استدعاء مجلس السنهدريم بصفة طارئة وعاجلة لينعقد فى دار قيافا رئيس الكهنة . ونظرا لحدة الأزمة وخطورتها التى لم تشهد أورشليم مثيلاً لها منذ سنوات بعيدة ، فقد حضر الإجتماع جميع كهنة وشيوخ السنهدريم عن بكرة أبيهم . وخيم على المكان روح القلق والتوتر والخوف من احتمالات ثورة شعبية بقيادة يسوع فى أحرج فترة فى العام ، وهى فترة عيد الفصح التى تمتلىء فيها أورشليم باليهود من كل أرجاء المعمورة ، وتلتهب فيها الأفئدة بحمية العقيدة التى أصبح يسوع بمثابة نبيها الجديد . ولابد أن الامبراطور القابع على عرشه فى روما قد استشعر بوادر هذه الثورة ، وهو لن يتردد فى القضاء على سلطان الكهنة والشيوخ إذا لمس عجزهم عن احتواء التطورات الجديدة وإعادة الأمور إلى نصابها ، وبالتالى فإن كل المكاسب والامتيازات والخيرات والسلطات التى أحرزوها على مر الأجيال سوف تتلاشى كما ينقشع الظلام أمام النور ، ليس بسبب بطش سلطان جبار أو زحف جيش جرار ، وإنما بسبب شاب أعزل لا يملك سوى كلمته التى بها الآيات والمعجزات .

سيطر الإضطراب على الوجوه المكفهرة ، والحيرة على النظرات الزائغة ، والغضب على الأنوف المعقوفة ، والرعشة على اللحى البيضاء والرمادية ، والحمى على الكلمات المتسائلة المتناثرة فى أرجاء القاعة الفسيحة :

ـــ ماذا نصنع فإن هذا الانسان يعمل آيات كثيرة ؟ فإن تركناه هكذا ليؤمن الجميع به فسيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا !

لم يحب قيافا ألذى كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة أن يدخل الحوار فى المتاهات الجانبية والطرق المسدودة المعتادة التى يتعثر فيها القرار كلما ناقشوا هذا الموضوع المتفجر ، خاصة وأن قيافا لمح بوادر اعتراض فى نظرات نيقوديموس ويوسف الرامى اللذين لم يستريحا له على الإطلاق وهو الصدوقى الذى لا يؤمن بالحياة الأخرى ، وصهر حنَّان الذى كان قد عزله الوالى الرومانى فاليريوس من رياسة الكهنوت برغم أنه ظل يحتفظ باللقب ومعظم السلطة كنائب للرئيس ، لكن السلطة المطلقة فى المجلس كانت لقيافا بحكم استناده إلى تأييد الوالى الرومانى ، ولذلك أراد أن يحسم الموضوع كله بتقديم يسوع ضحية عن الأمة اليهودية التى كانت تثير شكوك الامبراطورية الرومانية فى

حقيقة خضوعها واستسلامها لها ، إذ أن الثورات الماضية أثبتت أن الأمة اليهودية لن تستسلم للرومان وإن تظاهرت بذلك . أى أنه أراد ضرب عصفورين بحجر واحد : القضاء على يسوع واكتساب المزيد من المساندة الرومانية . ولذلك صاح بأعلى صوته فى الحاضرين :

ـــ أنتم لستم تعرفون شيئاً . ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها !

ثم ادعى بصفته رئيساً للكهنة أنه تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة ، ولم يكن يدرك فى تلك اللحظة أن نبوءته الكاذبة هذه ، والتى أراد بها التمهيد الدينى للقضاء على يسوع ، أنها ستكون حقيقية ليس عن هذه الأمة فقط بل عن كل البشرية .

وتحرك قيافا بين الحاضرين بهمة لا تعرف الكلل حتى يقتصر الأمر على المشاورات الجانبية بعيداً عن المناقشات العلنية وطرقها المسدودة . وبالفعل طرح موضوع قتله بأسلوب مباشر وصريح دون أى حرج ، وأصبحت اعتراضات نيقوديموس ويوسف الرامى دخاناً فى الهواء ، إذ أن الأغلبية الساحقة اتفقت على تسليم يسوع إلى الوالى الرومانى ليحكم عليه بالقتل ، ذلك لأن حكم الموت كان الحكم الوحيد الذى لا ينضوى تحت سلطات مجمع السنهدريم .

وَمَضَتْ العيون الحائرة فى ضوء الشموع والمصابيح الزيتية ببريق التشفى وشهوة الانتقام بعد أن أصبح الهدف واضحاً ، ولم يبق سوى دراسة الوسيلة المناسبة لتحقيقه . فقد كان عليهم أن يتحركوا فى حيطة وحذر ، إذ أنهم لا يقدرون أن يقبضوا على يسوع أمام الجموع التى هامت به حباً وعبادة ولاحقته حيثما ذهب وحيثما حل ، خاصة بعد إقامته للعازر من الأموات . إذ أن عملاً طائشاً من هذا النوع كفيل بإشعال الثورة التى لا تبقى ولا تذر ، خاصة وأن كمدهم كان قد هدأ بعض الشىء بعد أن بلغتهم الأنباء باختفاء يسوع بعيداً عن الأنظار . ويبدو أن أنباء القرار السرى الخطير بقتل يسوع قد نقلها نيقوديموس أو يوسف الرامى سرا إليه ، أو ربما كان يسوع قد أدركها بروحه فمضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية ، إلى مدينة يقال لها أفرايم حيث مكث هناك مع تلاميذه بعيداً عن الكلاب المسعورة التى حاولت تعقبه طلباً لدمه .

ويبدو أن هذه المدينة الوادعة الصغيرة كانت فى برية اليهودية ، قريبة من المكان الذى بدأ منه يسوع رسالته الإلهية منذ ثلاث سنوات يوم أُصعد إلى البرية ليجرب من إبليس الذى قال له حينذاك :

ــ أعطيك جميع ممالك الأرض ومجدها إن خررت وسجدت لى .

لكن يسوع أجابه بمنتهى الحسم :

ــ اذهب ياشيطان . لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد .

وها هو يسوع يأبى أن ترفعه الجماهير كى يجلس على عرش مملكة إسرائيل الأرضية . فقد رفض مسايرة رغبات رؤساء الكهنة وقادة الشعب ، وهو يدرك تماماً أنهم يخططون لقتله . فإذا كان قد رفض الرضوخ للشيطان وهو فى قمة صراعه معه ، فهل يقبله وهو فى ذروة تحديه للكهنة والفريسيين والصدوقيين والناموسيين والكتبة والهيروديسيين ؟! خاصة وأنه سيموت بإرادته وحده كما سبق له أن قال :

ــ نفسى ... ليس أحد يأخذها منى بل أنا أضعها من ذاتى .

(٤٠)

ارتدت أورشليم أبهى حللها استعداداً لعيد الفصح ولاستقبال الحجاج القادمين من كل أطراف المعمورة : بقايا السبى الذين ظلوا فى بابل ، والنازحين من المستعمرات اليهودية فى الإسكندرية ، والتجار الذين شدوا الرحال من روما واليونان وآسيا الصغرى ، من كل ميناء من موانىء البحر الأبيض المتوسط ، ومن كل بلد من بلدان العالم المتحضر : « فرتيون وماديون وعيلاميون وما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجيه وبمفيلية ومصر ونواحى ليبية التى نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب » .

هكذا تزاحم العالم اليهودى لأداء شعائر الحج فى المدينة المقدسة ، إذ كان عدد اليهود المشتتين فى بقاع الأرض يربو على الساكنين منهم فى فلسطين . وكلهم يعتبرون أنفسهم منفيين ، غرباء عن أرض الوطن . لكن وسط زحام عيد الفصح واكتظاظ المدينة المقدسة بالحجيج ، فإن احساس السبى والنفى والغربة يتلاشى . وفى هذا الفصح بالذات كانت الجماهير غفيرة إلى الحد الذى لم يعد فيه موطىء لقدم ، فقد بلغت شهرة النبى الجديد الآفاق ، وأصبحت آياته ومعجزاته على كل لسان ، ولذلك طار القادمون من كل حدب وصوب على أجنحة الشوق لرؤيته والإستماع إلى تعاليمه . كما ترددت أسئلة كثيرة وتكررت بين الحجاج دون أجوبة تطفىء نار الحيرة والشوق :

ــ هل رأيته ؟

ــ لازلت أموت شوقاً لرؤيته .

ــ يقولون إن لوجهه وعينيه ضوءا نورانياً لم تره عين بشرية من قبل !

ــ الشائعات والأقاويل تملأ المدينة ليل نهار .

ــ لن أصدق شيئاً إلا إذا رأيت كل شىء بعينى رأسى .

ــ هناك شائعات قوية تؤكد أن رجال الملك ورؤساء الكهنة يسعون لقتله بعد أن هدد أمن المملكة ، وضربت الجماهير بالكهنة عرض الحائط وسارت خلفه وآمنت به .

ـــ إذاً سنعود إلى بلادنا بخيبة الأمل !

ـــ حضوره الفصح فى أورشليم خطر على حياته !

ـــ فلابد أن يختفى بعيداً عن عيونهم وجواسيسهم !

ـــ وهل يعرفون ملامحه بحيث يقبضون عليه بمجرد رؤيته ؟!

ـــ لابد أنهم رأوه مراراً من قبل فى صولاته وجولاته !

ـــ هذا النور المشع من وجهه لابد أن يسهل التعرف عليه .

ـــ ربما كان هو أحد الحجاج بيننا دون أن ندرى !

ـــ إنه صاحب رسالة ولا يمكن أن يفوت على نفسه فرصة ذهبية مثل عيد الفصح كى يعلنها على رؤوس الأشهاد القادمين من كل أرجاء العالم اليهودى .

ـــ شىء غامض فى داخلى يشدنى إليه ويؤكد لى أننى سأنال شرف رؤيته .

ـــ إنه يريد الإيمان به وليس مجرد المشاهدة العينية له .

ـــ هل يعقل أن يفعل كل ما فعله وأن تدوى شهرته فى الآفاق فى ثلاث سنوات فقط منذ أن بدأ التبشير برسالته ؟!

ـــ هذا أكبر دليل على أنه مرسل من الله .

ـــ لم يأت من قبل من يتمتع بكل هذه القوى الخفية الجبارة .

ـــ لن أصدق إلا إذا رأيت بعينى رأسى . فالناس يصنعون أحياناً الأوهام ثم يصدقونها ويعيشونها .

ـــ الأوهام لا تصمد لأول شعاع عن أشعة الشمس .. أما معجزات هذا النبى الشاب وآياته فقد أثارت خوف رجال الملك ورعب رؤساء الكهنة !

ـــ ولا يمكن أن يخاف هؤلاء من مجرد أوهام !

ـــ واظبت على الحج إلى أورشليم فى عيد الفصح لأكثر من عشرين سنة مضت .. لكن قلبى يحدثنى أن العيد هذه المرة لن يكون كالأعياد السابقة !

ـــ هل آيات النبى الجديد وعجائبه هى السبب فى هذا الإحساس ؟!

ــ لا أعلم .. إنه مجرد إحساس غامض لكنه قوى جداً .

وهكذا دارت الأحاديث بين الحجاج على اختلاف مشاربهم بين الشك واليقين ، بين اليأس والأمل ، بين الخوف والرجاء ، بين التأييد والرفض ، بين التوتر والتساؤل . هذا فى الوقت الذى سار فيه يسوع على آكام أفرايم مثبتاً وجهه نحو أورشليم كحاج بين الحجاج محاولاً قدر الإمكان تجنب الجماهير حتى لا تعوق مسيرته نحو المدينة المقدسة . خاصة بعد معجزة إقامة لعازر من الأموات ، تلك المعجزة التى تربعت على كل الألسنة فى الطرقات ، وفى الأسواق ، وفى الخيام المنصوبة على الروابى وعند السفوح . أما الطرقات المؤدية إلى بيت عنيا فقد غصت بالغادين والرائحين ليشاهدوا القبر الفارغ ودار الرجل الذى عاد من الأموات ، بعيون جاحظة ، وأفواه فاغرة ، وألسنة لاهجة بمجد الرب .

أما رجال أرخيلاوس ورؤساء الكهنة والفريسيون والكتبة والصدوقيون ، فقد أعلنوا حالة الطوارىء حتى لا يفلت زمام الموقف من أيديهم . فاندست العيون بين الجماهير لترسل التقارير أولاً بأول ، وتوالت اجتماعات الحرس فى قصر أرخيلاوس لوضع الخطط الكفيلة بمواجهة كل الإحتمالات ، وظل مجمع السنهدريم فى حالة انعقاد دائم لتضييق الخناق حول يسوع حتى يتم الإيقاع به ومحاكمته ثم القضاء المبرم عليه . وكان ظن معظمهم أنه ينوى دخول المدينة المقدسة زعيماً ثائراً وقائداً غازياً ، وأن الوداعة التى يتظاهر بها ما هى إلا ستاراً يخفى به طموحاته التى لا تقف عند حد ، وهو قادر على تحقيقها بمجرد إشارة من يده للجماهير الغفيرة المؤمنة به .

لم يتصور أحد منهم أنه سيدخل المدينة المقدسة بنفس أسلوب الشاب ، الهادىء ، الصامت ، الوديع ، الرقيق الذى تومض فى عينيه أنوار السماء التى لم تبصرها عين بشر من قبل . أو كما قال بطرس :

ــ كنا فى الطريق صاعدين إلى أورشليم . ويتقدمنا يسوع . وكنا نتحير . وفيما نحن نتبعه كنا خائفين . وابتدأ يقول لنا عما سيحدث له .

كان التلاميذ خلفه حيارى خائفين . فالآفاق القادمة ، غامضة ويصعب تصورها والإلمام بأبعادها ، رغم أن يسوع كان قد كرر على أسماعهم ما سوف

يقع له فى أورشليم عندما يبلغها فى عيد الفصح ، ولكن يبدو أنهم تعللوا بالأمل الذى يوحى لهم بأن التنبؤ بما سوف يقع شيء ، ووقوعه شيء آخر . كانت المسيرة شبه صامتة والمعلم يتقدمهم فى شبه عزلة ، ولذلك انشغل بعضهم باجترار الذكريات الجميلة الهانئة التى عاشوها مع المعلم فى ربوع الجليل الهادئة الوادعة . لكن علاقتهم به الآن قد تبدلت من مجرد تبعية وتلمذة إلى تعبد وتقديس . ومع ذلك ظلوا عاجزين عن استيعاب الفلسفة الإلهية التى تحتم الموت ثم القيامة . وكان لهم فى هذا ، العذر كل العذر ، إذ كيف يموت من أقام لعازر من الأموات بعد أن أنتن فى قبره الذى ظل فيه أربعة أيام ؟! كيف يموت من فتح أبواب الملكوت المنتظر ليصبح مجد إسرائيل على الأبواب ؟! ولذلك فقد تعلل بعض التلاميذ بأن ذهابه هذه المرة إلى أورشليم للظهور بين الجماهير الغفيرة التى أتت من كل حدب وصوب لتجمع بين الحج ورؤيته ، لا يعنى سوى أن الرب الإله سيعطيه كرسى دادو أبيه . ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد . ولا يكون لملكه نهاية .

ويبدو أن التلاميذ قد سعدوا بخروج الجماهير من القرى والمدن التى مروا بها ليروا يسوع ويتبعوه فى شوق حارق ، إذ أخرجتهم الجماهير من عزلتهم الزاخرة بالأفكار المخيفة والمميتة والصامتة . ولذلك رحبوا بالضجيج الخارجى كى يطغى على الضجيج الداخلى السارى فى نفوسهم بهواجس لا يعلم مدى رعبها سوى الله . كانت الجماهير تهلل وتمجد الرب للمعجزات التى صنعها يسوع وهو فى طريقه الى أورشليم . ومع كل خطوة جديدة كانت الأعداد الغفيرة تتضاعف لدرجة أن الشباب والصبية أسرعوا لتسلق الأشجار الواقعة على جانبى الطريق التى يمر بها يسوع ليتمكنوا من رؤيته لمن كثب ، إذ أن الجماهير حول يسوع وخلفه تحولت إلى أمواج بشرية متلاطمة ، فاضت على الجانبين وأغرقت الحقول والوديان والسهول والتلال القابعة على حافتى الطريق .

وعندما دخل يسوع أريحا مجتازاً إياها فى طريقه إلى أورشليم ، حاول رجل قصير القامة يدعى زكا ، وكان رئيساً للعشارين فى أريحا ، أن يرى يسوع ، لكن قامته القصيرة لم تسعفه حتى وهو يحاول أن يشب على قدميه . وإذ بهذا الرجل الثرى ، الوجيه ، الرزين يتصرف كالصبية والشباب ، ويتخلى عن وقاره ، ويتسلق إحدى أشجار الجميز مع بعض الغلمان ليرى وجه يسوع .

فبرغم ثرائه ومكانته كان محتقراً من الناس مثل غيره من العشارين الذين كونوا ثرواتهم بأساليب الظلم والابتزاز . وكان يسوع هو الوحيد الذى لا يحتقر البشر لخطايا ارتكبوها في حياتهم أو مهنهم ، ولم ينس زكا أن يسوع اختار متى العشار فى كفرناحوم ليكون أحد تلاميذه . فهو صديق كل البشر حتى الخطاة والعشارين منهم .

ظل زكا متشبثاً بكل قوته بغصن الجميزة التى تعلق بها ، وعيناه مثبتتان على الطريق التى سيأتى منها يسوع ، غير عابىء بنظرات الصبية والغلمان الساخرة من هذا الرجل الذى يأتى أفعالاً لا تليق بسنه . وسرعان ما بدت طلائع المسيرة ، ودقات قلب زكا تتصاعد وتتضاعف خشية أن تمر الجماهير دون أن يملأ عينيه بوجهه المنير الحبيب ، فلم يكن الدافع الملح وراء سلوكه هذا مجرد حب استطلاع ، بل كان يشعر برباط خفى يشد قلبه إلى هذا المعلم العظيم الذى اتسع قلبه ليحتوى كل البشر بحبه وحنانه .

اقترب يسوع من الشجرة وكاد قلب زكا أن يتوقف عندما وقف يسوع تحتها وهو ينظر إليه قائلاً :

ـــ يازكا أسرع وأنزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك .

لم تصدق عيناه ما تريانه ، وأذناه ما تسمعانه ، إذ بدا الأمر كله فى لحظات خاطفة وكأن يسوع مرَّ خصيصاً بأريحا ليقضى يومه فى بيت زكا . ودون تفكير أسرع زكا ونزل ليقبل يسوع فرحاً بل ومنتشيا بالحقائق التى فاقت كل أحلامه روعة وبهاءً . وفى غمرة هذا الحب الجارف داخل زكا ، ولكل مشاعر الهوان التى طالما أرقته فى نظرات الآخرين الصامتة أو أحاديثهم الهامسة أو ألسنتهم السليطة ، انطلق زكا مع يسوع ليدخل ويقضى يومه هناك .

أما الفريسيون المدسوسون وسط الجماهير فقد حاولوا إثارة المشاعر ضد يسوع الذى سمح لنفسه أن يدخل بيت رجل خاطىء ، لكن انبهار الجماهير بيسوع قد سد آذانها بحيث لم تعد تسمع كلمات غير كلمات النعمة المنهمرة من فمه . ولذلك اشتد الزحام داخل بيت زكا وخارجه حتى سدت كل الطرقات والمنافذ المؤدية إليه ، والفريسيون على وشك الموت كمداً وغيظاً وهم يستمعون إلى كلمات العشار المدوية :

— ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف .

كتم الفريسيون أنفاسهم ليلتقطوا كل كلمات المعلم :

— اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن إبراهيم لأن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ويخلص ما قد هلك .

وتناثرت همسات الفريسيين المترددة هنا وهناك :

— إنه يقول له يارب فكيف يتقبل منه هذا النداء بهذه البساطة ؟!

— كيف يمنح الخلاص وكأنه تحت أمره فى أية لحظة ؟

— هل كل من يتعلق بجميزة ليراه ثم يدعوه لبيته يحصل على الخلاص ؟!

— هل الخلاص من نصيب كل أبناء ابراهيم حتى الخطاة والعشارين منهم ؟!

— لقد اختلط الحابل بالنابل فلم نعد نعرف الفارق بين الطاهر والخاطىء !

لكن فحيح الفريسيين لقى آذانا صماء ، فقد كانت كلمات المخلص تملأ الآذان بنغمات إلهية شجية ، والقلوب بأنوار مبهرة تغلغلت إلى أعماق كهوفها وأغوارها المعتمة .

جن جنون رؤساء الكهنة والفريسيين فى أورشليم عندما وجدوا كل الأفئدة تهفو لرؤية يسوع وسماع كلماته لدرجة أنهم أصدروا أمراً فى جميع المحافل والمجامع وأروقة الهيكل بأنه إن عرف أحد أين هو فليدل عليه لكى يمسكوه . فلم يكن يسوع قد بلغ أورشليم بعد . ولذلك احتشدت جماهير الحجاج والقرويين على جانبى الطريق لرؤية يسوع الناصرى ولو للحظة عابرة ، وهو فى طريقه إلى أورشليم فى يوم الجمعة قبل عيد الفصح بستة أيام . وشهدت مسافة الاثنى عشر ميلا بين أريحا وأورشليم موجات بشرية هادرة تدفقت من كل القرى والحقول الموازية لحافتى الطريق . وتعلق الصبية والغلمان بأغصان الأشجار الضخمة ، وصعدت النسوة فوق أسطح البيوت المتاخمة للطريق . فى حين أسرع الرجال الأشداء إلى أسوار المدينة ومرتفعاتها القابعة عند نهاية الطريق الذى سيصل منه يسوع لعلهم يفوزون بنظرة .

لكن يبدو أن يسوع وجد الطوفان جارفاً عاتياً ، فآثر أن يخفف من حدة غلوائه حتى لا يكتسح المدينة المقدسة ويتم إعلانه ملكاً أرضياً عليها . ولذلك آثر أن يتخلف مع تلاميذه عن الموكب الطويل المهيب الذى يتابع مسيرته إلى أورشليم ، وأن يلجأ إلى بيت عنيا ليستريح بعض الوقت فى بيت لعازر الذى أقامه من الأموات . وبعد انقضاء السبت ، أقيمت فى البيت ، فى المساء التالى ، مأدبة فاخرة تكريماً للرب الذى بارك البيت بحلوله فيه للمرة الثالثة . وتحولت مرثا إلى شعلة متأججة من النشاط لخدمة الرب وتلاميذه ، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه لكن مريم طرأت على بالها فكرة ارتاحت لها بعض الشيء فهرعت إلى غرفتها الصغيرة التى تطل على المغارة التى كان لعازر قد دفن فيها أربعة أيام ، وأخرجت من خزانة ملابسها قارورة طيب ناردين خالص كثير الثمن ثم أسرعت إلى يسوع لتدهن قدميه وتمسحهما بشعرها ، فامتلأ البيت من رائحة الطيب وفاح عبقه من النوافذ ليمتزج بأريج الزهور والورود المتناثرة بين طرقات حديقة المنزل . وكان التلاميذ يتابعون المشهد المؤثر بانفعال جياش ومشاعر فوارة بالحب والوفاء ، باستثناء يهوذا الإسخريوطى الذى نظر إليها بعينيه الجاحظتين ، وأنفه المعقوف ، ولحيته الحمراء الداكنة نظرات استنكار أعقبها بكلمات لم يستح عن النطق بها أمام الجميع :

ـــ لماذا لم يبع هذا الطيب بثلثمئة دينار ويعطى للفقراء ؟!

ألقى عليه يسوع نظرة فاحصة جعلته يشعر بالعرى فلملم أطراف ردائه الأسود حول جسده النحيل . فهو لم يقل هذا لأنه كان ينعى هم الفقراء والبؤساء بل لأنه كان سارقاً للصندوق الذى ائتمنه عليه يسوع والتلاميذ للإنفاق منه وقت الحاجة . حاول أن يتجنب نظرات يسوع الفاحصة المشعة لكن عينيه اصطدمت بنظرات يوحنا الطافحة بالريبة والشك فيه ، فآثر أن يتأمل نقوش البساط تحت قدميه ، فى حين وجه يسوع حديثه لتلاميذه جميعاً :

ـــ اتركوها . إنها ليوم تكفينى قد حفظته . لأن الفقراء معكم فى كل حين . وأما أنا فلست معكم فى كل حين .

ها هو المخلص يعود للحديث المؤلم الممض الذى لم يستوعبه تلاميذه أو تجنب بعضهم استيعابه ! وها هو الحزن يتألق مع وميض الشموع والمصابيح الزيتية فى العيون الملتفة حول مائدة العشاء الذى انتهوا منه ! وها هى مريم تكاد تدرك سر الكآبة التى كادت أن تسحق روحها تحت وطأتها ، لكنها عجزت عن الإمساك به وكشفه تماماً !

أما فى خارج البيت فكانت الفرحة تعانق القلوب ، والنشوة تغمر الأفئدة التى هرعت إلى هناك ، ليس لرؤية يسوع فقط بل لمشاهدة لعازر الذى أقامه من الأموات والذى كان السبب فى إيمان كثيرين من اليهود بيسوع والالتفاف حوله ، لدرجة أن رؤساء الكهنة تشاوروا فى مجمعهم المنعقد بصفة طارئة كى يقتلوا لعازر أيضاً ، فقد كان الدليل المادى والحى على ألوهية المسيح . وكان نيقوديموس ويوسف الرامى فى غاية الخجل عندما وجدوا زملاءهم فى الكهنوت يقفون إلى جانب الموت والفناء فى حين يسعى يسوع جاهداً من أجل الحياة والخلود . فقد أعماهم الحقد والجشع عن رؤية الحقائق الإلهية الواضحة وضوح الشمس ، خاصة بعد أن أبلغتهم التقارير الواردة بأن الجماهير باتت ليلتها فى العراء حول بيت لعازر ، غير عابئة بهطول الأمطار ، وهبوب الرياح ، وصقيع الفجر على أمل نيل شرف السير فى موكب يسوع إلى أورشليم فى الغد .

ومع انبلاج نور الصباح استيقظت الجماهير المحيطة ببيت عنيا ، وكان نبأ وجود يسوع بها قد تردد كقصف الرعد حتى بلغت أصداؤه قوافل الحجاج

المارة بالقرية فى طريقها إلى أورشليم فعرجت عليها لعلها تقتنص نظرة إلى محرر إسرائيل وصانع أمجادها الجديدة ، والتى تبز أمجاد داود وسليمان ، كما بلغت الأصداء أسماع المقيمين فى الخيام المنصوبة على جوانب الجبل فتدفقوا كالسيل المنهمر على بيت عنيا ، وأضحت القرى المحيطة بها فى مظاهرات لا يهدأ لها أوار . وطاش صواب رؤساء الكهنة فى مجمعهم الذى أصابه الشلل عندما وجدوا الحجاج داخل أسوار أورشليم ينطلقون كالسهام من أبوابها إلى القرية الصغيرة التى أوشكت أن تناطح أورشليم شهرة ومجدا . وكان التلاميذ أسعد البشر بهذا الطوفان البشرى الذى لا ينقطع والذى طغى على هواجسهم المخيفة المرعبة التى أثارتها أحاديث المعلم المتكررة حول موته وقيامته ، ذلك أن سلطان يسوع على البشر لم يبلغ من قبل ما بلغه فى ذلك اليوم العتيد ، والذى أوحى لبعض التلاميذ أن مملكة اسرائيل على وشك أن تقام شامخة بين السحاب ، وأنهم سيكونون رجال البلاط فى قصر الملك الجديد .

وأخيراً أكدت الأنباء عزم يسوع على الذهاب للعيد ، برغم أنه جازف مرتين من قبل بحضور الفصح فى أورشليم وانتهت المرتان بطرده بعيداً عنها . خرج يسوع من بيت عنيا محاطاً بالتلاميذ والقلوب المبهورة به حتى أضحى الطريق نهراً من أمواج بشرية متلاطمة هادرة . وعندما اقترب يسوع من بيت فاجى عند جبل الزيتون توقف قائلاً لبطرس ويوحنا :

ـــ اذهبا إلى القرية التى أمامكما فللوقت تجدان أتانا مربوطة وجحشاً معها فحلاهما وأتيانى بهما . وإن قال لكما أحد شيئاً فقولا الرب محتاج إليهما .

أسرع بطرس ويوحنا لتنفيذ أوامر المعلم فى حين شعر متى بفيض من النور يغمر داخله إذ أصبح شاهد عيان لنبوءة قديمة تتحقق أمامه ولسانه يلهج بها همساً :

ـــ هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان .

ويبدو أن خواطر مثل هذه انتابت التلاميذ الآخرين ، فتذكروا أن القضاة فى إسرائيل قديماً ركبوا حميرا بيضاء ، وها هو أعظم قضاة اسرائيل قد جاء وهم ملتفون حوله فى طريقه إلى مملكته فى أورشليم ، ولابد أن حديثه عن موته وقيامته هو حديث الأمثال والرموز التى عودهم عليها كما أراد أن يفسر

لهم مبدأ من مبادئه الإلهية . ولذلك ارتفعت روح التلاميذ المعنوية لتحلق وسط السحاب ، وأحلام اليقظة المشرقة ، وضجيج الآلاف المؤلفة التى أحاطت يسوع بأجسادها وقلوبها .

ومع كل خطوة على الطريق يزداد الحماس اشتعالاً ، ويصل بطرس ويوحنا عائدين بالأتان والجحش بعد أن وجدوا ونفذا ما أمر به يسوع بالضبط ، وبمجرد أن امتطى يسوع أحدهما وقد غطوه بالملابس هتفت الجماهير الحاشدة ممجدة الرب ، وافترشت ثيابها أمامه حتى تمنع ذرات التراب والرمال من مطاردة العيون والوجوه ، ولوحت بسعف النخيل والأغصان الخضراء ، فى حين هدرت حناجرها :

ـــ أوصنا لابن داود .

ـــ مبارك الآتى باسم الرب .

ـــ أوصنا فى الأعالى .

ـــ مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب .

ـــ سلام فى السماء ومجد فى الأعالى .

ـــ مبارك الآتى باسم الرب ملك اسرائيل .

وعندما اقترب الموكب الإلهى عند منحدر جبل الزيتون كان التلاميذ والرسل قد نسوا همومهم تماماً ، وجرفتهم النشوة ، وتصاعدت تسبيحاتهم بصوت عظيم مع هدير الجماهير التى تحولت إلى وجوه متألقة بالعرق ، وقلوب نابضة بالتمجيد ، وألسنة صارخة بالتهليل ، مما أصاب بعض الفريسيين المندسين وسطها بجنون محموم جعلهم يصرخون :

ـــ يامعلم انتهر تلاميذك .

لكن يسوع قال لهم بحسم :

ـــ أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ .

كانت صرخات وصيحات الجماهير اللاهثة حول يسوع وخلفه ، صادرة عن اعتقادها بأنه قد آن الأوان لخلاص شعب إسرائيل على يد الله وعودة

مجد مملكته على يدى صانع المعجزات العظيم الذى أقام لعازر من الأموات . أما حقيقة رسالته ومبادئه ودعوته وكرازته لمملكة السماء فلم تخطر على بال أحد . فلم تصل بصيرتهم إلى تخوم أبعد من مملكة داود وسليمان التى كانت عاصمتها أورشليم درة يتيمة بين عواصم الممالك فى ذلك العصر الغابر . وها هو يسوع الملك الجديد يقتحم أورشليم بقوة كاسحة جارفة دون أن يشهر سلاحاً سوى سلاح الإيمان به من قوم بسطاء عزل ، وهو السلاح الذى عجزت روما عن مواجهته بكل جبروتها وبطشها ، فهى التى حكمت أكثر من نصف العالم بالجيوش الجرارة وآلة الحرب الجهنمية التى توجهها لسحق كل من يشرع أو يفكر فى اعتراض طريقها . وكان بيلاطس البنطى مندوب الامبراطورية الرومانية فى أورشليم من الحصافة السياسية بحيث آثر أن تمر العاصفة بسلام طالما أنها لا تهب على الامبراطورية التى يمثلها ، اذ أن حرب هذا النبى ، الشاب ، الوديع ، الرقيق كانت موجهة أساساً ضد الرموز الدينية اليهودية التى تحتكر تطبيق الشريعة والناموس على اليهود . وطالما أن الأمر لم يتعد نطاق الدين إلى السياسة ، فليست ثمة ضرورة لمواجهات لابد أن الامبراطورية فى غنى عنها .

بل إن بيلاطس البنطى القائد الوثنى كان يكن فى داخله كل احترام وتقدير وإعجاب لهذا النبى الشاب الأعزل الذى يملك كل هذه القدرة على تحريك الجماهير بمجرد كلمة منه ، وهو ما لا يقدر عليه قيصر روما الذى يعجز أحياناً عن السيطرة على أعضاء السيناتوم أو مجلس الشيوخ ، وحادثة اغتيال يوليوس قيصر على يد بروتس منذ حوالى سبعين عاماً لا تزال ماثلة فى الأذهان ، وربما أوحت لخصوم النبى الجديد أن يطبقوا درسها عليه بعد أن فشلوا فى القبض عليه جهاراً نهاراً بسبب الجماهير التى تحيطه بقلوبها قبل أن تحرسه بأجسادها ، وربما يحاولون الآن شراء أحد تلاميذه حتى تكون الطعنة من الداخل مثل طعنة بروتس ليوليوس قيصر !

وينحرف موكب ملك اسرائيل الجديد تجاه الشمال ، وعند هذا المنحنى تبدو المدينة الجميلة من وراء روابى الجبال الشامخة . وها هى أورشليم تتبدى لأنظار يسوع والجماهير الحاشدة فى أوج مجدها وجلالها وجمالها ، وكأنها عروس فى استقبال عريسها ، أو مملكة فى انتظار مليكها . المدينة التى تتربع

على قلوب اليهود وتنسج أحلامهم الذهبية ، مدينة الله ، ومقدس العلى ، ومهبط الوحى ، ونبع النبوة . أورشليم بهجة كل الأرض . لكن هذه البهجة لم تكن فى قلب يسوع . فلم تكن المدينة فى نظره سوى قلعة للتعصب وضيق الأفق والانتهازية والسيطرة باسم الدين . ولذلك عندما اقترب من المدينة بكى عليها قائلاً :

ـــ إنك لو علمت أنت أيضاً حتى فى يومك هذا ما هو لسلامك . ولكن الآن قد أخفى عن عينيك . فإنه ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة . ويهدمونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر لأنك لم تعرفى زمان افتقادك .

كانت وقع هذه الكلمات الرهيبة على من سمعوها من التلاميذ وغيرهم كقصف الرعد فى آذان الأطفال حتى كادت قلوبهم أن تجمد بين ضلوعهم . لكن الآخرين لم يسمعوا شيئاً بل سار الموكب المهيب فى طريقه إلى أبواب المدينة التى ارتجت كلها متسائلة فى ذهول :

ـــ من هذا ؟!

فاذ طلائع الجموع التى سبقت الموكب تصيح مهللة :

ـــ هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل .

فى حين كاد الكهنة والفريسيون الحانقون أن يموتوا كمدا قائلين بعضهم لبعض :

ـــ انظروا . إنكم لا تنفعون شيئاً . هوذا العالم قد ذهب وراءَه .

أما بيلاطس البنطى وقادته الرومانيون فقد راقبوا الموقف عن كثب ، واضعين فى اعتبارهم كل الاحتمالات المتوقعة أو غير المتوقعة ، خاصة وأن جنون الجماهير بالنبى الجديد بلغ حدا جعلهم تحت إمرته فى أية لحظة ، حتى لو طلب منهم تطهير أورشليم من قوات الاحتلال الرومانى . لكن شيئاً من هذا لم يحدث . فلا ثورة ولا قلاقل ولا اضطرابات وإنما مظاهرة حب ساخن متدفق لم يشهد تاريخ البشرية مثيلاً لها .

وبسلام دخل ملك السلام هيكل الله ، وابتدأ يخرج الذين كانوا يبيعون

ويشترون فى الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام . ولم يدع أحداً يجتاز الهيكل بمتاع . وكان يعلمهم قائلاً :

ـــ أليس مكتوباً بيتى بيت صلاة يدعى لجميع الأمم . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ؟!

ثم تقدم إليه عمى وعرج فى الهيكل فشفاهم . فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التى صنعها ، لم يدروا ماذا يفعلون . فحتى الأولاد كانوا يصرخون فى الهيكل ويقولون :

ـــ أوصنا لابن داود .

عندئذ انفجر كمد الكهنة والكتبة سائلين يسوع :

ـــ أتسمع ما يقول هؤلاء ؟!

لابد أن يسوع تذكر حين كان فى الثانية عشرة من عمره يوم ذهب إلى الهيكل وانهمك فى محاورة الكهنة والكتبة لدرجة أنه نسى أن يعود إلى بلدته الناصرة مع أمه ويوسف النجار . تذكر هذا وهو يجيب بمنتهى الحسم على تساؤل الكهنة والكتبة :

ـــ نعم . أما قرأتم من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً .

وأسرع رؤساء الكهنة والكتبة إلى وجوه الشعب وكبار القوم كى يضعوا خطة ليهلكوه . وأمضوا الليل كله فى الحوار والجدل العقيم حتى انبلج نور الفجر وهم يضربون أخماسهم فى أسداسهم دون أن يجدوا ما يفعلون لأن الشعب كله كان متعلقا به يسمع منه . أما يسوع فقد تركهم وخرج خارج المدينة مع حلول المساء إلى بيت عنيا وبات هناك .

لكن هل استراحت الجموع لتلك الخاتمة الهادئة الوادعة لذلك اليوم المهيب المشهود المفعم بالآمال الكبار والزاخر بالأحلام الذهبية القديمة التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى لتتحقق ؟! لم يصدر يسوع أمرا لطرد رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين من الهيكل كى يحل محلهم مع تلاميذه ورسله وحوارييه ومختاريه ؟! لم يطلب منهم الهجوم على قوات الاحتلال الرومانى لتطهير المدينة المقدسة من أقدامهم وأرجاسهم ؟! لم يعلن قيام المملكة الجديدة التى تعيد أمجاد

داود وسليمان ؟! لم يفعل شيئاً من هذا القبيل بل عاد إلى سيرته الأولى فى التبشير والكرازة وصنع الآيات والعجائب !! إذاً ما جدوى هذا الموكب الرهيب المهيب الذى دك الأرض دكا ، وارتجت له أرجاء المدينة وأبوابها ؟! فالأمور لا تزال على ما هى عليه ، والمملكة الجديدة لم تقم ، وأورشليم لا تزال تعانى من احتلال الرومان ، ومؤامرات أرخيلاوس ، ودسائس رؤساء الكهنة والفريسيين !!

مع هبوط الليل على المدينة انتشرت هذه التساؤلات المحيرة والممزوجة فى بعض الأحيان بخيبة الأمل بين السكان والأهالى والحجاج . لماذا لم ينتهز فرصة العمر هذه ويضرب ضربته ويقيم مملكته ؟! إنها فرصة نادرة لا يمكن أن تتكرر . ومع ذلك هرب البعض من هذا الإحساس القاتم بخيبة الأمل والإحباط ، بالتعلق بخاطر مثير . فهم لا يزالون فى أسبوع الفصح ، والمدينة متخمة بالبشر تكاد تتقيأهم ، وكل عوامل الثورة والانفجار لا تزال كامنة ، فهل يمكن أن يقع ما لا يخطر على بال بشر قبل أن ينتهى العيد ويعود كل إلى حال سبيله ؟!

(٤٢)

برغم أنه لم يحدث ما يهدد أمن الكهنة والكتبة والصدوقيين والفريسيين والهيرودسيين والناموسيين عندما دخل يسوع أورشليم فى أحد السعف ، فإنهم شعروا أن زمام المبادرة لا يزال فى يديه . فهو لا يزال قادراً على إشعال الثورة ضدهم فى لحظة خاطفة . خاصة وأن بعضهم ركب الآمال الكبار صباح ذلك اليوم المشهود ، وظن أن النبى الشاب سيوجه جيشه العرمرم ضد قادة الاحتلال الرومانى وجنوده لتطهير أورشليم من أقدام المغتصبين ، وهى لحظة لابد أن ينضم إليه فيها كل الكهنة والكتبة وغيرهم من الفئات الدائرة فى فلكهم ، فهم لا يقلون عنه حمية فى مجال الوطنية . لكن لم يحدث شيء من هذا على الإطلاق . فلا يزال بيلاطس البنطى متربعاً فى قصره كأنه يشاهد إحدى المسرحيات المثيرة التى اعتاد الرومان حضورها فى روما ، ولا يزال جنوده لاهين بين احتساء الخمر واصطحاب فتيات الليل إلى بيوت الفسق والدعارة برغم حالة الطوارىء المعلنة بينهم .

أكدت كل الأدلة والشواهد ما دار فى أذهان الكهنة والكتبة ومن سار فى ركابهم . ذلك أن يسوع لم يمس الرومان بكلمة من قريب أو بعيد فى حين أن كرازته منذ بدايتها كانت هجوماً كاسحا ومتصلاً ضد الكهنة والكتبة والفريسيين وكأنهم الأجانب المحتلون الغاصبون فى حين أنهم حفظة الشريعة والناموس وحراسهما منذ موسى . ويبدو أنه لن يغير نهجه . فالرومان لا يمثلون بالنسبة له أية مشكلة على الإطلاق ، أما الكهنة والكتبة والفريسيون فهم المستهدفون وكأن ثأراً قديماً تشتعل ناره داخله ، يدفعه إلى تشويه صورتهم وتحطيم مكانتهم ، والقضاء عليهم فى النهاية بأى شكل من الأشكال . ولذلك أجمعوا أمرهم على أن المسألة بالنسبة لهم أصبحت مسألة حياة أو موت ، وأن الصدام المصيرى لا محالة واقع بينه وبينهم ، وإذا لم يقضوا عليه وبأسرع ما يمكن فسوف يقضى عليهم كفراشات فى وجه إعصار . والحمد لله فإن إجماعهم حول هذه القضية شبه كامل ، ذلك أن اعتراضات يوسف الرامى وتحفظات نيقوديموس لا تشكل أية عقبة فى سبيل ما عقدوا العزم على القيام به بمنتهى الحسم والسرعة .

ـــ لكن كيف ؟!

كان هذا هو السؤال الذى تحدى أعضاء السنهدريم فى مجمعهم المنعقد بصفة دائمة حتى يتم التخلص من يسوع بطريقة أو بأخرى . كان لابد من الإجابة على هذا السؤال حتى لو ظلوا بلا نوم أسبوعاً أو أكثر . فلم يعد فى الوقت متسع للتأجيل أو التهوين . قال قيافا رئيس الكهنة بصوت يقطر غما :

ـــ افعلوا أى شىء .. لكن لا تلقوا القبض عليه جهاراً وإلا فتكت بنا الجماهير المشتعلة حماساً .

حك الحبر حنَّان لحيته الرمادية بأظافرة قائلاً :

لابد أن نحاربه بسلاحه .. فإذا كان يصر على تشويه سمعتنا وتلويثها فلابد أن نشوه صورته ونحطمها أمام الشعب ونظره أمامه بمظهر الشاب المستهتر الذى لا يبالى بقيمنا الإلهية ، ويخون عهد الولاء لموسى ولخلفائه من الكهنة والكتبة .

ومضت عينا الكاهن رحبعام لينهض قائلاً فى حماسة متدفقة :

ـــ ولقد ثبتت عليه أكثر من مرة تهمة التجديف على الله رب الجنود .

عادت الدماء الساخنة لتتدفق فى عروق الشيوخ ويوشافاط يقول :

ـــ كذلك لابد من فضحه أمام أرخيلاوس الملك الذى يبدو أنه يظن أن المعركة دينية بحتة .. فالمعركة فى حقيقتها معركة سياسية بعد أن أصبح هذا النبى الشاب مكدرا لصفو البلاد وخطرا على أمنها .

التقط يورام الخيط وقد انعكست المصابيح الزيتية على شحوب وجهه :

ـــ ليس هذا فقط .. بل يجب أن تفهم السلطات الرومانية وعلى رأسها بيلاطس البنطى أنها لن تنجو من المتاعب .. وأن أصداء هذه المتاعب ستصل إلى الامبراطور طيباريوس فى روما حتى لو حاول بيلاطس البنطى أن يؤكد فى تقاريره المرسلة إلى روما أن كل شىء على ما يرام .

عاد قيافا إلى تأكيد ما قاله من قبل :

ـــ هذه كلها خطوات حاسمة وإيجابية قبل القبض والقضاء عليه .. لكن فى

الوقت نفسه يجب أن تكون خطوات محسوبة وحذرة حتى لا تزل أقدامنا فى هاوية لا قرار لها .

ولأول مرة يخرج الأحبار ورؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ من السنهدريم وقد سرى برد الراحة فى عروقهم الملتهبة مساء ذلك الأحد ، وبدت أنوار الفصح أكثر تألقاً فى طرقات أورشليم الرافلة فى حلل العيد ، فطالما حيرهم هذا الشاب العجيب وراوغهم لكن يبدو أنه آن الأوان لإيقافه عند حده ، فسوف يصطادوه بكلمة ثم يوقعوا بينه وبين الشعب وأرخيلاوس والسلطات الرومانية بحيث لا يجد منفذا يفر منه ، وعندئذ تسهل محاصرته والقضاء عليه بنصوص الناموس وقوانين الشريعة . فسوف يظلون حفظة الناموس وحماة الشريعة . إلى أبد الآبدين .

ومع بزوغ شمس يوم الإثنين شرعوا فى تنفيذ المخطط سواء على مستوى رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب بطريقة مباشرة ، أو على مستوى العيون المندسة بين الجموع بطريقة غير مباشرة . فعندما عاد يسوع من بيت عنيا إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب قاطعين تعليمه للجموع بسؤال كسهم مسموم :

ـــ بأى سلطان تفعل هذا ؟! ومن أعطاك هذا السلطان ؟!

فأجابهم ليرد سؤالهم إلى نحورهم :

ـــ وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة فإن قلتم لى عنها أقول لكم أنا أيضا بأىّ سُلطان أفعل هذا . معمودية يوحنا من أين كانت ؟! من السماء أم من الناس ؟!

لم يتصوروا أن يهبط السؤال على وجوههم كصفعة مدوية هكذا لأنهم إذا قالوا إن معمودية يوحنا من السماء فسوف يسألهم : لماذا لم تؤمنوا به ؟! واذا قالوا من الناس فلن يهربوا من غضب الشعب لأن يوحنا كان نبياً عظيماً عند الجميع . عندئذ نكسوا رؤوسهم قائلين فى إحباط شديد :

ـــ لا نعلم .

فى الحال أجابهم يسوع :

ــ ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا .

هكذا كان زمام المبادرة دائماً فى يد يسوع برغم كل تخطيطهم وتكتلهم ضده ، ولذلك واصل زحفه المقدس لدحض كل حيلهم الخبيثة قائلاً :

ــ ماذا تظنون ؟! كان لإنسان ابنان فجاء إلى الأوَّل وقال : ياابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى . فأجاب وقال ما أُريد . ولكنه ندم أخيراً ومضى . وجاء إلى الثانى وقال كذلك فأجاب وقال ها أنا ياسيد . ولم يمض . فأى الاثنين عمل إرادة الأب ؟

أجابوا قائلين :

ــ الأول .

كانت إجابة يسوع صفعة أخرى على وجوههم :

ــ الحق أقول لكم إنَّ العشارين والزَّوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله . لأنَّ يوحنا جاءكم فى طريق الحق فلم تؤمنوا به . وأما العشارون والزوانى فآمنوا به . وأنتم إذ رأيتهم لم تندموا أخيراً لتؤمنوا به .

نظروا بعضهم إلى بعض ثم حولهم فى بلاهة لا يدرون ماذا يقولون ، والإحباط يقطر مرارته داخل قلوبهم . فالوقت يمضى ولا يستطيعون أن يصطادوه بكلمة فى حين واصل يسوع زحفه المقدس :

ــ اسمعوا مثلاً آخر . كان إنسانٌ ربُّ بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى بُرجاً وسلمه إلى كرَّامين وسافر . ولما قرُب وقتُ الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً . ثم أرسلَ أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين . ففعلوا بهم كذلك . فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابنى . وأمَّا الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث . هلموا نقتله ونأخذ ميراثه . فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم . وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟!

أجابوه دون تردد ودون تفكير :

ــ أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم الى كرامين آخرين

يعطونه الأثمار فى أوقاتها .

عندئذ تساءل يسوع فى مرارة :

ـــ أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأسَ الزاوية . من قِبَل الرَّبّ كان هذا وهو عجيب فى أعْيُننا . لذلك أقول لكم إنَّ ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأُمةٍ تعمل أثمارَهُ . ومن سقط على هذا الحجر يترضَّض ومن سقط هو عليه يسحقه .

أُسقط فى يد رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والفريسيين عندما أدْركوا أنهم المقصودون بالكرامين القتلة الذين حكموا لقتل ابن صاحب الكرم فاستحقوا أن يهلكهم هلاكا رديا . كيف دفعتهم إلى أن يؤمنوا على كلامه بهذه البساطة وكل كلمة سهم موجه إلى قلوبهم ؟! ما هذا السلطان الذى يتكلم به فيسلب الآخرين إرادتهم التى جابرعوا بها للقضاء عليه فإذ بها طوع بنانه ؟! عادوا إلى الفكرة البدائية الساذجة التى تلح عليهم بالإمساك به وتسليمه للمحاكمة أمام السنهدريم . لكن كيف ؟ ورواق سليمان الذى وقف يعلم فيه مكتظ بالمستمعين المبهورين العاشقين لكل كلمة ينطق بها ؟ مكتظ لدرجة أن أعمدة الرواق الرخامية تبدو كما لو كانت على وشك أن تنثنى من ضغط الأجساد عليها !

بلع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والفريسيون غيظهم وحقدهم وكمدهم ، فقد مر يوم الاثنين دون أن يصطادوه بكلمة واحدة ، وأيقنوا أن الظهور بصفتهم الشخصية فى مواجهة يسوع لن يضيف إلى موقفهم قوة ، بل على النقيض من ذلك ، فإن أية معركة يخسرونها أمامه على مرأى من الجموع ستضاعف من تعلقها الجنونى به . ولذلك عادوا إلى خطتهم القديمة ببث الجواسيس والعيون حتى تبدو الأسئلة موجهة إليه من أفراد الشعب العاديين وبذلك لا يأخذ حذره ، مما يعرى كل خططه التى تتعارض مع الناموس كما تتعارض مع سلطات الاحتلال الرومانى ، وبالتالى يسهل اصطياده ليواجه ما ليس له قبل به : سلطات الكهنوت والملك والاحتلال ، إذ يجب فتح الجبهتين السياسية والأمنية بالإضافة إلى الجبهة الدينية حتى لا يدرى من أين تأتى الضربات وتكال له .

بدأ يوم الثلاثاء فى أروقة الهيكل بداية جديدة مختلفة . واستيقظ رؤساء

الكهنة وشيوخ الشعب والفريسيون والهيرودسيون والكتبة والصدوقيون والناموسيون ، متفائلين مستبشرين باليوم الجديد الذى ربما شهد نهاية الكابوس الذى أدَّق منامهم وأقلق يقظتهم . فقد عثروا على فكرة ظنوها سلاحا بتارا سيقطع دابره . وكانت فكرة الجزية فكرة ذكية وخبيثة وماكرة بالفعل . فقد فرض الرومان الجزية على اليهود ليدفعوها لهم صاغرين وهم يكنون لهم كل المقت . ولذلك أرسل الرؤساء والشيوخ الماكرون نفرا من أنصارهم الشبان مع خصومهم الهيرودسيين كأنهم يتحاجون فيما بينهم . وكانت الخصومة والمحاجاة شيئا مألوفا بين الفريسيين والهيرودسيين الذين كانوا يشكلون الحزب السياسى لعائلة هيرودس والسلطة الرومانية ، فى حين كان الفريسيون يمثلون الشعب وينادون بأن دفع الجزية لقوة أجنبية علامة للعبودية ومخالفة لشريعة موسى . ومع ذلك فقد اتفق الفريقان على توجيه سؤال خبيث إلى يسوع ليقع فى شرك لا نجاة له منه ، لأنه إذا أيد دفع الجزية للمحتل الأجنبى فسوف ينفض من حوله الشعب المبهور به لأنه يؤكد عبوديته ويخالف شريعة موسى ، عندئذ يسهل اصطياده والإمساك به دون خوف من التفاف الشعب حوله ، وإذا نادى بالامتناع عن دفع الجزية ، فمن السهل على الهيرودسيين أن يقيموا عليه الدعوى أمام بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى بتهمة الإفساد وحض الشعب على العصيان والثورة .

تسلل العملاء والجواسيس بفتح ثغرات بين الجموع المتراصة حول يسوع فى رواق داود حتى وقفوا فى مواجهته :

ـــ يامعلم . نعلم أنك صادق وتُعلِّم طريقَ الله بالحق ولا تُبالى بأحدٍ لأنَّك لا تنظر إلى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظُن ؟ أيجوز أن تُعْطَى جزيةٌ لقيصر أمْ لا ؟

علم يسوع خبثهم الفاضح من أعماقهم المعتمة فتساءل :

ـــ لماذا تجربوننى يامُراؤون ؟ أرونى معاملة الجزية .

نضحت السعادة على الوجوه الصفراء ظنا أن المؤامرة على وشك النجاح ، ولذلك أخرجوا له ديناراً فى الحال من حيب أحدهم يمسكه يسوع ويتساءل فى منتهى البساطة :

لمن هذه الصورة والكتابة ؟!

أجابوه بصوت واحد :

لقيصر .

أعاد الدينار إليهم قائلاً :

أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

بهتوا إذ هبطت عليهم الإجابة كصاعقة أحرقت أفكارهم وتركتهم ذاهلين عاجزين عن التفكير ، ولم يملكوا سوى النكوص على أعقابهم .

هكذا اندحر رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والفريسيون والهيرودسيون أمام حكمة يسوع الإلهية كما ينقشع الظلام ، مهما تكاثف ، أمام النور . وجاء دور الصدوقيين الذين تكالبوا على الهيكل ليسألوه عن اجراءات الزواج وأوضاع الأزواج بعد القيامة برغم عدم إيمانهم بالقيامة والعالم الآخر . هكذا كان السؤال المسموم :

ـــ يامعلم قال موسى إن مات أحدٌ وليس له أولادٌ ، يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلاً لأخيه . فكان عندنا سبعة إخوة وتزوج الأوَّل ومات . وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه . وكذلك الثانى والثالث إلى السبعة . وآخر الكُلّ ماتت المرأة أيضاً . ففى القيامة لمن من السبعة تكون زوجة ؟! فإنها كانت للجميع .

ظنوا أنهم أصابوه فى مقتل لكنه ردهم على أعقابهم خاسرين :

ـــ تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله ، لأنهم فى القيامة لا يُزَوّجون ولا يَتزوَّجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء . وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله إبراهيم وإلهُ إسحقَ وإله يعقوب . ليس الله إلَه أمواتٍ بل إلهُ أحياءٍ .

صُعق الصدوقيون أيضاً وانضموا فى خيبة أملهم وذهولهم إلى الفريسيين محاولين معهم فتح ثغرة فى جبهته التى بدت لهم كما لو كانت فى حراسة قوى خفية لا قبل لهم بها . لجأوا إلى الناموسيين لعل أحدهم يستطيع أن يوقع به وهو ينقض الناموس . سأله الناموسى ظنا منه أنه آت بما لم يأت به الفريسيون

والهيرودسيون والصدوقيون ورؤساء الكهنة وشيوخ الشعب :

ــ يامعلم . أية وصية هى العظمى فى الناموس ؟

أجابه يسوع بنفس السماحة والوداعة :

ــ تُحبُ الربَّ إلهَكَ من كُلِّ قَلِبكَ ومن كل نَفْسك ومن كل فكركِ . هذه هى الوصية الأولى والعظمى . والثانية مثلها . تحبُ قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياءُ .

كان السؤال الذى ألقاه الناموسى على يسوع يشكل معضلة بين علماء الشريعة وفقهائها . ذلك أن دستور الكتبة والناموسيين يشمل ٦١٣ بنداً من الأحكام والوصايا التى ثار حولها الجدل فيما يتصل بمراتب هذه الوصايا من حيث الأهمية والأفضلية . ونظراً لعشق العلماء والفقهاء للجدل والمحاجاة بكل ألاعيب المنطق ، فلم يستطع فريق منهم أن يقهر فريقاً آخر ويفحمه تماماً ، وظلت القضايا معلقة للمباريات الفكرية والدينية التى كانت تقام من حين لآخر . ولم يجرؤ أحدهم أن يحدد أعظم وصية فى الناموس ، خاصة وأن موسى نفسه لم يفعل هذا . بل وذهب بعضهم إلى أن الله وحده قادر على تحديد الوصية الأولى والعظمى فى الناموس . ولذلك كان سؤال الناموس ليسوع بهدف إحراجه وإظهاره بمظهر العاجز وهو الذى يملك القدرة على إقامة الأموات . لكن كانت إجابة يسوع بمثابة الضوء الهادى الذى أنار دهاليز وكهوف نفوسهم المعتمة لدرجة أن السائل الناموسى ذاته خجل من نفسه بحيث بدا أنبل وأسمى من المتآمرين الذين أوفدوه لاصطياد يسوع ، إذ قال بنشوة الذى زالت الغشاوة من على عينيه :

ــ جيداً يامُعَلم . بالحق قُلْتَ . فمحبة الله من كل القلب ، ومحبة القريب كالنفس هى أفضل من جميع المحرقات والذبائح .

رأى يسوع فى عينيه ينبوعاً غائراً من الأمانة والصدق فقال له :

ــ لست بعيداً عن ملكوت الله .

وأضاءت عينا الرجل الخابيتان بوميض الحب الدافق ، وغمرت وجدانه أمواج بللورية من النشوة الخالصة ، فقد فتحت كلمات المعلم أمام روحه عالماً مبهراً تتضاءل أمامه كل عوالم الأرض وممالكه ، هذا المعلم الذى يملك كل مفاتيح

الحكمة الإلهية التى دحضت كل فلسفات رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ومن لفالفهم ، وجعلت أفكارهم ومؤامراتهم وأحابيلهم تبدو وكأنها مجرد هواجس صبيانية أو فقاقيع زبد على سطح أمواج الحياة . ولذلك عجزوا وخجلوا من النظر إلى عينى يسوع الفاحصتين بعد أن كانوا يتبجحون بالأسئلة الماكرة المسمومة .

لكن يسوع لم يدعهم يفلتون من يديه بسهولة إذ جاء دوره ليسألهم :

— ماذا تظنون فى المسيح ؟! ابن من هو ؟!

قالوا له ونظرات الحرج تتلاعب بمآقيهم :

— ابن داود .

لكن يسوع عاد ليسألهم سؤالا أفحمهم إلى الأبد :

— كيف يدعوه داود بالروح ربا قائلاً : قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءَك موطئاً لقدميك . فإذ كان داود يدعوه ربا فكيف يكون ابنه ؟!

لم يجرؤ أحد أن يفتح فمه بكلمة إذ أدركوا كم كانت عقولهم قاصرة عن فهم الحكمة الإلهية التى لا حدود لها . ومنذ ذلك اليوم لم يفكر أحد فى أن يتجاسر ويلقى عليه بأى سؤال . أما تلاميذ يسوع فكانوا يشاهدون ويشهدون كل العجائب والآيات الجارية ، لكن عقولهم لم تسعفهم للإلمام بأبعاد وأعماق ما يجرى ، ولذلك كانوا يهربون من حيرتهم بالمزيد من الارتباط بيسوع والحب له . فإذا كان العقل عاجزاً أو شبه عاجز فلعل الروح يعوض هذا النقص ويملأ هذا الفراغ . أما العقل والروح عند يهوذا الإسخريوطى فقد أصبحا عاجزين عن استيعاب أو حتى قبول ما يجرى ، وقد نضح هذا العجز على سحنته التى بدت غبراء مكفهرة ، وعينيه الجاحظتين الحائرتين فى محجريهما ، وأنفه المعقوف الذى كاد أن يطبق على فمه ، ولحيته الحمراء الداكنة التى كان يحكها من حين لآخر بأظافره الطويلة . بل إن الشيطان تسلل إلى نفسه التى تساءلت بلا كلمات :

— لماذا الإصرار على مهاجمة الكتبة والفريسيين فى كل حين ؟! هل اقتصرت رسالته على معاداتهم ؟! لهم الحق فى أن يشعروا بأهميتهم !

حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلاً :

ــ على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون . فإنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الَحمْل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس . فيُعرّضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم . ويُحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع . والتحيات فى الأسواق وأن يدعوهم الناس : سيدى . سيدى . وأما أنتم فلا تدعوا سيدى لأنَّ مُعَلّمكم واحدٌ المسيحُ ، وأنتم جميعاً إخوةُ . ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحدٌ الذى فى السموات . ولا تُدْعَوا معلمين لأنَّ معلمكم واحد المسيح . وأكبركم يكون خادماً لكم . فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع .

ظن يهوذا بضيق أفقه وغبائه أن يسوع كان يهاجم الكتبة والفريسيين كأشخاص ومناصب فى حد ذاتهم ، ولم يدرك أنهم يمثلون نمطاً من البشر موجود فى كل زمان ومكان . كذلك لم يع الإسخريوطى أنه هو نفسه نمط وجد وسيوجد طالما أن البشرية كائنة فى هذه الدنيا وهى تتخبط بين ضفاف الخير والشر .

كان بسطاء الناس فى حيرة وذهول من أمرهم وهم يتابعون هذا النبى الشاب الذى يهاجم الكتبة والفريسيين فى عقر دارهم وقدس أقداسهم دون أن يتراجع أو يتردد لحظة ، وهم الذين أمسكوا بيدهم صولجان الناموس والشريعة عبر الأجيال ولم يجرؤ أحد أن يراجعهم فيما يفتون به ، ناهيك عن معارضتهم . لكن هذا هو صوت الشاب يرن بنبرات كالسيف الماضى فى أسماع الجميع :

ــ ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قُدَّام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل . ولعلة تطيلون صلواتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم .

تطايرت شظايا الشرر الناقم الحارق من عيون الكتبة والفريسيين المندسين وسط بسطاء الناس غير مصدقين أنهم أصبحوا هدفاً مباشراً لسهامه القاتلة التى

يطلقها على مسمع ومرأى من الجميع وفى قلب الهيكل ، وفى الوقت نفسه لا يحاول أحد إيقافه عند حده . حتى هم أنفسهم أصبحوا عاجزين عن الرد المباشر فى كل مرة يباغتهم بهجومه الكاسح الذى لابد أن يقضى على دولتهم وسطوتهم إذا استمرت الحال على ما هى عليه :

ــ ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبت والكمون وتركتم أثقل الناموس : الحقَّ والرحمة والإيمان . كان ينبغى أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . أيها القادة العميان الذين يصفّون عن البعوضة ويبلعون الجمل . ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافا ودعارة . أيها الفريسى الأعمى نقّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكى يكون خارجهما أيضاً نقياً . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءةٌ عظامَ أموات وكلَّ نجاسة . هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً .

لم يعرف يهوذا لماذا شعر أن هذه الكلمات المحرقة موجهة إليه برغم أنه لا ينتمى إلى الكتبة أو الفريسيين !! وعاد يحك لحيته الحمراء الداكنة بأظافره الطويلة فى وقفته خلف المعلم فى الرواق وهو يتأمل وميض النقمة والرغبة المشتعلة فى الانتقام المشلول فى عيون الكتبة والفريسيين . وهى الرغبة التى لم تلطف من لهيبها الأمطار التى هطلت خارج الرواق ، وتألقت بها أرض فناء الهيكل التى خلت لأول مرة من الباعة والصيارفة والسماسرة والمناذين والماشية . تساءل يهوذا فى نفسه المعتمة :

ــ ماذا ينوى أن يفعل الكتبة والفريسيون وهم يرون بعيون رؤوسهم عرشهم وهو يتهاوى كبيت من رمال فى مواجهة عاصفة عاتية ؟ إلى متى سيظلون متفرجين مثل بسطاء الناس ؟! لقد أصبح الهجوم كطوفان نوح ، وهم لم يصنعوا لأنفسهم فلكاً يهربون إليه من لطمات الأمواج الهادرة وركلاتها !

وعلا هديرها فى أسماعهم حتى كادت أن تغرق :

ــ أيها الحياتُ أولادَ الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنّم ؟! لذلك ها أنا أُرسل إليكم أنبياء وحُكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون

ومنهم تجلدون فى مجامعكم ، وتطردون من مدينة . لكى يأتى عليكم كلُّ دمٍ زكى سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح الحق أقول لكم إن هذا كله يأتى على هذا الجيل .

ثم تحرك يسوع مغادراً الرواق والجميع خلفه مبهورين مذهولين حتى خرج إلى فناء الهيكل حيث بوابات المدينة المقدسة مفتوحة للداخلين والخارجين ، وقد بدت خلالها المبانى الرخامية ذات الأعمدة الشامخة ، والقباب المتألقة تحت ضوء الشمس الذهبى بعد أن توقفت الأمطار ، برغم بعض الغمام الذى يحيط بالقمم المتعالية ، والريح الباردة التى تسرى فى الطرقات المتعرجة الضيقة التى تأبى أن يفترشها رداء الشمس الساطع . كان منظر المدينة المقدسة مهيباً لكنه سرى بالكآبة فى نفوس السامعين ويسوع يتطلع إلى خارج أسوار الهيكل :

ــ ياأُورشليم ياأُورُشليم . ياقاتلة الأنبياء وراجمة المُرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا ؟! هوذا بيتكم يترك لكم خراباً . لأنى أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب .

ذُهل السامعون وفى مقدمتهم التلاميذ . مروا بأبنية الهيكل الفاخرة الباذخة المنحوتة من الرخام الرمادى والمرمر الأبيض . هذه الأعمدة الشاهقة والتحف الثمينة توشى بعظمة وجبروت من شيد الهيكل . لم يتصور بطرس أن المدينة المقدسة كلها بما فيها الهيكل ستصبح خراباً ، فاندفع يقول للمعلم :

ــ يالبهاء الهيكل ! إنه مزين بحجارة حسنة وتحف !

توقع بطرس أن يقول المعلم ما يطمئن قلبه ، لكن كلمات المعلم كانت كالصاعقة على رأسه ورؤوس السامعين :

ــ هذه التى ترونها ستأتى أيام لا يترك فيها حجر على حجر لا ينقض .

عَشَّش الصمتُ على رؤوس الجميع ، وخبا وميض النقمة فى نفوس الكتبة والفريسيين الذين غاصوا فى دوامات من الحيرة والضياع ، فحتى لو قضوا عليه فإنهم لن يفلتوا من الخراب الآتى إلى المدينة ، ذلك أن إحساساً دفيناً فى أعماقهم يؤكد لهم صحة كل نبواته .

تركهم يسوع لهواجسهم ومخاوفهم ليمضى مع تلاميذه إلى جبل الزيتون . كان يشعر أن الوقت قد أصبح ضيقاً ولابد أن يدلى إليهم بأخطر تعاليمه قبل أن تحين الساعة .

(٤٣)

كانت الشمس تميل إلى الغروب عند خط الأفق الذى أحاط الكون بثوب أرجوانى شفاف فضفاض منسوج من خيوط أثيرية ممزوجة بلسعة برد وبقايا غمام رمادى لا يزال يداعب قمة جبل الزيتون التى جلس عليها يسوع وقد ضم أطراف ردائه الكتانى الأبيض حول جسده الرقيق فى حين تركزت نظرات تلاميذه على وجهه الذى شع بضوء نورانى لم تعرفه الشمس أو القمر ، أما يهوذا فكان ينظر إلى الأفق بوميض خاب فى عينيه الشاردتين الحائرتين الجاحظتين وهو يحك لحيته الحمراء الداكنة بأظافره الطويلة ، فى حين لم يستطع بطرس أن يصد أمواج القلق الهادرة داخله منذ أن صارحهم يسوع بأن أبنية الهيكل ستنهار ولن يترك فيها حجر على حجر دون أن ينقض . سأله بطرس وصدره يصعد ويهبط بأنفاس مسموعة وسط السكون المطبق برغم حفيف الريح والخواء :

— قل لنا متى يكون هذا ؟! وما هى علامة مجيئك وانقضاء الدهر ؟

كان يسوع يدرك ما يعتمل داخل بطرس وزملائه الذين شعروا أن الأمور لم تعد سيرتها الأولى ، وأنهم مقبلون على أحداث جسام فى طريق بلا عودة . أجاب يسوع وقال لهم :

أنظروا لا يُضلكم أحدُ . فإن كثيرين سيأتون باسمى قائلين :

أنا هو المسيح ويضلون كثيرين . وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . أنظروا لا ترتاعوا . لأنه لابد أن تكون هذه كلها . ولكن ليس المنتهى بعد . لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة وعلى مملكة وتكون مجاعاتٌ وأوبئة وزلازل فى أماكن . ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع . حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجلِ اسمى . وحينئذٍ يعثر كثيرون ويُسَلّمون بعضهم بعضا ويبغضون بعضهم بعضاً . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين . ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين . ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص . ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادةِ لجميع الأمم . ثم يأتى المنتهى .

غابت الشمس وتسربل الكون بعتمة داكنة مثل تلك التى غمرت وجدان يهوذا الذى تساءل فى حيرة صامتة وذهول ممض :

ــ هل جاء ليبشر بالسلام والمحبة والطمأنينة أم ليتنبأ بالحروب والمجاعات والأوبئة والزلازل والاضطهادات ؟! لقد درج فى الأيام الأخيرة على تحدى كل السلطات . فاذا لم يكن يعبأ بسلامته فما ذنب الذين معه حتى يعرضهم للهلاك ؟!

نظر يسوع إلى يهوذا الذى لم يحتمل الضياء المشع من عينيه والمحيط بوجهه فأرخى جفنيه ناظراً إلى قدميه فى حرج ، فى حين ثبت التلاميذ نظراتهم على وجه معلمهم وقد جفت حلوقهم وزاغت أبصارهم ، فليست هناك ثمة طمأنينة فى كلماته التى سرت بالقلق فى عروقهم كما تسرى النار فى الهشيم :

ــ فمى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس . ليفهم القارىء . فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال . والذى على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً . والذى فى الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه . وويلٌ للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام . وصلوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء ولا فى سبت . لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون . ولو لم تقصرّ تلك الأيام لم يخلص جسد . ولكن لأجل المختارين تقصرُ تلك الأيام . حينئذ إن قال لكم أحدٌ هوذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا . لأنه سيقوم مسحاءٌ كذبة وأنبياءٌ كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلّوا لو أمكن المختارين أيضاً . ها أنا قد سبقت وأخبرتكم . فإن قالوا لكم ها هو فى البرية فلا تخرجوا . ها هو فى المخادع فلا تصدقوا . لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب هكذا يكون أيضاً مجىء ابن الإنسان .

أطبق الظلام على السفوح المترامية عند أقدام جبل الزيتون ، وشعر يهوذا بوحشة تنخر فى أعصابه كما ينخر السوس فى العظام ، وأسئلة تنهش أحشاءه كصقر أسود يفترس حمامة بيضاء :

ــ لا أعرف إذا كان المعلم يتحدث عن خراب أورشليم أو عن يوم الدينونة ؟! لقد اختلطت الأمور على نفسى وغامت الرؤية أمام عينى وضاعت معالم الطريق كما اختفت مبانى المدينة وطرقاتها تحت خيمة الظلمة ! لابد لى

من الخروج من الهوة السحيقة التى فتحت لى فاها لابتلاعى حتى قاعها المعتم ! أنا لا أشعر بالراحة تحت وطأة كلماته المنطلقة كالسهام النارية ! فإذا كنت أنا تلميذه المقرب لأحتمل فكره العجيب الغريب فما بالك بالكتبة والفريسيين ؟! إنهم معذورون إذا فكروا وخططوا للقبض عليه وقتله !

شعر يهوذا بنظرات يسوع المشعة تخترق قلبه المعتم عتمة الظلام الذى أحاط بكل الأشياء ، فأغمض عينيه خوفاً وحيرة لعله يبحث عن بصيص أمل داخل كهوفه التى اهتزت جدرانها الصخرية الوعرة لكلمات المعلم :

ــ وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تُظْلِم الشمس والقمر لا يعطى ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع . وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء . وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير . فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها .. فمتى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب . الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله . السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول .

عندئذ لم يستطع بطرس أن يلتزم الصمت :

ــ لكن متى ذلك اليوم وتلك الساعة يامعلم ؟!

أجابه يسوع بنفس الصوت الهادىء الرزين :

ــ أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحدٌ ولا ملائكة السموات إلا أبى وحده ... اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم ... ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده . ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء . فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار .. ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يامباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . لأنى جعت فأطعمتمونى . عطشت فسقيتمونى . كنت غريباً فآويتمونى . عرياناً فكسوتمونى . مريضاً فزرتمونى . محبوساً فأتيتم الىَّ .

تساءل يهوذا فى نفسه المشبعة بقطرات المرارة ، وقد شعر بقشعريرة تسرى فى مسام جلده :

ـــ كيف يطعم الأبرار الرب ؟! وكيف يسقونه ويأوونه ويكسونه ؟! لم أعد أفهم شيئاً على الإطلاق ! لم يعد لى مكان معه ! مكانى فى هذا العالم أما ذلك العالم الذى يصر على التحدث عنه والتبشير به فأين يقع ؟! وكيف يوجد ؟!

نظر يسوع إلى يهوذا بوميض عينين كضوء القمر الذى تهادى فى الأفق البعيد فتحولت القشعريرة فى مسام جلده إلى رعشة فى شفتيه وجفنيه مع كلمات يسوع التى ردد الهواء الساكن صداها :

ـــ الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى قد فعلتم !

ابتسم يهوذا خفية لخاطر مر بذهنه . إنه لم ينل سوى القلق والإضطراب فى معية هذا المعلم الغريب الغامض الذى لم يستطع الأحبار والسلطات القبض عليه لالتفاف الناس حوله حيثما ذهب وحيثما حل ! لكن ماذا ستكون الحال إذا انضم إلى صفوف الأحبار والفريسيين والكتبة ؟! إنه يعلم تنقلات يسوع التى لا يعلمها سوى تلاميذه فلماذا لا يبيع تلمذته لمن يدفع الثمن ؟! ربما كان ثمناً مجزياً للغاية ؟! ربما أصبح عضوا جليلاً فى السنهدريم نفسه ! وهذا ليس بالثمن الغالى الباهظ إذ أنه سيخلصهم من الإعصار الذى اجتاح عروشهم الراسخة ، ويمنحهم الإستقرار الذى افتقدوه منذ أن بدأ كرازته بملكوت العالم الآخر الذى هدد مكانتهم الاثيرة فى هذا العالم الذى لا يعرفون غيره ولا هو أيضاً !

خرج يهوذا من أحلامه المنعشة على صوت كلمات يسوع وكأنها سهام نارية تخترق أعماق قلبه المعتم :

ـــ ثم يقول للذين عن اليسار : اذهبوا عني ياملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته . لأنى جعت فلم تطعمونى . عطشت فلم تسقونى . كنت غريباً فلم تأوونى . عرياناً فلم تكسونى . مريضاً ومحبوساً فلم تزورونى . حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين : يارب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مزيضاً أو محبوساً و لم نخدمك ؟! فيجيبهم قائلاً : الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوا . فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى والأبرار إلى حياة أبدية .

اختفى القمر خلف سحب داكنة ، وسرت فى الجو لسعة برد ، واخترقت التساؤلات المشتعلة وجدان يهوذا الرازح تحت طيات متكاثفة من الظلام :

ـــ هل يقصده هو بهذا العذاب الأبدى ؟! لقد مل هذا التهديد المستمر وآن له الأوان أن يستمتع بحياته مثل كل الخليقة !

ولذلك لم تصل إلى أذنيه كلمات يسوع وهو يختم هذه الأقوال لتلاميذه قائلاً :

ـــ تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يسلم ويصلب .

سقط التلاميذ فى هوة اليأس الخانق ، فلم يعد الأمر مجرد مثل من أمثال يسوع ، لكنه حقيقة رهيبة جاثمة على أنفاسهم ككابوس لا يستطيعون أن يفيقوا منه ، أما يهوذا فقد أخفى نشوته تحت جفونه وهو يتخيل وقفته الشامخة أمام أعضاء مجمع السنهدريم الأجلاء المجتمعين فى منزل قيافا رئيس الكهنة .

(٤٤)

لم ينم يهوذا الإسخريوطى ليلته . كان يسوع قد انتحى جانباً فوق قمة جبل الزيتون ليركع ويصلى . امتزج ضوء القمر الفضى بشعاع وجهه النورانى لكن يهوذا أدار ظهره وقد أغمض عينيه على أحلام المجد القادم . أما التلاميذ فقد تدثروا بعباءاتهم السوداء والحمراء والزرقاء والخضراء والبيضاء مستعطفين النوم كى يذهب بهم إلى عالم السبات العميق حيث ينسون كلمات يسوع الرهيبة :

ـــ بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يُسلَّم ويُصلب .

انكمش التلاميذ فى نومهم فى حماية نتوء صخرى . أغمضوا عيونهم لكن الأفكار والخواطر والهواجس الملتهبة المتلاطمة جعلت كل أمواج النعاس تنحسر وترتد عند شواطىء جفونهم المتعبة . لم يستطع بطرس أن يطفىء نار السؤال الذى ينهش داخله :

ـــ كيف للرب أن يُسلّم ويُصْلب ؟!

أما يوحنا فقد استدار لينام على جانبه الأيمن ، مختلساً النظر إلى وجه يسوع المشع بهالات نورانية ، وشفتيه اللتين تلهجان بصلاة صامتة خاشعة . حاول يوحنا أن يتصور على وجه التحديد ما الذى يمكن أن يحدث بعد يومين لكن محاولته تحولت إلى دوامة من الحيرة والضياع !

أما توما فقد ظل يقول لنفسه فى صمت مطبق إنه لو وقع ما قاله يسوع فسوف يكون عيد الفصح رهيباً . إنه لا يستطيع أن يتصور أن يقع هذا فى عيد الفصح وهو عيد خبز الفطير وموسم الحج ، والعيد الذى يضحى فيه بحمل أو شاة أو جدى من الماعز . هل يمكن أن يكون الرب هو الضحية ؟! هل يُعقل هذا ؟!

أما متَّى فكان يعرف أن عيد الفصح يعنى أيضاً الفرج بعد الضيق ، والعبور أو المرور أو التخطى . إنه ذكرى مرور ملاك العذاب فوق منازل العبرانيين دون المساس بهم ، وذكرى عبور درس البحر ، ونجاة بنى اسرائيل من العبودية فى مصر ورحيلهم عنها ، فكيف تتحول ذكرى الخلاص والتحرر والنجاة إلى

صلب المخلص نفسه وصوته ؟! وضع متى ذراعه تحت رأسه ليتفادى وعورة الصخر ووعورة الأفكار ، ونظر إلى خط الأفق الغارق فى الظلمة لعله يشغل نفسه بحركة نجم أو سقوط شهاب لكنه لم يتبين شيئاً سوى هاجس متسائل فى رعب :

ــ كيف يمكن أن يتحول عيد الفرج بعد الضيق إلى عيد الضيق بعد الفرج ؟!

أما يعقوب فقد ترك نفسه لتأملات عيد الفصح المبهجة محاولاً الهرب من الكابوس الجاثم على كاهله منذ أن سمع الكلمات الأخيرة للمعلم . فهو عيد الربيع عند اليهود ، والعبور فيه هو عبور الشتاء وحلول الربيع محله . ومن هنا كان الارتباط بين ميلاد الشعب الإسرائيلى بالخروج من مصر ، وبين ميلاد الطبيعة وتجدد الكون فى الطقوس اليهودية . فهل يمكن أن يحدث ارتباط بين ميلاد الشعب والطبيعة وبين صلب المخلص وموته ؟! ما أبشع أن تتحول تأملات الفصح إلى ألغاز وطلاسم تجعل من السعادة حيرة ، ومن النشوة ضياعاً ؟!

أما فيلبس فقد عاد إلى ذكريات الطفولة حين كان الفصح يبدأ بليلة التفتيش عن الخميرة والتى يسعى فيها أبوه ــ مثل أى يهودى آخر ــ إلى التأكد من أن أية خميرة تصلح للخبز قد أبعدت عن البيت تماماً ، ثم تتجمع الأسرة حول مائدة الخبز الخالى تماماً من الخميرة والملح تذكيراً لليهود بأنهم عند فرارهم مع موسى من وجه فرعون لم يكن لديهم وقت لانتظار العجن أو الاهتمام بنوعية الخبز . ولم يكن الخبز سوى ثلاث فطائر ترمز للكهنة واللاويين والشعب اليهودى عامة . وكان فيلبس فى صباه الباكر يرتعد من الفكرة التى تؤكد أن من يأكل خبزاً مخمرا فى هذا اليوم فانه يفصل نفسه عن الشعب اليهودى فصلا كاملاً . وكثيراً ما تساءل فيلبس فى براءة الصبا :

ــ ماذا يكون عقاب الذى يأكل الخبز المخمر فى ذلك اليوم سهواً ؟

أما الآن فالسؤال الذى يعاود فيلبس كالألم الممض :

ــ ماذا سيكون عقاب الذين يجرؤون على صلب المعلم وقتله ؟!

وماذا سيكون مصير التلاميذ من بعده ؟!

أما اندراوس فقد ارتسمت على وجهه المشدود فى نومه المتوتر امتعاضة تجسدت فى عينيه وشفتيه عندما تذكر كيف كان يكره عيد الفصح فى صباه المبكر لأن أسرته كانت تجبره على تناول بعض المأكولات الكريهة على نفسه ، وذلك مع القطعة المشوية من عظام الغنم ، مثل النباتات المرة وكؤوس الخل لتذكير اليهود بما عاناه أسلافهم أثناء فرارهم من الصحراء . لكن سرعان ما تلاشت الامتعاضة من على وجه اندراوس عندما تذكر أقداح النبيذ الأربعة التى كانت توضع على المائدة ليشربها أفراد الأسرة ، وترمز لوعد الله لليهود بتخليصهم وإنقاذهم من مصر بنفسه دون وساطة أو شفاعة ، لكن كان هناك قدح خامس يترك دون أن يمسه أحد لأنه كأس النبى إيليا الذى سينزل من السماء قبل قدوم المسيح المخلص . وها هو المسيح المخلص قد أتى فكيف يجرؤ إنسان ، مهما كان ، أن يسعى لصلبه وقتله وينجح فى مسعاه . كانت قشعريرة كريهة تنتاب بشرة أندراوس كلما فكر فى مثل هذه الأمور !

أما برثولماوس فتذكر الأريكة التى كانت توضع أمام مائدة الفصح ليضطجع عليها رب الأسرة ويقص عليهم قصة الخروج ، والكل آذان صاغية لكل كلمة تقال حتى يستشعر كل منهم التجربة كما لو كانت تجربة شخصية يخوضها بنفسه ، ثم يتبادل أعضاء الأسرة التهنئة بعيد الفصح بقولهم :

ــ نلتقى العام القادم فى أورشليم :

ويتأمل برثولماوس حبه المبكر لدراسة الطقوس الدينية ، وكيف قرأ فى سن مبكرة كتاب الهاجاداه الذى يحتوى على الطقوس الخاصة بعيد الفصح ، وكيف كان ينتظر هذا العيد على أحر من جمر حتى حلول الخامس عشر من شهر نيسان والذى يبدأ فيه العيد ليستمر سبعة أيام فى إسرائيل وثمانية عند اليهود المقيمين خارج فلسطين ، وكيف كان يستمتع بالكسل فى اليومين الأول والأخير لأنهما يومان مقدسان يحرم فيهما العمل ! لكنه كيف ينتظر عيد الفصح القادم على أحر من جمر بعدما أن استمع إلى كلمات المعلم وهو يؤكد لهم :

ــ بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يُسلَّم ويُصلب .

تقوقع برثولماوس داخل عباءته محاولاً طرد أمواج القلق والإضطراب العاتية بتأمل وجه يسوع الذى لا يزال يصلى ، ويشع بالضياء النورانى .

أما يوحنا فقد انتفض جالسا وكأنه يستمد العون من وجه يسوع وشفتيه ، لكنه لم يتمالك دمعة كبيرة انحدرت على وجنتيه لتتسلل بين شعيرات لحيته الخفيفة وصوت ساكن داخله يكاد ينوح :

ــ كيف لهذا الحبيب الذى أحب العالم كله وجاء من أجله أن يكون مصيره الصلب والموت ؟! لماذا تبدو كل الأشياء فى هذا العالم مقلوبة رأساً على عقب ؟!

بدت فى الأفق طيات من الظلمة المتكاثفة لا توحى بالبشائر الأولى لمولد الفجر ، فتسلل شبح فى خطوات مهرولة نحو سفح جبل الزيتون . كان يهوذا الإسخريوطى قد حرص على أن ينتحى جانباً فى رقاده بعيداً عن زملائه حتى لا يلفت الأنظار عند انسحابه خفية تحت جنح الظلام . وقد كان بعيد النظر فعلاً إذ أن تململهم فى رقادهم أكد له نومهم المتقطع .

تحسس يهوذا طريقه بين الصخور والنتوءات إلى السفح بحرص شديد كى يتبين طريقه وسط الضباب المتكاثف ، وقطرات الندى المتعلقة برموش عينيه وكأنها دموع السماء . تتابعت أحداث السنوات الثلاث الماضية فى مخيلة يهوذا ، فانشغل بها حتى يطرد ملل الطريق وقلقه . تذكر يوم كان شاباً يهودياً تقياً نابها ، يرى فى المسيح المنتظر تحقيقاً لكل آمال البشر منذ بدء الخليقة . حينئذ التقى بيسوع الناصرى ومال كل منهما للآخر ، فدعاه يسوع تلميذا له ولم يتردد هو لحظة واحدة فى تلبية الدعوة . كانت الآمال التى عقدها يهوذا على يسوع كباراً ، لكنها آمال الطمع الدنيوى فى الجاه والسلطة والثروة والجبروت . وكانت هذه آمال معظم اليهود الذين ظنوا أن المسيح جاء ليقيم مملكة أرضية تعيد أمجاد مملكة داود وسليمان إن لم تبزها .

لكن مع مسيرة الأيام تبخرت الأحلام ، ووجد يهوذا نفسه سائراً فى درب الأوهام ، فلا مملكة أقيمت ، ولا مجداً أعيد ، ولا منصبا مرموقاً قد حصل عليه ، بل ظل أميناً على صندوق التلاميذ والذى لم يكن يحتوى إلا على دراهم لا تسمن ولا تغنى عن جوع . وهو لا ينسى اليوم الذى طلب فيه يوحنا ويعقوب من المسيح الجلوس على يمينه ويساره فى مملكته القادمة ، فإذ به يصارحهما بقوله :

ــ أما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه إلا للذين أعد

لهم من أبى .

وكان قد تكلم معهما عن الكأس التى سيشربها ، والصبغة التى سيصطبغ بها . يومها تساءل يهوذا فى نفسه الحزينة :

ـــ أهذا هو كل ما جئت من أجله ؟! كأس وصبغة ؟! أين المملكة القادمة والأمجاد العائدة والطموحات الشامخة ؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا ! فقد كان يهوذا غريباً بين التلاميذ بصفته يهوديا وسط جليليين ، وكان يرى نفسه فى المؤخرة دائماً . فقد أهمل شأنه تماماً فى مواقف كان يتمنى أن يحضرها بنفسه لا أن يسمع عنها مثل الغرباء كما حدث فى معجزة ابنة يايروس ومعجزة جبل التجلى . ومع ذلك فقد احتمل أحاسيس الغربة والإهمال لعل اليوم الذى تتحقق فيه أحلامه قريب . وسرعان ما حل يوم الأحد الذى دخل فيه يسوع أورشليم وحوله جموع الشعب كاعصار عات ، كان يمكن أن يقتلع فى طريقه كل جذور السلطات الدينية والدنيوية التى ارتعدت أوصالها منه بالفعل فى وضح النهار وتحت سمع وبصر الجميع ، لكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل ، مما أطفأ جذوة الحماس المشتعلة والتى أوشكت على أن تحرق فى طريقها كل من يفكر فى اعتراضها أو اطفائها ، وانفض الكثيرون من حوله بعد أن انهارت قصور الآمال التى شيدوها على دعائم رسالته .

كل هذا وقع يوم الأحد الماضى لكن بلا جدوى ، وهو اليوم الذى توقع فيه الجميع أن تعلن المملكة الجديدة المنتظرة المنتصرة ، لكنهم فوجئوا به فى الأيام التالية يؤكد لهم أنه لا مفر من صلبه وموته . فهل جاء إلى هذا العالم لمجرد أن يصلب ويموت ؟! وما الفائدة التى ستعود عليه أو على الناس من صلبه وموته ؟!

غمرت أمواج الأفكار المتلاطمة الحائرة عقل يهوذا الممزق وروحه المضطربة فأسرع بخطواته المهتزة متحسساً طريقه بين طبقات الظلمة الساكنة صوب بيت قيافا رئيس الكهنة ، وهو يشد أطراف ردائه حول جسده الذى أصيب بقشعريرة أوشكت على أن تتحول إلى ارتعاشة . فاذا لم تكن هناك ثمة فائدة على الإطلاق من صلبه وموته ، فليسرع هو ليحصل على مثل هذه الفائدة

طالما أنه لابد أن يصلب ويموت كما يصر هو شخصياً على ذلك . ولن يسمح يهوذا لنفسه أن ينتابها أى إحساس بالذنب إذا أدى سعيه الحثيث هذا إلى صلبه وموته ، اذ أنه بهذا سينفذ المكتوب ويجنى الفائدة فى الوقت نفسه . وهو لم يتعود طيلة حياته أن يفعل شيئاً بلا جدوى . ولولاً أنه تأكد أن تبعيته ليسوع أصبحت بلا جدوى لما هجره وفكر فيما يفكر فيه الآن .

ابتلعت طرقات أورشليم المتعرجة والملتوية ، الصاعدة والهابطة ، الضيقة والمعتمة شبح يهوذا الذى تحسس سبيله سعيداً بغياب القمر وبرداء الظلمة السميك الذى التف به حتى بلغ بيت رئيس الكهنة ذى الواجهة الرخامية اللامعة ، والنوافذ التى لا تزال ترسل أنوار الشموع والمصابيح الزيتية المتألقة ، والخدم والحشم الذين يذهبون ويجيئون مما يدل على وجود أعضاء المجمع الذين لا يزالون فى بحثهم المسعور عن مخرج من المأزق الذى وضعهم فيه يسوع .

سعد يهوذا بوجودهم كما تمنى وتوقع ، فقد جاء إليهم ليقدم لهم الحل السحرى على طبق من ذهب . فهل تكون مكافأته على قدر خدمته الجليلة ؟! إنه لن يرضى بأقل من عضوية مجلس السنهدريم خاصة وأنه على دراية كاملة بكل طقوس الكهنوت ومسئولياته وتبعاته .

ـــ إلى أين ؟!

اصطكت مسامع يهوذا بسؤال الخادم الواقف على الدرجات الرخامية الداكنة ، فنفض عن ذهنه تأملاته وآماله قائلاً :

ـــ خذنى إلى مجلس الأحبار الأجلاء . فإن لدىّ أمرا خطيرا يتعلق بيسوع الناصرى .

جحظت عينا الخادم فى الظلمة وأجابه دون تفكير :

ـــ لحظة واحدة .. سأعود إليك على الفور .

اختفى الخادم داخل القاعة المضيئة فى حين أوشك يهوذا على أن يسمع دقات قلبه وسط السكون المطبق الذى لم يخل من أصداء أحاديث الأحبار فى الداخل . عاد الخادم لاهثاً :

ـــ تفضل خلفى !

سار يهوذا خلفه كالنائم فى ممر رخامى مفروش ببساط أحمر حتى وجد نفسه واقفاً فى قاعة فسيحة مرصعة بالمصابيح الزيتية والشموع الملونة ، وقد جلس رئيس الكهنة قيافا فى الصدارة وعلى يمينه حنان فى حين التف الأحبار والكهنة على شكل نصف دائرة أحاطت بيهوذا الذى انهمرت قطرات العرق على جبهته وداخل ردائه مع كلمات قيافا :

ــ ما هذا الأمر الخطير الذى يتعلق بيسوع الناصرى ؟!

أزاح يهوذا حشرجة حاولت سد حلقه :

ــ جئت لأقدم خدماتى لأعضاء المجلس الموقر !

خرج سؤال رئيس الكهنة كالسيف اللامع من غمده الجلدى :

ــ من أنت أولاً ؟!

ــ أنا يهوذا الإسخريوطى أحد تلاميذ يسوع الناصرى .. وأعرف كل شىء عن تحركاته الخفية !

سأله حنان فى دهاء وخبث :

ــ لقد حاولنا أن نرسل خلفه العيون حتى ترصد حركاته بعيداً عن الهيكل والجماهير الملتفة حوله .. لكن بلا جدوى .. فسرعان ما كانت الطرقات الملتوية والمتعرجة تبتلعه مع تلاميذه كما لو كانوا أطياف من ضوء .. وتعود العيون لتعلن فشلها فى اقتفاء أثره !

أجاب يهوذا معتزا بثقته فى نفسه :

ــ هذه المرة لن يفلت من أيديكم !

علق قائد الجند الجالس ببزته العسكرية وسط رؤساء الكهنة :

ــ نرجو !

تضايق يهوذا من لهجة التشكيك فى قدراته فقال لقيافا :

ــ ماذا تعطونى وأنا أسلمه اليكم ؟

فكر قيافا قليلاً . تبادل بعض النظرات مع الأحبار المحيطين به ثم قال

وابتسامات الفرح ترتسم على الوجوه المشدودة المتغضنة :

ــ ثلاثين قطعة من الفضة !

حك يهوذا أنفه المعقوف بأظافره :

ــ هذا المبلغ الزهيد هو الثمن المقرر فى الشريعة لشراء عبد .. وكان من الممكن يوم الأحد الماضى أن يصبح يسوع الناصرى ملكاً !

صاح قائد الجند بلهجة عسكرية جافة :

ــ ليس الأمر بالبساطة التى يتصورها السذج ! فلن يسمح الملك ولا الجيش بمثل هذا العبث !

اهتز جسد يهوذا مع النبرات التى دقت رأسه كمطارق :

ــ لكن لماذا هذا الانعقاد المستمر للمجلس الموقر إذا كان الأمر مجرد عبث فى عبث ؟!

تدخل قيافا فى الحوار وهو ينتصب فى جلسته على مقعد الصدارة :

ــ قل لنا باختصار ماذا تريد بالإضافة إلى الثلاثين قطعة من الفضة ؟

ــ أولاً ضمان سلامتى الشخصية عندما يتم القبض على يسوع وتلاميذه .

ــ لك هذا الضمان ! لكن هذا الضمان سيزول لو أنك أخلفت وعدك أو فشلت فى مهمتك !

اهتز يهوذا لكنه حاول التظاهر بالتماسك قدر إمكانه :

ــ لن أخلف ولن أفشل .. لكننى أريد مكافأة تساوى خدمتى الجليلة التى ستعيد الأمور إلى سيرتها الأولى !

سأله حنان وهو يتفحصه بعينى الصقر :

مثل ماذا ؟!

ــ أن أصبح عضوا فى مجلسكم الموقر !

ابتسم قيافا ابتسامة ساخرة لكنه تدارك الموقف :

ـــ تتكلم كما لو كنت قد أديت المهمة على خير وجه و لم تتبق لك سوى الغنيمة ! نفذ أولاً ما اتفقنا عليه ولن نبخل عليك بشيء !

تأكد يهوذا أنه لا قبل له بهؤلاء العتاة الذين وقع فى براثنهم بارادته . تذكر حَنَانْ يسوع ومحبته الدافقة الغامرة لكنه طرد هذا الخاطر إذ أنه سار فى طريق بلا عودة ، وتقدم ثلاث خطوات من رئيس الكهنة ليشرح له خطته التى جاء من أجلها .

(٤٥)

مضى يوم الأربعاء دون أن يرى أحد يسوع الذى لم يأت إلى المدينة حيث اعتاد دخول الهيكل للتبشير والكرازة فى أروقته المختلفة . وتناثرت الأقاويل وسرت الشائعات فى أجواء المدينة بين الحجاج الذين شعروا بفراغ قاتل . فقد كان ذلك الأربعاء أول يوم لا يأتى فيه يسوع إلى أورشليم منذ وصوله إليها فى موكبه المهيب يوم الأحد الماضى . فمن قائل :

ـــ يقولون إنه يقضى اليوم فى عزلة فى بيت عنيا !

وآخر يؤكد :

ـــ إنه فى خلوة فوق الجبال كعادته من حين لآخر . والألسنة تردد فى الأزقة والأسواق والميادين :

ـــ ربما تم القبض عليه !

ـــ مستحيل ! لو وقع هذا لقامت القيامة !

ـــ لأول مرة يغادر الأحبار بيت رئيس الكهنة قيافا إلى بيوتهم للراحة والنوم !

ـــ يبدو أنهم قد وجدوا حلا حاسماً لمشكلتهم !

ـــ لكننا لم نر أحداً من تلاميذه أيضاً !

ـــ إنهم يتبعونه فى الأيام الأخيرة كظله !

ـــ أو أنهم هربوا بجلدهم بعد أن انفض الكثيرون من حوله !

ـــ أشعر اليوم بسكون غريب مثل ذلك الذى يسبق العاصفة !

ـــ لم تشهد أورشليم أياماً غامضة مثيرة مثل هذه !

ـــ لن يقبضوا عليه إلا بعد انتهاء الفصح وانفضاض الجموع وعودة الحجاج إلى بلادهم !

ـــ كان من الممكن أن يطيح بهم جميعاً يوم الأحد الماضى .. لكنه ترك

مقاليد الأمور تفلت من يديه ببساطة مذهلة !

ــ لا أنكر أننى لم أفهم شخصيته ولا سلوكه .. ومع ذلك فقد أحببته حبا جارفاً لدرجة أننى أفتقده اليوم بشدة !

ــ لا ترفع صوتك فعيون رؤساء الكهنة وقادة الجند مبثوثة فى كل مكان . لم يعد الأمر يحتمل أية ثرثرة !

ــ لابد أننا سنراه غداً الخميس مع بداية طقوس الاحتفال بعيد الفصح .

وبعيداً عن الأقاويل المتناثرة والشائعات السارية ، انهمك الناس فى بيوتهم فى الاستعداد للاحتفال بالعيد . ففى مساء ذلك الخميس كعادة اليهود ، ذبحت كل عائلة خروفا فى نحو غروب الشمس تمهيداً لشيه على النار صحيحاً دون أن تكسر منه عظاماً ، وذلك لأكله مع فطير ، أى خبز غير مختمر ، وأعشاب مرة ، وثمار ممزوجة بالخل . ثم يدير رب البيت على أفراد عائلته أثناء تناولهم لذلك كله ، أربعة كؤوس متوالية من الخمر الممزوج بالماء . وكان الخروف المذبوح رمزاً فى الشريعة لذبيحة الفداء والخلاص ، والدم المسفوك رمزاً للتكفير عن الخطايا ، والفطير رمزاً للطهارة والخلاص ، والخمر رمزا للبركة ، والأعشاب المرة والثمار الممزوجة بالخل تذكيرا لليهود بمرارة عبوديتهم فى مصر .

فى مساء ذلك اليوم هبط يسوع مع تلاميذه من على جبل الزيتون وعند السفح أرسل بطرس ويوحنا قائلاً :

ــ اذهبا وأعدا لنا الفصح لنأكل !

سألاه ولا يزال القلق ينهشهما من الداخل :

أين تريد أن نعد؟!

لم يجبهم يسوع بصراحة ، بل اتخذ الحيطة حتى لا يلقى القبض عليه قبل الأوان إذا عرف أحد مقدماً مكان عشاء الفصح لا سيما يهوذا الخائن . فحتى بطرس ويوحنا لم يعرفا المكان حين قال لهما :

ــ إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء . اتبعاه إلى البيت حيث يدخل وقولا لرب البيت : يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى ؟ فذاك يريكما علية كبيرة مفروشة . هناك أعدا . إن وقتى

قريب !

اقشعر بطرس ويوحنا إذ لم يعد هناك مهرب مما أكده لهما يسوع ، لكنهما أسرعا ونفذا ما أمرهما به يسوع وأصبح الفصح معداً . ويبدو أنها كانت دار مرقس الرسول الذى كانت عليته مكاناً مختاراً لاجتماع الرسل ، والتى شهدت العشاء الأخير حين اتكأ يسوع على ضوء المصابيح الزيتية ومعه الاثنا عشر تلميذا قائلاً لهم :

ــ شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم . لأنى أقول لكم إنى لا آكل منه بعد حتى يكمل فى ملكوت الله .

ثم تناول كأسا وشكر قائلاً :

ــ خذوا هذه واقتسموها بينكم . لأنى أقول لكم إنى لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله .

أخذ يسوع خبزا وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً :

ــ هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم . اصنعوا هذا لذكرى .

ثم أخذ يسوع الكأس أيضاً بعد العشاء قائلا :

ــ هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم .

ومضت نظرات الرعب فى عيون التلاميذ عند ذكر المعلم لسفك دمه وقد جلسوا حول المائدة مادين تحتها أقدامهم المتعبة الساخنة المتربة العارية من نعالهم التى خلعوها عند دخولهم العلية . كانوا حتى تلك اللحظة أشبه بأطفال صغار قضوا مع أبيهم ثلاث سنوات فى غبطة وهناء وهم ينهلون من حبه الغامر وحنانه الدافق . بل إنهم حتى فى تلك الليلة ، وحول تلك المائدة ، كانوا يتنازعون حول من يكون الأعظم فيهم . وحتى يهوذا ، وفى جيبه الثلاثون من الفضة ثمن الدم البرىء الزكى ، كان يصبو إلى مكانة رفيعة بجوار المخلص . وقد ظفر بها فعلاً إذ اتكأ على يساره .

قام يسوع عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها حول ردائه الكتانى الأبيض ، ثم صب ماء فى مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التى كان متزرا بها . وعندما حل دور بطرس لم يحتمل أن يغسل سيده رجليه

إذ جرت العادة أن يكون فى مثل هذه الحفلات عبيد يقومون بخدمة غسل الأرجل . ولم يكن فى هذا المكان عبيد يمكن أن يؤدوا المهمة الوضيعة ، سوى رب الكون الذى طالما علمهم أن الأعظم فيهم هو خادمهم .وفى مزيج من الرهبة والذهول والخجل لم ينبس التلاميذ ببنت شفة حتى جاء إلى بطرس :

ـــ ياسيد أنت تغسل رجلىّ ؟!

أجابه يسوع بمنتهى البساطة :

ـــ لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع . ولكنك ستفهم فيما بعد .

أصر بطرس على موقفه :

ـــ لن تغسل رجلىّ أبداً !

تغيرت لهجة يسوع قليلاً :

ـــ إن كنت لا أغسلك فليس لك معى نصيب !

أدرك بطرس فى الحال أن هناك من المعانى والقيم ما لا يستطيع أن يدركه ، فقال فى اندفاع وتهور كعادته :

ـــ ياسيد . ليس رجلى فقط بل أيضاً يدى ورأسى !

عندئذ أكد له يسوع :

ـــ الذى قد اغتسل ليس له حاجة إلاَّ إلى غسل رجليه بل هو طاهرٌ كله . وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم !

قالها يسوع لأنه كان يعرف من ينوى أن يسلمه . اندهش التلاميذ لكلمات المعلم الأخيرة التى سرت بالكآبة مرة أخرى فى نفوسهم ، وبالارتعاشة العارمة فى أطراف يهوذا الذى استسلمت قدماه ليدى يسوع الذى غسلهما برغم علمه بالمكان الذى ذهبتا إليه فى ليلة الخيانة الكبرى .

كان يسوع قد انتهى من غسل أرجلهم جميعاً ، وأخذ ثيابه واتكأ مرة أخرى سائلاً إياهم :

ـــ أتفهمون ما قد صنعت بكم ؟ أنتم تدعوننى معلماً وسيداً . وحسناً تقولون لأنى أنا كذلك . فإن كنت أنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم

يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض . لأنى أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً . الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبدٌ أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله . إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه . لست أقولُ عن جميعكم . أنا أعلم الذين اخترتهم . لكن ليتم الكتاب . الذى يأكل معى الخبز رفع علىَّ عقبه . أقول لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون إنى أنا هو . الحق الحق أقول لكم الذى يقبل من أرسله يقبلنى . والذى يقبلنى يقبل الذى أرسلنى .

صمت يسوع وومض وجهه بضوء عجيب . فقد اضطرب بالروح وشهد قائلاً وسط تلاميذه الذين عشش الصمت على رؤوسهم :

ــ الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيُسلّمنى .

تحول صمت التلاميذ إلى حيرة ممضة . تبادلوا نظرات متسائلة فى سكون ذاهل ، خاصة بطرس المندفع القلق دوما والذى لم يحتمل دوامة الحيرة الجديدة التى ابتلعته حتى القاع فأومأ إلى يوحنا الحبيب الذى اتكأ فى حضن يسوع كى يسأله من عسى أن يكون الذى قال عنه . ولم تكن حيرة يوحنا بأقل من تلك التى تنهش بطرس فسأل السيد على الفور :

ياسيد . من هو ؟!

وكانت أصوات التلاميذ الحائرة تتهامس فى رعشة :

ــ هل أنا هو يارب ؟! هل أنا هو يارب ؟!

بل إن صوت يهوذا برز بينهم نشازا منكرا :

ــ هل أنا هو ياسيدى ؟!

حسم يسوع الأمر بنبرات قاطعة :

ــ هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأُعطيه .

تركز وميض النظرات القلقة الحائرة على أنامل السيد وهو يغمس اللقمة فى الصحفة أمامه ثم يرفعها ليعطيها ليهوذا الإسخريوطى . صدرت شهقة مكتومة عن بعض التلاميذ لكن الشيطان كان قد دخل يهوذا بعد اللقمة ، وأصبح من أتباعه الأذلاء على طريق الموت . كانت صدمة التلاميذ قد أعجزتهم

عن الإستيعاب الكامل لكلمات يسوع الموجهة كالسهام النارية إلى يهوذا الإسخريوطى :

ـــ ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة .

وبرغم أن يسوع صارح المتكئين بحقيقة يهوذا البشعة وما ينوى أن يفعله من خيانة ، فإنه يبدو أن الصدمة أو المفاجأة أو الأمر برمته أكبر من أن يستوعب . فهم لا يدركون معنى تسليم يسوع ، ولمن ؟ ، وكيف ؟! فقد كان دائماً فى مواجهة خصومه ، وكل خطواته فى النور والعلن ، فهل يحتاج الأمر إلى تجسس وخيانة ووشاية ثم تسليم ؟! ولذلك لم يفهم أحد من هؤلاء البسطاء المعنى الحقيقى لكلمات يسوع الموجهة إلى يهوذا الذى كان أميناً لصندوق الجماعة ، فظنوا أن يسوع طلب منه شراء ما يحتاجون إليه فى العيد أو التصدق على الفقراء فى هذه المناسبة .

لكن يهوذا نفسه أدرك فى الحال معنى كلمات يسوع . كانت تعنى فصله عن هذه الجماعة ، وكان قد أعد نفسه لهذا وأصبح على أهبة الإستعداد ، إذ خرج بمجرد أن تناول اللقمة كى يبتلعه الليل البهيم فى الخارج . عندئذ التفت يسوع إلى هذه الجماعة المختارة التى غمر اليأس آمالها بعد أن ذهبت المملكة الأرضية أدراج الرياح ، وأصبحوا الآن فى رعب دفين من فقد السيد الذى أحبوه ولا يتصورون حياتهم بدونه . كذلك استشعر بعضهم الخطر من الطريقة التى غادر بها يهوذا الإسخريوطى العلية دون أن ينبش ببنت شفة ، بعينين جاحظتين ، ووجه مربد ، وخطوات مهتزة ، وسكون مريب أن مثل ذلك الذى يسبق العاصفة . اعتراهم إحساس قاتل باليتم ، وخيم على العلية يأس قانط ، وتلاشت مشاعر العيد المبهجة ، لكن يسوع بادرهم برنين صوته الحبيب :

ـــ ياأولادى أنا معكم زماناً قليلاً بعد . لا تضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى . أنا أمضى لأعد لكم مكاناً . وآتى أيضاً لآخذكم إلىّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً . لا أترككم يتامى . أنا آتى اليكم . ومهما سألتم باسمى فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن . سلاماً أترك لكم . ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا . لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب .

لم يستطع بطرس أن يلتزم الصمت والحيرة :

ـــ ياسيد الى أين تذهب ؟!

أجابه يسوع بنفس الهدوء الرزين :

ـــ حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعنى . ولكنك ستتبعنى أخيراً .

تضاعفت حيرة بطرس فعاد يسأل :

ـــ لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن . إنى أضع نفسى عنك .

أجابه يسوع بما لم يتوقعه بطرس على الاطلاق :

ـــ أتضع نفسك عنى ؟! الحق الحق أقول لك : لا يصيح الديك حتى تنكرنى ثلاث مرات !

غرق بطرس فى قاع دوامة الحيرة الرهيبة ولزم الصمت بعد أن عجز عقله عن استيعاب الألغاز التى نطق بها المعلم ، ولم يلتقط من كلماته التالية سوى جملة عجيبة محيرة :

ـــ وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق !

فقد بطرس القدرة على السؤال ، لكن توما استأنف :

ـــ ياسيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق ؟!

أشفق يسوع على توما من الحيرة التى أمسكت بخناق عينيه :

ـــ أنا هو الطريق والحق والحياة . ليس أحدٌ يأتى إلى الآب إلاّ بى . لو كنتم قد عرفتمونى لعرفتم أبى أيضاً . ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه .

ظن فيلبس أنه حسم حيرتهم بقوله :

ـــ ياسيد أرنا الآب وكفانا .

ابتسم يسوع فى حنان لم يخل من تعجب :

ـــ أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفنى يافيلبس . الذى رآنى فقد رأى الآب . فكيف تقول أنت أرنا الآب ؟! ألست تؤمن أنى أنا فى الآب والآب فىّ . الكلام الذى أُكلمكم به لست أتكلم به من نفسى لكن الآب الحال فىّ هو يعمل الأعمال .

عندئذ نطق لباوس الملقب تداوس بعد صمت طويل :

ــ ياسيد ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم ؟!

لم تبرح الإبتسامة الحانية الوديعة وجه يسوع المضيء :

ــ إن أحبنى أحدٌ يحفظ كلامى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نصنع منزلاً . الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى . والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم .

تبادل التلاميذ نظرات الحيرة التى أوشكت على التألق دموعا فى عيونهم التى لم تتحرك قيد أنملة بعيداً عن وجه المعلم الحبيب :

ــ الذى يبغضنى يبغض أبى أيضاً . لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحدٌ غيرى لم تكن لهم خطية . وأمَّا الآن فقد رأوا وأبغضونى أنا وأبى . لكن لكى تتم الكلمة المكتوبة فى ناموسهم إنهم أبغضونى بلا سبب .

تضاءلت الشموع وأوشكت على الاحتراق ، وأطبق على التلاميذ إحساس بقرب نهاية العالم ، لكن كلمات المخلص استمرت فى التدفق :

ــ قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا . سيخرجونكم من المجامع . بل تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله . وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفونى . وأمَّا الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحدٌ منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزنُ قلوبكم .

لكن حزناً غامضاً كان قد تربع على عرش قلوبهم ، وأخرس ألسنتهم حتى قال يسوع :

ــ بعد قليل لا تبصروننى . ثم بعد قليل أيضاً تروننى لأنى ذاهب إلى الآب .

وجد التلاميذ أنفسهم يتساءلون فيما بينهم دون وعى :

ــ ما هو هذا الذى يقوله لنا بعد قليل ؟!

ـــ لا تبصروننى ثم بعد قليل تروننى ولأنى ذاهب إلى الآب !!

ـــ ما هو هذا القليل الذى يقول عنه ؟!

ـــ لسنا نعلم بماذا يتكلم !!

كانت الفجوة واسعة وعميقة بين يسوع وتلاميذه ، لكنه كان يجد لهم العذر دائماً . فلم تعرف البشرية رسالة إلهية مثل رسالته منذ بدء الخليقة . قال لهم :

ـــ أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ؟! الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح . أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح .. ولست أقول لكم إنى أنا أسال الآب من أجلكم . لأن الآب نفسه يحبكم . لأنكم قد أحببتمونى وآمنتم أنى من عند الله خرجت . خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب .

استرخى بعض التلاميذ بعض الشيء فى جلستهم حول المائدة الخشبية المتواضعة وانطلقت كلماتهم لتوحى بيقين قوى :

ـــ هوذا الآن تتكلم علانية ولست تقول مثلاً واحداً . الآن نعلم أنك عالمٌ بكل شيء ولست تحتاج أن يسألك أحد . لهذا نؤمن أنّك من الله خرجت .

انطلق صوت يسوع رنينا للخلود :

الآن تؤمنون . هوذا تأتى ساعة وقد أتت الآن . تتفرقون فيها كلٌ واحدٍ إلى خاصته وتتركونى وحدى . وأنا لست وحدى لأن الآب معى . قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فىّ سلام . فى العالم سيكون لكم ضيق . ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء ليصلى من أجل البشرية جمعاء ، من أجل الحياة الأبدية ، والعمل الإلهى الذى أكمله ، ومعلنا مجده الذى كان له عند الآب قبل إنشاء العالم ، وطلبه أن يحفظ الآب القدوس فى اسمه كل الذين تبعوه وآمنوا به ، كما يحفظهم من الشرير لأنهم ليسوا من العالم كما أنه ليس كذلك . لم يسأل يسوع من أجل تلاميذه فحسب بل من أجل الذين

يؤمنون به من خلال كرازتهم ، ليكون الجميع واحداً كما أن الآب فيه وهو فيه ، فقد عرفوا أن الآب قد أرسله ، فعرفوا كيف يكون فيهم الحب الذى أحبه الآب له .

كان يسوع يهمس بصلاته الختامية بنبرات دقت فى أسماع التلاميذ كأجراس الخلود . اخترقت كلماته المقدسة أغوار الظلام السائد فى كهوف أنفسهم فأضاءتها بخيوط نورانية كشفت لهم عن بعض المعانى التى كانت مغلقة عليهم .

كانت الرسالة الإلهية أصعب وأعقد وأخطر من أن يستوعبوها فى كل أبعادها وأعماقها وآفاقها . لكن فى لحظات الصفاء الخاطفة بعيداً عن أمواج الحيرة الصاخبة كان يومض فى داخلهم ضوء رائع يكشف لهم عن عالم مبهر لم تره عين بشر من قبل . ضوء مثل ذلك المشع من وجه يسوع الآن وهو مسترسل فى صلاته السرمدية ، وقد امتزجت فى نورانية وجهه خيوط القمر ونسيج الشمس ووميض الماس ، فلم تعد لهم حاجة إلى ضوء الشموع التى ذبلت أخيراً ، والمصباح النحاسى الزيتى المتراقص فى وهن . فقد فاضت العلية بهذا الضياء العجيب النابع من النفس البشرية التى كانت قد وقعت أسيرة الظلام ودياجيره المتكاثفة منذ أن طرد آدم وحواء من جنة عدن بعد ارتكابهما الخطيئة الأولى .

سكب يسوع نفسه فى صلاته للآب . فشعر التلاميذ أنه يستودعهم إلى حماية الآب وعنايته ، ويشفق عليهم من تركه لهم ليواجهوا العالم بأنفسهم . ومع انتهاء الصلاة كان الليل قد انتصف فخرج يسوع مع تلاميذه تحت أشعة قمر ذابل لم تكشف إلا عن الخطوط التى تحدد البيوت والأسوار والتلال . كانت أمواج الخطر الداهم تحدق بهم من كل جانب ، ورائحة الخيانة والغدر تجثم على طيات الجو المحيط بهم ، فساروا فى صمت حذر حتى لا يتعقبهم جواسيس الأعداء وعيونهم إلى خلوتهم على الجبل .

خفّفت صلاة يسوع الكثير من إحباطهم وخوفهم من اللحظات الغامضة المقبلة كعاصفة لا يعرفون لها اتجاها ، ورددت نسمات الريح فى أسماعهم ترنيمة الفصح وقد امتزجت بأصداء المزمور المئة والثامن عشر :

ـــ من الضيق دعوت الرب فأجابنى من الرحب . الرب لى فلا أخاف .

ماذا يصنع بى الإنسان . الرب لى بين معينىَّ وأنا سأرى بأعدائى . الاحتماء بالرب خير من التوكل على إنسان . الاحتماء بالرب خير من التوكل على الرؤساء . كل الأمم أحاطوا بى . باسم الرب أبيدهم . أحاطوا بى واكتنفونى . باسم الرب أبيدهم . أحاطوا بى مثل النحل . انطفأوا كنار الشوك . باسم الرب أبيدهم . دحرتنى دحوراً لأسقط . أمَّا الربُّ فعضدنى . قوتى وترنمى الرب وقد صار لى خلاصاً . صوت ترنم وخلاص فى خيام الصديقين . يمين الرب صانعة ببأس . يمين الرب مرتفعة . يمين الرب صانعةٌ ببأس . لا أموتُ بل أحيا وأُحدث بأعمال الرب . تأديباً أدَّبنى الرب وإلى الموت لم يسلمنى .

افتحوا لى أبواب البر . أدخل فيها وأحمد الرب . هذا الباب للرب . الصديقون يدخلون فيه . أحمدك لأنك استجبت لى وصرت لى خلاصاً . الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيبٌ فى أعيننا .

هذا هو اليوم الذى صنعه الرب . نبتهج ونفرح فيه . آه يارب خلص . آه يارب أنقذ . مُباركٌ الآتى باسم الرب . باركناكم من بيت الرب . الرب هو الله وقد أنار لنا . أوثقوا الذبيحة بربط إلى قرون المذبح . إلهى أنت فأحمدك إلهى فأرفعك . احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته .

(٤٦)

فى الطريق إلى جبل الزيتون قطع يسوع حبال الصمت التى امتدت من العلية حتى خروجهم من أسوار أورشليم . قال لتلاميذه :

ـــ كلكم تشكون فىّ فى هذه الليلة لأنه مكتوب إنى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية . ولكن بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل .

كان بطرس يسير إلى جانب المعلم وقد حمل سيفاً هذه المرة على غير عادته . عاوده التوتر فقال ليسوع وهو يكاد يلهث :

ـــ وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً !

ظن بطرس أنه حسم القضية ، فاطمأنت نفسه للحظات ، لكن سرعان ما تلاشت الطمأنينة عندما التفت يسوع إليه :

ـــ سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة . ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى رجعت ثبت اخوتك .

نضح الرجاء الملح على نبرات بطرس :

ـــ يارب إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت .

أجابه يسوع وهو يتقدمهم صاعداً على الجبل :

ـــ الحق أقول لك إنك اليوم فى هذه الليلة قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرنى ثلاث مرات .

كانت ألسنة التلاميذ تلهج بنفس معانى بطرس لكنهم عادوا إلى التزام الصمت الكئيب حتى بلغوا وادى قدرون حيث كان بستان جثسيمانى الذى دخله يسوع مع تلاميذه ، وكان يهوذا الإسخريوطى يعرف هذا الموضع لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه فى أمسيات الربيع وليالى الصيف . فى تلك الليلة المتثاقلة قال لتلاميذه :

ـــ اجلسوا ههنا حتى أصلى .

ثم أخذ معه بطرس ويوحنا ويعقوب الذين لمحوا على وجهه فى ضوء القمر

الذابل حزناً وكآبة لم يروا مثلهما من قبل . كان بطرس على وشك أن يفتح فمه متسائلاً لكن يسوع قال بنبرات تقطر مرارة :

ــ نفسى حزينة جداً حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معى .

ثم تقدم قليلاً وجثا على ركبتيه ليصلى وقد ظهر له ملاك من السماء أحاطه بهالة من نور ، يقويه ويشد من أزره . كان جسد يسوع ينتفض من انفعالات الجهاد الروحى ، مع كلمات متأججة باللجاجة ، وقطرات عرق تتصبب على جبينه كقطرات دم نازلة على الأرض :

ــ ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس . ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت .

أما بطرس ويوحنا ويعقوب فكان إرهاق وسهد وقلق الليالى الماضية قد حرمهم نعمة النعاس ، ولذلك ما أن تركهم يسوع ليصلى حتى استرخى بطرس على عشب البستان وتثاءب لتنتقل العدوى إلى يوحنا ويعقوب ، وسرعان ما تسلل النعاس أخيراً إلى جفونهم لتنطبق على عيونهم فى إغفاءة عميقة .

ــ عاد يسوع إليهم فوجدهم نياماً ، لكن يبدو أن بطرس استشعر وجوده فانتفض جالساً ليسمع كلمات المخلص :

ــ أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة !؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف .

فمضى يسوع مرة أخرى إلى موضع صلاته ليلهج لسانه بها بلجاجة أشد :

ــ ياأبتاه إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك !

أما بطرس فقد كان كمن يحلم إذ سرعان ما غط فى نومه بمجرد أن تركهم يسوع ليصلى ، كذلك كانت أعين يوحنا ويعقوب ثقيلة بحيث فتحا جفونهما نصف فتحة ثم غرقا مع بطرس فى نعاس عميق . وعندما عاد إليهم يسوع لم يجد فائدة من الحديث معهم ، والذى كان فى أشد الإشتياق إليه ، فعاد إلى صلاته معلنا استسلامه الكامل لمشيئة الآب . وعندما انتهى منها سار

بخطواته الحانية إليهم قائلاً بهمس حزين :

ـــ ناموا الآن واستريحوا . هوذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطاة . قوموا ننطلق . هوذا الذى يسلمنى قد اقترب .

ازداد القمر شحوباً وذبولاً ، وغطت أشعته الباهتة غلالة من تراب أو رمال ناعمة ، فبدا الكون وكأنه ارتدى ثوب الحداد الداكن . حتى الأزاهير البرية المتناثرة فى بستان جثسيمانى توقفت عن إرسال أريجها مع هبات الرياح لتعبق بها الأنفاس المختنقة . وتساقطت بعض قطرات الرذاذ وقد امتزجت بنسيج الغلالة الترابية التى لفحت عيون السماء فذرفت الدموع على قسوة الإنسان الذى يصر ، عبر كل زمان ومكان ، أن يوصد الأبواب فى وجه الخلاص النازل من السماء .

أما العشب الندى الذى يغطى البستان ببساط سندسى نضر فقد أصدر أنيناً خافتاً تحت وطأة أقدام القادمين من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، وهم يتسللون عبر جذوع الأشجار وأفنانها وأغصانها التى بدت وكأنها تحاول منعهم من التقدم صوب يسوع الذى وقف فى انتظارهم فى منتهى الهدوء والاستسلام . كانوا جمعاً غفيراً ، شاهرين السيوف والعصى ، رافعين المشاعل والمصابيح وكأنهم على وشك أن يخوضوا معركة فاصلة ضد جيش عرمرم . كانوا عصبة من الجند والخدم بقيادة يهوذا الذى كان يشير أمامه إلى الاتجاه الذى يجب أن يسلكوه .

تقدم يسوع منهم فى سلام وهدوء عالماً بكل ما سيقع له من آلام وأهوال . اقترب منه يهوذا بوميض عينين جاحظتين فى ضوء المشاعل ، تردد قليلاً عندما لمح وجه يسوع النورانى الذى طغى على بريق المصابيح ، ثم عقد العزم واقترب من يسوع وقبله ، وهو يغمز بعينه اليسرى للجند والخدم الذين أحاطوا بيسوع قائلاً له :

ـــ السلام ياسيدى .

لكن يسوع سأله فى مرارة :

ـــ ياصاحب لماذا جئت ؟!

ثم سألهم بنفس المرارة :

ـــ من تطلبون ؟

أجابوه وهم يهزون السيوف والعصى والمشاعل والمصابيح :

ـــ يسوع الناصرى .

قال لهم بمنتهى البساطة والوداعة وهو يتقدم منهم خطوات أخرى .

ـــ أنا هو .

سقط بعضهم على الأرض ذهولاً فى حين حاول البعض الآخر التماسك فى مواجهة هذه القوة الجبارة التى يتمتع بها هذا الشاب الهادئ الوديع الذى يشع من عينيه ضوء نفاذ يخترق حجب النفس المظلمة . لم يستطع يهوذا أن يمنع شفتيه من الارتعاش ويسوع يعيد عليهم سؤاله :

ـــ من تطلبون ؟

أجابوا بأصوات مرتعشة وأنفاس لاهثة :

ـــ يسوع الناصرى .

تقدم يسوع خطوة أخرى وهو ينظر خلفه إلى تلاميذه الذين كانوا قد استيقظوا على الضجيج وهم يتابعون ما يجرى فى ذهول :

ـــ قد قلت لكم إنى أنا هو . فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون .. ليتم القول الذى قاله إن الذين اعطيتنى لم أهلك منهم أحداً .

أفاق بطرس من ذهوله وتذكر السيف المعلق فى زنده ، فأخرجه من غمده وضرب بيد من حديد فلمس عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى ، فصاح فيه يسوع مؤنباً :

ـــ اجعل سيفك فى الغمد . الكأس التى أعطانى الآب ألاَ أشرَبُها . أما كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون . أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة . فكيف تُكَمَّل الكتبُ أنه هكذا ينبغى أن يكون .

ثم التفت يسوع إلى الواقفين المتربصين به ، وانحنى ليلتقط الأذن الملطخة بالدماء ثم أقام العبد ملخس من رقدته ووضع الأذن فى مكانها فبرئت فى الحال .

قال يسوع لهم :

ــ كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى . كلَّ يوم كنت معكم فى الهيكل أُعَلِّم ولم تمسكونى . ولكن لكى تكمَّل الكتب . فهذه ساعتكُم وسلطانُ الظُّلمة .

كانت المشاعل المرفوعة بالأيدى تُرسل دخاناً كثيفاً امتزج بهواء البستان والغلالة الترابية ، فسرى الاختناق فى الأنفاس ، والاحتراق فى قلوب التلاميذ الذين لم يصدقوا الكابوس الذى يرزحون تحت وطأته ، ولا يستطيعون الاستيقاظ منه ، فتسللوا خطوات خطوات إلى الوراء ثم لاذوا بالفرار إلى الصقيع الذى لفحهم بعيداً عن سخونة المشاعل والأنفاس المتهدجة والجباه المتصببة عرقا .

ويبدو أن مرقس الرسول الشاب كان قد تتبع يسوع وتلاميذه بعد أن تركوا العلية فى طريقهم إلى بستان جثسيمانى حتى يواصل التقاط كلمات النعمة المنهمرة من بين شفتيه . وكان له أن شاهد التلاميذ وهم يلوذون بالفرار ، ثم فوجىء ببعض الخدم والجند يقبضون عليه كأحد أتباع يسوع ، ويمسكون بالإزار الذى يغطى جسده ، لكنه تملص من الإزار وهرب منهم عريانا لتبتلعه الظلمة الباردة حتى لا يتبين ملامحه أحد .

عندئذ تشجع الجند والخدم وهجموا على يسوع ليقبضوا عليه ، وأوثقوا يديه بحبال كانت معهم واقتادوه إلى حنَّان أولاً ، لأنه كان حما قيافا الذى كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة ، والذى أشار على اليهود أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب . وكان حنَّان ، هذا الذى ساقوا إليه يسوع موثق اليدين من الخلف ، هو الذى كان قد استدعاه هيرودس الكبير من الأسكندرية ليكون مستشاره فى تفسير الشريعة لصالح حكمه الظالم الغاشم ، والذى ظل خمسين عاماً يتمتع برئاسة الكهنوت مع أبنائه الخمسة ، وذلك على الرغم من وجود رئيس كهنة رسمى وهو قيافا وغيره من رؤساء الكهنة العديدين فى ذلك الحين . وكانت سطوة حنَّان الفعلية على الكهنوت ، ونفوذه المؤثر بين السلطات الحاكمة قد ضاعفا من غطرسته وشراسته ومكره وخبثه ، وتكالبه على شهوات الدنيا ، واستقطابه معظم أعضاء مجلس السنهدريم ، بحيث لم تعد هناك قضية أو فتوى دون أن يكون له فيها الرأى المؤثر لصالحه الشخصى

ولصالح فئته والتابعين له والمنتفعين به .

وكان هدف المخطط اليهودى بتقديم يسوع إلى حنَّان أولا يتمثل فى أن حكمه عليه بالموت سيكون مُلزماً لأية سلطة تحاكم يسوع بعد ذلك ، على الرغم من أنه لم يكن رئيس الكهنة الرسمى فى ذلك الوقت . وقد كان رؤساء الكهنة والفريسيون والكتبة والصدوقيون والناموسيون والهيرودسيون يعلمون كل العلم أن محاكمة حنَّان ليسوع الناصرى غير شرعية وغير قانونية ، إذ لم يكن جائزا أن تعقد المحاكمة فى منزل أحد . بل فى دار قضاء أمام سلطة شرعية ، كذلك لم يكن شرعياً محاكمة متهم أو الحكم عليه أثناء الليل ، فالمحاكمات كلها يجب أن تتم قبل غروب الشمس . لكن كان المقصود من كل هذا أن يحدد حنَّان بخبثه ودهائه ومكره المسار الذى ستمضى فيه القضية بأسرها ، بحيث تنتهى بحكم الموت على يسوع . فلن يستطيع أحد أن يتجاهل أو يتجنب رأى حنَّان وفتواه المبدئية فيها .

هكذا قرر اليهود أن يحملوا مسئولية القضية برمتها حتى النهاية بعد أن فقدوا الأمل فى المساندة المباشرة للسلطة الدنيوية المحلية ممثلة فى هيرودس والسلطة الرومانية الأجنبية ممثلة فى بيلاطس البنطى . كانوا يودون أن يحسمها غيرهم ثم يقدمون له المبررات الدينية والحيثيات الشرعية ، لكن طالما أن الموقف ظل على ما هو عليه ، فلابد أن يأخذوا عنصر المبادرة فى أيديهم . ولذلك كانت وحشيتهم واضحة فى اقتيادهم يسوع إلى بيت حنَّان ، وحشية أكدت لهفتهم المحرقة للتخلص منه بأى شكل والقضاء عليه بأسرع ما يمكن ، بعد أن أظهر عجزهم الفاضح أمام الشعب طوال السنوات الثلاث الماضية .

لم يهتم بيلاطس البنطى بالقبض على يسوع لأنه بحسه السياسى البارع أدرك أن الصراع صراع روحى دينى أساساً ، وأنه من صالحه كممثل للامبراطورية الرومانية فى فلسطين ألا تتربع فئة بعينها على قمة السلطة المحلية ، دينياً أو دنيوياً ، حتى لا تتصور فى يوم من الأيام قدرتها على تحدى السلطات الرومانية . ولذلك وجد بيلاطس فى رسالة يسوع وسيلة مناسبة للحد من سلطات رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب الذين كانوا يمقتون الاحتلال الأجنبى فى قرارة نفوسهم ، ليس لأسباب وطنية أو قومية ، وإنما لأنه التحدى الوحيد لسلطاتهم التى يتمنون أن تكون مطلقة بلا حدود .

ومن الواضح أن الرومان كانوا أكثر تحضراً من اليهود ، إذ لو كان بيلاطس البنطى قد بعث بجنوده للقبض على يسوع ، لكان له أن يعرف سبب القبض ونوعية التهمة أولاً . ولو كان جنود بيلاطس هم الذين أوثقوه لكانوا وضعوه تحت حراستهم وحمايتهم حتى لا تمتد إليه يد جبان بأى سوء ، ولكانوا أخذوه إلى الثكنات العسكرية الرومانية ، ولما سلموه إلى رؤساء الكهنة للحكم عليه . بل الأمر كان على النقيض من ذلك تماماً إذ دبر اليهود كل الحيل والمكائد لتسليم يسوع إلى الرومان حتى يبرروا حكم الموت عليه ، إذ لم يكن هذا الحكم فى سلطة السنهدريم بل كان لابد من الحصول على إذن السلطات الرومانية فى ذلك .

هكذا هبط الجند والخدم بيسوع على سفح جبل الزيتون فى طريقهم إلى بيت حنَّان . وتلاشى الهلع من قلوبهم عندما وجدوا استسلام يسوع الكامل لهم ولأيديهم التى كانت تتطاول عليه من حين لآخر لعله يقاوم أو يفعل شيئاً يدل على السطوة التى اشتهر بها فى السنوات الثلاث الماضية . لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث ، وسارت الأمور بأبسط مما كانوا يتصورون .

وفى الأفق بدت خلف أسوار أورشليم بعض المشاعل المتراقصة فى ذبول مع هبات الريح الباردة التى تحالفت مع الظلمة الكثيفة فى ليلة كانت البشرية فيها تشهد أخطر تحول فى حياتها منذ بدء الخليقة وحتى نهاية العالم دون أن تدرى . وكيف تدرى والتلاميذ أنفسهم عجزوا عن استيعاب أبعاد وأعماق وآفاق هذه الملحمة الإلهية ؟! فى تلك اللحظات السرمدية !! كان لابد للعقل البشرى أن يقف عاجزاً أمام الشمول الإلهى ! وها هو بطرس ويوحنا يتتبعان يسوع من بعدٍ آمن ، والخوف والصقيع قد أحالا قلبيهما إلى كرتين من الجليد المتناثر .

كان حنَّان يذرع بهو بيته الفاخر جيئة وذهابا بين الأعمدة الرخامية والمصابيح الزيتية دون أن يهدأ له بال . كانت ثقته فى يهوذا الإسخريوطى ضعيفة ، فهو فى نظره مجرد خائن ، والخائن الذى اعتاد الخيانة يمكن أن يخون أى طرف يتعامل معه . فإذا كانت نفسه قد زينت له خيانة معلمه الذى تبعه ثلاث سنوات ، فهل تعجز عن إغرائه بخيانتهم وهم الذين قرروا ألا يمنحوه أكثر من ثلاثين فضة ؟! لكن لم يكن بيدهم حيلة بعد أن أعجزتهم كل الحيل فى القبض على يسوع ومحاكمته .

لم يحاول أحدٌ من رؤساء الكهنة أو الشيوخ أو الكتبة الجالسين على الحشايا الوثيرة حول حنَّان أن يهدىء من قلقه ، فقد كانوا هم أيضاً نهباً لنفس القلق ، بل إن بعضهم انتابه الخوف من المواجهة المحتملة مع النبى الشاب القادم مقبوضاً عليه . بل وتحول الخوف عند القلة منهم إلى احتقار لأنفسهم ، إذ كيف يخافون ، وهم السلطة الدينية العليا التى لا راد لسطوتها وقضائها ، من شاب أعزل ، وديع ، لا يملك سوى كلمته ؟!!

هكذا غمرتهم أمواج القلق والخوف والاحتقار حتى كادت أن تغرقهم لولا الضجيج الذى بلغ مسامعهم من مدخل البهو ، فتركز وميض عيونهم المحملقة عليه ليروا حرس الهيكل الغلاظ يدخلون وقد وضعوا أيديهم على كتف شاب طويل القامة ، نحيل الجسد ، مهيب الطلعة ، جميل المحيا ، مضىء الوجه ، متألق العينين ، يسير فى ردائه الكتانى الناصع البياض وكأنه طائر بين أيدى الجند والخدم .

انفرجت أسارير حنَّان وإن لم يمنع رعشة عابرة انتابت جفونه ، وقشعريرة سرت فى كل جلده ، وتساؤل ملح صامت داخله :

ــ ما هذا السحر المشع من هذا الشاب العجيب ؟!

لكنه سرعان ما كتبه داخله وهو يستعد لمواجهة يسوع الناصرى الذى جىء به أخيراً ليمثل بين يديه . هذا هو الشاب الذى نعت الهيكل المقدس بأنه مغارة لصوص ، ولن ينسى له حنَّان هذه الإهانة الجارحة ممن لا يملك

توجيهها . وها هو الآن يقف أمامه بلا حول ولا قوة فى حين يملك هو وزملاؤه الملتفون حوله كل الحول والقوة .

استجمع حنان كل قواه الفكرية حتى يلتقط من يسوع أية فلتة لسان يتخذ منها منطلقاً لدليل الاتهام على مسمع من الكهنة والشيوخ والكتبة . تظاهر بأنه قاض محايد يستجوب متهماً ماثلاً أمامه ، لا يعرف عن شخصه أو تلاميذه أو تعاليمه شيئاً يمكن أن يأخذه ضده مسبقاً . سأله وبراءة الأطفال فى عينيه :

ـــ قل للمجلس الموقر من هم تلاميذك ؟! وما هى تعاليمك ؟! وما هدف رسالتك إذا كانت لك رسالة محددة ! نريد أن نسمع منك كل شىء بالتفصيل ! فلا مصلحة لنا فى اتهامك أو تبرئتك ! فنحن نبحث عن الحقيقة لوجه الرب والحق !

كان حنَّان يهدف إلى شغل الوقت بكل ما من شأنه أن يدين يسوع فى انتظار جلسة السنهدريم عند الفجر . لكن يسوع نظر إليه بعينيه النورانيتين وأجابه بمنتهى الهدوء والوداعة :

ـــ أنا كلمت العالم علانية . أنا علَّمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً . وفى الخفاء لم أتكلم بشىء . لماذا تسألنى أنا ؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم . هوذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا .

أحس حنَّان بطعنة نجلاء تخترق كبرياءه ، وبحث عن رد مناسب فى حيرة بالغة لم ينقذه منها سوى أحد الخدم الملتفين حول يسوع حين لطمه قائلاً :

ـــ أهكذا تجاوب رئيس الكهنة ؟!

لكن يسوع لم يهتز ولم ينفعل بل أجابه بنفس الهدوء والوداعة :

ـــ إن كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الردىء ، وإن حسنا فلماذا تضربنى ؟!

تأكد حنَّان أنه لو واصل استجواب هذا الشاب الهادىء الرهيب لهزمه بالضربة تلو الضربة على مشهد من كل رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة ، وبالتالى فإنه يمنحه مجداً جديداً على طبق من ذهب ، مضافاً إلى الأمجاد التى حققها من قبل بين طوائف الشعب على مدى السنوات الثلاث الماضية . تساءل

حنَّان فى نفسه ويسوع يسلط عليه عينيه المتألقتين النافذتين إلى أعماقه المعتمة :

ـــ هل أستطيع أن أواصل استجوابه حتى بزوغ الفجر ؟! ومن أين آتى بالأفكار والكلمات وهو ينظر إلىّ بهذا التحفز والتربص ؟! ماذا سأفعل به طوال هذه الساعات ؟!

عادت أمواج الحيرة لتغرق حنَّان ، كما أغرقت بطرس الذى لم يستطع أن يمنع نفسه من مواصلة تتبع يسوع وهم يقودونه مقيداً إلى دار رئيس الكهنة ، فتسلل إلى فناء الدار ليدس جسده المنهك المرتعد بين الخدم الذين كانوا قد أوقدوا ناراً يستدفئون بها فى تلك الساعة المتأخرة التى امتزجت فيها الظلمة الحالكة بالبرودة اللافحة . لمحت جارية كانت تقف فى فناء الدار بطرس فهرعت إليه لتقول له بصوت جهورى على مسمع من كل الخدم :

ـــ وأنت أيضاً كنت مع يسوع الجليلى !

قفز الرعب من عينى بطرس المتوهجتين فى ضوء ألسنة النار المتراقصة للتدفئة ، وأنكر بصوت سمعه الجميع ما قالته الجارية :

ـــ لست أدرى عما تتحدثين ؟!

ثم انتفض واقفاً ليخرج من الفناء المتوهج إلى الدهليز الداكن البارد حيث رأته جارية أخرى صاحت فى الواقفين فى الدهليز وهى تشير إلى بطرس :

ـــ إن هذا أيضاً كان مع يسوع الناصرى !

عندئذ لم يجد بطرس بدا من أن ينكره مرة أخرى وهو يقسم :

ـــ إننى لا أعرف هذا الرجل .

وهمّ بأن يفر من الدهليز حتى لا تضيق حوله الحلقات وتدور به الدوائر ، لكنه فوجىء بآخرين واقفين عند فتحة الدهليز وهم يصيحون به :

ـــ بالتأكيد أنت أيضاً منهم . فإن لهجتك الجليلية تدل عليك .

شعر بطرس أنه وقع فى الفخ الذى ذهب إليه برجليه ، فبدأ يلعن ويحلف قائلاً :

إنى لا أعرف هذا الرجل ! إنى لا أعرف هذا الرجل !

فى تلك اللحظة صاح الديك صياحاً اخترق قلب بطرس كخنجر مسموم نافذ ، وجعله يتمنى الموت .

أما حنَّان فى الداخل فقد عجز عن الإيقاع بيسوع فى فخ دهائه ومكره ، خاصة وأنه كان يعرف أنه ليس صاحب السلطان الشرعى فى محاكمته ، فإذ به يصيح فى الجند والخدم :

ـــ خذوه موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة !

وكان حنَّان يدرك تماماً أن مجرد إرساله إلى قيافا موثقاً دليل مادى فى حد ذاته على أنه حكم بإدانته . وسرعان ما اقتاد الجند والخدم يسوع موثقاً إلى خارج دار حنَّان حيث نظر يسوع إلى بطرس نظرة متفجرة بالمعانى والمشاعر دون أن ينبس ببنت شفة . عندئذ تذكر بطرس كلمة الرب إذ قال له :

ـــ لن يصيح الديك اليوم حتى تكون قد أنكرتنى ثلاث مرات .

فمضى يسوع إلى الخارج وبكى بكاء مرا ، وهو يرى يسوع يختفى بين الجند والخدم فى طريقهم إلى بيت قيافا . وسرعان ما هرول فى أعقابهم حنَّان ومعه أعضاء مجلس السنهدريم ليبتلعهم الظلام فى ليلة لا تبدو لها نهاية قريبة . فقد بدت أورشليم ملتحفة بسواد كثيف كئيب ، وطرقاتها خانقة برطوبة الليلة الباردة التى تلفح الوجوه برذاذ متثاقل ، وميادينها مهجورة موحشة برغم نوبات الحراسة الرومانية ، وبرغم خيام الحجاج المتناثرة فى الساحات والأسواق . فقد آوى الجميع إلى الفراش ، ولجأ البعض الآخر إلى اشعال النار فى بعض الأخشاب أمام فتحات الخيام طلباً للدفء ، لكن سكونا شديد الوطأ جثم على أنفاس الجميع وكأن المدينة أصبحت مهجورة برغم أنها تعج بالحجاج من كل أرجاء المعمورة . فقد تلاشى نباح الكلاب فى الطرقات البعيدة وعند الأسوار الشامخة ، والذى كان يوحى بالسلام والطمأنينة والأمان والوفاء ، ليحل محله عواء ذئاب يثير الكآبة ومشاعر العدم والموت فى النفوس ، ونعيق بوم من الأشجار المتناثرة فى الطرقات والأسواق وبحذاء الأسوار وعند المداخل . أما النجوم والكواكب فيبدو أنها تباعدت وتضاءلت فى القبة السوداء حتى كادت أن تتلاشى ، فى حين شحب القمر وأصبح مجرد بقعة دائرية رمادية

فى صفحة حالكة .

كان الجند والخدم يهرولون بيسوع الموثق اليدين إلى دار قيافا رئيس الكهنة الرسمى ، وخلفهم كان حنَّان يلهث ومعه أعضاء السنهدريم ، كى تكتسب المحاكمة الصيغة الشرعية ، ويصدروا الحكم الذى طالما حلموا به فى منامهم ويقظتهم ، والذى ظلوا ساهرين للتوصل إليه حتى الهزيع الأخير من الليل . لكنهم فى لهفتهم المسعورة نسوا أو تناسوا أنه لا يجوز عقد المحاكمة فى منزل ، ولا أثناء الليل ، وهم الذين اشتهروا بتمسكهم المستميت بالحرف والشكل على حساب المعنى والجوهر . لكن من أجل تحقيق رغبتهم المحرقة تهون الشريعة والناموس وكل المقدسات التى تعبدوا فى محرابها ، وصنعوا منها أصناماً لا تمس من بعيد أو قريب .

بدت نوافذ بيت قيافا رئيس الكهنة مضيئة أعلى الربوة التى يربض عليها ، وظهر شبحه فى ضوء إحداها إذ يبدو أنه كان فى انتظارهم حتى تلك الساعة المتأخرة من تلك الليلة التى لا تريد أن تنتهى . أسرع قيافا ليقف عند المدخل بين حرسه وخدمه ليرحب بهم ، وقد عرف على الفور يسوع فى ثوبه الكتانى الأبيض وطلعته المهيبة التى أصابته بغصة فى قلبه . هرول به الجند والخدم على الدرجات الرخامية وخلفهم حنَّان وأعضاء السنهدريم حتى بلغوا الدرجة التى يقف عليها قيافا الذى أسرع بدوره إلى الداخل ليتصدر القاعة المرمرية ، وعلى يمينه حنَّان فى حين التف أعضاء السنهدريم على المقاعد فيما يشبه نصف دائرة وقف يسوع فى مركزها وقد استطال ظله فى كل الاتجاهات أمام المصابيح النحاسية الزيتية المعلقة بسلاسل لامعة فى الأركان وبجوار الأعمدة .

تحرك رؤساء حرس الهيكل بين المتجمهرين خلف الأعضاء وعند مدخل البيت وخارجه تنفيذاً لأوامر رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله بالبحث عن شهود . كانوا يبغون شهادة زور ضد يسوع ليقتلوه ، لكن الهالة المشعة المحيطة بيسوع جعلت الجميع يتراجعون مع أن شهوداً كثيرين قد جاءوا من أجل ذلك . حتى يهوذا الإسخريوطى الذى كان يبدو من حين لآخر بوجهه الأغبر بين وجوه الجند والخدم ، قد اختفى وكأن الظلمة ابتلعته حتى قاعها . لكن أوامر رؤساء الكهنة والشيوخ كانت مشددة ولا رجعة فيها ، فلجأ رؤساء الجند إلى اغراء من يتقدم بالشهادة بالحصول على مغانم كثيرة ، وأخيراً تقدم

شاهداً زور فى تردد وتوجس وهما يحاولان تجنب النظر إلى الضياع المتدفق من وجه يسوع ، واكتفيا بالإشارة إليه قائلين :

ــ إن هذا قد قال إنى أستطيع أن أهدم هيكل الله ثم فى ثلاثة أيام أبنيه .

انبسطت أسارير قيافا ونهض قائلاً ليسوع :

ــ أما تجيب بشىء على ما يشهد به أولئك عليك ؟

عشش السكون على رؤوس الجميع ، وكتموا أنفاسهم انتظاراً لرد يسوع لكنه ظل صامتاً . تجهم وجه قيافا مرة أخرى وقال بإلحاح لم يخفف من حدته :

أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟

عندئذ أجابه يسوع بنبرته الوديعة العذبة :

ــ نعم أنا هو كقولك . وإنى أقول لكم كذلك . إنكم منذ الآن سترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سحب السماء .

ومضت عينا قيافا وكأنه قد وجد بغيته فمزق ثيابه بحركة مسرحية صائحاً فى أسماع الجميع :

ــ لقد جدَّف ، فما حاجتنا بعد إلى شهود ؟! ها أنتم أولاء قد سمعتم الآن تجديفه . فماذا ترون ؟!

أجابوه فى جوقة بقيادة حنَّان :

ــ إنه يستحق الموت .

انفجر بركان الغوغاء والسوقة والرعاع بين الجند والخدم والمتجمهرين فراحوا يبصقون فى وجهه ويلكمونه ، وراح آخرون يلطمونه قائلين :

ــ تنبأ لنا أيها المسيح . من الذى ضربك ؟!

كانوا يضربونه بتشف غريب مذهل . فقد أظهروه بمظهر عدو الهيكل الذى يسعى لهدمه وهو الرمز المقدس لكل أمة اليهود ، وأيضاً بمظهر من يمارس أعمال السحر التى لا يمكن بغيرها هدم هذا الهيكل العملاق وبناؤه فى ثلاثة أيام ، وهو الذى استغرق بناؤه ستة وأربعين عاماً . ولذلك فهو يستحق الموت لأنه

لأنه جدّف على الله وينوى الاعتداء على هيكله بممارسة السحر .

وكان المخطط متقنا إذ أن يسوع كان قد قال عبارة شبيهة بتلك التى نطق بها شاهدا الزور اللذان تعمدا تحريفها معنى ولفظاً . إذ كان يسوع قد صنع أمام اليهود من المعجزات والآيات والعجائب ما يؤكد ألوهيته بالدليل المادى الملموس ، ومع ذلك لم يقتنع غلاظ الرقبة هؤلاء ، عندئذ أكد لهم أنهم لن يقتنعوا إلا بعد أن يروا موته ثم قيامته عندما قال :

ـــ انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه .

لأنهم سيقتلونه وينقضون هيكل جسده الذى سيقيمه حيا من الموت بعد ثلاثة أيام . لكن شاهدى الزور حرّفا المعنى بأنه كان يقصد هيكل أورشليم . فقد قال :

ـــ انقضوا هذا الهيكل !

ولم يقل كما ادعى الشاهدان :

إنى أستطيع أن أهدم هيكل الله .

كما قال :

ـــ وفى ثلاثة أيام أقيمه .

وليس كما كذب الشاهدان :

ـــ وفى ثلاثة أيام أبنيه .

ذلك أن إقامة هيكل الجسد المقدس غير بناء هيكل أورشليم الحجرى . لكن ما وقع وقع كى يتم المكتوب فى المزامير :

قام على شهود زور

وفى سفر هوشع :

ـــ أنا أفديهم وهم يتكلمون علىّ بكذب .

وفى سفر إشعياء عندما صمت يسوع ولم يرد :

ـــ كشاة تساق إلى الذبح ، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه .

وتوالى تحقيق النبوءات التى وردت فى سفر إشعياء :

ـــ وجهى لم أستر عن العار والبصق . بذلت خدى للناتفين . ونبوءات إرميا :

ـــ يعطى خده لضاربيه . يَشْبَعُ عاراً .

ونبوءة ميخا :

ـــ يضربون قاضى إسرائيل بقضيب على خده .

لكن برغم كل هذا التآمر المسعور للتخلص من يسوع بمجرد القبض عليه ، فإن كل الخطوات التى تمت لم تدل إلا على المخطط المفضوح المفتعل دون أية مبررات شرعية أو قانونية ، مما أشعر نيقوديموس ويوسف الرامى ببعض الارتياح لتعاطفهما مع يسوع برغم عضويتهما فى السنهدريم . فلم يكن فى مقدورهما مقاومة هذا الطوفان الجارف من الحقد الأسود والرغبة المحرقة فى الانتقام العاجل ، والذى أحال أعضاء السنهدريم المجتمعين فى بيت قيافا إلى حمم منطلقة من فوهة بركان لا يريد أن يخمد إلا بعد دفن الخصم تحت ركامه .

وبالطبع فإن قيافا وحنّان وباقى الأعضاء كانوا على علم ودراية بعدم شرعية ما قاموا به ، لكن هدفهم كان أساساً مظاهرة تشهير بيسوع حتى تتحطم الهالة التى ارتسمت حوله فى أذهان الجماهير ، وحتى تتهيأ الجماهير لمحاكمته عند بزوغ ضوء النهار ، محاكمة شرعية لكنها صورية إذ أن الحكم قد أصدروه قبل المحاكمة . وسوف يتقبل الجميع حكم الموت عليه ببساطة بل وبترحيب بعد حملة التشهير المقصودة والتى أظهرته على حد قول يسوع نفسه :

ـــ كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى . إذ كنت معكم كل يوم فى الهيكل لم تمدوا علىّ الأيادى . ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة .

وأدرك الجميع أن هاوية الموت قد فتحت فاها لا بتلاع يسوع ، وأن الزمن قد دار دورته ولن يعود لحظة إلى الوراء ، وأن الطوفان الذى تدفق من بستان جثسيمانى لن تتوقف أمواجه الجارفة المتلاطمة إلا بعد أن يطوى ويطفىء شعلته المتوهجة .

أما يهوذا الإسخريوطى الذى كان يتسقط الأنباء خارج بيت قيافا فقد طاش

صوابه عندما تأكد من أنه أسلم يسوع بيديه إلى الموت . زالت الغشاوة من على عينيه اللتين لمحتا فى ومضة خاطفة بشاعة جرمه ، وانهيار طموحاته التى أقامها على أوهام خادعة ، وسعيه إلى حتفه الرهيب بظلفه الوحشى الأسود . فسار مترنحاً يهذى بكلمات مبتورة وسط الحشود التى أحاطت بالبيت ، ثم جن جنونه وهو يرى الجند والخدم يسوقون يسوع الموثق اليدين من القاعة على الدرجات الرخامية إلى حيث يلقون به فى حظيرة خلف البيت فى ركن قصى فى الحديقة ، ومحاطة بسور حجرى سميك مرتفع ، ثم يوصدون الباب ويتراصون أمامه وحول جدران الحظيرة التى أصبحت سجناً ليسوع حتى بزوغ نور الفجر .

لم يعد هناك موطئاً لقدم فى الحديقة التى اختنقت زهورها تحت أقدام الرعاع والغوغاء ، وأنَّ العشب دون أن يسمع أنينه أحد . لم يعد أحد يشعر بالبرد بعد أن سرت المشاعر المضرمة فى عروق الجميع ، وانشغلت الأفواه بالثرثرة الصاخبة ، والعيون بالتركيز على باب الحظيرة التى فتحوا فاها لابتلاع يسوع . لكن الشىء الذى أذهل المحيطين بها ، وأقلق رؤساء الكهنة والشيوخ الساهرين فى القاعة المضيئة يتشاورون ويخططون ، أن الحظيرة المظلمة المهجورة ذات الروائح التى تعافها الأنوف ، قد تدثرت بهالة من ضياء فضى امتزج بعبق كالمسك . ملأ الضياء العيون الجاحظة الحائرة وتسلل المسك عبر الأنوف المتخمة بروائح الحظيرة والأنفاس اللاهثة ، فأحصى رؤساء الكهنة والشيوخ اللحظات والثوانى ، واحترقوا لهفة لنهاية الليلة الليلاء ولبزوغ نور الفجر الذى بدا بعيداً .

(٤٨)

جثا يسوع على ركبتيه فى ظلام الحظيرة الذى تلاشى أمام ضياء وجهه وهو يصلى متضرعاً فى صمت صوب السماء التى فتحت أبوابها لتهبط منها مواكب الملائكة التى ترنمت بمزمور حزين امتزج بكلمات يسوع الصامتة :

ــ لا تتباعد عنى ، لأنَّه لا مُعين . أحاطت بى ثيرانٌ كثيرة . فغروا علَّى أفواههم كأسد مفترس مزمجر . كالماء انسكبْتُ . انفصلت كلُّ عظامى . صار قلبى كالشمع . قد ذاب فى وسط أمعائى . يبست مثل شقفة قوتى ولصق لسانى بحنكى ، وإلى تراب الموت تضعنى ، لأنه قد أحاطت بى كلاب . جماعةٌ من الأشرار اكتفتنى . ثقبوا يدىَّ ورجلىَّ . أُحصى كلَّ عظامى وهم ينظرون ويتفرَّسون فىَّ . أما أنت يارب فلا تبعد . ياقوتى أسرع إلى نصرتى . خلّصنى من فم الأسد ومن قرون بقرِ الوحشِ . استجب لى .

هكذا ظل يسوع جاثيا فى صلاته واتصاله بالآب حتى بزغ نور الفجر من الفتحة الكامنة أعلى الجدار ، وإذ بالمزلاج يفتح من الخارج فى عنف ويدخل الجند ليرفعوا يسوع على ساقيه ثم يسوقونه إلى الخارج فى طريقهم إلى مجمع السنهدريم حيث هرع جميع الأعضاء إليه بقيادة قيافا وحنان ليكونوا فى استقبال المتهم الذى وقع فى أيديهم بعد طول مراوغة ، ولن يهرب هذه المرة إلاّ إلى القبر . وكان الحجاج قد استيقظوا فى خيامهم على ضجيج الموكب فهرعوا إلى الخارج وهم يفركون عيونهم من بقايا النعاس متسائلين ، وعندما جاءتهم الإجابة بأنه يسوع الناصرى فى طريقه لمحاكمته أمام السنهدريم ، هرع معظمهم خلف المسيرة التى ظل طولها يتضاعف حتى أصبحت كالتنين الملتوى فى الطرقات الملتوية حتى الربوة الرابض عليها مجمع السنهدريم بمبناه الرخامى المرمرى الشامخ بأعمدته التى تحاول أن تطاول السماء ، وقد وقفت على مقربة منه عربات رؤساء الكهنة والشيوخ الفاخرة بخيولها المطهمة .

صعدوا بيسوع موثق اليدين على الدرجات الرخامية ليدخلوا القاعة المخصصة فى المجلس للمحاكمات ، وقد عرفت باسم ، القاعة المبلطة « أو » « ليسكات هجازيت » . كانت قاعة بسيطة لكن فاخرة ، فقد كُسيت أرضها ببلاط من رخام أسود لامع يعكس كل المقاعد التى تربع عليها رؤساء الكهنة

والشيوخ والكتبة والفريسيون والصدوقيون والناموسيون والهيرودسيون الذين اتفقت كلمتهم ــ برغم الخلافات العقائدية والسلطوية العديدة بينهم ــ على التخلص من يسوع الناصرى بأسرع ما يمكن وقبل أن تضيع اللحظة التى أصبحت مواتية أخيراً ، وذلك بعد أن أثبتت الليلة الماضية أن الهالة المحيطة به لم تعد كما كانت فى نظر اليهود الذين طالما لهثوا وراءه ، والذين خابت أحلامهم الآن فى المملكة العظيمة التى ظنوا أنه جاء ليقيم دعائمها ، فأصبح عندهم مجرد نبى أو شاب يردد كلمات لا تشبع ولا تروى ، وإهانات لا تتوقف إلى سادته من الكتبة والفريسيين والصدوقيين .

كان مجلس السنهدريم قد اجتمع بكامل هيئته فى تلك الساعة المبكرة من فجر يوم الجمعة السابع من نيسان عام ٢٩ بعد الميلاد . وكانت علامات التصميم المسعور قد حفرت خطوطاً غائرة فى محياهم باستثناء نيقوديموس ويوسف الرامى اللذين لم يريا فى يسوع سوى نبى بار بعشيرته ، جاء إليهم بتعاليم أرقى وأسمى من تلك التى يطبقها المجلس . ولذلك فقد حاولا فى المشاورات التى جرت فى بيت قيافا حتى مطلع الفجر رد التهم الموجهة إلى يسوع بقدر الإمكان . فعندما تشاوروا فى توجيه تهمة نقض السبت إليه وعقوبتها فى الشريعة الرجم ، دافع نيقوديموس عن يسوع بحجة أنه نقض السبت بمعجزات الشفاء التى بهرت الشعب ودفعته إلى الإيمان به . وعندما اتهمه الجناح الفريسى من المجلس برفض التقاليد والوصايا الشفهية التى ابتدعها زعماء الفريسيين واتبعوها ، دافع عنه يوسف الرامى ــ مستغلاً فى دفاعه أن قيافا نفسه كان صدوقيا ــ بحجة أن الصدوقيين أنفسهم كانوا يرفضون تلك التقاليد والوصايا الفريسية . وعندما اتهموه بأنه اقتحم الهيكل مدعياً لنفسه السلطان عليه والحق الإلهى فى أن يطرد من فنائه الصيارفة وباعة الثيران والحمام ، متهما الكهنة وأتباعهم بأنهم جعلوا منه مغارة لصوص ، دافع عنه نيقوديموس بأن الذى فعله فى الهيكل لقى كل الرضا والتأييد من الشعب وإن كان قد أثار سخط الكهنة عليه . وعندما اتهمه البعض منهم بأن له تعاليم خفية تخالف الشريعة وتناهض السلطة الرومانية ، دافع عنه يوسف الرامى بأن تعاليمه كانت علنية ، نادى بها فى المجامع والميادين والأسواق والشوارع والأزقة والحدائق والحقول بل وفى الهيكل نفسه كما فعل فى الأيام الأخيرة على وجه التحديد .

ولذلك لم يجدوا فى جعبتهم الطافحة بالحقد الأسود سوى تهمة التجديف على الله حتى يتمكنوا من قتله الذى كان هدفهم الأساسى والنهائى ، وذلك بناء على إدعائه أو اعترافه فى الليلة المنصرمة بأنه المسيح ابن الله أمام كل أعضاء المجمع الذين كانوا شهودا على ذلك . وكانت عقوبة هذه التهمة التى لا جدال حولها : الموت . ولم يكتفوا باعترافه بجريمته فى تلك الليلة الليلاء ، بل أرادوه أن يكرره مرة أخرى فى جلسة المحكمة التى انعقدت قانوناً وشرعاً هذه المرة ، وسأله معظمهم فى صوت واحد وكأنهم جوقة تردد نفس النغمة :

ـــ أأنت المسيح ؟! قل لنا !

فأجابهم بنفس الهدوء والوداعة :

ـــ إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تجيبونى منذ الآن يكون ابن الإنسان جالساً عن يمين قوة الله !

تساءلوا جميعاً فى خبث مقيت على سبيل التأكد :

ـــ أفانت إذن ابن الله ؟!

أجاب بنبرات قوية ولكن هامسة :

ـــ نعم أنا هو كقولكم !

استرخوا فى مقاعدهم الوثيرة متسائلين فى ارتياح بالغ :

ـــ ما حاجتنا بعد إلى شهادة شهود ؟! فإننا بأنفسنا قد سمعنا من فمه هو !

هكذا اكتملت كل المظاهر القانونية والإجراءات الشرعية للمحاكمة ، وبذلك يصبح حكم الموت حكماً واجباً وعادلاً ومطابقاً للشريعة . أى أنه حكم نهائى ، لكن العقبة الوحيدة التى لا تزال متبقية فى طريقهم كانت تتمثل فى أنه لا يمكن تنفيذ حكم الموت إلا بعد تصديق الوالى الرومانى عليه ، ومع ذلك كان اليقين يملأ نفوسهم بأنه لن يعترض على الحكم لأنه يتعلق بأمر دينى بحت ، فقد جرت العادة بعدم تعرض الرومان لليهود فى الأمور التى تتعلق بدياناتهم طالما أنها لا تمس السلطة الرومانية . ولذلك نهض قيافا والثقة بالنفس تنضح على نبرات صوته الجهورى :

ـــ أوثقوا المتهم الذى ثبتت جريمته ليقاد ويسلم إلى الوالى الرومانى بيلاطس البنطى والى ولاية اليهودية !

وكان بيلاطس البنطى يرقب الموقف عن بعد دون تدخل ، خاصة وأن زميله يوليوس ستاوس والى الجليل كان قد أرسل رسالة إلى المحفل الرومانى فى روما يقدم فيها تقريراً عن النتائج السياسية والأمنية المترتبة على الدعوة التى يتادى بها يسوع الناصرى بين جموع الشعب ، وقد وجد بيلاطس أن رسالة ستاوس تعبر عن موقفه أيضاً حين يقول فيها :

ـــ أيها القيصر امبراطور روما

بلغنى أيها الملك قيصر أنك ترغب فى معرفة ما أنا أخبرك به الآن . فاعلم أنه يوجد فى وقتنا هذا رجل سائر بالفضيلة العظمى يدعى يسوع والشعب متخذة بمنزلة نبى الفضيلة ، وتلامذته يقولون إنه ابن الله خالق السموات والأرض ، وبهما وجد ويوجد فيهما . فبالحقيقة أيها الملك إنه يومياً يُسمع عن يسوع هذا أشياء غريبة . فيقيم الموتى ويشفى المرضى بكلمة واحدة ، وهو إنسان معتدل القوام وسيم الوجه له إطلالة مهيبة حتى إن من نظر إليه يلتزم أن يحبه ويخافه . وشعره بغاية الاستواء مسترسل على أذنيه ووجهه بغير تجعيد بأنف معتدل وفم بلا عيب . وأما منظره فهو رائق ومستو وعيناه كأشعة الشمس ولا يمكن لإنسان أن يحدق النظر فى وجهه نظراً لطلعة ضيائه . فحينما يوبخ يرهب ، ومتى أرشد أبكى ، ويجتذب الناس إلى محبته . تراه فرحاً وقد قيل عنه أنه ما شوهد قط ضاحكاً بل بالحرى باكياً . فاذا كنت ترغب ياقيصر أن تشاهده اعلمنى وأنا أرسله إليك حالاً من دون إبطاء ، ثم إنه من جهة العلوم أذهل مدينة أورشليم بأسرها لأنه يفهم كافة العلوم بدون أن يدرس شيئاً منها البتة . وقيل إنه لم يسمع قط عن مثل هذا الإنسان فى التخوم . وبالحقيقة كما تأكدت من العبرانيين أنه ما سُمع قط روايات علمية كمثل ما نعلم عن يسوع هذا . وكثيرون من علماء اليهود يعتبرونه إلها ويعتقدون به ، وكثيرون غيرهم يبغضونه ويقولون إنه مضاد لشرائع جلالتك . فترانى قلقاً من هؤلاء العبرانيين الأردياء . ويقال إنه ما أحزن أحداً قط بل العكس يخبر عنه أولئك الذين عرفوه واختبروه أنهم حصلوا منه على إنعامات كلية وصحة تامة . وإنى بكليتى ممتثل لطاعتك ولإتمام أوامر عظمتك وجلالتك

يوليوس ستاوس
والى ولاية الجليل

وكان بيلاطس البنطى والى اليهودية يشارك زميله يوليوس ستاوس احتقاره للعبرانيين واشمئزازه منهم ، ويدرك تماماً مناوراتهم الخبيثة لإقحام السلطة الرومانية وتوريطها معهم للإنتقام من يسوع الناصرى . ولذلك لم يعبأ قيصر روما بالضجيج الأجوف الذى أثاروه ، وواصل يسوع التبشير برسالته حتى قبضوا عليه فى الليلة المنصرمة فى بستان جثسيمانى وها هم الآن يعيدون الكرة بعد محاكمته ثلاث مرات فى ليلة واحدة : فى بيت حنَّان ثم فى بيت قيافا ثم فى مجمع السنهدريم ، كى يحصلوا من الوالى الرومانى بيلاطس البنطى على تصديقه على حكم الموت على يسوع الناصرى . ولذلك أوثقوا يسوع وساقوه إلى بيلاطس لتسليمه .

فى مقدمة الموكب إلى قصر بيلاطس بدأ وجه إنسان مخبول ، شاحب ، زائغ النظرات ، أشعثُ الشعر ، أغبر اللحية وهو ينازع جند الهيكل ، ويصرخ كعواء الذئاب فى وجوه الكهنة ، وهو يلقى بالثلاثين فضة على أرض الهيكل أمام أقدامهم مولولا :

ــ قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً !!

نظروا إليه فى احتقار ممزوج بدهشة :

ــ ماذا علينا ؟ أنت أبصر .

لم يجد ما يقوله بل خرج مترنحاً لا يلوى على شىء حتى بلغ شجرة ضخمة ضاربة جذورها فوق أحد التلال القريبة من أسوار المدينة . وقف تحتها ينظر إليها وهو ينتفض ويرغى ويزبد كمن به مس من الشيطان ، وعيناه الحمراوان تكادان تخرجان من محجريهما . وبلا تردد خلع رداءه ومزقه إربا ثم ومضت نظراته ببريق مخيف إذ وجد شريطاً من الرداء يصلح كى يكون حبلاً ، فجدله له وألقى به عالياً ليلتف حول أحد فروعها الغليظة ثم أتى بحجر ليضعه تحت قدميه وقف على الحجر ولف الحبل حول عنقه بإحكام ، وفى طرفة عين أزاح بقدمه اليسرى الحجر فتعلق من عنقه ، وتدلى لسانه الأحمر القانى من فمه المفتوح ، وجحظت عيناه بحمرة داكنة كالدم ، وهو يتأرجح يمنة ويسرة حتى

أحشاءها على الحجر فلوثته بدمائها اللزجة .

أما رؤساء الكهنة فكعادتهم لم يهتموا إلا بالإجراءات الشكلية . فأخذوا قطع الفضة قائلين :

ـــ لا يحل أن نضعها فى خزانة الهيكل لأنها ثمن دم !

وسرعان ما تشاوروا فيما بينهم ليقرروا شراء حقل الفخارى بها ليكون مقبرة للغرباء وهو الذى سمى منذ ذلك الحين بحقل الدم ، وليتم ما قيل بفم إرميا النبى القائل :

ـــ وأخذوا الثلاثين من الفضة ثمن الْمُثمَّن الذى ثمنوه من بنى إسرائيل ، ودفعوها عن حقل الفخارى كما أمرنى الربُّ .

هكذا اعترف رؤساء الكهنة بأنهم أخذوا الثلاثين فضة من خزانة الهيكل ليدفعوها أجرة قتل ، وبذلك أصبحت نجسة لا يجوز إيداعها فى الخزانة المقدسة مرة أخرى . ولم يعبأ أحدهم بأن إخراجها من الخزانة بهذا الهدف لا يقل نجاسة عن إعادتها إليها . لكنهم بمجرد أن حققوا هدفهم لبسوا مسوح الطهر والقداسة ، وتشاوروا ليتظاهروا بحبهم للبر والخير للفقراء والغرباء فقرروا استغلال الفضة الملوثة بالدم فى شراء مقبرة لمعتنقى الديانة اليهودية من الأمم الأخرى الذين يتصادف موتهم فى أورشليم أثناء حجهم إليها أو زيارتهم لها . فقد كانوا يعتبرون الأجانب الذين يعتنقون اليهودية أقل منهم طهارة ، ولذلك يتحتم عليهم ألا يخالطونهم حتى بعد موتهم . كانوا فى نظر أنفسهم من طينة غير طينة البشر ، وكانوا مستمتعين بهذه العقيدة الراسخة وحريصين عليها حرصهم على المال والحياة . ولذلك كان لابد لهم أن يقضوا على يسوع قضاء مبرما لأنه جاء بدين الحب والمساواة لكل البشر ولجميع الأمم .

سار يسوع حافياً وسط صخب الرعاع ، موثق الأيدى من الخلف بحبل خشن يلف عنقه أيضاً كعتاة المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام . كانت مظاهرة تؤكد لكل من آمن بيسوع ومعجزاته ، أنه كان يعيش فى وهم كبير . فها هو الذى ادعى أنه ابن الله يسير بقدميه إلى الموت لارتكابه جريمة التجديف على الله ، ولا يستطيع لنفسه فكاكاً ؟! فأين هى الألوهية ؟! وأين هى الآيات والأعاجيب والمعجزات ؟!

كان رؤساء الكهنة والشيوخ يقودون المظاهرة وفى مقدمتهم رئيس الكهنة قيافا وقد انتفخت أوداجهم بنشوة الانتصار على من ظن فى نفسه القدرة يوماً أن يقهرهم وهم حماة الشريعة وحراس الناموس . وكانوا من حين لآخر يمتعون أبصارهم بالنظر إلى يسوع وهو يكاد يسقط على وجهه بسبب الأيدى التى كانت تمتد لتدفعه من الخلف إلى الأمام برغبة التشفى الحارقة ، فى حين ترك الحبل الخشن حول اليدين والعنق خطوطاً غائرة من الحمرة الدامية . أما الجند والخدم والعبيد والغوغاء والرعاع والدهماء والسوقة فقد امتدت مسيرتهم على مرأى من أهالى المدينة وعلى طول الطريق المؤدية من قاعة المحكمة بالسنهدريم المتاخم للهيكل إلى القنطرة الممتدة فوق وادى يتروبيون ، ومنها إلى قصر الولاية الفاخر الضخم بأسواره الشامخة ، والذى كان هيرودس الكبير قد شيده على التل الرابض جنوب غربى الهيكل كى يظهر للامبراطورية الرومانية مدى إخلاصه لها وترحيبه بالوالى الذى يمثلها فى اليهودية .

تعمد رؤساء الكهنة والشيوخ افتعال هذه المظاهرة الصاخبة الضخمة التى ضمت قادة اليهود وزعماءهم وجمهوراً كبيراً يمثل مختلف طبقات الشعب حتى يرهبوا الوالى الرومانى بيلاطس البنطى عندما تقع عيناه على هذا الجيش العرمرم الزاحف نحوه فيرضخ للحكم الذى أصدروه على يسوع ويصدق عليه دون جدل أو تردد . وكانوا قد بلغوا قصر الولاية فى ساعة مبكرة فى الصباح لا تتعدى السابعة ، بهدف إيقاظ بيلاطس من النوم حتى يشعر أن الأمر جد خطير ولا يحتمل التأجيل ساعة أو ساعتين . لكنهم توقفوا خارج القصر لأن بيلاطس كان وثنياً ، واليهود لا يدخلون بيوت الوثنيين كى لا يتنجسوا ، فخرج إليهم

بيلاطس وهو يكاد ينفجر من الحنق والضيق من هؤلاء اليهود المعاندين الذين سببوا له المتاعب من قبل أكثر من مرة ، والذين يزدرى تعصبهم الدينى وأفقهم الضيق الذى لا يتمشى مع عقليته الرومانية المنطقية الرحبة العقلانية المرنة . ولكن كانت لديه تعليمات مشددة من روما تحظر عليه الاحتكاك بهم وإثارة مشاعرهم دون داع . كما أنه فى القانون الرومانى إدعاء عام من قبل الدولة ، بل كان على الأفراد إقامة الدعوى لتحريك القانون . وعلى هذا الأساس القانونى كان أعضاء مجمع السنهدريم اليهودى بمثابة مدعين لإقامة الاتهام . لكن العدالة كانت متوقعة دائماً فى ساحة القضاء الرومانى إلا إذا كانت هناك اعتبارات سياسية لا يمكن التغاضى عنها . وكان من تقاليدهم العريقة رعاية صالح المتهم والحرص على كافة حقوقه سواء فى حالة براءته أو تجريمه .

خرج إليهم بيلاطس فى شرفة القصر المرمرية أمام سورها المتدثر بجدائل الزهور الحمراء والبيضاء والصفراء ، وهو لا يزال يرتدى رداء أبيض إذ يبدو أن الوقت لم يتسع له لارتداء بذته العسكرية . سألهم والضيق والضجر يأخذان منه كل مأخذ :

ـــ أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان ؟!

أجابوا بصوت واحد بقيادة قيافا :

ـــ لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك !

قال بيلاطس بلهجة عسكرية كأنه يصدر الأوامر لجنده :

ـــ خذوه أنتم واحكموا عليه حسب شريعتكم !

كانت إجاباتهم جاهزة حاسمة :

ـــ لا يجوز لنا أن نقتل أحداً !

لكنهم وجدوا بيلاطس يرغى ويزيد لأنه أدرك أبعاد مؤامرتهم ، وبالتالى فمن المحتمل ألا يقتنع بتهمة التجديف التى أرادوا بها الحكم عليه بالموت ، إذ أنها تهمة دينية بحتة وتخص شريعتهم ، ولا تقع تحت طائل القانون الرومانى الذى هو قانون وثنى أصلاً . عندئذ تبادلوا نظرات ذات مغزى ، ثم وجه قيافا كلامه إلى بيلاطس :

ــ إننا وجدنا أن هذا يفسد الأمة ، ويقول بالإمتناع عن أداء الجزية لقيصر ، مدعياً أنه هو المسيح الملك !

صاغوا هذه التهمة السياسية بهدف الضرب على الأوتار الحساسة المشدودة داخل بيلاطس ، وتوريط الرومان فى مسئولية قتل يسوع حتى يأمنوا شر انقلاب الشعب عليهم إذا تعاطف معه ، وإرواء غليلهم من يسوع لأن الرومان لن يقتلوه بطريقة الرجم أو الشنق اليهودية وإنما بالطريقة الرومانية بتعليقه على خشبة الصليب ، لأن المعلق على خشبة يعتبر فى الشريعة اليهودية ملعوناً من الله . فهى عقوبة تنضوى على أبشع ألوان التنكيل والتعذيب ، وأقبح صور الهوان والذل والعار . ومن تنفذ فيه هذه العقوبة تصبح ذكراه بعد موته عبرة لمن لا يعتبر .

لم يكن بيلاطس البنطى السياسى الداهية والقائد المحنك بالسذاجة التى تصورها عنه اليهود . لقد تعلم فى صباه فى روما الفلسفة والمنطق قبل أن يلتحق بالمدرسة العسكرية . ولذلك لم تنطل عليه المظاهرة اليهودية المفتعلة الجوفاء وهو يتأمل ذلك الشاب الوسيم ، الوديع ، الهادىء الذى يشع نبلاً وسمواً وصفاءً وبراءةً ، فى حين ينضح المحيطون به حقداً وضغينة وقسوة ووحشية للقضاء عليه دون أى دليل عقلانى أو منطقى ، أو حجة أو وثيقة مكتوبة ، أو شهادة عادلة واحدة . لذلك قرر بيلاطس أن يتولى التحقيق بنفسه بعيداً عن صيحات الغوغاء وصرخات الرعاع ، فدعا يسوع بمفرده ليدخل القصر ، فأطاع فى الحال ومثل أمامه فى قاعة داخلية ذات أعمدة مرمرية مصقولة . سأله بيلاطس عما يهم القيادة العليا فى روما :

ــ أنت ملك اليهود ؟!

لأنه إذا اعترف بذلك فهو زعيمهم القادر على تحريضهم ضد الرومان ، ورفض دفع الجزية لهم . فى هذه المرة لم يقل يسوع لبيلاطس اعط ما لقيصر لقيصر وانما قال بمنتهى الوضوح :

ــ نعم أنا هو كقولك !

انتفض بيلاطس واقفاً أمام مائدته الرخامية السوداء ، لكن يسوع لم يهتز واستطرد قائلاً :

ـــ مملكتى ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم إلى اليهود . ولكن الآن ليست مملكتى من هنا .

أعاد بيلاطس تأكيد سؤاله بعد أن هدأت نفسه :

ـــ أفانت إذاً ملكٌ ؟!

خرجت نبرات يسوع بنفس الصفاء الإلهى :

ـــ أنت تقول إنى ملك . لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق . كل من هو من الحق يسمع صوتى .

سأله بيلاطس دون أن ينتظر إجابة :

ـــ ما هو الحق ؟!

فقد خشى بيلاطس أن يدخل فى جدل قد يهزمه فيه هذا الشاب العجيب ، كما تأكد من براءته ونقائه ، فخرج فى الحال إلى الشرفة حيث كان الضباب المبكر قد انقشع أمام خيوط الشمس الذهبية ، وأعلن على الملأ :

ـــ أنا لست أجد فيه علة واحدة !

ذهلوا ، صمتوا ، فغروا أفواههم ، زاغت نظراتهم ، ثم هاجوا وماجوا ، وصاحوا وصرخوا ، ولوحوا بقبضات أيديهم ودقوا الأرض بأقدامهم :

إنه يهيج الشعب ويعلم فى كل اليهودية ابتداء من الجليل إلى هنا .

لم يكونوا فى نظر بيلاطس البنطى سوى طغمة من الرعاع والسوقة والغوغاء والدهماء المعتزين بجهلهم وضيق أفقهم وحماقة خرافاتهم . تحول الضيق والحنق عنده إلى إحساس جارف بالاشمئزاز والغثيان ، ورغبة شديدة فى التخلص منهم بأسرع ما يمكن ، إذ أن مجرد النظر إليهم وسماع صياحهم المنكر كاد أن يصيبه بالإختناق . وواتته الفرصة عندما سمعهم يذكرون الجليل ، وكانت تقارير الأمن الواردة إليه من عيونه ورجاله فى الأيام الأخيرة قد نقلت إليه خبر قدوم هيرودس ملك الجليل إلى أورشليم لحضور الفصح ونزوله ضيفا على قصر أخيه أرخيلاوس . فى الحال سألهم بيلاطس :

ـــ هل هو من الجليل ؟!

صاحوا فى أنفاس متلاحقة :

ــ هو كذلك .. إنه تابع لولاية الملك هيرودس !

حسم بيلاطس الموضوع بلهجته العسكرية الصارمة :

ــ خذوه إلى هيرودس ..فهو فى قصر أخيه أرخيلاوس هنا فى هذه الأيام .

نطق بيلاطس اسم هيرودس وقد بلغ به إحساس الغثيان أقصاه . فقد كان يمقت من صميم قلبه هذا الملك الهمجى الذى لا يعرف فى هذه الدنيا سوى إشباع غرائزه الحيوانية وشطحاته الوحشية التى لا تعرف لنفسها حدوداً . كان لمذاق الخمر والدم فى فمه سحر لا يقاوم ، فهو أقرب إخوته إلى أبيه هيرودس الكبير فى عشقه لسفك الدماء ، وإذا كانت الحلقات قد ضاقت واستحكمت حول هذا النبى الشاب ، الوديع ، الهادىء ، الوسيم ؛ ولم يعد له مفر منها ، فلتكن نهايته على يدى هيرودس الذى لن يعبأ باضافة اسم جديد إلى قائمة الذين سفك دماءهم من قبل . أما بيلاطس فقد تمنى فى قلبه أن يطلق سراح هذا الشاب المبهر لولا تلك الذئاب المسعورة التى يسيل لعابها لدمه البرىء ، والتى يمكن أن تسبب له من المتاعب ما لم يمكن أن يتنبأ به .

التفت بيلاطس خلفه كى يأمر الحارس بتسليم يسوع إلى أيدى اليهود مرة أخرى ، لكنه لم يجده فى القاعة . ذهل ثم ذهل أكثر عندما وجد يسوع يهبط من تلقاء نفسه على الدرجات الرخامية الباردة المبللة بقطرات الندى تحت قدميه الحافيتين فى استسلام عجيب للأيدى والأذرع والأظافر السوداء الطويلة التى امتدت كالمخالب لتنهشه وتدسه بينهم كأنه صيد ثمين لا يمكن التفريط فيه أبداً .

لم يحتمل بيلاطس المنظر وهو القائد العسكرى الذى اعتاد أهوال الحرب وفظائعها فاستدار لتبتلعه فوهة القصر ، فإذ بزوجته وقد استيقظت وهى ترمقه بعينين زائغتين ترك فيهما النعاس مكانه لقلق غريب لم يعهده بيلاطس فى زوجته من قبل . سألها فى حنو بالغ :

ــ هل هناك ما يزعجك ؟!

ــ استمعت إلى كل الحوار الدائر .. لابد أن يقف هؤلاء الهمج عند حدهم !

ـــ هل تعاطفت معه مثلى ؟!

ـــ وأكثر !

ابتسم فى أسى وهو يلم أطراف ردائه الأبيض اللامع :

ـــ نجح هؤلاء الرعاع فى تعقيد الموقف .. وإذا سارت الأمور على ما هى عليه فلابد أن يلقى هذا البرىء حتفه !

لم تجب زوجته وإنما ترقرقت دمعة حائرة فى عينيها المتألقتين بوميض الأسى الدفين .

(٥٠)

استيقظ هيرودس على يد تهز كتفه وهو غارق فى فراشه المخملى الناعم الوثير . فتح عينيه نصف فتحة ليجد أخاه أرخيلاوس ينظر إليه مبتسماً . جلس فى فراشه وهو يفرك عينيه قائلاً :

ــ كانت خمر الليلة الماضية شهية لكن ثقيلة .. جعلتنى أنام فى براءة كطفل حديث الولادة .

انفجر هيرودس ضاحكاً وشاركه أخوه . لكن سرعان ما أدار هيرودس رأسه فى الغرفة وهو يستعيد حواسه كاملة ليصل إلى مسامعه صوت ضجيج صاخب قادم من خارج القصر . عبر عن دهشته متسائلاً :

ــ ما هذا الذى يجرى خارج القصر ؟!

ــ أخيراً تمكن رؤساء الكهنة والشيوخ من القبض على يسوع الناصرى وإحضاره إليك لمحاكمته !

طفحت حمرة الدهشة لتمتزج بحمرة الخمر على وجنتى هيرودس :

ــ إحضاره لى أنا لمحاكمته ؟!

ــ بصفته من أهالى الجليل !

ــ لكنه الآن يعيش فى اليهودية !

ــ لقد بذلنا أقصى ما فى وسعنا لنقبض عليه .. فلا تضيع الفرصة فنضيع معها .. إنها أوامر بيلاطس البنطى الذى رأى أنك أحق الملوك لمحاكمته !

ابتسم هيرودس بنظرات كالثعلب :

ــ لم أكن أعرف أن بيلاطس يكن لى كل هذا الود ؟! لماذا إذن كان كل هذا العداء بيننا ؟!

ــ ليس هذا وقت الثرثرة .. هيا بنا لنحسم الأمر .

أنزل هيرودس ساقيه من الفراش ليضعهما فى خفهما :

ـــ وأنا أكاد أموت اشتياقاً لرؤية هذا الشاب العجيب الذى تجرأ وأسمانى ثعلباً على مسمع من الجميع !

نهض هيرودس واقفاً ليرتدى عباءة حمراء على ردائه الأبيض وهو يضيف لأخيه وقد بدا عليه بعض التردد الوجل :

ـــ لا أعرف لماذا كان هذا الشاب يذكرنى دائماً بيوحنا المعمدان الذى أمرت بقطع رأسه ؟! لدرجة أننى ظننته يوحنا المعمدان وقد قام من الموت لينتقم منى ؟!

علق أرخيلاوس فى اقتضاب وهما فى طريقهما إلى شرفة القصر حيث تجمع فى حديقته رؤساء الكهنة والشيوخ والرعاع حول يسوع :

ـــ كنت على حق يوم أخبرتنى بخوفك من أن ينادى بنفسه ملكاً على الجليل بدلاً منك .. فشعبيته جارفة وكاسحة .. وعندما انتقل ليعيش فى اليهودية تذكرت كلماتك بعد أن ذهب الجميع وراءه .. وألقيت المسئولية كاملة على كاهل رؤساء الكهنة والشيوخ .. فقد حرص يسوع الناصرى على جعل قضيته دينية تماماً .. وها هم قد فازوا به أخيراً وعليك أن تكمل ما بدأوه .

خرجا إلى الشرفة وإذ بهيرودس يستسلم لإحساس كالنشوة عندما رأى يسوع محاطاً بصائديه . فقد كان يتوق لأن يراه من بعيد ، بسبب ما كان يسمعه عنه . وكان يود أن يرى إحدى العجائب التى تجرى على يديه . سأله بصوت عال .

ـــ ألا ترينا إحدى عجائبك ؟! فأنا لا أصدق شيئاً إلا إذا رأيته بعينى رأسى !

كان وميض عينى يسوع مهيباً مخيفاً عندما امتزج بصمته المطبق . تجنب هيرودس النظر إليه وهو فى ذهول من القوة الغامضة الخفية المشعة . قطع هيرودس السكون الذى عشش على رؤوس الجميع :

ـــ لم يحدث أن خاطب ملك أحداً دون أن يرد عليه !

صمت مرة أخرى لعله يسمع ما ينقذه من حرجه أمام الجموع ، لكن يسوع ظل على صمته الرهيب . شعر هيرودس بقطرات عرق بارد تنضح على

جبهته وتحت ردائه برغم برودة الجو . نظر إلى يسوع بعينى ابن آوى وتمنى لو قفز من الشرفة وأمسك بعنقه حتى يزهق روحه . صاح فيه وقد تلاشت كل أبخرة خمر الليلة الماضية :

ــ إلى متى ستظل صامتاً هكذا ؟! أين عجائبك الشهيرة وأنت عاجز عن مجرد الكلام ؟! لابد أنها كانت مجرد أكاذيب وأوهام !

رددت أسوار القصر أصداء كلمات هيرودس الذى عاد إلى الصياح الخانق :

ــ إذا كنت أنت المسيح ابن الله كما تدعى فتكلم ! أما إذا ظللت على صمتك فأنت بصمتك هذا على رؤوس الأشهاد تنكر كل ما ادعيته !

ظن هيرودس أنه وضع يسوع فى مأزق ، ولابد أن يفتح فمه ليعود لتأكيد الحقيقة التى نادى بها فى كل بقاع الجليل واليهودية ، لكنه لم يتلق منه سوى الصمت فى وميض عينيه الخارق . صرخ :

ــ إذا كان المتهم يرفض الكلام فلا يعنى هذا سوى اعترافه بالتهم الموجهة إليه .. فقد أتحنا له فرصة الدفاع عن نفسه .. وطالما أنه أقر كل التهم بصمته .. فقد حان الوقت للإستماع إلى شهادة الشهود .. ففى حضرتنا لابد أن تأخذ العدالة مجراها .

كان هيرودس ينتفض حنقا من الداخل ، فارتعشت ذراعه وهو يمدها لرؤساء الكهنة ليسمح لهم بالإدلاء بأقوالهم . فقد صمم على رد الإهانة إلى يسوع والاستهزاء به ليجعل منه عبرة لكل من تسول له نفسه أن يرفض الرد على أسئلة الملك .

اشرأبت أعناق الرؤساء والشيوخ ، وانتفخت أوداجهم لإطلاق آخر ما فى جعبتهم من سهام مسمومة . صاح قيافا بألفاظ منمقة :

ــ الأجود أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة بأسرها .

وقف اتولومبه على أطراف قدميه ليبدو طويل القامة وهو يتساءل فى دهشة واستنكار :

ــ لماذا كل هذه المدة ولم يحكم عليه بالموت ؟!

التقط سابس الخيط من اتولومبه بنفس الصياح المستنكر :

إن كان باراً أو لم يكن فهو يستحق كأس الموت حيث أنه لم يحفظ شريعة آبائنا .

طفح الرضا على نبرات حنّان :

ــ الشريعة واضحة كالنور والناموس حاد كالسيف .. ولا مفر للمتهم منهما !

علق يورام بصوت حرص على أن يكون واضحاً :

ــ هو العاصى الذى يستحق الموت حسب الشريعة !

رفع باراباس قبضته ملوحاً بها فى الهواء :

ــ حيث أنه هيج الشعب فانه يستحق الموت .. انزعوا منه الحياة .. انزعوه من الدنيا .

أكمل بتراس اللحن الكئيب :

ــ فليطرح فى هاوية الشقاء .

لكن يوشافاط علق بلهجة هادئة رزينة :

ــ فليلق فى السجن !

أضاف ساسبل إلى كلمات يوشافاط :

ــ فلنقاضه حتى فى المستقبل لا يكرز ضدنا .

صاح أتاس وإن حاول بعضهم التشويش عليه :

ــ لا يجب الحكم أبداً على أحد ما لم تسمع أقواله !

تشجع نيقوديموس وإن كانت كلماته مترددة :

ــ إن شريعتنا لا تصرح بالحكم على أحد ما لم تؤخذ أولاً أقواله والأخبار عما فعل .

أمّن يوسف الرامى على هذه الكلمات المنصفة :

ــ إن لم يكن أحد يدافع عن هذا البار فعار علينا !

لم يرتح هيرودس لتحول مجرى الحوار إلى الدفاع عن يسوع الناصرى لكنه آثر الصمت حتى يستمع إلى كل أقوال الشهود ، أما أرخيلاوس الواقف إلى جواره فقد كان واثقاً من الحكم النهائى بإدانة يسوع ، ولذلك تابع الحوار بنظرات راضية وسعيدة بتجنبه الحرج الذى وقع فيه أخوه المتهور المندفع دائماً .
صاح فوطيفار من وسط زملائه :

ــ إن هذا الإنسان بصفته مخادعاً يجب أن ينفى بعيداً عن المدينة !

تساءل روسموفين فى ضيق شديد :

ــ ما فائدة الشريعة إن لم تحفظ ؟!

تصاعد هاريس بالنغمة العدائية الهجومية مرة أخرى :

ــ إن كان باراً أو لم يكن فحيث أنه هيج الشعب بكرازته فهو يستحق العقاب .

لكن ريفاد ردد ما قاله أتاس قبله :

ــ اجعلوه أولاً يعترف بذنبه ومن ثم عاقبوه !

أكد ميزا كلمات ريفاد :

ــ إن كان باراً فلنسمع منه وإن كان مجدفاً فليطرد !

لكن سوباط أكد على أن :

ــ الشرائع لا تحكم على أحد بالموت بدون سبب !

حاول رحبعام أن يحسم الأمر كله فى كلمات مقتضبة صارمة :

ــ نحن لنا شريعة وبموجبها يجب أن يموت !

عاد قيافا ليؤكد ما قاله فى بداية الشهادة كما لو كان يصدر الحكم بنفسه :

ــ الأجدر أن يموت انسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة بأسرها .

اتكأ هيرودس على السور المرمرى ليحسم القضية :

ــ لقد ثبتت عليه تهمة ادعائه أنه الملك المسيح ابن الله .. وسوف نعترف بدورنا أنه ملك حقا وفعلاً !

انتشرت همسات وأصوات مبحوحة بين الجموع كما تنتشر النار فى الهشيم . فلم يفهموا مغزى كلمات هيرودس الذى بدا مبتسماً فى نشوة فظنوه قد خرج عن وعيه ، لكنه صاح فى الخدم الذين تراصوا عند مدخل الشرفة :

ــ فلتحضروا ثوباً لامعاً ثميناً من ثياب الملوك حتى يرتدى ما يليق به .. فالملوك لا يرتدون مثل هذا الرداء الكتانى المتواضع !

ثم انفجر ضاحكاً فى سخرية ففهم الجميع قصده ، فى حين أسرع الخدم إلى الداخل ، وغابوا لحظات ثم عادوا بثوب لامع عكس ضوء الشمس وهبطوا به على درجات الشرفة حتى بلغوا يسوع فى وقفته الصامتة الصامدة بين صائديه ، وألبسوه إياه دون أن يعترض أو ينبس ببنت شفة . ثم توالت اللطمات على وجهه ، والضربات على ظهره وصدره ، واللكمات فى كتفيه ووجنتيه ، والبصاق واللعنات من كل حدب وصوب فى حين كان هيرودس يتابع المشهد متشفياً كالمخمور المنتشى بما يشاهد ، لكن يسوع ظل صامتاً فى جلال ، صامداً كالدهر ، لا يشكو ولا يتذمر مما أطار صواب هيرودس مرة أخرى ؛ إذ لم تفلح كل وسائل الدهاء والعنف والإرهاب فى أن ينطق بكلمة يمكن أن تدينه وتثبت كل ادعاءات الذئاب المسعورة حوله .

شعر هيرودس بعجز مقيت داخله وهو يواجه يسوع ، حتى أوشك أن يعترف داخله أن ما يواصله يسوع الآن من صمود معجز لهو احدى معجزاته . عندئذ قرر أن يتخلص من الموقف الذى تورط فيه وهو الذى ظن أنه سيحسمه فى لحظات . صاح فى الجموع فران الصمت :

ــ فليؤخذ إلى بيلاطس البنطى .. فهو مسئوليته بصفته الوالى الرومانى وممثل الامبراطورية التى تحكم بلادنا كلها .. وهو الوحيد الذى يملك سلطة الحكم عليه بالموت .. هيا بكم .. هيا بكم ..

عادوا أدراجهم فى رحلة هوان جديدة ليسوع عبر طرقات أورشليم إلى قصر الوالى الرومانى بعد أن اختنقت كل أزهار الحديقة الجميلة وذبلت أعشابها النضرة تحت أقدامهم المثقلة بحقد من رصاص .

(٥١)

ــ يبدو أن هيرودس قد حسم الأمر ؟! فقد طالت غيبتهم !

قالها بيلاطس وهو يجلس مع زوجته إلى مائدة الإفطار . كانت شاحبة الوجه ، فاقدة الشهية لكن بيلاطس كان مشغولاً بأحداث اليوم الذى لا يريد أن يمر على خير . تناول كأساً من النبيذ ثم أضاف :

ــ لو كان الأمر بيدى لأطلقت سراحه .. لكنهم يهددونى بخبث شديد ومن طرف خفى بأننى إذا فعلت هذا فسوف يتهموننى أنا نفسى بخيانة قيصر .. لأننى أطلقت سراح رجل متمرد على قيصر .. وأنت تعلمين أن القيصر الحالى طيباريوس رجل لا يعرف للقسوة والشراسة والحماقة والتعطش إلى سفك الدماء حدوداً .. وأية وشاية تبلغه عنى وسط هذه المظاهرة التى رآها كل أهالى أورشليم كفيلة بأن تطيح بمنصبى إذا لم تطح برأسى .

لكن زوجته لم ترد . كانت ساهمة شاردة ونظراتها زائغة لا تستقر على مكان . أخذ بيلاطس تفاحة حمراء لامعة وقدمها إليها لكنها أعادت يده برقة دون أن تفتح فمها فسألها قلقاً :

ــ منذ أن استيقظت وأنت على هذه الحال الشاردة !! هل قضيت ليلة مزعجة ؟!

انتظر إجابتها فى لهفة لكنها ربتت على يده وهى تبتسم فى حزن وضيق ، فحاول أن يفتح شهيتها للحديث :

ــ على كل حال .. حتى لو صدر عليه الحكم بالموت فإن مجلس الشيوخ الرومانى كان قد أصدر قراراً بأن يؤجل تنفيذ حكم الموت مدة لا تقل عن عشرة أيام بعد صدور ذلك الحكم ، عسى أن يظهر فى تلك المهلة دليل جديد على براءته .

نظر إليها فى حنان دافق وهو يراها على وشك أن تفتح فمها لتقول شيئاً ربما كشف عما ينهش وجدانها ، لكنها سرعان ما أغلقت فمها ، وجحظت عيناها ، وارتعشت يدها على طرف المائدة وهى تسمع ضجيج المظاهرة الصاخبة يقترب مرة أخرى من القصر . ابتسم زوجها ابتسامة ساخرة مريرة :

ـــ لا يزال هؤلاء الرعاع يصرون على ألا يمر اليوم بخير ! ولابد أن هيرودس يهدف أيضاً إلى قتل الشاب .. وإلا لما كان قد أرسله إلىّ مرة أخرى ..

نهض سائراً إلى الشرفة وهو يخاطب نفسه :

لم أجد أحداً لا يستحق الموت مثل هذا الشاب .. ولم أجد أحداً اجتمعت عليه الآراء والنوايا لقتله مثل هذا الشاب . هؤلاء الرعاع يلعبون لعبة خطرة لكننى لن أدفع ثمنها !

خرج بيلاطس إلى رؤساء الكهنة والشيوخ والرعاع وقد طفحت على وجهه مشاعر الحنق والضيق والغثيان قائلاً لهم :

ـــ لقد جئتمونى بهذا الرجل كمفسد للشعب ، وها أنذا قد استجوبته أمامكم فلم يثبت لى أى شر مما تتهمونه به ولا ثبت هذا لهيرودس أيضاً ، اذ أعاده إلينا ، فها أنتم ترون أنه ما من شيء يستوجب الموت قد صدر عنه .

ـــ هاجموا وماجوا ، صاحوا وصرخوا ، وراحوا مرة أخرى يوجهون نفس الاتهامات إلى يسوع الذى لزم نفس الصمت الرهيب العجيب ، فلم يستطع بيلاطس أن يمنع نفسه من سؤاله :

ـــ أما تسمع كل هذا الذى يشهدون به عليك ؟!

واصل يسوع صمته المطبق مما أذهل بيلاطس الذى وجد فيه إنساناً يزحف بصمته إلى الموت بدلاً من أن يقاوم زحف الموت إليه . وكان بيلاطس يتمنى أن يعلن براءة يسوع على رؤوس الأشهاد والتى يؤمن بها فى صميم قلبه ، ومثل هذا الحكم من حقه واختصاصه وسلطته ، لكن ماذا يفعل بهؤلاء الأوغاد السفاحين السفاكين ؟!

جلس بيلاطس على مقعده المرمرى ليمنح نفسه فرصة للتفكير وسط الضجيج الصاخب الذى أصبح هديراً ، ثم جاءه مساعده فى بزته العسكرية ليقول له فى أذنه :

ـــ أرسلتنى السيدة الجليلة حرمكم برسالة إلى سعادتكم تقول فيها : إياك وذاك البار ، فإنى توجعت الليلة كثيراً فى الحلم من أجله !

عندئذ أدرك بيلاطس سر شرود زوجته واضطرابها مما حفزه أكثر على أن

يُعمل تفكيره قدر إمكانه فى محاولة يائسة للخروج من هذا المأزق الذى لم يمر بمثله من قبل . عندئذ نهض وكأن فكرة ومضت فى ذهنه كما يومض البرق فى الليلة الظلماء . هبط صخب الهدير انتظاراً لما سينطق به . هداه تفكيره المحموم إلى حل وسط يشفى به غليلهم من يسوع ، وفى الوقت نفسه يؤدى به إلى إطلاق سراحه . فقد كان من عادة الوالى أن يطلق لجماهير الشعب فى كل عيد سراح أى سجين يريدونه . وعندما صمتوا تماماً قال لهم بلهجته الصارمة :

ـــ سأجلده ثم أطلق سراحه .

وكان بيلاطس يعلم الكثير عن سجين معروف يدعى باراباس تم حبسه مع رفاق له من المشاغبين كانوا فى أثناء الشغب قد ارتكبوا جرائم قتل . وكانت ظنون بيلاطس تحوم حول علاقة خفية بين باراباس هذا ورفاقه وبين رؤساء الكهنة الذين كانوا يستخدمونهم فى ارهاب كل من تسول له نفسه معارضتهم ، خاصة وأنه لم يجد اختلافاً كبيراً بين قيافا وعصبيه وبين باراباس وعصابيه سوى أن باراباس كان يقتل لأنه يريد أن يقتل أما قيافا فيريد أن يقتل لأن الشعارات الناموسية والشرائع الدينية تغلف يده الممسكة بالخنجر المسموم بقفاز حريرى ناعم لامع جميل .

ظن بيلاطس أنه إذا وضع الشعب فى مجال المقارنة بين يسوع الوديع الهادىء الوسيم وبين باراباس المجرم السفاح الذى أثار رعب الآمنين ، فلابد أن يخرج يسوع من هذه المقارنة منتصراً . عندئذ صاح فيهم :

ـــ من تريدون أن أطلق لكم سراحه : أباراباس ، أم يسوع الذى يدعى المسيح ؟!

لكن رؤساء الكهنة والشيوخ صاحوا وخلفهم الرعاع صارخين :

ـــ باراباس .. باراباس .

ابتلع بيلاطس غيظه متسائلاً :

ـــ فماذا أفعل إذن بيسوع الذى يدعى المسيح ؟!

صرخوا فى نفس واحد صرخة رجل واحد :

ـــ فليصلب .. فليصلب .

انفجر بيلاطس كمدا :

لماذا ؟ أى شر فعل ؟!

لم يهتموا بتقديم الحجج المقنعة أو غير المقنعة هذه المرة إذ لم يعد لديهم سوى الصياح المجنون والصراخ المسعور :

ـــ أصلبه . أصلبه .

لكن بيلاطس ظل على قناعته أنه لو جلده وأهانه أمامهم مثل أى مجرم فربما شفى غليلهم ، وربما أشفق عليه البعض الآخر عندما يرونه دامى الجسد ، جريح النفس ، فاقد الكرامة ، كسير الفؤاد ، عندئذ لابد أن تندمج الحناجر فى هتاف لإطلاق سراحه .

رفع بيلاطس ذراعه آمراً جنده بجلده . أخذ الجند يسوع وخلفهم الرعاع مهللين إلى إحدى الأشجار الغليظة فى حديقة دار الولاية حيث تجمعت كتيبة بأكملها . كانت نشوة الرعاع لا توصف وهم يضفون على يسوع سمت الملوك . فإذا كان الملوك يرتدون الثياب القرمزية فقد أحضروا له رداء قرمزياً باليا وألبسوه إياه ، وإذا كانوا يضعون التيجان على رؤوسهم ، فقد ضفروا له تاجاً من الشوك ووضعوه على رأسه ، وإذا كانوا يمسكون بالصولجان أو قصبة الملك فى أيديهم فقد جاءوا بقصبة حقيرة من الغاب ووضعوها فى يمينه ، وإذا كانوا يتقبلون ولاء رعاياهم وخضوع أتباعهم ، فقد راحوا يجثون على ركبهم فى عربدة ساخرة ومجون مبتذل أمامه ، ويهزأون به قائلين :

ـــ السلام لك ياملك اليهود ! السلام لك ياملك اليهود !

ثم راحوا يبصقون فى وجهه ، وأخذوا القصبة ليتفرغ الجند لربط يدى يسوع الموثقتين بالحبل الخشن إلى جذع الشجرة ، وهو الحبل الذى غار بحمرته الدامية فى رسغيه وعنقه ، بحيث انكفأ يسوع إلى الأمام . وجاءوا بسوط مجدول من الجلد الغليظ ، ذى أطراف عديدة معقودة على شظايا مسننة من الحديد ، وانهالوا به على جسده المنحنى بضربات ساحقة متلاحقة حتى نفحت الدماء الساخنة بلونها المتوهج تحت الرداء القرمزى الذى مزقته خطوط متعارضة

ومتقابلة بحيث لم تميز العيون الجاحظة المحدقة عما إذا كانت خطوطاً دامية أم خطوط التمزق فى الرداء القرمزى . وعندما تناثرت بقع الدم وقطراته على عشب الحديقة ورداء يسوع الكتانى الأبيض الملقى عند قدميه والذى خلعوه ليلبسوه الرداء القرمزى البالى ، تحولت الضربات إلى الرأس لينغرس شوك الإكليل فى رأسه وجبينه فتسيل قطرات الدماء على غينيه ووجنتيه ، حتى تحققت نبوءة المزمور القائلة : « على ظهرى حرث الحراث . »

كان بيلاطس فى وقفته الكئيبة فى الشرفة يشيح بوجهه بعيداً من حين لآخر تاركا لهم الحبل على الغارب حتى إذا أوسعوه سخرية وهواناً وذلا نزعوا عنه الرداء القرمزى وألبسوه ثوبه الكتانى المرصع بقطرات دمه وعادوا به لمواجهة بيلاطس الذى اعتبر الجلد عقوبة قائمة بذاتها يوهم بها اليهود أنه رضخ لرغبتهم وعاقبه ، على أن يطلق سراحه بعد ذلك لا على أساس ثبوت براءته وإنما على أساس العقوبة التى نفذت فيه ثمناً لإدانته وتكفيراً عن ذنبه .

لكن بيلاطس لم يكن يدرى أنهم اعتبروا الحكم بالجلد مجرد تمهيد للصلب كالعادة . فعندما أوقف يسوع أمامهم ، موثقاً بالحبال ، مثخنا بالجراح ، غارقاً فى الدماء ظنا منه أن غليلهم قد شفى ، وأنه وسط كل هذا العار الدامى لن يجرؤ على أن يدعى مرة أخرى أنه المسيح ابن الله وملك اليهود ، وأن القضية كلها قد حسمت لأنه لن تقوم له قائمة بعد ذلك . أشار بيلاطس بذراعه إلى يسوع المتهالك فى وفضته :

ــ هوذا الإنسان !

وكأنه يقول لهم :

ــ ارأيتم ؟! لم يعد هناك ما تخشونه منه !

لكن صياح رؤساء الكهنة امتزج بصراخ الخدم :

ــ أصلبه أصلبه .

كانت الشمس قد بزغت فى الأفق ، فتجنب بيلاطس ضوءها فى عينيه بكفه على جبينه وقد انفجر صدره كبركان :

ـــ خذوه أنتم وأصلبوه لأنى لست أجد فيه علة !

انطلقت أصوات اليهود من كل أرجاء الحديقة :

ـــ لنا شريعة . وحسب شريعتنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله .

أدرك بيلاطس أنهم يضيقون الخناق عليه هو شخصياً لأن حكم الموت بيده أما الشريعة فبيدهم ، وإذا لم يصدر الحكم فمعنى ذلك أنه يتدخل فى شريعتهم وعقيدتهم ، وهذا ما حرصت السلطات الرومانية على أن تنأى عنه منذ أن بسطت سلطانها على تلك البلاد ، منعاً لإثارة المتاعب والمشكلات .

كانت الأحداث ذات إيقاع لاهث فأراد بيلاطس أن يمنح نفسه فرصة كى يتنفس ويفكر فدخل إلى دار الولاية ومعه يسوع بعيداً عن محيط البشر الهادر فى الحديقة وخارج الأسوار . نظر بيلاطس إلى يسوع فى حيرة قاتلة :

ـــ من أين أنت ؟!

لكن يسوع لم يعطه جواباً ، فعاد بيلاطس إلى تساؤله الملح :

ـــ أما تكلمنى ؟! ألست تعلم أن لى سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك ؟!

أخيراً نطق يسوع بإجابة لم تخطر على بال بيلاطس :

ـــ لم يكن لك علىّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق . لذلك الذى أسلمنى إليك له خطيئة أعظم !

تساءل بيلاطس فى نفسه دون أن يفتح فمه :

ـــ أموت شوقاً كى أطلق سراحه !! لكن كيف ؟! كيف ؟! وهو يصر على لقاء حتفه وكأنه أمنية عمره ؟! إنه لا يمكن أن يكون من سكان هذه الأرض !

لكن بيلاطس خرج من تساؤلاته الصامتة وتأملاته الباطنية على هدير الرعاع فى الخارج وهم يرمون بآخر سهم فى جعبتهم :

ـــ إن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر ! كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر !!

ها هم يلعبون لعبة السياسة القذرة ! لم يتركوا وسيلة إلا واستغلوها بهدف القضاء عليه ففاض الكيل ببيلاطس وأخرج يسوع إليهم ثم جلس على مقعده المرمرى فى الشرفة ليصيح فيهم وقد نفذ صبره :

ـــ هوذا ملككم !

فصرخوا فى صوت هادر لاهث :

خذه . خذه أصلبه .

تساءل بيلاطس فى مرارة :

أأصلب ملككم ؟!

أجاب رؤساء الكهنة هاتفين فى صوت واحد :

ـــ ليس لنا ملك إلا قيصر !

هكذا وصل بيلاطس معهم إلى نهاية المطاف بعد أن نجحوا تماماً فى وضعه أمام الأمر الواقع . فلا يعقل أن يهتفوا بولائهم لقيصر فى حين يقف هو عقبة فى طريقهم ! ولما رأى أنه لا جدوى ، وإنما بالأحرى يزداد الضجيج ، أخذ ماء من على المائدة الصغيرة القريبة منه وغسل يديه أمام الجمع قائلاً :

ـــ أنا برىء من دم هذا البار .. أنتم وشأنكم !

عندئذ صاح الشعب المتجمهر كله فى صوت كقصف الرعد :

ـــ دمه علينا وعلى أبنائنا . دمه علينا وعلى أبنائنا .

حسم بيلاطس الأمر . فإذا كان لابد لهذا الشاب الوديع العجيب أن يكون ضحية لهذه الذئاب المسعورة . فليكن ضحيتهم الوحيدة . فهو كقائد ووال يمثل الامبراطورية الرومانية فى هذه البقعة من بقاع الأرض لن يسمح لنفسه أن يكون ضحيتهم الثانية إذ أنهم لم يتركوا له أية ثغرة لينفذ منها لإنقاذ يسوع ، ولم يتبق له سوى أن ينقذ نفسه ومنصبه ومستقبله . فأمر فى الحال بإطلاق سراح الرجل الذى أرادوه ، وهو باراباس الذى كان مسجوناً بتهمة العصيان والاغتيال ، ثم أشار بيده إلى مساعده الذى اختفى فى الداخل لحظات ثم عاد يحمل بين أصابعه لفة من ورق سميك قرأ منها بصوت جهورى وسط الصمت

الذى لم تخترقه سوى الأنفاس اللاهثة :

ــ فى السنة السابعة عشرة من حكم الامبراطور طيباريوس الموافق لليوم السابع من شهر نيسان بمدينة أورشليم المقدسة فى عهد الحبرين قيافا وحنَّان ، حكم بيلاطس والى ولاية اليهودية الجالس للقضاء فى دار ندوة مجمع البروتوريين على يسوع الناصرى بالموت صلباً بناء على الشهادات الكثيرة المبينة المقدمة من الشعب المثبتة أن يسوع الناصرى :

(أولاً) أنه مضل يسوق الناس إلى الضلال .

(ثانياً) أنه يغرى الناس على الشغب والهياج .

(ثالثاً) أنه عدو النامو ں .

(رابعاً) انه يدعو نفسه ابن الله .

(خامساً) انه يدعو نفسه ملك اسرائيل .

(سادساً) انه دخل الهيكل ومعه جمع غفير من الناس حاملين سعف النخل .

فلهذا يأمر بيلاطس البنطى كـ بتـ س كورنيليوس قائد المئة الأولى أن يأتى يسوع إلى المحل المعد لقتله وعليه أيضاً أن يمنع كل من يتعرض لتفيذ هذا الحكم ، فقيراً أم غنياً ، وعليه أيضاً أن يأتى به إلى خارج مدينة أورشليم من باب الطورنى .

توقيع
والى ولاية اليهودية
بيلاطس البنطى

نظر بيلاطس نظرة أخيرة إلى يسوع الصامت الصامد وكأنه يقول له بعينيه الحائرتين المكتئبتين :

ــ ما باليد حيلة !

ثم أشاح بوجهه ودخل قصر الولاية بقدمين من رصاص فى حين انقض الرعاع على يسوع يسوقونه إلى خارج أسوار القصر وقد أحاطهم الجند بقيأدة

كوينتيوس كورنيليوس قائد المئة الأولى والمسئول عن تنفيذ الحكم بالموت صلباً .

لم يتوقع اليهود أن تنجح خطتهم بهذا الشكل المذهل ، وأن يصدر بيلاطس على يسوع حكمه الصريح الواضح بالموت صلباً بعد ساعات من الحملة الشعواء التى شنوها عليه . بل إنه يبدو أنه نسى أو تناسى القرار الذى أصدره مجلس الشيوخ الرومانى فى عهد الامبراطور طيباريوس بتأجيل تنفيذ حكم الإعدام مدة لا تقل عن عشرة أيام بعد صدوره ، عسى أن يظهر فى تلك المدة دليل جديد على البراءة . لكن اليهود خشوا أن يتراجع بيلاطس فى حكمه على يسوع ، بعد أن لمسوا بأنفسهم مدى إصراره على تبرئته وإطلاق سراحه ، بل إنه تبرأ أمام الجميع من الحكم الذى أصدره بنفسه وغسل يديه قائلاً :

ــ أنا برىء من دم هذا البار .

ولذلك لن يستريح لهم بال إلا بعد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على خشبة الصليب ، حتى ينتهى كل أثر تركه فى نفوس الذين أعجبوا أو آمنوا به . كانوا يلهثون به إلى موضع الصلب وكأنهم فى سباق مع الزمن ، إذ أن نفوسهم المتعطشة للدماء ، وعقولهم المشبعة بالقسوة البربرية لم يروها كل ألوان العذاب والهوان التى مر بها يسوع منذ منتصف الليلة الماضية عندما بدأت محاكمته أمام حنَّان ثم أمام قيافا ، ثم مجلس السنهدريم ، ثم بيلاطس ، ثم هيرودس ، ثم بيلاطس مرة أخرى وأخيرة . وتجرع يسوع آلام السخرية والتقييد بالحبال الخشنة ، وضربات الجلاد على الظهر ، واختراق إكليل الشوك للرأس والجبين . وها هو الآن فى طريقه لتجرع آلام الموت نفسه .

ويبدو أن كل شىء كان مخططاً ومعداً حتى قبل صدور الحكم ، إذ بمجرد خروجهم من قصر الولاية كان الصليب جاهزاً فى انتظار يسوع الذى لم يزل يحمل إكليل الشوك على رأسه ، فألزموه أيضاً بحمل صليبه من دار الولاية إلى موضع الصلب إمعاناً فى تحطيم أية بقايا للهالة التى أحاطته فى نظر الناس . ولذلك سلكوا به أطول شوارع أورشليم ليراه أكبر عدد ممكن من اليهود الذين ظنوا فى يوم من الأيام أنه سيعيد قيامة مملكة داود وسليمان ، وها هو الآن يتخبط فى عاره وخزيه كأى مجرم يسير إلى موضع إعدامه .

تقدم الموكب المأسوى رؤساء الكهنة والشيوخ والفريسيون والصدوقيون

والناموسيون والكتبة والهيرودسيون ، منتفخى الأوداج ، منتشين بالنصر ، شاعرين بأروع آيات البطولة ، فقد عادوا مرة أخرى للإمساك بمقاليد الأمور ، قادة وزعماء وأبطالاً للشعب ، شعب الله المختار . وويل من الآن فصاعداً لكل من تسول له نفسه أن يضل هذا الشعب المختار وأن يهز كراسيهم الراسخة منذ أيام موسى .

كان الطوفان عاتياً جارفاً غمر فى طريقه الذين سبق لهم أن آمنوا بيسوع ، والذين ذابت قلوبهم حسرة على هذا المصير المأسوى ، والذين فقدوا القدرة على رفع أصواتهم ورفض ما يجرى برمته ، وفى مقدمة هؤلاء كانت النسوة اللاتى كن يندبن وينحن عليه ، واللاتى لفتن نظر يسوع إليهن برغم محنته الدامية فى موكبه الحزين الكئيب . كان ينوء تحت حمل الصليب المخمور بالدماء فى كتفه ، وخطوط الدماء تمتد من جبينه على أنفه ووجنتيه وعنقه بعد أن أصبح إكليل الشوك جزءاً من رأسه وجبينه ومع ذلك التفت إلى النسوة النائحات قائلاً لهن بنبرات مرتعشة :

ــ يابنات أورشليم لا تبكين علىّ ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن .. لأنه هوذا أيامٌ تأتى يقولون فيها ما أسعد العواقر والبطون التى لم تلد ، والثدى التى لم ترضع . عندئذ يبتدئون يقولون للجبال أسقطى علينا وللآكام غطينا ، لأنه إن كانوا يفعلون هذا بالعود الرّطب ، فماذا يكون باليابس .

كان نير الصليب قد تحالف بثقله وزواياه الخشنة مع إعياء يسوع حتى غدا شبه عاجز عن حمله ، فأحياناً كان يتوقف ليلتقط أنفاسه المبهورة اللاهثة ، وأحياناً أخرى كان يسقط تحته . وفى كل مرة كان يسقط فيها كانت قلوب رؤساء الكهنة تسقط معه ، ليس خوفاً عليه بطبيعة الحال وإنما لخوفهم من أن يموت قبل أن يصلبوه . فقد تمثل حلم حياتهم فى أن يروه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على خشبة الصليب رمز العار واللعنة من الله . ولذلك خشوا من أن يؤدى حمله المتواصل للصليب إلى موته ميتة طبيعية على الأرض ، وتدبروا الأمر حتى وجدوا فى وقفتهم فلاحاً مفتول العضلات ، قوى البنيان يدعى سمعان القيروانى ، كان قادماً من حقله فسخروه ليحمل صليبه .. وعلى الرغم من أن حمل الصليب كان عاراً ما بعده عار ، فإنه أذعن لهم بمزيج من الخوف منهم والرغبة فى التخفيف عن يسوع ، إذ أن سمعان القيروانى هذا كان من

أشد المؤمنين بيسوع ، ولم يترك فرصة إلا وتبعه فيها لينهل من كلمات النعمة المتدفقة من بين شفتيه .

واصل الموكب الحزين زحفه ، وفى مقدمته قيافا رئيس الكهنة وكوينتيوس كورنيليوس قائد المئة الأولى والمسئول عن تنفيذ الحكم .

لكن قيافا لاحظ قائد المئة لأول مرة وهو يحمل بيده اليسرى لوحة خشبية لمح على جانبها المختفى بدايات كلمات بحروف عبرية ويونانية ولاتينية ، وهم بأن يسأله عن فحواها ، لكن الصرامة المحفورة على ملامحه العسكرية ، وخطوته الواسعة التى تدق الأرض ، ووميض نظراته التى تبدو وكأنه غير راض عما يفعل ، كل هذا منع قيافا من أن يفتح فمه بالتساؤل ، خاصة وأنهم اقتربوا من بوابة الطورنى فى أسوار أورشليم وقد بدا خلفها التل المرتفع القابع بين الأسوار والطريق المؤدى إلى جبعة . وكان تلاً رهيباً إذ كان مخصصاً لتنفيذ الإعدام فى المحكوم عليهم بالموت ، سواء بطريقة الرجم اليهودية أو بطريقة الصلب الرومانية . وكانت جماجم القتلى بعيونها وأفواهها الفارغة المظلمة متناثرة على سفحه فأطلقوا عليه « الجلجثة » أى « الجمجمة » .

لكن لم تخل مظاهر الرعب والرهبة من بعض لمحات الرحمة الإنسانية . إذ جرت التقاليد عند تنفيذ عقوبة الرجم أو الصلب أن تقوم بعض نساء أورشليم بمنح المحكوم عليه قبل الشروع فى التنفيذ جرعة من الخمر القوية ممزوجة بالطيب لتخديره وتخفيف آلامه ، لكن حقد رؤساء الكهنة والشيوخ دفعهم إلى المزيد من التشفى فى يسوع ومضاعفة آلامه وأوجاعه ، فعندما بلغوا قمة التل أمروا بإعطائه خمراً ممزوجة بمرارة ليشرب ، فلما ذاقها لم يشربها . وكان متى يتابع المشهد من بعيد ذاهلاً كأنه يرزح تحت كابوس ، ومع ذلك تذكر قول المعلم لهم فى الليلة السابقة :

ــ إنى منذ الآن لن أشرب من نتاج الكرمة هذا حتى اليوم الذى فيه أشربه جديداً معكم فى ملكوت أبى .

بعد ذلك طرحوا الصليب على الأرض ، وأرقدوا عليه يسوع بعد أن خلعوا عنه ثيابه التى أخذها الحراس كالعادة ، وقطعوا الملل باقتسامها فيما بينهم أربعة أقسام لكل منهم واحد ، كما أخذوا القميص الذى كان بغير خياطة ومنسوجاً كله من فوق لكن بعضهم قال :

لا نشقه لكن نقترع عليه لمن يكون ؟

فتحققت نبوءة المزمور الثانى والعشرين :

ـــ يقتسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون .

ثم راح باقى الحراس يدقون مسمارين طويلين سميكين بمطرقة حديدية ضخمة فى كفيه على طرفى العارضتين للصليب ، فانفجر الدم من الكفين على العارضتين ثم على الأرض . وهكذا فعلوا بقدميه فى أسفل العارضة الرأسية للصليب والتى سال عليها خط غليظ من الدماء الساخنة المتوهجة . أما قيافا فكان يتابع المشهد منتشياً نشوة الذى حقق أمنية عمره أخيراً ، ومع ذلك كان يختلس النظر من حين لآخر إلى اللافتة التى يحملها قائد المئة الذى تربعت على وجهه الجهامة والكآبة ، والذى أسرع بأخذ المطرقة ليدق اللافتة أعلى العارضة الرئيسية ، واذ بقيافا يسرع ليشبع فضوله ويقرأ ما كتب عليها بفم فاغر ، وعينين جاحظتين ، وشفتين مرتعشتين :

ـــ يسوع الناصرى ملك اليهود .

وكان مكتوباً بالعبرية واليونانية واللاتينية حتى يفهمه كل الناس من كل الأجناس . فجن جنون قيافا ومعه رؤساء الكهنة والشيوخ إذ أن هذا يتضمن إقراراً وإعلاناً بأن المصلوب على خشبة اللعنة والعار هو ملكهم . حاول قيافا منع قائد المئة من إكمال مهمته صائحاً :

ـــ لا يجوز لك أن تكتب ملك اليهود !

نفض قائد المئة بذراعه المفتولة ذراع قيافا المعروقة منذراً :

ـــ إنها أوامر بيلاطس البنطى !

أشار قيافا إلى يسوع الملقى فى إعياء على الخشبة :

ـــ بل إن ذاك قال أنا ملك اليهود .. لكنه ليس كذلك !

أجاب قائد المئة دون أن ينظر إليه بعد أن انتهى من مهمته :

ـــ ما كتبه بيلاطس البنطى لا يرد !

وأسرع قيافا بإرسال حنّان إلى بيلاطس لعله يأمر بخلع اللافتة ، لكن

بيلاطس رده على أعقابه خائبا وصوته يتردد فى أذنيه والعربة مسرعة به إلى تل الجلجثة :

ــ ما كتبتُ قد كتبتُ .

لكن عقل قيافا ومعه رؤساء الكهنة لم يتوقف عن التفكير المحموم للسخرية من معنى اللافتة التى أصر بيلاطس على تعليقها ، فصلبوا معه لصين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، لأن المعروف أن المصلوب فى الوسط هو أخطر المجرمين الثلاثة ، ولابد أن من يقرأ اللافتة سوف يضحك فى سخرية مريرة لكنه لن يدرك أن نبوءة إشعياء النبى عن يسوع المسيح قد تحققت :

ــ سكب للموت نفسه وأُحصِى مع أثمة .

أقاموا الصليب وغرسوه فى حفرة أعلى التل ، وهكذا فعلوا بالصليبين الآخرين حين كانت شمس الصباح تفترش الكون وتمد ظلال الصلبان الثلاثة على رؤوس المتجمهرين حولها . تعلقت العيون بالمصلوب الذى فى الوسط ، وعندما لم يقع حدث غير عادى ، أطلق رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة ضحكات السخرية والاستهزاء ، فى حين علق قيافا :

ــ خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه !!

قال حنَّان وكأنه يكاد يتغنى بكلماته :

ــ إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل عن الصليب فنؤمن به !!

ابتسم يورام بمزيج من الرضا والتشفى :

ــ لقد اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان راضياً عنه ، لأنه قال أنا ابن الله .

تبددت الحيرة فى عيون الرعاع المحيطين بالكهنة والكتبة والشيوخ عندما بلغت التعليقات الساخرة آذانهم . فقد استراحوا إلى الظن الذى وسوس داخلهم بأن كل معجزات يسوع الناصرى التى صنعها فى حياته كانت بقوة الشيطان وسحره الأسود ، ولا دخل فيها لقوة الرب أو قوته هو شخصياً ، وإلا فلماذا يترك نفسه مهاناً ، ذليلاً ، معذباً على خشبة الصليب كأعتى المجرمين دون أن يخلص نفسه بالقوة التى صنع بها كل معجزاته وعجائبه السابقة ؟! لابد أن الشيطان قد تخلى عنه أخيراً وتلك عاقبة كل من تسول

له نفسه أن يبيع روحه للشيطان !! ومع ذلك رفع يسوع عينيه نحو السماء قائلاً :

ــ ياأبتاه . اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

كانوا رؤساء كهنة وكتبة وشيوخاً متفقهين فى شئون دينهم ، أو قشور دينهم ، لأنهم لو أدركوا جوهره لكانوا قد اكتشفوا أن المكتوب لابد أن يتم ، إذ تقضى شريعتهم بأن الدم يكفر عن النفس كما جاء فى سفر اللاويين الذى درسوه مراراً وتكراراً ، وفى نبوءات المزامير التى تغنت بأن المسيح أُرسل فداء لشعبه ، بل إنهم هم أنفسهم عايروه بألفاظ وردت بحذافيرها فى المزامير إذ قالوا :

ــ اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده .

فى حين قال المزمور الثانى والعشرون :

ــ كل الذين يروننى يستهزئون بى .. قائلين اتكل على الرب فلُينجِّه . لينقذه لأنه سُرَّ به .

كذلك كثيراً ما قرأوا نبوءات إشعياء النبى التى أعلنت أن :

ــ أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمَّلها .. وهو مجروحٌ لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا . كلنا كغنم ضللنا .. والربُّ وضع عليه إثم جميعنا .. جعل نفسه ذبيحة إثم .. سكب للموت نفسه .. وهو حمل خطية كثيرين .

وكانوا يعلمون جيداً أنه لاخلاص بلا فداء ، لكن خوفهم على سلطانهم الدنيوى أعماهم عن كل شيء آخر ، وجعلهم يفسرون الأسفار المقدسة على هواهم ، دفعهم أيضاً إلى إهمال ونسيان واجباتهم الدينية التى تحتم عليهم ملازمة الهيكل فى ذلك اليوم بالذات ، بحكم أنه أول أيام عيد الفصح ، إذ قضت الشريعة فى سفر اللاويين بإقامة محفل مقدس يؤدى فيه الكهنة ورؤساؤهم الطقوس المفروضة ، لكن من أجل التخلص من يسوع الناصرى ، يهون كل شيء حتى لو كان الشريعة المقدسة ذاتها .

ولذلك لم يكن لهم أى عذر سوى جهلهم ، وضيق أفقهم ، وجشعهم ، وتكالبهم على سلطات الدين وشهوات الدنيا . أما الجنود الرومان الوثنيون

فكان لهم كل العذر حين قالوا ليسوع على خشبة الصليب :

ــ إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك !

حتى اللص المصلوب على يساره اشترك فى عزف أنغام الشك والسخرية المأسوية بتساؤله المريب ليسوع :

ــ ألست أنت المسيح ؟! إذن خلص نفسك وخلصنا !

لكن الرد جاء من اللص اليمين وقد شعر بنور اليقين يغمر قلبه حين انتهر زميله :

ــ أما تخاف الله ؟! وأنت نفسك تحت هذا القصاص بعينه ؟! نحن بعدل جوزينا ، لأننا ننال جزاء أعمالنا . أما هذا فلم يفعل سوءاً !

ثم التفت إلى يسوع ليقول له فى لجاجة :

ــ اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك .

فقال له يسوع بنبرات تقاوم زحف الإعياء :

ــ الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس .

هكذا سرق هذا اللص العجيب الفردوس فى ومضة خاطفة من الزمن فى حين لجأ تلاميذ المخلص إلى الاختباء والاختفاء ، فقد عجزوا عن احتمال المحنة بالصمود إلى جانب سيدهم ، فضلاً عن إنكار بعضهم له علنا ، وبذلك تحققت النبوءات القديمة بحذافيرها . فقد تكلم المزمور الحادى والثلاثون بلسان يسوع :

ــ عند كل أعدائى صرت عاراً ! ورعباً لمعارفى . الذين رأونى خارجاً هربوا عنى . نسيتُ من القلب مثل الميت .

كذلك المزمور التاسع والستون :

ــ انتظرت رقة فلم تكن ، ومُعزين فلم أجِدْ .

كان يوم الجمعه الرهيب هذا ، يوم تحقق معظم النبوءات التى رددها رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون كالببغاوات كمجرد كلمات ، أما عندما تحولت إلى وقائع مادية تجرى أمام عيونهم ، لم يدركوها لأن صوابهم كان قد طاش ،

وبصائرهم عميت عندما وجدوا الكراسى تهتز بعنف تحتهم . لم يستوعبوا نبوءات إشعياء التى ترددت على ألسنتهم دون أن تسرى فى قلوبهم وتنير عقولهم :

ــ دست المعصرة وحدى .. لم يكن معى أحدٌ .. فنظرت ولم يكن معين . وتحيرت إذ لم يكن عاضدٌ .

ونبوءة إرميا القائلة .

ــ أخوتك أنفسهم . قد غادروك هم أيضاً .

كذلك كان يوم الجمعة الرهيب هذا . يوم وقوع الغرائب . كانت فيه النسوة أكثر شجاعة من الرجال . لم يطقن البعد عن يسوع فى محنته الرهيبة متابعين ما يجرى بقلوب مكلومة ، وأفئدة كسيرة ، وعيون باكية ، ونظرات ذاهلة . كانت هناك مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة ، وهن اللاتى كن يتبعنه حين كان فى الجليل ، فضلاً عن نسوة أخريات كثيرات كن قد صعدن معه إلى أورشليم . لكنهن لم يجرؤن على الإقتراب كما تنبأ المزمور الثامن والثلاثون من قبل :

ــ أقاربى وقفوا بعيداً

أما أم المخلص فلم تستطع أن تظل بعيداً ووحيدها مصلوب ، ولن تغرب شمس ذلك اليوم الرهيب قبل أن يكون قد لفظ أنفاسه التى ظن الجميع أنها ستكون الأخيرة . زحفت السيدة العذراء بعباءتها الداكنة ، ورأسها المنكس ، ونظراتها الزائغة ، ودموعها المنحدرة على وجنتيها حتى وقفت تحت الصليب بأقدام ثقيلة كالرصاص ، فتشجعت أختها ومريم المجدلية اللتان لحقتا بها ليتعلقن بقدميه الداميتين باكيات نائحات . عندئذ اقترب منهن يوحنا تلميذ المسيح الحبيب إلى قلبه ، فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الحبيب قال لأمه بصوت منهك :

ــ هوذا ابنك .

ثم قال للتلميذ :

ــ هوذا أمك .

ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته لأن يسوع كان العائل الوحيد

لها ولابد أن يرعاها من يثق فيه من بعده . وعلى الرغم من الآلام التى لا يحتملها بشر فقد كان يسوع يحمل هم أمه وهم البشر أجمعين . وظل على هذه الحال ، التى يقف أى وصف بليغ عاجزا أمامها ، ثلاث ساعات كاملة من الصباح حتى الظهر حين سطعت الشمس فى كبد السماء فعشيت الأبصار المواجهة لها ، وارتفعت الأكف للتخفيف من وميضها . لكن فجأة أطبقت ظلمة كثيفة حالكة على الأرض كلها لتمتد ثلاث ساعات أخرى من الظهر إلى العصر ، وتحققت النبوءة التى وردت فى سفر عاموس :

ـــ يكون فى ذلك اليوم أنّى أُغيّب الشمس فى الظهر وأُقتم الأرض فى يوم نُور .

عاشت الجموع المتجمهرة على التل من سفحه إلى قمته كابوساً حياً لا يصدق . تصور البعض أنه قد أصيب بالعمى فتحسس عينيه بأصابع مرتعشة ، فحتى فى الظلام يمكن تبين بعض الخطوط والظلال ، لكن هذه ظلمة مطبقة كالعمى تماماً . والبعض الآخر شعر أن دائرة العدم قد ابتلعته فتحسس جسده حتى يتأكد أنه لا يزال موجوداً . فقد ساد رعب خفى إذ أن الظلمة أطبقت بسكون وصمت على أفواه الجميع الذين ظن معظمهم أن اليوم الأخير قد حلّ ، وأن هذه الظلمة والصمت والسكون مقدمات لقيامة الأموات . صرخ البعض هلعاً ورعباً لكن الأفق المظلم ابتلع أصداء الصرخات ولم يرددها ، فصاح أحدهم :

ـــ قال إرميا النبى : غربت شمسها إذ بعد نهار !

وتوقع أن يرد عليه من سمعه لكن الظلمة كانت محيطاً متلاطم الأمواج فى سكون قادر على ابتلاع حتى الأصوات فى جوفه السحيق . وتحرك البشر على غير هدى لعلهم يجدون مخرجاً من العدم الذى يحيط بهم ، فتخبطوا ، وتصادموا ، وصرخوا ، وبكوا ثم لزم كل واحد منهم مكانه ينتحب ؛ يغمض عينيه ثم يفتحهما لعله يرى النور مرة أخرى ، لكنهما مفتوحتان كمغلقتين تماماً .

ومع سيادة سلطان الظلام تراجع الدفء وتلاشى ، وسرى فى الجو صقيع تمكن من الأطراف ، أصابها بارتعاشة ثقيلة لم يدرك أصحابها هل هى بسبب الصقيع أو الهلع أو الاثنين معاً ؟ كان كل منهم مشغولاً برعبه على نفسه فلم

يع العلاقة بين هذا الإضطراب الكونى وبين ما يجرى على هذا التل الرهيب من أحداث إلهية ! وتمنى بعضهم الموت والعدم صارخين بنفس الكلمات التى سمعوها من يسوع فى طريق الآلام :

ـــ أيتها الجبال أسقطى علينا ! أيتها الآكام غطينا !

أما مريم العذراء فظلت متشبثة بقدمى يسوع الداميتين ومعها يوحنا وأختها ومريم المجدلية غير عابئين بالظلمة . فقد هانت الدنيا كلها أمام آلامهم وأحزانهم ولم يعد أى شيء يستحق مجرد الالتفات إليه : حياة أم موت ؟ ظلمة أم نور ؟ حركة أم سكون ؟ عدل أم ظلم ؟ رحمة أم قسوة ؟ كل الأشياء أصبحت تستوى بعد أن أصبح السيد والملك والمعلم والرب والإله والمخلص معلقاً على خشبة الصليب مثل أعتى المجرمين !

كانت أطول ثلاث ساعات مرت بها البشرية منذ خلق آدم ، لقى فيها يسوع من الآلام الجسدية والروحية ما لم يلقه الإنسان منذ أن ارتكب خطيئته الأولى وطرد فى أعقابها من الجنة إلى أرض الشقاء . وبعد أن خاض يسوع المعلق على خشبة الصليب بحر الظلمة والخطيئة والفناء والموت ، وعبر بالبشرية كلها إلى ضفة الأمان ، أشرق النور على العالم مرة أخرى ، ومعه صرخة يسوع بصوت عظيم :

ـــ إيلى . إيلى . لما شبقتنى . أى إلهى . إلهى لماذا تركتنى ؟!

تلك العبارة الخالدة التى نطقها يسوع بالآرامية لم تكن تعنى أن الله قد هجره لأنه هو والآب واحد ، بل كانت تعنى أن النبوءة القديمة التى وردت فى المزمور الثانى والعشرين قد تحققت بعد أن أعلنت منذ قرون كل الآلام المبرحة والمعاناة المأسوية التى سيمر بها يسوع :

ـــ إلهى إلهى لماذا تركتنى بعيداً ؟

ولذلك تضرع يسوع إلى الآب ألا يتركه مع هذه الآلام الرهيبة التى لا يحتملها كإنسان . فالجسد ضعيف أما الروح فنشيط . ورجا الآب أن يسترد وديعته حتى يستريح الجسد الذى أتم التكفير الكامل لكل خطايا البشر . لكن بعض المشاهدين لصلبه عن قرب قالوا :

ـــ إنه ينادى إيليا !

ـــ فتساءل الباقون فى شك زاخر بالسخرية :

نتنظر هل يأتى إيليا ليخلصه ؟!

فهم لم يستوعبوا الدلالة الإلهية الكامنة خلف الظلمة التى أحاطت الكون وشملته ثلاث ساعات كاملة ، ولذلك بمجرد أن انقشعت وانتشر النور فى الربوع ، خيمت الظلمة والجهل والتعنت وضيق الأفق وقصر النظر والجهل مرة أخرى على قلوبهم وعقولهم . حتى كلمة « إيلى » التى تعنى « إلهى » « بالآرامية » ظنوها « إيليا » وأن يسوع كان يستنجد به ليخلصه من محنته .

تجمدت خيوط الدماء المنثالة على الجسد المقدس وعلى عود الصليب ، وجف بعضها ، وحفرت الآلام غير البشرية خطوطا غائرة تحت عينى المخلص اللتين لم تفقدا بريقهما العجيب ، وفى جبينه الوضاء . ففتح شفتيه اللتين جفتا مع ريقه ولسانه الذى التصق بحنكه لتتم نبوءة المزمور الثانى والعشرين :

ـــ يَبَست مثل شقفةٍ قوتى ولَصِقَ لِساَنى بِحَنَكى .

وعندما قال يسوع :

ـــ أنا عطشان .

أسرع أحدهم إلى إناء مملوء خلا موضوع بالقرب من خشبة الصليب ، وغمس فيه اسفنجة من الخل الذى اعتاد الجنود الرومان شربه كخمر حامض الطعم ، رخيص الثمن ممزوج بماء ، ثم وضع الاسفنجة على غصن من شجرة زوفا وقدَّمها إلى فمه ، فارتشف يسوع الخل قائلاً :

ـــ قد أُكمِل .

لتكمل نبوءة المزمور التاسع والستين التى قالت على لسانه :

ـــ يجعلون فى طعامى علقماً وفى عطشى يسقوننى خلا .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً ورأسه يميل على كتفه اليمنى :

ـــ ياأبتاه فى يديك أستودع روحى .

وإذ قال هذا أسلم الروح . لكنه لم يمت كما ظنت الكلاب المسعورة المتناثرة حول الصليب فوق تل الجلجثة ، بل ترك حياته وديعة عند أبيه السماوى بعد أن قدمها بإرادته ذبيحة عن خطايا البشر وفداء لهم . وبذلك تمت نبوءة العبرانيين القديمة التى أعلنت أنه بغير الموت لا تكون مغفرة ، وكذلك الآيات التى نطق بها يسوع من قبل ولم يدركها التلاميذ فى حينها :

ــ يحبنى الآب لأنى أضع نفسى لآخذها أيضاً . ليس أحد يأخذها منى ، بل أضعها أنا من ذاتى . لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضاً .

فهو الذى جعل نفسه ذبيحة إثم كما تنبأ إشعياء من قبل ، وكان ذلك فى نفس اليوم والساعة التى تقضى فيها الشريعة بتقديم ذبيحة الفصح ، وهى الساعة الثالثة بعد الظهر التى أسلم فيها يسوع الروح إيذانها بانتهاء عهد الذبيحة القديمة وبداية الذبيحة الإلهية المقدسة الخالدة إلى أبد الآبدين ، وملحمة الفداء العظمى التى لم تكن لتكمل إلا من خلال الفادى الجدير بهذه المهمة الإلهية والذى يتحتم أن يكون طاهراً وكاملاً كما كان آدم فى البداية قبل ارتكابه لخطيئته وطرده من الجنة . ولذلك لم يعد الإنسان جديراً بالتكفير عن خطيئته بعد أن تلوثت طهارته وضاع كماله ، فشاءت الرحمة الإلهية أن ترسل إلى دنيا الخطيئة يسوع الطاهر الكامل النقى المتجسد من الروح القدس كى يفدى البشرية جمعاء على خشبة الصليب .

ومع ذلك عبرت الرحمة الإلهية عن غضبها عندما أسلم يسوع الروح ، فلم تقف القسوة البشرية عند حدود بعينها ، ولم ترتدع بظلمة الساعات الثلاث ، فإذ بحجاب الهيكل قد انشق نصفين من أعلاه إلى أسفله ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت . وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين لتبلغ الملحمة الإلهية ذروتها .

كان مشهداً ملحمياً لم تقع عينا البشرية على مثله من قبل ولن تقع من بعد . فقد تماوجت الأرض كسطح بحر متلاطم الأمواج ، وتناثر فى الأفق رذاذ الصخور المتفتتة الهائجة فى الأفق ، وقعقع هزيم الرعد فى سماء اكتست بحمرة غريبة لم تعرفها الألوان البشرية من قبل ، وهبت رياح محملة بالرمال والأتربة وفتات الصخور لتلفح الوجوه ، وتلطم العيون ، وتصفع الخدود ،

وتبصق رذاذاً من ماء عكر على الكلاب المسعورة التى استولى عليها الذعر والخبس النباح فى حلوقها بعد أن فتحت القبور أفواهها ليخرج منها كثير من أجساد القديسين الراقدين ويدخلوا المدينة المقدسة كى يراهم كثيرون من الأحياء فى أكفانهم الكتانية البيضاء سائرين فى الشوارع والأزقة وعلى وجوههم ابتسامات النشوة بقهر الموت الذى لم يكن للإنسان فكاك له منه من قبل . أما سكان أورشليم الذين لزموا بيوتهم وخيامهم فقد قبعوا فيها مرتعدين مرتعشين ، تصطك أسنانهم وتنتفض أبدانهم ، وظن الكثيرون منهم أن يوم القيامة قد حل ، ولم يتبق لهم سوى لحظات معدودة يجدون أنفسهم بعدها أمام العرش الإلهى . حتى الهواء الذى كان يسرى فى الطرقات وحول المنعطفات ، بدا مشحوناً بأرواح غير مرئية تكاد تشارك الأحياء أنفاسها . فانتاب الجميع إحساس غامض أوحى إليهم بأن قانوناً ما من قوانين الكون قد تغير أو تم تصحيحه لتعود البشرية إلى مسارها الذى رسمه لها الله قبل إنشاء العالم .

أما حجاب الهيكل الذى انشق نصفين من أعلاه إلى أسفله ، فقد أصاب المصلين بذهول أعاد إليهم ذكريات البابليين عندما هاجموه وهدموه فى التاسع من شهر آب عام ٥٨٦ ق . م . وظل اليهود بلا هيكل حتى أعيد بناؤه عام ٢٥١ ق . م ، ثم أدخل المكابيون والحشمونيون بعض التعديلات والتجديدات عليه ، وبعد ذلك نصّب مجلس الشيوخ الرومانى هيرودس الأكبر ملكاً على اليهود ، واستولى على أورشليم بمساعدة قوة رومانية كبيرة ، فقام بتوسيع الهيكل وتجديد بعض أجزائه ، وبنى حوله سوراً عالياً . ولم يمسه أحد منذ ذلك الحين حتى انشق حجابه نصفين من أعلاه إلى أسفله كما لو كان هناك سيف عملاق جبار وقد انهال عليه فى لمح البصر فلم يره أحد ، وإذ بالمصلين يرون لأول مرة تابوت العهد ولوحى الشريعة وغير ذلك من المقدسات التى لا يراها إلا رئيس الكهنة وحده ، مرة واحدة فى السنة عند الاحتفال بيوم الكفارة ، كى يرش دم الذبائح تكفيراً عن خطايا الشعب . ولم يكن الكهنة بأقل ذهولاً من جمهور المصلين ، لأن حجاب الهيكل انشق من تلقاء نفسه دون هجوم من البابليين أو غيرهم . أما رئيس الكهنة وزملاؤه من الأحبار والكتبة والفريسيين فلم يكونوا بالهيكل ليشهدوا هذه الآية ، إذ كانوا مشغولين بصلب المسيح وحراسته خوفاً من أن يأتى تلاميذه ويخطفوا جسده .

لكن ما لم يدركه أحد أن أعجوبة انشقاق الهيكل كانت مثل كل الآيات والعجائب التى صنعها يسوع ، إذ أنها مرتبطة بمعان ودلالات أبعد وأشمل وأعمق من مجرد وقوعها كحدث مادى . ولذلك فإن انشقاقه لحظة أن استودع يسوع روحه فى يدى الآب . يعنى زوال الحجاب الفاصل بين الله والناس الذين فداهم يسوع بموته على خشبة الصليب مكفراً عن خطاياهم ، وكذلك انتهاء الطقس الذى كان يقوم به رئيس الكهنة حين يدخل قدس الأقداس ليرش دم الذبائح فى يوم الكفارة . وبما أن كل أسفار العهد القديم وطقوسه كانت تمهيداً لمجىء المخلص ، فإن هذا الطقس كان بدوره تمهيداً للتكفير أو الغفران الفعلى والشامل كما تجسد فى دم الذبيحة الإلهية المسفوك على خشبة الصليب من أجل خلاص البشرية كلها .

كان انشقاق الهيكل كهزيم الرعد ، أو انفجار البركان ، أو قصف الاعصار الذى دوى فى أرجاء الهيكل ، فخر بعض المصلين على وجوههم رعباً ، فى حين هرع بعض الكهنة خارجين من الأبواب التى فتحت على مصاريعها ، وداست الأقدام بعض الأطفال والشيوخ ، وتدفقت الحشود من الأبواب كطوفان من الرؤوس الطائشة ، والعيون الجاحظة ، والأذرع المتلاطمة ، والأقدام المرتعشة التى تكاد تسابق الريح برغم أن حجاب الهيكل لم ينهار تماماً وإنما ظل مشقوقاً إلى نصفين . فقد كان يوماً لم يشهد الأزل مثله من قبل ولن يشهد الأبد مثله من بعد .

أما على تل الجلجثة الشامخ بصليب يسوع الذى لم يهتز مع الزلزال ، فقد كان هناك قائد المائة ومعه الحراس الذين ألقوا القرعة على الرداء ظناً منهم أن الأمر لن يتعدى كونه مهمة تقليدية مملة ، لكنهم حين رأوا الزلزال يعقب الظلمة الدامسة التى أطبقت على قلب الظهيرة ، خافوا خوفاً عظيماً قائلين :

ـــ حقاً كان هذا هو ابن الله .

كانت الآية أكبر وأعظم وأشمل وأعمق من أن تترك أبواب القلوب الوثنية موصدة فى وجهها . وكان قلب قائد المائة منذ البداية ميالاً إلى حب هذا الشاب البار ، النقى ، الطاهر الذى لم يمس ، حتى أعدائه المصرين على قتله ، بكلمة توحى برغبته فى قلب المائدة على رؤوسهم أو مجرد الهرب من لهيب انتقامهم ونار حقدهم الأسود . وها هى الآن الظلمة تهبط على الكون فى

منتصف النهار ، ثم يرى الأرض تتزلزل عند سفح التل ، والصخور تتشقق فى البقاع المحيطة ، والقبور تنفتح داخل أسوار المدينة وخارجها ويسير الموتى فى أكفانهم الكتانية البيضاء كما فى نزهة بين رياض روما ومغانيها .

أما الجموع اليهودية التى وقعت صريعة بين شقى رحى اليقين والشك والتى احتشدت عند هذا المشهد الرهيب ، فقد وقع عليهم ما رأوه وقع الصاعقة ورجعوا وهم يقرعون صدورهم ، ويشهقون بالبكاء المر ، إذ أن بعضهم أدرك فى ومضة عامرة باليقين ومفعمة بالإيمان أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم قتلوا المسيح ابن الله الذى انتظروه آلاف السنوات التى شهدت سلسلة أنبيائهم الذين تنبأوا بمجيئه لخلاص العالم . كيف يحدث هذا ؟! وبهذا الشكل ؟! ولماذا ؟! كلها أسئلة تطايرت فى الهواء مثل شظايا الصخور المتشققة ، وكادت أن تقتلهم ندما وقنوطاً . وتمنى البعض الآخر أن يكون كل ما يجرى مجرد كابوس سرعان ما يستيقظون منه ، لكن تل الجلجثة الشامخ بصليب يسوع كان جاثما على أرواحهم كالموت تماماً .

كانوا مجرد قطيع من الخراف الضالة خلف رعاة كاذبين ، مزيفين ، جشعين لا يرون فى هذه الدنيا سوى مطامعهم وشهواتهم وسلطاتهم ، فأغمضوا عيونهم وأجبروا أتباعهم على إغماضها حتى لا يروا كل الآيات والعجائب والمعجزات التى صنعها الراعى الصالح الحقيقى الذى جاء إلى هذه الأرض لينقذ هذه الخراف الضالة . وعندما مات هذا الراعى على خشبة الصليب وتغيرت بموته قوانين الكون أفاقت الخراف من ضلالها ورجعت وهى تقرع صدورها ، أما رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون والصدوقيون والناموسيون وغيرهم من أعضاء مجلس السنهدريم الذين لم يغمض لهم جفن وهم يتابعون بعيون قلقة جاحظة المعلق على خشبة الصليب خوفاً من أن تحدث معجزة وتنزله من عليه سليماً ، صحيحاً ، معافى ، فيكتسحهم هذه المرة بإعصار لا عودة لهم منه ، فقد كان هذا مصدر قلقهم وخوفهم الحقيقى . أما الظلمة الحالكة فى قلب الظهيرة ، وحجاب الهيكل المنشق ، وزلزال الأرض ، وتشقق الصخور ، ولفظ القبور للموتى الذين قاموا من رقادهم ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين ، فهذه كلها أمور لا تهمهم طالماً أنها لا تمس كراسيهم وسلطاتهم

الدينية والدنيوية . ولذلك لم يسمعوا وصف يسوع لهم من قبل بأنهم :

مبصرون لا يبصرون ، وسامعون لا يسمعون ولا يفهمون ففيهم قد تمت نبوة إشعياء القائلة : بالسمع تسمعون ولا تفهمون . وبالبصر تبصرون ولا ترون ، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد ثقل سماعها وعيونهم قد أغمضوها لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ، ويرجعوا فأشفيهم

كان كل همهم أن يتأكدوا من أنه مات بالفعل على الصليب ، وأنهم تخلصوا من قلقهم المستعمر إلى الأبد . لكن كعادتهم كانت الشريعة هى الراية التى يرفعونها دائماً حتى يرتكبوا تحت لوائها كل الجرائم التى يضمنون بها استمرار سلطانهم وهيلمانهم ، وبنودها هى الأسلحة التى يشهرونها فى وجه كل من يتصدى لهم ويعرى أنفسهم المعتمة من الداخل ، فقد قضت الشريعة بأنه :

ـــ إذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم ، لأن المعلق ملعون من الله ، فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك .

فقد كانوا يعلمون أن المصلوب لا يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا بعد وقت طويل ، وكثيراً ما كان المصلوب يبدو وكأنه مات فعلاً ، لكن بعد ساعات قد تطول ، يكتشفون أنه لا زال ينبض بالحياة . لذلك أسرع قيافا بإرسال وفد من الكهنة والكتبة والفريسيين برياسة حنّان إلى بيلاطس البنطى ، متعللين بحرصهم على تطبيق الشريعة المقدسة خاصة فى عيد الفصح الذى كانوا يستعدون للإحتفال به قبل انقضاء النهار ، ولا يريدون تنجيسه ببقاء المصلوبين معلقين على صلبانهم بعد حلول الظلام . فلكى لا تبقى الأجساد على الصليب فى السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم ويرفعوا . فأتى العسكر وكسروا ساق الأول والآخر المصلوب معه . وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات . لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء ، وبذلك تمت نبوة المزمور الرابع والثلاثين :

ـــ يحفظُ جميعَ عظامه ، واحدٌ منها لا ينكسرُ .

وبذلك كانت نهاية المعنى الدينى والروحى لذبيحة الفصح القديمة والتى لم تكن سوى رمز للمسيح الذى أصبح بموته على خشبة الصليب ذبيحة الفصح الحقيقية والأبدية . فقد كانت الشريعة تنهى عن كسر أى عظم من خروف الفصح بعد ذبحه :

ـــ فليعمل الفصح للرب . فى الشهر الثانى فى اليوم الرابع عشر بين العشاءين يعملونه ، على فطير ومرار يأكلونه . لايبقوا منه إلى الصباح ، ولا يكسروا عظماً منه .

أما بيلاطس فكان يتابع تطورات الموقف لحظة بلحظة وفى قلبه شوكة دامية لأنه عجز عن انقاذ ذلك البار الذى مات فى سبيل مبادئه كأى نبيل رومانى دون أن يتزحزح عنها قيد أنملة ، وامتزج إحساسه بالذنب بقلق متزايد مع اقتراب المساء . فقد كان يعلم ضرورة دفن جسد يسوع قبل انتهاء نهار الجمعة بصفته يوم الإستعداد عند اليهود إذ بعده يبدأ يوم السبت الذى لا يجوز فيه القيام بأى عمل ، خاصة وأن ذلك السبت كان بداية عيد الفصح . ولذلك رحب بيلاطس بوصول يوسف الرامى عضو السنهدريم إلى قصره ، وكان يعلم مدى تعاطفه مع يسوع ودفاعه عنه .

دخل يوسف الرامى متردداً بعض الشىء لكن تردده سرعان مازال مع ابتسامة الترحيب على وجه بيلاطس الذى بادره بالسؤال :

ـــ ألم يمت بعد ؟!

أجاب يوسف الرامى ونبرات الأسى والحزن تنضح على كلماته :

ـــ لقد مات بالفعل وجئت أستأذنكم فى طلب جسده .

لم يستطع بيلاطس أن يمنع نفسه من الدهشة والأسف :

ـــ مات سريعاً وكأنه على ميعاد مع نهاية النهار !!

ثم أشار بيمناه فتحرك الحارس لينفذ الأمر باحضار قائد المائة الذى جاء على عجل ليلقى عليه بيلاطس سؤاله :

ـــ هل مات فعلاً وانتهى ؟!

أدى قائد المائة التحية وأجاب بلهجته العسكرية :

ـــ مات فعلاً وانتهى وفى انتظار أوامر سعادتكم !

أشار بيلاطس إلى يوسف الرامى قائلاً :

ـــ الجسد لك . ادفنه بالطريقة التى تراها .

أدى يوسف التحية وخرج ليشترى كتاناً أسرع به ومعه قائد المائة إلى تل الجلجثة وأنزل الجسد بمساعدة الحراس ولفه فى الكتان وأخذ الجسد ليلحق به نيقوديموس ومعه مزيج مر وعود ليلُفّاه بأكفان مع الأطياب كما لليهود عادة أن يكفنوا . وكان على تل الجلجثة بستان به قبر جديد مملوك ليوسف الرامى ولم يوضع فيه أحد قط ، وفى القبر وضعا يسوع .

قام يوسف ونيقوديموس بإسجاء الجسد داخل القبر الصخرى ، ثم ساعدهما عدد من حراس الهيكل الأشداء فى دحرجة حجر كبير على باب القبر وسط بكاء ونحيب العذراء مريم وأختها مريم ومريم المجدلية ويوسى وسالومة اللاتى شهدن مراسم الدفن وقد تلفحن بالدموع والأردية الداكنة . كانت عينا مريم العذراء حمراوتين ، دامعتين ، ذاهلتين وهما ترصدان فلذة كبدها وقد أصبح جسداً هامداً فى قبر صخرى وقد فارقته الحياة بعد أن منح الحياة والأمل لكل من عرفه أو سمع منه أو عنه . وبدا فى نظرها الذاهل أنه استحق عقوبة الموت لأنه منح البشر جائزة الحياة . كان فكرها شارداً لا يركز على فكرة بعينها ، فقد كان كل ما تمنته فى تلك اللحظات الرهيبة الكئيبة أن تموت لتدفن إلى جواره ، فلا حياة لها من بعده . وحتى مع قيامته من الأموات بعد ثلاثة أيام ، كما فهمت من تعاليمه ، فإنها لا تطيق الحياة بدونه ، فلا يعقل أن تدب هى حية على وجه الأرض فى حين أنه مدفون فى باطنها تحت سلطان الموت والظلام ، حتى لو كان لهذه المدة القصيرة .

غامت الأشياء تحت ستار دموعها وقد استسلمت ليدى مريم المجدلية ومريم أم يوسى اللتين أمسكتا بذراعيها للعودة بها من القبر واعداد عطور وأطياب ليضمخن الجسد فجر الأحد . فقد شرعت آخر خيوط شمس الغروب القانية فى الانسحاب من الحياة ، وكان لابد من العودة إلى البيت والاستراحة عملاً بالوصية . فسرن فى موكب حزين وقد حجبت أرديتهن الداكنة فلول الغروب الغارقة عند خط الأفق الرمادى ، والسكون يلف الكون بفحيح الفراغ والعدم ، وأنفاس الموت والظلمة الزاحفة تطارد أهل المدينة المقدسة فى منازلهم

والحجاج فى خيامهم حتى بلغت مضاجعهم وأحسوا بترددها على وسائدهم فى عتمة ليل ثقيل على صدورهم كرصاص بارد ، وصورة المصلوب تتوهج تحت أجفانهم كلما أغمضوا عيونهم ، فآثروا أن يقضوا الليلة بعيون مفتوحة جاحظة تحاول اختراق طيات الظلام والعدم .

(٥٣)

استيقظ بيلاطس من نوم قلق متقطع مع أول خيط من خيوط الفجر بعد أن طاردته مشاهد اليوم السابق فى منامه : إكليل الشوك المغروس فى جبين يسوع الدامى ، السياط التى تمزق ظهره والرداء القرمزى المتهالك الذى يحيط جسده النحيل ، وصموده وصمته الرهيب ، وعيون رؤساء الكهنة الملتهبة بنيران الحقد وشهوة الإنتقام ، وصراخ الدهماء والرعاع وغير ذلك من المشاهد التى أحالت فراشه الحريرى الوثير إلى فراش من شوك متوهج . أما زوجته فلم يغمض لها جفن إلى جواره وإن أدارت له ظهرها متظاهرة بالنوم لتصارع مشاعر الندم والذنب والضيق بمفردها بعد أن تأكدت من أن الكهنة والرعاع قد نجحوا فى قهر زوجها وفرض إرادتهم .

جلس بيلاطس فى شرفته يتأمل الأزهار المجدولة حول أعمدة السور المرمرية وهو يغبط الطبيعة على سكونها الذى لا يعرف القلق أو الندم أو الإحباط ، مثل صباح ذلك السبت الذى يستريح فيه كل اليهود عملاً بالوصية ، وهو اليوم الذى سيستريح هو بدوره من تلك الوجوه الكالحة والصيحات المنكرة التى فرضت نفسها عليه طوال اليوم السابق . فلن يجرؤ أحد من رؤساء اليهود وزعمائهم على نقض السبت فى أى عمل ، مهما كان خطيراً وملحاً ويمس أمن المملكة .

استرخى بيلاطس قليلاً على مقعده المرمرى فإذ به يسمع ضجيجاً آتيا من وراء أسوار الحديقة الرحبة التى تحيط بالقصر ، ويمزق أستار السكون المطبق . نهض واشرأب بعنقه فإذ به يلمح نفس الوجوه الكالحة والصيحات المنكرة التى أقلقت مضجعه . فصاح بصوت مستنكر يتفجر ضيقاً :

ـــ تبا لهؤلاء الكهنة والفريسيين ! إنهم لا يتورعون أن يفعلوا أى شىء يريدونه حتى لو كان فيه نقض الشريعة التى يتشدقون بقداستها ليل نهار ، ويتهمون الآخرين بنقضها ويحكمون عليهم بالصلب والموت !!

دخلوا من الباب الرئيسى وتوغلوا فى الحديقة التى عانت من أقدامهم بالأمس ليقفوا فى نفس الموضع :

إننا نذكر ياسيدنا أن ذلك المضل قال وهو حى إنى بعد ثلاثة أيام أقوم ، فأصدر أمرك بحراسة القبر حراسة محكمة حتى اليوم الثالث ، لئلاً يأتى تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من بين الأموات ، فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى !

لم يكبت بيلاطس ضحكة ساخرة زاخرة بالمرارة :

ــ ألا زلتم خائفين منه حتى بعد موته ودفنه فى القبر ؟!

أجاب قيافا مزيحا حشرجة فى حلقه :

ــ نحن نخاف تلاميذه الذين يمكن أن يصنعوا منه أسطورة !

واصل بيلاطس تساؤلاته الساخرة المتهكمة :

ــ وهل تخافون تلاميذه الذين أظهروا من الضعف والتخاذل والجبن ما لا يمكن أن يدفعهم إلى فعل جرىء مثل سرقة جثمانه من القبر ؟!

احتار قيافا فى البحث عن رد سريع لكن حنَّان أسعفه :

ــ لم يكونوا كلهم كذلك ! فقد ظل أحد تلاميذه المقربين إليه مرابطاً تحت الصليب حتى مات وأنزل من عليه !

أطلق بيلاطس ضحكة عالية لأول مرة :

ــ من يسمعكم يعتقد أنكم تؤمنون فعلاً بأنه سيقوم من بين الأموات ؟!

علق قيافا متظاهراً بالحكمة العميقة :

ــ إننا فقط نريد أن نجنبكم متاعباً أنتم فى غنى عنها !

دق بيلاطس بقبضته على السور المرمرى ثم فتح شفتيه المطبقتين :

لماذا تهرعون الىّ كلما أردتم فعل شىء ترغبونه ؟! هل تريدون أن تتخذوا منى ستاراً لأهدافكم ؟!

أجاب حنّان وقد بدا عليه التحفز :

ــ إننا فقط نظهر ولاءنا للامبراطورية وطاعتنا لسيادتكم !!

أشاح بيلاطس بوجهه بعيداً :

— وأنت تعلم جيداً عقوبة من يرفض طاعتنا ويقاوم الولاء للامبراطورية ؟!

رد قيافا بتخابث شديد :

— ولهذا جئنا للحصول على إذنكم !

حسم بيلاطس الحوار بلهجة عسكرية :

— إن عندكم حراساً فاذهبوا واحرسوه كما يبدو لكم !

لم يجدوا جدوى فى المزيد من الجدل فعادوا أدراجهم ليمروا بالهيكل ويصطحبوا معهم أربعة حراس أشداء حتى بلغوا القبر وهناك أحكموا انطباق الحجر على فوهته ، ثم أحاطوه بشريط من كتان ختموه بخاتم السنهدريم وأقاموا الحراس عليه شاهرين سيوفهم على أهبة الإستعداد لأى هجوم أو محاولة اختطاف . وعندما رأى قيافا الحراس الأشداء فى حللهم الحربية وسيوفهم اللامعة وخوذاتهم النحاسية ، منتصبين فى وقفتهم كالأصنام ، واحد منهم عند كل زاوية من زوايا القبر الأربع ، ابتسم فى رضا عميق ومال على حنّان هامساً :

— فليقم من الأموات كما يشاء ! فالحجر أثقل من أن يزحزحه هو أو غيره ! ناهيك عن الأعناق التى ستبتر والرؤوس التى ستطير اذا فكر أحدهم فى مجرد الاقتراب منه .

ثم هبطوا على تل الجلجثة مع باقى الكهنة مسرعين إلى بيوتهم حتى لا ينقضوا السبت أكثر من ذلك ، برغم أنهم منحوا أنفسهم حِلاً من ذلك إذ أن مهمتهم الصباحية تلك لم تكن فى نظرهم بأقل قداسة من حفظ السبت . ولذلك هرولوا عبر طرقات أورشليم التى خلت من البشر إلى بيوتهم القريبة من السنهدريم وهم يحمدون إله اسرائيل من أعماق قلوبهم على تأييده لهم حتى نجحت مهمتهم فى القضاء على الفتنة الكبرى التى كان يمكن أن تودى بالعقيدة اليهودية كلها إلى هاوية لا قرار لها .

أما التلاميذ فكان اليوم سبتا أسود أطبق على أنفاسهم حتى كاد أن يزهقها . لم يستطيعوا فكاكاً من أحاسيس الذنب التى تنهش أفئدتهم وعقولهم ، وعجزوا عن تصور حياتهم بدون المعلم ، وجرفتهم مشاعر الاحتقار النابعة من الداخل لتصب وابلها على نفوسهم بلا رحمة ، وبآلاف الأسئلة التى لا إجابات لها :

ــ هل يمكن أن يضرب الراعى فتتشتت الرعية بهذه السرعة وهذه البساطة ؟!

ــ هل كانت الرسالة الإلهية مجرد صرخة فى وادى الصم ؟!

ــ لقد تحققت كل النبوات القديمة ، فهل يمكن أن تتحقق نبوة هوشع عندما قال : فى اليوم الثالث يقيمنا فنحيا معه ؟!

ــ قال يسوع نفسه إن ابن الإنسان يسلَّم إلى أيدى الناس فيقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم ! وغدا هو اليوم الثالث فهل يقوم ؟!

ــ كنا نستمد اليقين والرجاء منه . فإذا لم يقم فلا يقين ولا رجاء ؟

ــ ماذا سنقول للناس عندما نواجههم ؟! وكيف يصدقون هم أن ابن الله الحى الذى أقام الآخرين من الموت ، يموت فى نهاية الأمر مثل كل البشر الفانين ؟!

ــ أكاد أموت رعباً من مجرد التفكير فى الغد ! ما أبشع أن يفقد الإنسان يقينه الراسخ بعد أن عاش به ثلاث سنوات ؟!

ــ أين أنت يايسوع كى تنقذنا من هذا الاعصار كما أنقذتنا من قبل من عاصفة بحيرة طبرية ؟!

ــ هل يمكن أن يستهزىء بنا العالم لأننا تبعناك وسرنا على هداك ؟!

ــ لم أتصور أن نصبح يوما كالأطفال اليتامى الذين كانوا يتيهون فخراً بأبيهم على العالم كله !!

ــ لن أسمح للشيطان أن يوسوس فى صدرى أكثر من هذا ! فإن ما رأينا ولمسناه بأنفسنا طوال السنوات الثلاث الماضية يؤكد أن موته هذا على خشبة الصليب ليس سوى البداية وليس النهاية !

ــ هل كان يمكن أن نصمد أمام هذا الطوفان الكاسح ؟! ولماذا لم يحاول أن يجنب نفسه ويجنبنا نحن إياه ؟!

هل كنت أصدق فى يوم من الأيام أننى سأنكره ثلاث مرات أمام الجوارى والخدم ؟! لشد ما أحتقر نفسى !!

هكذا دارت الأسئلة فى أفئدة التلاميذ وعقولهم كجمرات نار ، وتدفقت الهواجس كطوفان جارف أغرق أفكارهم ، وانطلقت الذكريات كحمم بركان لا يريد أن يخمد ، فوق ركام قلوبهم التى تجمدت فى صقيع الشك واليأس والضياع . دار كل هذا فى بيت يوحنا حيث تجمعوا هناك منذ ليلة أمس فلم يغمض لهم جفن ، وتبادلوا نظرات الحسرة والألم دون أن ينبسوا ببنت شفة . ومع انبلاج نور السبت فكر بعضهم فى زيارة القبر لكن إحساساً غامضاً ممضاً جعلهم يتراجعون . فقد كان كل همهم أن يهربوا من وطأة الكابوس الجاثم على أنفاسهم ، ولم يجدوا سبيلاً إلى ذلك سوى الخروج من بيت يوحنا والتجول هنا وهناك على غير هدى برغم شريعة السبت التى تمنع مجرد الحركة والتنقل فيه . أما يوحنا وبطرس فقد لزما عقر الدار فى انتظار ما يأتى به الغد .

(٥٤)

بزغ القمر فى قلب السماء فغمر بنوره الفضى التل وامتد ليغطى الأفق ، وذلك على النقيض من الليلة الماضية عندما بدا شاحباً هزيلاً يكاد يسقط متناثراً إلى أشلاء فى فضاء الكون الشاسع . آنس القمر حراس القبر الذين تعبوا من وقفتهم المشدودة شاهرى السيوف ، فوضعوها فى أغمادها وارتكزوا جالسين على الحافة الصخرية للقبر يتجاذبون أطراف الحديث وعيونهم على أى شبح قد يبدو هنا أو هناك على مرمى البصر ، فى انتظار مجىء الحراس الذين سيحلون محلهم بعد أن أوشكت نوبة حراستهم على الانتهاء بعد منتصف الليل بقليل . قال أحدهم وهو يتابع ضوء القمر الساطع ويحاول أن يستدفىء ببعض أعواد الحطب التى أشعلها :

ــ لم أر القمر ساطعاً هكذا من قبل ؟!

رد زميله مستمتعاً بالراحة السارية فى ساقيه المشدودتين :

ــ فى هذه الأيام الغريبة تقع أحداث عجيبة مثل ظلمة الظهيرة التى استمرت ثلاث ساعات أمس !

علق الحارس الثالث :

ــ والزلزال الذى هز الدنيا أمس ؟!

أضاف الرابع :

ــ وحجاب الهيكل الذى انشق نصفين من أعلاه إلى أسفله !!

ــ والصخور التى تشققت !!

ــ والقبور التى تفتحت وخرج منها الموتى ليدخلوا المدينة المقدسة ويظهروا لكثيرين !!

ــ هل هناك علاقة بين هذه الظواهر الكونية وبين صلب يسوع الناصرى وموته ؟!

ــ إذا كانت هناك ثمة علاقة فلابد أن تقع مرة أخرى ؟!

ـــ ما الذى أوحى إليك بهذا ؟!

ـــ لابد أنه مات مظلوماً .. وطالما أن الظلم قائم .. فسوف تتكرر مثل هذه الظواهر !! فالله لا يرضى بالظلم !

ـــ إياك أن يسمعك رؤساء الكهنة وأنت تتلفظ بمثل هذه الكلمات !! ستكون سعيدا الحظ إذا اكتفوا بطردك من حرس الهيكل !!

ـــ لقد سئمنا هذا الإرهاب ! يعاملوننا كما لو كنا عبيدهم الذين اشتروهم بأموالهم الخاصة !

ـــ ينامون ملء جفونهم فى بيوتهم الدافئة المضيئة ونحن نقبع هنا فى صقيع الليل نرقب الأشياء المحيطة بعيون لا تكل حتى نكاد نظن كل غصن تحركه الريح شبحاً يكاد ينقض علينا ليختطف الجثمان .

ـــ كل الجريمة التى ارتكبها هذا المظلوم وعوقب عليها بالموت أنه أقام موتانا وشفى مرضانا !

ـــ وهل تصدق هذا ؟!

ـــ لم أكن لأصدق لولا أننى رأيت بعينى رأسى !

ـــ وماذا رأيت على وجه التحديد ؟!

عند بركة بيت حسدا بجوار باب الضأن ذات سبت رأيته وأنا فى طريقى إلى بيتى بعد انتهاء حراستى بالهيكل وهو يشفى مقعداً مشلولاً منذ ثمان وثلاثين سنة بمجرد أمره بأن يقوم ويحمل سريره ويمشى وفى الحال برىء الإنسان وحمل سريره ومشى !

ـــ أما أنا فقد شهد أخى كيف أقام لعازر من الموت بمجرد صرخة آمرة منه !

ـــ إذن .. فلابد أن تكون الظواهر العجيبة التى وقعت مرتبطة بصلبه وموته !!

ـــ محتمل جداً ! لكن كيف يقيم الآخرين من الموت ويعجز هو عن إنقاذ نفسه ؟!

ـــ إنه سؤال قد يصيبك بالجنون إذا تركته يلح عليك دون أن تجد إجابة

شافية له !

ـــ إن مهمتنا هى حراسة هذا القبر لا البحث عن إجابات شافية ؟

وبمجرد أن انتهى الحارس من تعليقه ، جحظت عيناه فى ضوء أعواد الحطب التى خمد اشتعالها بعض الشىء ثم صرخ فى زملائه :

ـــ أتشعران بما أشعر ؟!

قال ثلاثتهم فى صوت لاهث :

ـــ إنه زلزال !! زلزال !! زلزال !!

وغطت قعقعة الصخور ، وتمزق التلال ، واهتزاز القبر الصخرى بعنف على صرخاتهم حتى بدا القمر نفسه فى عيونهم وهو يرتعش وينتفض فتزداد خيوطه الفضية بريقاً ولمعاناً وتألقاً ، وكأن الكون كله قد ارتدى سترة من ضياء نورانى عجيب ، وإذ بالسماء تفتح على مصراعيها وتنهمر منها دفقات من نور يغشى البصر ، وتتوالى الدفقات وتتكاثف مع أصداء ألحان شجية يرددها الأفق المتألق عند خط التقاء السماء بالأرض ، وإذا بملاك يهبط من قلب النور المتدفق من أبواب السماء كالبرق ولباسه أبيض كالثلج حتى يصل إلى القبر فيقف أمامه ثم ينحنى ليزحزح الحجر الضخم الثقيل ويدحرجه عن باب القبر كما لو كان ستاراً حريرياً يدفعه بأصابعه الرقيقة .

لم يصدق الحراس ما يرونه بعيونهم ، فتحول ذهولهم إلى شلل وهم على وشك الإصابة بالعمى أمام طوفان الضياء المتدفق من فوهة القبر المفتوحة ، والذى اتصل بدفقات النور المنهمرة من السماء ، وإذ بيسوع المدفون قد تخلى عن أكفانه والمنديل الذى كان على رأسه ، وتسربل بلباس أبيض كالثلج المتألق بوميض يخطف الأبصار وهو يصعد من الفوهة ، ووجهه النورانى صوب السماء ، وذراعاه ممدودتان على اليمين واليسار وكأنه يبارك الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها كان يصعد واقفاً فوق سحابات الضياء حتى ارتفع فوق القبر تاركاً إياه ، فى حين كان الحراس المذهولون المشلولون يتابعونه بعيون تحجرت فى مآقيها ، فلم يستطيعوا سوى أن يسقطوا على ظهورهم أو وجوههم كالأموات .

وظل مهرجان الضياء النورانى قائماً بين السماء والأرض حتى بدت خيوط الفجر تمتد عبر الأفق ، وتحل محل طوفان الضياء الذى أخذ فى الانحسار بين

باب السماء وفوهة القبر وسط تسبيح الملائكة المنتشية بانتصار ابن الله الذى كسر شوكة الموت . وقد بدا الفجر وكأن صبره قد نفد فإذ به يغمر الكون كله ، وإذ بالشمس تمد ذراعيها الذهبيتين على أطرافه دون أن تظهر وجهها الذى لا يزال متسربلاً بخمار الأفق الشفيف .

ومع طلائع الفجر الأولى مضت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومى وقد أحضرن طيبا ليأتين ويضمخنه ، ثم هرعن مع طلوع الشمس إلى القبر ، وكان السؤال الذى يلح عليهن دون أن تستطيع إحداهن الإجابة عليه :

ــ من سيدحرج لنا الحجر عن باب القبر ؟!

لكنهن عندما وصلن وتطلعن إلى القبر فاذا الحجر مدحرج على الرغم من أنه كان ضخماً جداً وقد اختفى الحراس . فبهتن لكن دون تفكير أو تردد دخلن القبر ليجدن فى الجانب الأيمن ملاكاً متسربلاً بحلة بيضاء فتملكهن الخوف ، وانتفضن رعباً لكنه قال لهن بصوت صادح كموسيقى الجنة :

ــ لا تخفن فأنتن تطلبن يسوع الناصرى المصلوب ، ولكنه ليس هنا فقد قام . وهذا هو المكان الذى كان راقداً فيه ، فاذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس إنه سيسبقكم إلى الجليل . فهناك ترونه كما قال لكم .

نظرن إلى القبر الفارغ فى ذهول فلم يلمحن سوى ضوء شفاف فى حين تسلل إلى أنوفهن عبق عجيب لم يلتفتن إليه لانشغالهن بالنظر إلى الأكفان الفارغة الموضوعة فى مكانها ، أما المنديل الذى كان على رأسه فكان ملفوفاً فى موضع وحده . فجأة خرجن مسرعات وهربن من القبر وهن يرتعدن ، وقد تملكتهن الدهشة وكن خائفات لدرجة أن ألسنتهن قد انعقدت ذهولاً ، فلم يقلن لأحد شيئاً . أما مريم المجدلية فظلت تقاوم ذهولها حتى استعادت تركيزها ثم ركضت وجاءت إلى سمعان بطرس ويوحنا لتقول لهما لاهثة :

ــ أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه !

وقع الخبر عليهما كالصاعقة ودون أن ينبسا ببنت شفة انطلقا خارجين راكضين . ونظراً لصغر سن يوحنا فقد سبق بطرس إلى القبر لكنه لم يدخل بل انحنى ليرى الأكفان الفارغة موضوعة فى قاعه ، وسرعان ما لحق به بطرس ليندفع ويدخل القبر ليتفحصه جيداً : الأكفان والمنديل الملفوف فى موضع وحده . وفى أعقابه دخل يوحنا القبر ليرى ويؤمن بكل ما قاله لهم يسوع

من قبل وهو أنه ينبغى أن يقوم من الأموات . لم يعرف بطرس ويوحنا ما الذى يجب عليهما أن يفعلاه على وجه التحديد ، فقد كان تفكيرهما مضطرباً للغاية ، ولم يملكا سوى أن يذهبا إلى البيت فى انتظار عودة التلاميذ الذين قضوا معظم الليل هائمين على وجوههم فى طرقات أورشليم الملتوية والمنحنية والصاعدة والهابطة تحت خيوط القمر وظلاله .

أما العذراء مريم أم يسوع فلم تستطع أن تتغلب على أحزانها المريرة برغم إيمانها بحتمية قيامة ابنها من الأموات . كانت قد قضت ليلتها فى بيتها الصغير المتواضع مسهدة تستعيد كل ذكريات حياتها مع ابنها الحبيب منذ أن ولدته فى بيت لحم اليهودية ومجىء المجوس بنبوءاتهم الثلاث بعد أن رأوا نجمه فى المشرق وحتى موته على خشبة الصليب وإنزاله من عليها لدفنه . كان الأحد هو اليوم الثالث الذى ينبغى أن يقوم فيه من الأموات ، ومع نور الفجر غمر قلبها نور اليقين بأنها ستراه حياً قبل غروب شمس ذلك اليوم .

أما مريم المجدلية فلم تعرف ماذا يمكن أن تفعله سوى أن ذهولها ألصقها بالقبر فلم تستطع أن تفارقه ، وظلت تدور حوله مرات ومرات من الخارج وهى تبكى ، وفيما هى تبكى انحنت إلى القبر مرة أخرى ، فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحداً عند الرأس والآخر عند الرجلين حيث كان جسد يسوع موضوعاً ، فقالا لها :

ــ يا امرأة لماذا تبكين ؟!

قالت لهما :

ــ إنهم أخذوا سيدى ولست أعلم أين وضعوه !

ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفاً ، لكن ستار الدموع على عينيها الحمراوين ، وسهد الليالى السابقة المضنية ، وتمزق قلبها بين الحزن والرجاء ، وبين الألم والأمل ، لم يجعلها تدرك لأول وهلة أن هذا الشخص النورانى هو يسوع نفسه الذى قال لها :

ــ يا امرأة لماذا تبكين ؟! من تطلبين ؟!

فقد صور لها عقلها المجهد ونفسها الجريحة أنه البستانى ، فقالت له :

ــ ياسيد إن كنت أنت قد حملته فقل لى أين وضعته وأنا آخذه !

كانت تنظر إلى موطىء قدميها ساهمة وهى تكلمه بنفس كسيرة ، لكن بمجرد أن سمعت صوته الحبيب وهو يناديها :

ــ يامريم !

التفتت إليه وقد تهدج صوتها :

ــ ربونى !

الذى تفسيره يامعلم ، فقال لها يسوع بصوته المتدفق بالحنان والوداعة :

ــ لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ولكن اذهبى إلى اخوتى وقولى لهم إنى صاعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم .

تركت اللوعة الذاهلة مكانها فى داخل مريم المجدلية ، للوعة المنتشية وكانت أول من فكرت فيه : مريم العذراء أم المخلص فقررت أن تطير إليها بما رأت وسمعت قبل أن تخبر التلاميذ . كانت أم المخلص جالسة وقد وضعت رأسها بين يديها فظنتها المجدلية فى اغفاءة ، لكن العذراء نهضت بمجرد أن وقفت المجدلية أمامها وقبل أن تفتح فمها بكلمة كما لو كانت فى انتظار الخبر اليقين . لم تملك المجدلية سوى أن تعانق أم المخلص لاهثة بدموع الفرح والكلمات النابضة بالنشوة :

ــ لقد قام من الأموات وأمرنى بالذهاب إلى إخوته لأقوال لهم إنه صاعد إلى أبيه وأبينا وإلهه وإلهنا !

أضاء وجه العذراء بابتسامة مشعة بالدفء والحنان :

ــ كنت أحفظ كل هذه الأمور فى قلبى .

أسرعتا سوياً عبر الطريق المؤدية إلى البوابة المفتوحة على التل حيث حفر القبر فى صخوره ، وصعدتا لاهثتين وهما تكادان تتعثران فى أهداب ردائيهما حتى بلغتا الملاك الذى كان عند باب القبر والذى قال لهما والنور يتدفق من كل أعطافه :

ــ لا تخافا فإنى أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب . إنه ليس هنا فقد قام

كما كان قد قال . فهلما أنظرا الموضع الذى كان الرب راقداً فيه واذهبا سريعاً وأخبرا تلاميذه بأنه قد قام من بين الأموات . وها هو سيسبقكم إلى الجليل فهناك ترونه . هاأنذا قد قلت لكما .

خرجتا مسرعتين من القبر بخوف وفرح عظيم ، وركضتا لتخبرا التلاميذ . وإذا يسوع قد لا قاهما وقال :

ـــ السلام لكما .

فتقدمتا وتشبثتا بقدميه وهما تسجدان له . فقال لهما يسوع :

ـــ لا تخافا . اذهبا وقولا لإخوتى أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يروننى .

ولم تبخل مريم المجدلية بالخبر على النسوة الأخريات اللاتى كن قد جئن مع يسوع من الجليل ، فأسرعن بدورهن إلى القبر فلم يجدن جسد الرب يسوع ، وفيما كن متحيرات فى ذلك ، إذا برجلين قد وقفا بهن فى ثياب براقة ، وإذ انتابهن الخوف ونكسن وجوههن إلى الأرض قال لهن :

ـــ لماذا تطلبن الحىّ بين الأموات ؟! إنه ليس ههنا لكنه قام . أذكرن كيف كلمكن وهو بعد فى الجليل ، قائلاً أن الإنسان ينبغى أن يُسلَّم الى أيدى أناس خطاة ويصلب وفى اليوم الثالث يقوم !

اكتسبت وجوههن اشراقة من كلماتهما المضيئة وثيابهما البراقة وتذكرن كلام يسوع ، وعدن من القبر ليخبرن التلاميذ والباقين جميعاً بهذا كله ، وكانت معهن مريم المجدلية ويوانا ومريم أم يعقوب ، لكن كلامهن بدا للتلاميذ والرسل كالهذيان ولم يصدقوهن ، حتى بطرس ويوحنا اللذين شاهدا القبر الفارغ بأنفسهما ، لم يقاوما هجمات الشك الذى وسوس فى صدريهما بأن أحداً قد اختطف جثمان يسوع وأخفاه ، والا فلماذا لم يريا يسوع كما رأته هؤلاء النسوة ؟!

وهما الأحق برؤيته بحكم أنهما من تلاميذه ؟!

هام حراس القبر على وجوههم فى ضواحى المدينة النائية ، يطاردهم رعب الزلزال والقعقعة والضياء الذى أوشك أن يصيبهم بالعمى . فكروا فى الهرب إلى خارج أورشليم إذ أن عقوبة تخليهم عن تأدية واجبهم العسكرى هى الموت ، لكنهم فى سيرهم المتلصص أدركوا أن ما ارتكبوه سيظل يطاردهم حتى لو فروا إلى أقاصى المسكونة ، إذ أن الهمسات بين المارة ، والشائعات التى تناقلوها على مسمع منهم أكدت أن الخبر كان له قصف الرعد ووميض البرق فى كل طرقات المدينة وأزقتها . ولذلك فإن الشرف العسكرى كان يحتم عليهم تسليم أنفسهم لمجلس السنهدريم حتى لو حكم عليهم بالموت ، إذ أن ما وقع لهم كان فوق طاقة أى بشر فى الوجود . فهم لم يهملوا فى أداء واجبهم ، وإنما ما جرى لا يقع تحت طائلة أى قانون أو ناموس أو شريعة .

عقدوا العزم على تسليم أنفسهم وساروا بخطى منتظمة راسخة لأول مرة منذ فرارهم من قبر الزلزال والقعقعة والضياء فى طريقهم إلى مبنى السنهدريم المتاخم للهيكل حيث كان بعض رؤساء الكهنة وعلى رأسهم قيافا وحنَّان يناقشون كيفية التأكد من حقيقة الشائعات السارية فى المدينة منذ الصباح الباكر ، والمعلومات التى عاد بها الحراس الذين أُرسلوا ليحلوا محل الذين انتهت نوبة حراستهم بعد انتصاف الليل فلم يجدوا أحداً منهم فى موقعه ، والقبر كان فارغاً ، فعادوا أدراجهم ليخبروا رؤساء الكهنة بالكارثة .

كان النقاش حاداً بين الرؤساء والأحبار ، لكنه توقف فجأة بمجرد دخول الحراس الأربعة ووقوفهم مشدودين منتصبين أمام قيافا الذى صاح فى كبيرهم :

ــ هل كنتم تنوون الهرب ؟! أرسلنا من يبحث عنكم فى كل مكان !! هل تعرفون عقوبة الهرب أثناء تأدية الخدمة ؟!

ارتعش صوت الحارس وهو يحاول التماسك قدر الإمكان :

ــ لو كنا ننوى الهرب لما جئنا هنا من تلقاء أنفسنا !

ــ وما السبب فى تأخيركم كل هذه المدة ؟!

ــ كانت المفاجأة قد أصابتنا بذهول جعلنا نهيم على وجوهنا !

ــ وما الذى هداكم إلى مجلسنا طالما أنكم مذهولون ؟!

ــ كان لابد أن نتماسك ونحسم أمرنا فى النهاية .

ــ وهل المفروض فى الجنود أن يذهلوا ويهيموا على وجوههم ؟! كيف يحاربون إذن دفاعاً عن هيكل الله وشريعة الرب ؟!

ــ ما جرى لنا أمر لا يصدقه عقل .. ولم تره عين بشرية من قبل !!

ــ لابد أنكم كنتم مخمورين عندما تصورتم مثل هذه الأوهام ؟!

ــ من أين لنا بالخمر فى وقفتنا العسكرية حول القبر الذى لم يقترب منه أحد حتى وقع ما وقع بعد انتصاف الليل ؟!

ــ وما هذا الذى وقع بالضبط ؟!

ــ الرب شاهد على ما أقول ! فقد شعرنا نحن الأربعة بزلزال عظيم مزق التلال والصخور وهز القبر الصخرى بعنف ، وبدا الكون كله وقد ارتدى سترة من ضياء نورانى عجيب ، وانفتحت السماء عن سحابات من نور يغشى الأبصار ، ومنها هبط ملاك كالبرق بلباس أبيض كالثلج حتى بلغ القبر ودحرج الحجر عن بابه وإذ بيسوع المدفون قد صعد من فتحة القبر بوجه نورانى صوب السماء ، وكأنه يقف على سحابات النور التى ارتفعت به بعيدا عن القبر .

ــ وهل اكتفيتم بدور المتفرجين ؟! ألم يكن معكم سيوف ؟! وما فائدة وجودكم إذن هناك ؟!

ــ لم ندر بأنفسنا إلا ونحن نسقط على الأرض كالأموات !

ــ ولماذا لم تظلوا هناك كالأموات حتى نجدكم ؟!

ــ يبدو أننا همنا على وجوهنا فى طرقات المدينة ولم نكن قد عدنا إلى وعينا تماماً !! على أية حال فقد جئنا ونحن على استعداد للموت !

ران الصمت على القاعة وتبادل رؤساء الكهنة النظرات الزاخرة باليأس والإحباط ثم صاح قيافا فى الحراس الواقفين فى الأركان ، مشيراً إلى الحراس المتهمين :

ــ اقبضوا عليهم وضعوهم تحت الحراسة فى حجرة جانبية إلى أن نبت فى أمرهم !

تقدم الحراس من أركان القاعة وأمسكوا بالمتهمين واقتادوهم إلى ممر جانبى معتم ابتلعهم . انهمك رؤساء الكهنة والشيوخ والفريسيون والكتبة والصدوقيون والناموسيون والهيرودسيون فى المشاورات الهامسة والمداولات الجانبية وقد نضحت الحيرة من عيونهم الجاحظة ، وطفح القلق على شفاههم المرتعشة لدرجة أن قيافا تفوه بجملة بلغت آذان الحرس والخدم المرابطين عند الأبواب عندما قال :

ــ لم أكن أتصور أن يمتد بى العمر لأرى أياماً غريبة مثل هذه !

لكنه سرعان ما عاد إلى الاندماج فى المشاورات الهامسة ثم رفع رأسه فجأة وصفق للحراس :

ــ فلتأتوا بهم مرة أخرى .

تركزت العيون على الممر الجانبى المعتم حيث خرج الحراس المتهمون ليمثلوا مرة أخرى أمام هيئة المحكمة دون هزة خوف من نوعية الحكم الذى سيصدر عليهم ، فى حين تحرك أحد الأحبار إلى خزانة المجمع ليخرج منها أربعة أكياس مليئة بالنقود عاد بها ليضعها على المنضدة أمام قيافا الذى صاح فى المتهمين :

ــ لقد اكتشفنا أن لا ذنب لكم فيما جرى . بل إنكم عرضتم حياتكم للخطر من أجل القيام بواجبكم ولذلك رأت الهيئة الموقرة أن تكافئكم على هذه التضحية !

ثم مد يده يمسك بالأكياس ويسلمها واحداً واحداً للحراس الأربعة الذين عجزوا عن إخفاء ذهولهم مرة أخرى وهم يتسلمون الأكياس بحركات عسكرية آلية لجأوا بعدها إلى الوقفة المنتصبة المشدودة ليستمعوا إلى بقية الحكم العجيب على لسان قيافا :

ــ قولوا : إن تلاميذه قد أتوا ليلاً وسرقوه فيما نحن نيام !

أزاح كبير الحراس حشرجة فى حلقه وقال بنبرات خجلى :

ــ وإذا بلغ ذلك مسامع الوالى الرومانى ؟! ماذا يمكن أن نعمل ؟!

ــ سنتولى نحن إقناعه وسنرفع عنكم أى أذى يمكن أن يحيق بكم . ثم دق المنضدة بقبضة يده المعروقة :

ــ فلتنصرفوا فأنتم أحرار .

أدى الحراس التحية العسكرية وعيونهم لا تصدق ما يجرى حتى خرجوا من القاعة ، فى حين انبرى الحبر تبراس قائلاً لقيافا :

ــ إذا لم يصدقهم الشعب ومال إلى الإيمان بالواقعة الحقيقية فسوف ينقلب علينا ويطيح بنا !

خرج نيقوديموس من قوقعة تردده ، وأوحت نبراته بمنتهى الثقة بنفسه بل وبفرحته بقيامة يسوع عندما قال :

ــ إن كانوا قد ناموا فكيف عرفوا أن تلاميذه قد أتوا وسرقوه ؟!

التقط يوسف الرامى الخيط من نيقوديموس :

ــ وإن كانوا حقاً قد سرقوه وهم نيام .. فكيف لم يشعروا بهم وهم يدحرجون الحجر الضخم الثقيل من على باب القبر ؟!

أضاف سمعان الأبرص قوله بمجرد أن صمت يوسف الرامى :

ــ هل كانوا مستغرقين فى النوم لدرجة أنهم لم يتعقبوهم ويلحقوا بهم ليأخذوه منهم ويعيدوه إلى القبر دفعاً للمسئولية عن أنفسهم ؟! وهم الحراس الأشداء الأقوياء القادرون على الجرى السريع ؟!

عندئذ أكد أناس على أن :

ــ مجرد نومهم أثناء نوبة حراستهم جريمة عقوبتها الموت فى النظام العسكرى !

قال الحبر سوباط فى إحباط متسائل فى مرارة :

ــ كيف نسمح لأنفسنا ونحن حفظة الناموس وحماة الشريعة أن نكذب هكذا بل ونعلم الآخرين الكذب ؟! هل هذه من وصايا الرب لنا ؟!

شعر حنَّان بحرج قيافا وحيرته فى البحث عن رد عاجل فحاول إسعافه :

ـــ للضرورة أحكام . فنحن لم نلجأ إلى هذا إلا بهدف حفظ الناموس وحماية الشريعة !

لم يصمت نيقوديموس بل واصل زحفه :

ـــ لا يمكن أن تؤدى الوسائل غير الشرعية إلى غايات شرعية !

تساءل الحبر يوشافاط :

ـــ هل تسرعنا فى صرف الحراس المتهمين ؟! كان لابد أن نتأكد من أنهم سينفذون أوامرنا بالحرف الواحد .. خاصة وأن ما مروا به لم يكن شيئاً بسيطاً أو هيناً بحيث يمكن نسيانه بسهولة !!

حاول قيافا استعادة زمام المبادرة مرة أخرى :

ـــ لا تخف .. فقد أرسلنا العيون وراءهم .. فحتى همساتهم سنعلمها أولاً بأول !

عندئذ وقف يوسف الرامى وكأنه على وشك مغادرة القاعة قائلاً :

ـــ ليس المهم أن يصدق الشعب الحراس أو يكذبوهم .. لأن السؤال المهم والملح الآن حتى نكون صادقين مع أنفسنا على الأقل : هل نصدق ما جرى أم أنه مجرد أكذوبة كبرى فى نظرنا ؟!

هبط سؤال يوسف الرامى على رؤوسهم كالصاعقة فلم يجد أحد منهم الجرأة على مجرد التعليق ، ويوسف الرامى يتأمل وجوههم ويتفحص عيونهم الواحد بعد الآخر ، فلم يجد منهم سوى محاولات صامتة مستميتة للتغلب على مشاعر الخجل والإحباط واليأس والإحتقار والظهور بمظهر القضاة العادلين من أجل حفظ الناموس وحماية الشريعة . فلم يملك يوسف الرامى سوى أن يبتسم ابتسامة ساخرة مريرة ويترك القاعة التى غرقت فى أمواج الصمت المشحون بالتوتر والحرج . فقد تأكد الجميع أن الزلزال الذى شعروا به بعد منتصف الليل لم يهز القبر أو المدينة فحسب بل أصاب مجمعهم المقدس بشرخ فى القلب .

فى نهار الأحد الذى قام يسوع فى فجره ، اكتسبت السماء صفاءً ونقاءً عجيبين . كانت أشعة الشمس تمتزج ببقايا الضباب فتتدلى منه خيوطاً ذهبية وشفافة فى نفس الوقت . أما الأشجار والمروج والبساتين فقد تراقصت خضرتها وتألقت تحت ماسات الندى التى داعبت الخيوط الذهبية . وأعواد الأزهار والورد تمايلت بحمرتها وصفرتها وبياضها مع هبات النسيم الذى سرى بأريجها فى الطرقات والميادين . فقد بدت الدنيا وكأنها عروس فى يوم زفافها : جميلة ، رقيقة ، فاتنة ، ساحرة ، معطرة ، باسمة فى خجل العذارى ، برغم أن البيوت والطرقات كانت مشحونة بالأحاديث المتفجرة عن الأحداث الملتهبة الدامية الرهيبة التى وقعت فى الأيام الأخيرة ويبدو أنها انتهت بحدث فجر اليوم الذى لم ولن تمر البشرية بمثله ، فقد قام يسوع الذى صلب ومات ودفن من بين الأموات .

فى ذلك النهار الفريد انطلق اثنان من تلاميذ يسوع كانا قد انضما إليه بعد اختياره للاثنى عشر ، من أورشليم فى طريقهما إلى قرية عمواس التى تبعد عنها سبعة أميال . وكانا يتحدثان معاً عن هذه الأحداث كلها . وفيما هما يتطارحان الكلام ويتناقشان لقطع ملل الطريق ، اقترب يسوع نفسه منهما وسار معهما . ولكنهما قد أخفى عن أعينهما لكى لا يعرفاه ، فظناه مسافراً يريد أن يأنس بهما ، لكنهما فوجئا بسؤاله بعد أن ألقى كل منهما بما فى جعبته من أخبار وآراء وتعليقات :

ـــ ما هذا الكلام الذى تتطارحانه ؟! لماذا كل هذا العبوس ؟!

ـــ أصابتهما كآبة مفاجئة وقد امتزجت بدهشة فوقفا فى حين تساءل أحدهما وكان يدعى كليوباس :

ـــ أأنت المتغرب الوحيد فى أورشليم الذى لا يعلم الأمور التى حدثت فيها فى هذه الأيام ؟!

سألهما بنفس وداعته العذبة :

ـــ وما هى ؟

أجابا سويا بكلمات تنضح ذهولاً وحزنا وحيرة :

ـــ الأمور المختصة بيسوع الناصرى الذى كان إنساناً نبياً مقتدراً فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشَّعب . كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه . ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى إسرائيل . ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك . بل بعض النساء منا حيَّرننا إذ كُنَّ باكراً عند القبر . ولما لم يجدن جسده أتين قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حيٌّ . ومضى قومٌ من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضاً النساءُ وأمَّا هو فلم يروه .

استأنفا سيرهما ويسوع معهما يقول :

ـــ أيها الغبيان والبطيئا القلوب فى الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء . أما كان ينبغى أنَّ المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده ؟!

اندهشا للهجته الزاخرة باليقين فلم يقاطعاه وهو يتساءل :

ـــ ألم يسجل سفر العدد وحى بلعام بن بعور الذى تنبأ بالكوكب الذى سيبرز من يعقوب والقضيب الذى سيقوم من إسرائيل ؟ ألا تعرفان نبوة إشعياء عن الشعب السالك فى الظلمة الذى أبصر نورا عظيماً ؟! والجالسون فى ظلال الموت الذين أشرق عليهم نور ؟!

لم يستطع التلميذ الآخر الصمت وقد بهر بعلمه الغزير . فتساءل :

ـــ لقد رأينا الأموات يخرجون من القبور التى تفتحت ويدخلون أورشليم فى نفس اللحظة التى صرخ فيها بصوت عظيم على الصليب وأسلم الروح .. فهل هذا يعنى أنه انتقل بروحه إلى عالم الأرواح التى كانت فى انتظار رسالته ؟! لأنه جاء لكل البشر : الأحياء منهم والأموات ؟!

أضاف كليوباس بنفس الحماس المتدفق .

ـــ لقد سمعه المحيطون بالصليب يقول للص المصلوب على يمينه : اليوم تكون معى فى الفردوس . لابد أنه بشّر أيضاً إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وصموئيل وأيوب وداود وسليمان وإشعياء وإرمياء وحزقيال ودانيال وهوشع وزكريا وملاخى ويوحنا المعمدان ؟

أجابهما يسوع دون أن ينظر إليهما :

— لقد بشروا به ليأتى بعدهم ويتوج كل أعمالهم . ألم يقل إشعياء : هوذا الرب قد أخبر إلى أقاصى الأرض : قولوا لابنة صهيون ، هوذا مخلصك آت ؟! ألم يقل هوشع : لا مخلص غيرى .. من الموت أخلصهم ؟! ألم يقل أيوب : فدى نفسى من العبور إلى الحفرة . فترى حياتى النور ؟! ألم يؤكد إشعياء على أن : أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها .. وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا .. كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه ، والربُّ وضع عليه إثم جميعنا . ظُلِمَ أما هو فتذلَّل ولم يفتح فاه ، كشاة تساق إلى الذبح . وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه .. وجعل مع الأشرار قبره .. جعل نفسه ذبيحة إثم .. سكب للموت نفسه .. وهو حمل خطية كثيرين وشفع فى المذنبين ؟

لهج لسان كليوباس بكلمات حارة :

— نعم : فهو ابن الله الذى تنطبق عليه كل نبوات الأسفار !

استأنف يسوع حديثه المبهر فى سيره الوئيد معهما :

— ألم تهتف المزامير : مبارك الآتى باسم الرب ؟! ألم يهتف زكريا : اهتفى يابنت أورشليم ، هوذا ملكك يأتى إليك . هو عادل ومنصور . وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان . ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض ؟! ألم يتنبأ زكريا بلسان التلميذ الخائن : فقلت لهم إن حسن فى أعينكم فأعطونى أجرتى .. فوزنوا أجرتى ثلاثين من الفضة . فقال لى الرب ألقها الى الفخارى . الثمن الكريم الذى ثمنونى به . فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخارى فى بيت الرب . كذلك تنبأ زكريا قائلاً : اضرب الراعى فتتشتت الغنم .

لم يستطع التلميذ الآخر أن يمنع نفسه من التعليق :

— كأنهم كانوا يقرأون الغيب فى كتاب مفتوح !

واصل يسوع تساؤلاته التى وجدت إجاباتها كلها ، الواحدة بعد الأخرى ، منذ ميلاده وكرازته وتسليمه ومحاكمته وصلبه وموته ودفنه وقيامته :

ــ ألم تتنبأ المزامير بلسان المسيح : يقسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون ؟! ألم ينطق داود بما نطق به المسيح على الصليب : إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ كل الذين يروننى يستهزئون بى . يغفرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين : اتكل على الرب فلينجه ؟! ألم يقل : يجعلون فى طعامى علقما ، وفى عطشى يسقوننى خلاً ؟! ألم ينشد داود : قد أكمل ... فى يدك أستودع روحى ؟!

صاح كليوباس كأن عالماً مبهراً قد تفتح أمام عينيه :

ــ رأينا كل هذا يحدث بالحرف الواحد !!

واصل يسوع تعليمه والشمس تميل إلى الغروب :

ــ ألم تتنبأ المزامير بقيامة المسيح ؟ أنا اضطجعت ونمت . استيقظت لأن الرب يعضدنى .. فرح قلبى وابتهجت روحى . جسدى أيضاً يسكن مطمئناً لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً . تعرفنى سبل الحياة ... لا أموت بل أحيا وأحدث بأعمال الرب .. إلى الموت لم يسلمنى .. الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيب من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه .. هم جثوا وسقطوا أما نحن فقمنا .

ابتسم التلميذ الآخر وهو يخب المسير بجوار يسوع :

ــ اذن .. كل ما قالته النساء اللاتى ذهبن باكراً عند القبر ولم يجدن جسده ورأين منظر ملائكة وقالوا إنه حى .. كل هذا كان صحيحاً !

كانت مناظر الطريق تتابع بحقولها وجداولها وأشجارها ، لكن كلمات يسوع كانت أبهى وأروع فلم ير التلميذان أو يسمعا سواها :

ــ ألم يتنبأ هوشع قائلاً : يحيينا بعد يومين .. فى اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه ؟ وكما جاء فى المزامير : صعدت إلى العلاء .

تساءل كليوباس والإنبهار يسيل من عينيه فى ضوء الغروب :

ــ وهل يعنى هذا أن المسيح سيصعد إلى السموات ؟!

لم يزد يسوع عن قوله :

ـــ لكى يتم المكتوب .

حاول التلميذان النظر فى وجه هذا الشخص العجيب الذى يفيض عليهما بعلمه ، لكن غطاء الرأس الداكن كان يخفى معظمه . كان يشع بهاء ورواء وغموضاً وهيبة لدرجة أنهما لم يتجاسرا على السؤال عن هويته ، وبمجرد أن توقف عن الكلام ران الصمت حتى إذا اقتربوا من قرية عمواس التى كانا يقصدان إليها ، بدا كما لو كان متجهاً إلى مكان أبعد . وعندما انفصل عنهما تشبثا به فى قوة قائلين :

ـــ امكث معنا ، لأنه حان المساء وقد انقضى النهار .

لم يشأ يسوع أن يخيب رجاءهما فدخل إلى بيتهما ومكث معهما . ولما جلس معهما لتناول الطعام على المائدة الخشبية المتواضعة ، أخذ الخبز وباركه وقسمه وناولهما . فى تلك اللحظة المتفجرة بالضياء انفتحت أعينهما وعرفاه ، لكنه فى اللحظة ذاتها اختفى عنهما دون أن يخرج من باب الغرفة . لكن الذهول لم يمنع من أن يقول أحدهما للآخر فى تساؤل محموم :

ـــ أما كان القلب مضطرما فينا وهو يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الأسفار المقدسة ؟!

ودون تفكير أو تردد نهضا على الفور ورجعا إلى أورشليم تحت جنح الظلام فبلغاها وكان معظم سكانها قد آووا إلى فراشهم ، لكنهما وجدا الأحد عشر تلميذاً والذين معهم ساهرين مجتمعين يتشاورون فى الخروج من هاوية الحيرة التى وقعوا فيها حتى القاع . فأخبراهم بما حدث لهما فى الطريق وكيف عرفاه عندما قسم الخبز وناولهما بعد أن باركه ثم اختفى من الغرفة فى اللحظة نفسها . كانا يظنان أنهما قد جاءا إليهم بالخبر اليقين ، لكنهم لم يصدقوا هذين التلميذين أيضاً ، فقد ظلوا فى حاجة الى اليد التى تنشلهم من هاوية الحيرة .

(٥٧)

تحولت حيرة التلاميذ وضياعهم إلى رعب أوشك أن يوقف قلوبهم عن أن تنبض . فقد كانت عيون رؤساء الكهنة والكتبة والصدوقيين والفريسيين تطاردهم حيثما حلوا وحيثما ذهبوا . ولم يجدوا ما يواجهون به أعداءهم وخصومهم الذين ظنوا أنهم اختطفوا جسد يسوع وأخفوه لإدعاء قيامته بعد ذلك بطريقة أو بأخرى . ولذلك رصدوا كل حركاتهم وسكناتهم لعلهم يصلون إلى المكان الذى خبأوا فيه الجسد . لكن السؤال الذى ألح على عقول التلاميذ وأطار صوابهم دون إجابة كان :

ــ إذا كان يسوع قد قام حقاً من الأموات ، فلماذا لم يظهر لهم وهم تلاميذه وأقرب المقربين إليه حتى يشد من عضدهم ويثبت لهم أن مجيئه إلى هذه الأرض لم يكن عبثاً وبلا جدوى ؟! صحيح أنهم تخلوا عنه فى محنته لكنه عالم بكل أسرار الضعف البشرى ؟!

كانوا قد اعتادوا التجمع داخل أبواب مغلقة خوفاً من اليهود ، ولم يأذنوا بفتح الباب إلا بعد التأكد من شخصية الطارق ، بل إن هبات الريح ولطمها للأبواب كانت تسرى بالرعب فى قلوبهم . عندئذ فكر بعضهم فى أنه لم يتبق لهم سوى الصلاة حبلاً يتعلقون به حتى يصلوا إلى اليقين ، فإن الرب لا يخيب رجاء من يطلبه . ركعوا جميعاً فى صلاة صامتة خاشعة ، انحنت بعض الرؤوس فى حين ارتفع البعض الآخر تجاه السماء ، والهمسات المتهدجة تتردد أصداؤها بين جنبات القاعة المتواضعة ذات الشموع الشاحبة فى عشية ذلك اليوم . لكن فجأة تفتحت العيون المغمضة فى خشوع وضراعة على نور يفيض فى القاعة ويكاد يغرقها ، وإذ بيسوع وقد وقف فى الوسط دون أن يفتح باب واحد وقال لهم بصوته الحبيب الوديع :

ــ سلام لكم .

عقد الذهول ألسنتهم ، وتحجرت عيونهم فى محاجرها ، وأصبحوا تماثيل الرعب والفزع إذ ظنوا أنهم يرون روحاً . فسألهم وابتسامة الانتصار الإلهى تضىء وجهه المشع بالحب والحنان والوداعة :

ــ ما بالكم مضطربين ؟! ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم ؟! انظروا يدى ورجلى !

نظروا وتأملوا وتكأدوا لكن ألسنتهم ظلت عاجزة عن النطق وهو يمد إليهم يديه ثم يريهم رجليه حيث دقات المسامير لا تزال غائرة ، قائلاً لهم :

ــ جسونى وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى .

مدوا أذرعا مرتعشة مترددة ليلمسوا يديه ورجليه ، ونظرات الأطفال الذين عثروا فى النهاية على أبيهم تومض فى أعينهم ، وطوفان النشوة والفرح يجرفهم إلى آفاق تمزج الحلم باليقظة . كذلك لم يخف يسوع فرحة الأب بلقاء أبنائه الذين جرفتهم الدهشة والذهول ، فأراد أن يعيدهم إلى أرض الواقع الراسخ مرة أخرى ، فسألهم بابتسامته العذبة المشرقة التى طالما أضاءت دهاليز نفوسهم فى لحظات المحنة وليالى العتمة :

ــ أعندكم ههنا طعام ؟!

فأسرعوا بنشوة الأطفال يقدمون له بعض السمك المشوى وشهد العسل الموجود عندهم منذ الغداء إذ لم تكن لهم أدنى شهية لتناوله بعد أن أصبح الرعب غذاءهم اليومى . أما الآن فوداعاً للرعب ، فقد عاد المخلص وهو الآن بروحه وجسده يتناول الطعام أمامهم ويفسر لهم :

ــ هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لابد أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير .

تفتحت أذهانهم واستنارت بأضواء كشفت لهم ما قيل فى الكتب ، وندموا على عجزهم عن تصديق كليوباس وزميله عندما أسرعوا إليهم بأنباء لقائهم معه والحوار المثير الذى دار بينهم وهما فى طريقهما إلى قرية عمواس . ولذلك شحذوا قدرتهم على التركيز حتى لا تفوتهم كلمة من كلمات النعمة المنهمرة من فمه بعد أن فاتهم منها الكثير قبل المحنة :

ــ هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات فى اليوم الثالث . وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم ابتداء

من أورشليم . وأنتم شهودٌ لذلك . وها أنا أرسل إليكم موعد أبى . فأقيموا فى مدينة أورشليم إلى أن تلْبَسوا قوة من الأعالى .

كان هذا أول ظهور ليسوع لتلاميذه الأحد عشر ، وهو الظهور الذى لم يشهده توما إذ كان متغيباً . لكنه عاد للقائهم أخبروه بلسان واحد يقطر بنشوة الفرح :

ــ قد رأينا الرب !

كان توما قد سمع مثل هذا الكلام من قبل من مريم المجدلية وكليوباس وزميله ، وهو الكلام الذى لم يصدقه أحد حينذاك ، ولذلك لم تبد على وجهه الدهشة بل قال بصوت يمزج الشك بعدم الاكتراث :

ــ إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير وأضع اصبعى فى أثر المسامير وأضع يدى فى جنبه لا أؤمن .

لم يهتم التلاميذ الآخرون كثيراً بضرورة اقناعه ، اذ أن الأمور التى وقعت فى الأيام الأخيرة ارتفعت كثيراً فوق مستوى الإدراك البشرى ، وأصبحت تتطلب رؤية العين ، ولمسة اليد ، وسماع الصوت فى محاولة مستميتة لاستيعاب أبعاد الإعجاز الإلهى فيها .

وكان يسوع يلتمس العذر دائماً لكل صور العجز البشرى ، إذ بعد ثمانية أيام كان التلاميذ يجلسون ومعهم توما داخل الأبواب المغلقة كما كانت عادتهم فى الأيام الأخيرة حتى يمنعوا عيون اليهود من التلصص والتجسس ، وإذ بهم يرون يسوع فى وسطهم محاطاً بهالة من ضياء نورانى قائلاً :

ــ سلام لكم .

ثم مد يده لتوما قائلاً :

ــ هات اصبعك إلىَ هنا وأبصر يدى ، وهات يدك وضعها فى جنبى ولا تكن غير مؤمن بل مؤمنا .

اعترى توما فيضان من خجل وحرج تألق بقطرات العرق على جبينه وتحت أذنيه وهو يصيح فى لجاجة :

ربى وإلهى .

لكن يسوع لم ينفعل :

ـــ لأنك رأيتنى ياتوما آمنت . طوبى للذين آمنوا ولم يروا »

وتوالى ظهور يسوع لتلاميذه حتى يطرد من قلوبهم بقايا الشك والحيرة التى زرعتها المحنة . فقد عادوا إلى ممارسة حياتهم الطبيعية ، وذات يوم التقى بطرس وتوما ونثنائيل ويوحنا ويعقوب ابنا زبدى واثنان آخران من التلاميذ فى بيت بطرس الذى يقع على ضفاف بحيرة طبرية حيث قال لهم بطرس :

ـــ أنا أذهب لأتصيد .

فقالوا له معاً :

ـــ نذهب نحن أيضاً معك .

كانت الشمس تميل إلى الغروب فامتزجت صفحة الحيرة الرمادية بألوان الأفق الأرجوانية ، فى حين هبت رياح خفيفة استجابت لها أمواج تراقصت بالسفينة التى ركبها التلاميذ الذين ألقوا الشباك فى انتظار ماتجود به البحيرة . كان القمر قد أخذ فى الصعود فى خجل وسط السحابات الشفافة ليصبغ البحيرة بلونه الفضى . لكن الشباك لم تتحرك ولم يشدها أى ثقل يوحى بأسماك داخلها .

تذكر بطرس الليلة التى قضاها بطولها فى البحيرة دون أن يصطاد سمكة واحدة ، لكن يسوع كعادته لم يتركهم لليأس بل أمره مع زملائه :

ـــ ابعد إلى العمق والقوا شباككم للصيد .

وعلى كلمة يسوع ألقى بطرس الشبكة . ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكاً كثيراً جداً فصارت شبكتهم تتخرق . فأشاروا إلى شركائهم الذين فى السفينة الأخرى أن يأتو ويساعدوهم. فأتوا وملأوا السفينتين حتى أخذتا فى الغرق . فلما رأى بطرس ذلك خر عند ركبتى يسوع قائلاً :

ـــ أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطىء .

إذ اعترته وجميع الذين معه دهشة على صيد السمك الذى أخذوه . وكذلك أيضاً يعقوب ويوحنا ابنا زبدى اللذان كانا شريكى بطرس الذى قال له يسوع :

ـــ لا تخف . من الآن تكون تصطاد الناس .

الآن يتذكر بطرس هذه الكلمات والمعانى بوضوح أشد . فلا يزال يسوع يعتمد عليهم فى اصطياد الناس إلى ملكوت السموات برغم انكاره له ثلاث مرات وهروبهم جميعاً وقت المحنة الرهيبة التى خاضها بمفرده . لكن السؤال الذى ألح على ذهن بطرس وهو يتأمل صفحة البحيرة المضيئة بنور القمر الفضى ، كان :

ـــ هل يمكن أن يكون اصطياد الناس أسهل من صيد السمك بدليل أن الفجر أوشك على البزوغ دون أن يصطادوا سمكة واحدة ؟!

وبالفعل انقضى الليل كله وبزغ الفجر بل وانبلج الصبح دون أن تهتز شبكة واحدة برغم أنهم ذهبوا إلى العمق كما أمرهم يسوع فى المرة السابقة . فقد ابتعدوا عن الشاطىء لدرجة أنهم لم يستطيعوا تبين معالمه بوضوح ، وتحول السائرون عليه إلى أشباح يصعب التعرف عليها . وقبل أن يقرر بطرس وزملاؤه العودة بوفاض خاو ، وقف يسوع على الشاطىء ، لكن التلاميذ لم يتبينوا ملامحه وهو يصيح بهم :

ـــ ألعل عندكم إداما ؟

أجابوه بأصوات ردد صداها الأفق :

ـــ لا .

عندئذ أمرهم بحزم :

ـــ ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا !

أطاعوا على الفور وألقوها فإذ بهم لم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك . فصاح يوحنا مهللا لبطرس :

ـــ هو الرب .

فلما أيقن بطرس أنه الرب اتَّزر بثوبه لأنه كان عرياناً وألقى نفسه فى البحر . وأما التلاميذ الآخرون فجاءوا بالسفينة لأنهم لم يكونوا بعيدين عن الأرض إلا نحو مئتى ذراع وهم يُجرّون شبكة السمك . فلما خرجوا من

السفينة إلى الأرض نظروا جمراً موضوعاً وسمكاً موضوعاً عليه وخبزا . عندئذ قال لهم يسوع :

ـــ قدموا من السمك الذى أمسكتم الآن .

فصعد بطرس من الماء وجذب الشبكة إلى الأرض فإذ بها ممتلئة سمكاً كبيراً مئة وثلاثاً وخمسين . ومع هذه الكثرة لم تتخرق الشبكة . عندئذ قال لهم يسوع :

ـــ هلموا تغدّوا .

فى هذه المرة أيقن الجميع أنه الرب الذى شاء أن يجمع شملهم مرة أخرى ، والذى أخذ الخبز وأعطاهم وكذلك السمك . فقد كانت هذه هى المرة الثالثة التى ظهر فيها يسوع لتلاميذه ، وتناول فيها الغداء معهم على ضفاف بحيرة طبرية . وبعد الغداء سأل يسوع بطرس قائلاً :

ـــ ياسمعان بن يونا أتحبنى أكثر من هؤلاء ؟

أجابه بسعادة غامرة :

ـــ نعم . يارب أنت تعلم أنّى أُحبك !

قال له :

ـــ ارع خرافى .

ثم سأله ثانية :

ـــ ياسمعان بن يونا أتحبنى ؟

أجابه هذه المرة بدهشة وقلق :

ـــ نعم يارب . أنت تعلم أنّى أحبك !

قال له :

ـــ ارع غنمى .

ثم سأله ثالثة :

ـــ ياسمعان بن يونا أتحبنى ؟

تحولت دهشة بطرس وقلقه إلى حزن لأنه سأله ثالثة ، فأجابه بقلب كسير :

ـــ يارب أنت تعلم كل شيء . أنت تعرف أنّى أُجبك .

أعاد يسوع نفس الكلمات :

ـــ ارع غنمى .

ثم أضاف :

ـــ الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشى حيث تشاءُ . ولكن متى شخت فإنك تُمدُّ يديك وآخر يمنطقك ويحملُكَ حيث لا تشاءُ . والآن اتبعنى .

لم يدرك بطرس لأول وهلة أن يسوع يحمله مسئولية الرسالة الإلهية . فقد جعله يعترف بايمانه وبحبه له ثلاث مرات حتى يصلح خطيئة إنكاره له ثلاث مرات ليلة الصلب . كذلك أكد يسوع له أنه غفر له خطيئته وجدد ثقته به عندما طلب منه أن يرعى خرافه ، أى تَلاميذه وسائر المؤمنين به . فقد كان بطرس جديراً بحمل الرسالة واصطياد الناس إلى ملكوت الله ، برغم كل مظاهر الضعف الإنسانى التى بدرت منه من قبل .

عندئذ قال يسوع للتلاميذ الآخرين :

ـــ سلامٌ لكم ! كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا . ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس . من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتُم خطاياه أُمسِكت .

وبعد ذلك تجمع التلاميذ عن بكرة أبيهم فى الجبل الذى كان يسوع قد عينه لهم فى الجليل ، وهناك سجدوا له عندما رأوه ، فتقدم منهم وكلمهم قائلاً :

ـــ إنى قد أعطيت كل سلطان فى السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا إذن وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا كل ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كلَّ الأيام إلى انقضاء الدهر .

وفى الافق البعيد سبحت الريح بحمد الرب ، وهللت الأفلاك لخلاص

البشرية ، وصدحت الملائكة بأنشودة الخلاص ، وفتحت السماء أحضانها اللازوردية لاحتواء الأرض ؛ وسقط إبليس إلى قاع الجحيم وسط شآبيب النيران وصواعق اللهيب ، مغلولاً فى الأصفاد ، وحديثه أنات لا تنقطع فى محاولة يائسة مستميتة لاستعادة أمجاده التى استمرأها منذ الخطيئة الأولى مع بداية الخليقة . فقد فتحت أخيراً الأبواب الدهرية ليدخل منها ملك المجد ومعه كل رعيته التى عادت من طريق الغواية والضلال ، طريق الأمانى الباطلة والشهوات الجائحة ، طريق الأوهام الكبرى وظلال الموت ، لتسير على طريق النور والحق والحياة الأبدية .

فى الأربعين يوماً التالية لقيامة المسيح مر التلاميذ بتدريبات روحية لم يدركوا هدف يسوع منها إلا بعد أن تكررت وأكدت فى النهاية على أن دورهم فى حمل الرسالة الإلهية قد حلّ ، وعليهم أن يعدوا أنفسهم لها حتى بدون الوجود البشرى ليسوع معهم على الأرض . فقد بدأ اليقين يسرى فى نفوسهم جارفاً أمامه الشك ، فى حين حلّ السلام محل الاضطراب ، والثقة محل الحيرة ، والشجاعة محل الخوف ، وذلك بعد أن غمر النور عقولهم وأرواحهم فتمكنوا من استيعاب جوهر المسيح وحقيقته الأزلية وأصبحوا مستعدين للمهمة الإلهية الأبدية .

فمنذ اللحظات الأولى بعد القيامة أسرع بطرس ويوحنا إلى القبر . وهناك رأى بطرس الأكفان موضوعة والمنديل ملفوفاً فى مكانه عند الرأس . لكنه أدرك بعد تأملات طويلة وعميقة أنه لو كان قد رأى أكفان الكتان محلولة من الجسد ومطوية وموضوعة على الحافة مثلاً ، ولو كان قد رأى المنديل فى غير موضعه الأصلى ، لما استنتج شيئاً سوى أن الجسد قد نقل من مكانه . أما وقد رأى ما رأى فإنه أيقن أن يدا لم تمتد إلى هناك . وأن الجسد قد تسلل من بين أكفانه دون ازعاجها أو حل عقدها وطياتها فضمرت وانبطحت كما هى . وأن الرأس قد انسل من المنديل وتركه كما كان ملفوفاً فى مكانه . وتأكد بطرس ، ومعه يوحنا ، أن الجسد لم ينقل وإنه قد قام دون أن تمسسه يد إنسان ، أى قام بقوة الله وحده . حتى الأطياب والحنوط الغالية الكثيرة التى سكبت بكرم وسخاء على جسد يسوع لم تسقط ، ولم يرها بطرس ولا يوحنا ، لأن الجسد قام بدون هز اللفائف ولذلك ظلت مخبوءة بين طياتها .

كذلك وقع التلاميذ فى بداية الأمر بين شقى الرحى : الشك واليقين ، عندما أخبرتهم مريم المجدلية بأنها رأت الرب عند القبر ، وأنها ارتعبت لدرجة أنها ظنته البستانى ، لكنها أيقنت عندما ناداها باسمها فعرفت صوته وأدركت هيئته . وأيضاً مر التلاميذ بنفس الحيرة والصراع الداخلى عندما أخبرتهم بعض النسوة عن رؤيتهن للملائكة عند القبر ومعرفتهن بقيامة يسوع ، وأيضاً عندما أقبل عليهم كليوباس وزميله قادمين من قرية عمواس لإخبارهم بلقائهما بيسوع .

كان التلاميذ ــ دون أن يدروا ــ يمرون بتجربة الحياة بدون وجود يسوع البشرى معهم . لكن لما تأزمت بهم الأحوال ، وساد عليهم الرعب من الأعداء والخصوم داخل أبوابهم الموصدة ، ظهر بينهم فجأة ، وتكرر هذا الموقف الإلهى أكثر من مرة كى يعتادوا ظهوره واختفاءه تمهيداً لصعوده إلى أبيه السماوى فيما بعد . وفى الوقت نفسه كان نور الإيمان واليقين يسطع فى قلوبهم وعقولهم استعداداً لتحول بطرس وزملائه إلى الصخرة التى أراد يسوع أن يبنى عليها كنيسته ، إذ قال بطرس بعد أن قضى على آخر معاقل الشك والريبة والتردد والقلق والخوف والضعف داخله :

ــ هذا أقامه الله فى اليوم الثالث وأعْطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم . لنا نحن الذين أكَلْنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات .

فلم يكن الهدف من ظهور المسيح إقناع الخوارج وإرهابهم ، إذ أن الإرهاب أبعد ما يكون عن رسالة يسوع ، بل كان الهدف ترسيخ نفوس الرجال الذين ستنهض على أكتافهم الكنيسة وتدعيم إيمانهم وترويض ذواتهم وتدريب قدراتهم ؛ والتدليل العملى على إمكان حضور يسوع بطريقة غير منظورة فى كل أنحاء العالم مدى حقب الدهر ، وعلى سد الهوة بين المنظور وغير المنظور ، وعلى العهد الجديد الذى تبدأ به البشرية حياتها النقية المجيدة الأبدية ، وعلى وضع من أوضاع الوجود لم يكن للبشر من قبل علم به ، وعلى حقيقة القيامة فى السماء .

وهكذا كان يسوع فى كل مرات الظهور : يُرى ويُعرف متى شاء وكيف شاء . يظهر فى الوسط دون أن يراه أحد قادماً . يظهر على غير انتظار ، وفجأة يختفى عن الأنظار . يرتب أن يلاقى التلاميذ فى الجليل ولكنه لا يذهب معهم . هناك يظهر بغته فى وسطهم . ويكلم توما بألفاظ تدل على أنه كان حاضراً معهم يستمع إلى كل شكوكه وهم لا يدرون . ورويداً رويداً يقوى فيهم اليقين والإيمان بحضوره غير المنظور معهم . فقد لمسوا بأنفسهم أنه لم يعد خاضعاً للضرورات البشرية ولا مقيداً بقوانين الكون . فلم يعد فى حاجة إلى الراحة التى كان يلتمسها فى بيت عنيا من قبل ، ولم يسع إلى مأوى يأويه ، أو صحبة

تسرى عنه ، بل قضى جائلاً فى العالم أربعين يوماً فى غير موطن أرضى كانوا معه من قبل أشبه بجماعة من الاخوة يتحدثون فى غير كلفة ، يجلسون معه ويوآكلونه ، حتى أن واحداً منهم يتكىء على صدره عند العشاء . أما الآن فقد تغيرت العلاقات وأصبحوا يعبدونه ويعترفون به رباً وإلهاً .

ومع مرور الأيام الأربعين ، يوماً بعد يوم ، تعلم التلاميذ بأن حبيبهم وصديقهم ومعلمهم وسيدهم هو ابن الله الأزلى المتخفى فى هيئة جسدية ، وأن هيئته المنظورة يمكن أن تكون غير ذلك لأنه يملأ الوجود كله ، بحيث يستطيع أن يكون معهم دون أن يروه ، كما يستطيعون هم أيضاً أن يكونوا معه دون أن يروه ، يكفى أنه يراهم فى الحالين ، وأن شركة روحية أبدية ستحل بينه وبينهم محل الصلة الزمنية المنظورة . ولذلك عندما علموا بقرب فراقه العتيد عنهم ، لم يجتاحهم الحزن والوحشة والشعور بأن الأرض ستصبح جحيماً مقيماً بدون وجوده البشرى معهم ، بل آمنوا بأنه موجود فى كل الوجود ، لا فرق بين حياته على الأرض أو صعوده إلى السموات . فقد ظلت كلماته المضيئة تدق أجراسها الصادحة فى آذانهم :

ــ خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم . وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب .

ففى اليوم الأربعين بعد القيامة من الأموات ، لم يرد يسوع أن يختفى عن أنظار تلاميذه ، كما اعتاد أن يختفى عنهم من قبل خلال الأربعين يوماً السابقة ، بل أرادهم أن يكونوا شهود عيان حتى يكمل ايمانهم ويقينهم بل وفرحهم ، ويصبحوا قادرين بعد ذلك على مواجهة كل الأعاصير والعواصف والزلازل والبراكين بل والموت نفسه . ففى ذلك اليوم العتيد الخالد أخذ يسوع تلاميذه إلى بيت عنيا على جبل الزيتون بالقرب من أورشليم ، وذلك بعد ما أوصى بالروح القدس الذين اختارهم ، الذين أراهم نفسه حياً ببراهين كثيرة بعد ما تألم ، وهو يظهر لهم أربعين يوماً ، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله . وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم ، بل ينتظروا موعد الآب الذى سمعوه منه ، وأكد لهم أن :

ــ يوحنا عمَّد بالماء ، وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس ، ليس بعد هذه الأيام بكثير .

أما التلاميذ فلم يستطيعوا كبت رغبتهم فى المعرفة :

ـــ يارب . هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟

أجابهم بصوته العذب الحنون الحاسم :

ـــ ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه . لكنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم ، وتكونون لى شهوداً فى أورشليم وفى كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض .

بدت السماء صافية كالبللور ، وهى تعكس أشعة الشمس التى حملت على خيوطها الذهبية الرقراقة سحابة من بخور نقى أبيض ، ظلت تتهادى فى حين رفع يسوع يديه وباركهم ، وفيما هو يباركهم افترق عنهم إذ أخذته السحابة عن أعينهم . وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق وسط هالات المجد ، ونواقيس الخلود ، وتهليل الملائكة ، وينابيع الضياء ، وأحضان السماء ، فإذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض كوميض الجليد وقالا :

ـــ أيها الرجال الجليليون . ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء ؟ إن يسوع الذى ارتفع عنكم إلى السماء سيأتى هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء .

فخروا على وجوههم وسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، إذ كان يسوع يملأ كيانهم كما يملأ الوجود كله ، وكلماته الإلهية تدق أسماعهم بنواقيس الخلود ، وتنير قلوبهم بوميض الفردوس :

ـــ هاأنذا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهور .

عاش التلاميذ أياماً كالأحلام وليال كالأطياف حتى حل عيد الأسابيع الذى يقع فى اليوم الخمسين بعد اليوم الثانى من عيد الفصح ، وقد اعتاد اليهود أن يتوافدوا من كل أرجاء المعمورة إلى أورشليم للاحتفال به . أما تلاميذ المسيح فقد هجروا كل الطقوس التى تنتمى إلى العهد القديم ، فهم أبناء العهد الجديد الذين يواصلون الصلاة معاً فى حرارة وتضرع ولجاجة فى انتظار حلول الروح القدس عليهم كما أوصاهم الرب قبل صعوده إلى السموات منذ عشرة أيام .

فى ذلك اليوم الخمسين كانوا راكعين ، ساجدين فى خشوع ، وقلوبهم وعقولهم مع يسوع تستلهمه معالم الطريق بعد أن أصبح عددهم اثنى عشر مرة أخرى . ففى الأيام العشرة الماضية وقف بطرس وسط التلاميذ والرسل الذين بلغ عددهم نحو مئة وعشرين وقال :

ــ أيها الرجال الإخوة كان ينبغى أن يتم هذا المكتوب الذى سبق الروح القدس فقاله بفم داود عن يهوذا الذى صار دليلاً للذين قبضوا على يسوع . إذ كان معدوداً بيننا وصار له نصيب فى هذه الخدمة . فإن هذا اقتنى حقلاً من أُجْرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها . وصار ذلك معلومًا عند جميع سكان أُورشليم حتى دُعِي ذلك الحقل : حقل دَمًا . لأنه مكتوبٌ فى سفر المزامير : لتصر داره خراباً ولا يكن فيها ساكن ، وليأخذ وظيفته آخر . فينبغى أنَّ الرجالَ الذين اجتمعوا معنا كلَّ الزمان الذى فيه دخل إلينا الربُ يسوعُ وخرج منذ معمودية يوحنّا إلى اليوم الذى ارتفع فيه عنا يصير واحدٌ منهم شاهداً معنا بقيامته .

وعندما انتهى بطرس من كلمته التى ألقاها أمام العلية التى اعتادوا التجمع فيها منذ صعود الرب ، أقاموا اثنين : يوسف الذى يدعى برسابا الملقب يوستس ومتياس . وصلوا قائلين :

ــ أيها الربُّ العارف قلوب الجميع . عيِّن أنت من هذين الاثنين أيًّا اخترته . ليأخذ قرعة هذه الخدمة والرسالة التى تعدّاها يهوذا ليذهب إلى مكانه .

. ثم ألقوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس ، فحِسبَ مع الأحد عشر تلميذاً . وكان فرحه لا يوصف بهذا الشرف الذى لم يكن يحلم به فى يوم من الأيام . وها هو فى اليوم الخمسين يصلى مع بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس وفيلبس وتوما وبرثولماوس ومتى ويعقوب بن حلفى وسمعان الغيور ويهوذا أخو يعقوب وأيضاً مريم أم يسوع . فقد كان هؤلاء جميعاً يواظبون على الصلاة بنفس واحدة فى تلك العلية الصغيرة المحببة إلى قلوبهم . وصار بغتة من السماء صوتٌ كما من هبوب ريح عاصفة ، وملأ كلَّ البيت حيث كانوا جالسين . وظهرت لهم ألسنةٌ منقسمةٌ كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم . وامتلأ الجميعُ من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا .

خرجوا إلى الحجاج القادمين من كل فجاج الأرض لحضور عيد الأسابيع فى أورشليم ، فإذ بالحجاج يتحيرون لأن كل واحد كان يسمع التلاميذ يتكلمون بلغته . ولما تأكدوا مما يجرى تعجبوا وبهتوا قائلين بعضهم لبعض :

ــ أترى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين ؟! فكيف نسمع نحن كلُّ واحد منا لغته التى ولد فيها ؟! فبيننا فرتيون وماديون وعيلاميون ، والساكنون ما بين النهرين واليهودية ، وكبدوكية وبنتس ، وآسيا وفريجية ، وبمفيلّية ومصر ، ونواحى ليبية التى نحو القيروان ، والرومانيون المستوطنون يهودٌ ودخلاء ، كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله .

اتسعت دوامات الحيرة لتحتوى الجميع بالشك والريبة والدهشة والذهول بحيث تساءلوا دون إجابة شافية :

ــ ما عسى أن يكون هذا ؟!

فى حين هرب البعض الآخر من ذهولهم بعدم التصديق والاستهزاء قائلين عن التلاميذ :

ــ لقد لعبت الخمر بعقولهم فأصبحوا يتفوهون بما لا يعرفون !!

لكن بطرس الذى أصبح إنساناً جديداً ، بل وقائدا يمكن أن يغير اتجاه الجماهير بقوة منطقه وقدرته على التأثير دون أن يتلعثم أو يتردد أو يرتعش له جفن ؛ وقف كالطود الشامخ مع الأحد عشر ورفع صوته الذى جلجل

فعشش الصمت على رؤوس الحاضرين :

ــ أيها الرجال اليهود والساكنون فى أورشليم أجمعون . ليكن هذا معلوماً عندكم وأصغوا إلى كلامى . لأن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنون . لأنها الساعة الثالثة من النهار . بل هذا ما قيل بيوئيل النبى . يقول الله : ويكون فى الأيام الأخيرة أنى أسكُبُ من روحى على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ، ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً . وعلى عبيدى أيضاً وإمائى أسكب من روحى فى تلك الأيام فيتنبأون وأُعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات على الأرض من أسفل دماً وناراً وبخار دُخان . تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم قبل أن يجىء يومُ الرب العظيم الشهير . ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص .

ذهل بعض من كانوا يعرفون بطرس من الواقفين وتساءلوا بنظرات صامتة :

ــ هل هذا هو الصياد الخائف المتردد ؟!

ــ من أين أتى بكل هذا العلم ؟!

ــ هل هجر اصطياد السمك ليجعل من نفسه زعيما دينياً ؟!

ــ من أين له بهذه القوة ؟! إنه يكاد يتكلم كمعلمه وسيده !!

لكن النظرات الصامتة لم تتحول إلى عبارات ناطقة إذ أصبح بطرس سيداً للموقف ولمشاعر المستمعين :

ــ أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال . يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون . هذا أخذتموه مُسَلَّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه . الذى أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكنا أن يُمسَك منه . لأن داود يقول فيه : كنت أرى الرب أمامى فى كل حين أنه عن يمينى لكى لا أتزعزع . لذلك سُرَّ قلبى وتهلل لسانى ، حتى جسدى أيضاً سيسكنُ على رجاء . لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية ولا تدع قُدوسَكَ يرى فساداً . عرفتنى سبل الحياة وستملأنى سروراً مع وجهك .

نفذت كلمات بطرس فى قلوب السامعين المعتمة فأضاءتها كخيوط الفجر عندما تغزو ظلمة الليل الطويل . تكاثر عددهم حتى بلغوا نحو ثلاثة آلاف نفس ، لكن صوت بطرس كان يرن فى قلب وعقل كل منهم كما لو كان

حديثاً خاصاً له . كانوا مبهورين لتلك القوة المتدفقة من كلماته كأنها أفعال ملموسة ، وللتلاميذ الذين وقفوا شامخين إلى جواره وكأنهم قادة جيوش على وشك أن تبدأ زحفها المقدس ، وهم الذين كانوا قد اختفوا عن العيون خوفاً ورعباً منذ المحاكمات التى أدت بمعلمهم وسيدهم إلى خشبة الصليب ، لابد أن شيئاً إلهياً قد حدث لهؤلاء الرجال فمنحهم هذا الشموخ والثبات والحكمة ! كان هذا هو الخاطر الذى جاش بمعظم السامعين وهم ينتصتون إلى ينبوع النعمة المتدفق من بين شفتى بطرس :

ـــ أيها الرجال الاخوة يسوغ أن يُقَال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود إنه مات ودُفِنَ وقبره عندنا حتى هذا اليوم . فإذ كان نبيًّا وعلم أن الله حلف له بقسم إنه من ثمرة صُلبه يُقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه ، سبق فرأى وتكلم عن قيامة المسيح إنه لم تُترك نفسُهُ فى الهاوية ولا رأى جَسَدُهُ فساداً . فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعاً شهودٌ لذلك ، وإذ ارتفع بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب . سكب هذا الذى أنتم الآن تُبْصرونه وتسمعونه . لأن داود لم يصعد إلى السموات . وهو نفسُه يقولُ : قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءَك موطئا لقدميك . فليعلم يقينا جميع بيت إسرائيل أنَّ الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتم ربًّا ومسيحًا .

كانت الشمس ساطعة تكاد تتوغل بسخونتها إلى داخل الرؤوس التى أصبحت أسيرة كلمات بطرس ، وتخترق القلوب بنورها المبهر ولسعات الندم لصلبهم الفادى الذى جاء من أجل خلاصهم . لهجت الألسنة دون تردد تسأل بطرس وسائر التلاميذ :

ـــ ماذا نصنع أيها الرجال الأخوة ؟!

أجابهم بطرس بكلمات كحقائق الكون وقوانينه :

ـــ توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا ، فتقبلوا عطية الروح القدس . لأن الموعد هو لكم ولأولادكم ولكل الذين على بُعْدٍ ، كُلِ من يدعوه الربُّ إلهنا .

وفاضت ينابيع الحكمة والنعمة من فم بطرس الذى ترك الروح القدس

يتحدث على لسانه ساعات طويلة حتى ختم خطابه الإلهى :

ــ اخلصوا من هذا الجيل الملتوى .

سرت نشوة من الفرح العجيب بين السامعين ، وإذ بهم يتقدمون إلى بطرس وزملائه ليعتمدوا . وكان لهؤلاء الثلاثة آلاف شرف أن يصيروا طليعة الحاملين لاسم يسوع المسيح .

وتدفقت ينابيع الملحمة الإلهية وغمرت المسيحيين الذين واظبوا على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات . وصار خوف فى كل نفس . وكانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدى الرسل . وجميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً . والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج . وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة . وإذ هم يكسرون الخبز فى البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله ، ولهم نعمة لدى جميع الشعوب . وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون . هكذا كانت كلمة الرب تنمو وتقوى بشدة برغم الأعاصير التى كشرت عن أنيابها السوداء فى محاولة متجددة لافتراسها . لكن عجلة الزمن قد دارت دورتها ، وتم الفداء والخلاص على عود الصليب ، وقامت البشرية كلها من سقطتها ، عند بدء الخليقة ، مع يسوع المسيح الذى قام من الأموات ، وسوف تصعد معه إلى السموات كما سبقها إليها من قبل ، فهو راعيها ومعلمها ورائدها وسيدها وفاديها ومخلصها وربها وإلهها .

وكانت كلمات يسوع المضيئة تتردد بايقاعاتها الإلهية فى أذهان وقلوب التلاميذ والرسل كلما توغلوا فى نيران المحن ، وخاضوا بحار الأهوال من أجل رفع اسمه ونشر آياته :

ــ من لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى . من وجد حياته يضيعها . ومن أضاع حياته من أجلى يجدها .

ــ أنا هو لا تخافوا .

سيسلمونكم إلى مجالس وتجلدون فى مجامع ، وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم . وينبغى أن يكرز أولاً بالإنجيل فى جميع الأمم . فمتى

ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا . بل مهما أُعطيتم فى تلك الساعة فبذلك تكلَّموا . لأن لستم أنتم المتكلمين بل الروح القدس .

كما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية .

ـــ من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة .

ـــ أنا هو خبز الحياة . من يقبل إلى فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً .

ـــ كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير .

ـــ أنا هو الراعى الصالح . والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف .

ـــ أنا هو القيامة والحياة . من آمن بى ولو مات فسيحيا .

ـــ ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر .

وكانت هذه هى بداية الملحمة الإلهية التى تدفقت من ينابيع الأزل لتمتد بأنهارها الحية وجداولها المنهمرة بمياه النعمة والفداء والخلاص إلى أبد الآبدين .

وهكذا كانت البداية

في القرن الرابع عشر كتب الشاعر الايطالى دانتى «الكوميديا الالهية» وفى القرن السابع عشر كتب جون ملتون ملحمة «الفردوس المفقود

ويسر دار الثقافة أن تصدر فى القرن العشرين الملحمة الالهية للدكتور نبيل راغب.



* عميد المعهد العالى للنقد الفنى

* أستاذ النقد بأكاديمية الفنون

* عمل مستشارا ثقافيا وصحفيا واعلاميا للسيد رئيس الجمهورية (١٩٧٥ - ١٩٨١)

* أمين لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة (١٩٧٨ - ١٩٨١)

* له أكثر من خمسين مؤلفا فى الدراسات النقدية والاجتماعية والفنية، من هذه المؤلفات عشرون رواية طويلة تحول بعضها إلى أفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية.